

إدوار الخراط

طريق النشر

رواية



طريق النسر
رواية



- مركز الحضارة العربية مؤسسة ثقافية مستقلة ،
تسهدف المشاركة في استنهاض وتأكيد الانتماء
والوعي القومي العربي، في إطار المشروع
الحضاري العربي المستقل .
- يتطلع مركز الحضارة العربية إلى التعاون والتبادل
الثقافي والعلمي مع مختلف المؤسسات الثقافية
والعلمية ومراكز البحث والدراسات ، والتفاعل
مع كل الرؤى والاجتهادات المختلفة
- يسمي المركز من أجل تشجيع إنتاج المفكرين
والباحثين والكتاب العرب ، ونشره وتوزيعه .
- يرحب المركز بأية اقتراحات أو مساهمات إيجابية
تساعد على تحقيق أهدافه .
- الآراء الواردة بالإصدارات تعبر عن آراء كاتبها ،
ولا تعبر بالضرورة عن آراء أو الجهات يبنها
مركز الحضارة العربية .

رئيس المركز

علي عبد الحميد

مدير المركز

محمود عبد الحميد

مركز الحضارة العربية

4 ش العلمين - عمارات الأوقاف

ميدان الكيت كات - القاهرة

ت : ٣٤٤٨٣٦٨ ، ف : ٣١٤٨٠٤٢

ادوار الخراط

طريق النسر

رواية



الكتاب : طريق النسب
رواية

الكاتب : إدوار الخراط

الناشر : مركز الحضارة العربية

الطبعة العربية الأولى : القاهرة ٢٠٠٢

رقم الإيداع : ٢٠٠٢ / ٣٠١٦

الترقيم الدولي، 4-367-291-977-I.S.B.N.

لوحة الغلاف : الفنان سامي علي
جرافيك : ناهد عبد الفتاح

الجمع والصف الإلكتروني :

وحدة الكمبيوتر بالمركز

تنفيذ : سيد حسوزاوي

تصحيح : زكريا منتصر

أربعة لا أعرفها:

طريق نسر في السماوات ،

وطريق حية على صخر ،

وطريق سفينة في قلب البحر ،

وطريق رجل بفتاة ،

كذلك طريق المرأة الزانية أكلت ومسحت فمها ،

وقالت : ما عملتُ إلماً ،

التوراة - أمثال

٢٠ - ١٨ / ٣٠

الفصل الأول

كنت أعرف أنهم سيأتون
سيأتون الليلة، بلا شك
ولكن ماذا أفعل؟

ليس بوسعي أن أدبر طريقة للهرب، أو حتى أن أقضى الليلة عند
صديق مأمون الجانب، وغير معروف لهم. لم أكن قد أعددت العدة
للاختفاء فترة لا أعرف مداها، لا يمكن أن تكون يومين، ثلاثة، بل قد
تطول أسابيع أو شهوراً، وربما سنوات، من يدري؟ في كل الأحوال
كيف يمكن لأمي وأخواتي أن يدبرن أمر حياتهن - ولا عائل لهن غيري
ولا مورد عندنا غير مرتبي. ثم إن حلقنا الثورية الصغيرة فقيرة إلى
حدّ العدم، كنا نجمع نقودنا النزرة من بعضنا بعضاً ولا نكاد نلّم الجنيه
على بعضه، فكيف يمكن أن أسير أمر اختفاءٍ طويل؟ أو خروج من
البلد؟ أو - حتى - تغيير مقر إقامتي؟

هذه كلها فروض مستحيلة

لا مفرّ إذن

سيأتون ويأخذونني - لا بأس، لعل هذا أقلّ ثمن ممكن.
ومع ذلك فقد لا يأتون في النهاية. قد تكون كل هذه الاحتمالات
غير واردة على الإطلاق، ما يدريني أنهم يعرفون من أنا - حتى - ماذا
أفعل، وأين أقيم؟

ما يدريني أنهم وضعوني حقاً على القائمة؟

قد لا يحدث شيء.

على سبيل الاحتياط البحث، «نظفت» مكتبتى الصغيرة، وغرقتى،
وبيتى كله، من أى شىء قد يرون فيه ما يؤيد شكوكهم، إن كان ثمت،
أو ما قد يشكل أدلة اتهام ممكن. بل أكثر، لم أعد مثلاً حقيبة صغيرة
فيها خيارات، وعدة الحلاقة، وبيجاما أو جلابية، كما كان المفروض أن
أفعل، وكما اعتدت أن أفعل كثيراً فيما بعد.

بهذه القدرية، أو مغالبة القدرية، التى لعلها تنافى تماماً مع بُعد
النظر، والحصافة الثورية، أويت إلى سريرى بعد منتصف الليل بقليل،
جذبت البطانية الخفيفة على، وغلبنى النوم.

استغرقت فعلاً فى نوم عميق، هل هو نوم العادلين أم نوم المحكوم
عليهم بلا تقصير ولا استثناء ولا تعديل للأحكام؟

كنت أخذت ترام المكس بعد الظهر، كان الحر قد هل علينا، وهواء
البحر يهب، رائحة المدابغ الجافة اللاذعة المنتنة تفعم الحس، فى جيب
جماكتى الزرقاء الطويلة صفحتان يخطى الصغير المنمنم جداً فى تصور
حار السذاجة وخالص النقاء عن حل مسألة فلسطين والدولة الديمقراطية
العلمانية المستقلة، دولة فى طريقها إلى اللادولة، إلى مجتمع لا طبقي
ليس فيه حاكم ولا محكوم، بل لجان حرة مترابطة بفعل واقع الحب
والمصلحة معاً، موحدة، غير منقسمة، ليس فيها استغلال ولا تدخل
استعماري من القوى الإمبريالية، لا تُفيد منها الستالينية العالمية ولا
تدعمها عن طريق معلن أو خفية، فى صراعها مع الهيمنة الأمريكية
الصاعدة، ليس فيها تفرقة ولا تمييز بين مسلم ويهودى ومسيحى، كلهم
سواء، دولة على أية حال فى طريقها للزوال والاندثار- بالتآزر مع نظم
أمية جديدة بفعل زوال ضرورات القمع الطبقي.

هكذا كتبت.

أحقا كنت على هذا القدر المستحوذ من الإيمان المحرق؟ بصفاء قلوب
الناس، وما يكاد يقربهم من الألوهية دون «استخدام» لألفاظ مطلقة؟

بل بمفردات ومصطلحات المادية التاريخية والصراع الطبقي، في مواجهة حيل الدول الكبرى المنتصرة بصلافة لا تُطاق، تلك القوى العارمة الطاغية الخارجة لتوها من غمار حربٍ مدمّرة، تتقاسم العالم على هواها، في يالتا أو واشنطن أو الفيوم، وتتصارع على أشلائه؟
نزلت في آخر السكة، عبرت قضبان القطارات، ألقيت نظرة سريعة على الإعلان المكتوب بخط ثلث أبيض باهت «ثابت ثابت وشركاه»، نترات الشيلي الأصلية»، على أرضيته الخشبية السوداء المشققة قليلاً بفعل هواء البحر المالح.

هبطت على دُحْديرة وعرة قليلاً من الرمل الجاف والحصى ونفايات جافة ثم ارتقيت عبر مرتفع مدكوك إلى كومة من البيوت الصغيرة الضيقة المتلاصقة، بينها ممرات ملتوية موحلة بمياه عكرة لها رائحة آسنة يلعب فيها الأطفال الصبيان والبنات حفاةً شبه عراة بجلاليهم التي لا لون لها، واضح أنها تقريباً على اللحم، تقف على مبعدة قليلة منهم، بلا حراك، بنت لعلها في السادسة أو السابعة، في قدميها حذاء أسود لميع ناصع له مقدمة مدورة على شراب أبيض صغير، ترقيهم بعينين لامعتين، أمها ضفرت لها ضفيرتين تتدليان على ظهر فستانها المشجرّ التنظيف النازل توأً من على حبل الغسيل، لا يمنعها عن النزول معهم إلا الشديد القوى.

سلكتُ الطريق الذي أعرفه معرفة وثيقة إلى بيت سلامة البشلاوي من خلال المتاهة المتشابكة من الأزقة الأنيسة المرحبة - على كل خصاصتها - شبابيكها الصغيرة المعمولة مقارولة بأيدي ساكنيها، تطلّ منها زوجاتهم المرهقات: الشعر منكوش ملفوف تحت المدورة الزرقاء القديمة، لكن الصوت الحيّاني عالٍ وإن كانت فيه بحة من الصريخ طول النهار في العيال المعجونين بمية العفاريت.
- أهلاً يا زميل. الحنة نورّت.

كانت عايذة تقف على الباب المواجه لبيت سلامة.
تراخى جسمها المشدود عادة، واتقدت عيناها بنور خاص لا يبعث
على راحة بل كان دائماً يثير عندي قلقاً.
اللمعة الحارة التي كنت أتوق بلهفة مكتومة أن أراها تشتعل في
عيني زينب إذ تنظر إليّ، هي التي أراها هنا، وترضيني، أو ترضي عندي
غروراً ذكورياً أو لعله اعتزاز بأننى موضع وهدف هذه الاندفاع من
زميلة مرموقة لها دورها في الحركة النقابية وهي في الوقت نفسه امرأة
فيها جاذبية لا نكران لها وأنثوية تتوهج من هذا الجسد القليل البض
المتوفز، ومن سمرة عميقة أسيلة في القسمات الحارة المسممة مع
قوتها.

- اسم الله عليك يا زميل، نظبطوا عليك الساعة.. ١
ومع ذلك فهل كان في العبارة الجارية المبذولة باسم الله ما يتنافى مع
ما علمته إياها، ساعات طوالاً وبالتدريج على هيئة ومهل، من دروس
«المادية الجدلية»؟

أكملت، كأثما على مضض:

- سلامة بقى له مدة قاعد على الباب مستنيك.
خطر بذهنى خطفاً أن عايذة فيها صلابة وقوة خاصة، هذه العاملة
القديمة في فاوريكة كرموز للغزل والنسيج، اشتغلت وهي في الثالثة
عشرة أو نحوها - مثل الكثيرات - بجمع القطن السكرته من تحت
الأنوال، حتى وصلت رئيسة وردية. عرفت أنها كانت شغوفاً بقراءة
«روايات الجيب» ومجلات «الاثنين وكل شيء» و«الكواكب» وتعرف
شيئاً من التاريخ.

عايذة زميلة جمالات التي أحببت أختها منى حياً طفولياً منذ سنوات
عندما كنا نسكن حارة الجلنار، وأترجم أشعار شيلي وكيثس وأنسخ
ترجمات لأشعار طاغور وبودلير - كيف أمكننى الجمع بينهما؟ - على

شرائح ورق مستطيلة أقتطعها من كراسات المدرسة العباسية الثانوية .
سمعت من جمالات عن أسطى وردية البنات فى الفاورىكة . اسمها
عايدة تقرأ كثيراً وتدعو إلى إنشاء نقابة حرة للعمال والعاملات .
فأقنعت جمالات أن تدعوها لمقابلتى فى بيت خالى سورىال . فقد كان
مينا ابن خالى سورىال زميلاً لهما فى الفاورىكة .

عندما التقينا فى «غرفة الضيوف» فى البيت الذى كان يقع فى حارة
وراء كركون غيط العنب مباشرة ، كانت الغرفة حارة وتفوح من كراسى
الطقم المنجدة بقماش قطيفة مشجرة رائحة تراب قديم .
انبثقت بيننا صداقة فورية - مما يحدث لى نادراً - دون مقدمات
وتوطد بيننا نوع من الألفة والحنان لا مبرر له ، ربما ، إلا حس من جانبى
بالأمن والونس معها .

سرعان ما عرفتنى عايدة بزىنب . أدهشنى قليلاً أن زىنب مشقفة
قرأت كتب عبد الرحمن الرافعى وسلامة موسى ، كانت نقابية مرموقة
يحسب لها حساب فى المصنع ، واشتراكية بالمنزع قبل أن تكون
اشتراكية بالتعقل والمنطق ، وبعد أسابيع قلائل كانت حلقتنا الصغيرة -
أو ما كنا نسميه «خلية» - تتكون من عايدة وزىنب وقاسم إسحاق وأنا .
وقع قاسم فى حب زىنب على الفور ، حباً يتجاوز انجذابه المتكرر
للنساء ويتجاوز المشتهى الجنسى ، وإن كان ذلك يكمن فيه . ولعل
وجهها الذى يبدو كأنه شمال فرعونى مستقيم الخطوط ، وعينيها
النفاذتين النجلاوين اللتين تتناقض خضرتهما المتألقة مع بشرتها الداكنة
السمرية ، إلى جانب حيوية جارفة ، أسهمت كلها فى أن يعرف قاسم -
ربما لأول مرة - معنى الحب وسطوته .

هل كنت أكن لها - دون أن أعترف بذلك لنفسى لحظة واحدة - حباً
عميقاً؟

كانت الشمس قد أوشكت على المغيب ، سحابات رمادية ممزقة

ومشعثة تنزلق على صفحة السماء التي أخذت تتضرج بالاحمرار
المشتعل، وفي العلوّ الشاهق بين أطراف السحب، طائر وحيد عريض
الجناحين، ينساب ببطء على موج السماء الساجي.

كان سلامة طويلاً ناحلاً وقوى الوجه، وفي بشرته التي لوحتها
الشمس آثار جدري قديم، ثم كومة صلبة من الشعر الأجعد تكاد تنبثق
مباشرة فوق عينيه، من على جبهة ضيقة مدوّرة وعنيدة، وهو يقف
يرحب بي بحركة مفاجئة مشحونة بطاقة الاحتفاء.

تطايرت حول ساقيه دجاجات كانت تنقر الأرض المغروزة بحبات
متناثرة من الذرة والغلة والحلبة، بينما الديك الفخور بعرفه الأحمر
ينطلق فجأة بأذان عالٍ من فوق الفرن الفلاحي المطفأ المعمول في حوش
البيت الصغير، عندما كنا نعبّر الحوش أحسست بسخونة تفرج من
كانون صغير جنب الحائط، وسمعت زقاع ديكٍ آخر، من بعيد، يردّ على
أذان الديك الفخور.

سلامة يسبقني بخطوة ويتحنح ويرفع ذيل جلابيته الكستور
المقلّم، من بلل الأرض، يرفع صوته: اتفضل.. اتفضل يا يوسف
أفندي.. دستور يا أهل الدار.

قلتُ معاتباً من غير مرح حقيقي: دستور إيه يا سلامة؟ دستور ٢٣
ولاً دستور الثورة؟

نظر إليّ جاداً، لم يعجبه اللعب على الكلمات.

قبل أن ندخل الحوش معاً، لم تفتني نظرة سلامة إلى عابدة، نظرة
حبٍ وامقة ولكن صارمة، بخشونة ظلّ يحتفظ بها، كأنما يعتز، دون
إدراك واضح، بأنه يظلّ فلاحاً ابن فلاح مهما كان عمله في مصنع الغزل
والنسيج في كرموز قد استغرق منه سنوات الصبا والشباب الباكر. قال
لي إنه ترك قريته في عزبة خورشيد عندما كان عمره عشرة أو إحدى

عشرة سنة واشتغل فى الفاوريكه، صبيًا على النول، كان ينام عند أحد بلدياته من أسطوات المصنع، على الأرض، حتى استطاع أن يوفّر قرشين من لحمه الحى، وجاء بأمه وأخواته البنات الثلاثة إلى هذا البيت الذى بناه بنفسه طوية طوية على أرض خراب، وكان عندئذ يسافر كل يوم من المكس إلى كرموز والعودة، لكنه - أقله - لا يدفع أجره سكن، وكفاية عليه تكاليف كومبانيّة النور ووابور الميّة، تنكسر شهراً ويدفع شهرين وأهى ماشية.

عندما دخلنا الفسحة - أو الصالة الصغيرة الوحيدة الصالحة للاستقبال والقعاد التى طالما حدثت فيها عن الثورة الدائمة ومبادئها وأهدافها - اتخذنا قعدتنا، برصانة وإحساسٍ بالثقل ووطأة الأحوال، على الكنبه المغطاة بكليم معمول من بقايا قطع قماش متعددة الألوان متباينة النسيج.

كان قاسم إسحاق قد قال لى، بنوع من الفرح والإحساس بالزهو، إن طالباً بكلية الزراعة له اهتمام بالفلسفة اسمه عبد الفتاح خلف الله سمع بأننا نعمل فى الحركة الوطنية الثورية، ليس فقط تحت شعار الاشتراكية ومناهضة الاستعمار والاستغلال بل إننا نصرّ على أن تكون الحرية، حرية الفرد وحرية المجتمع معاً، هى القرين الحتمى للعدل، وإن ذلك قد استهواه جداً، وإنه طلب أن يلتقى بنا.

قال لى قاسم إسحاق:

- ياعم أنت أساساً مهتمّ بالفلسفة والأدب وأشياء من هذا النوع، هل تحب أن تلقاه؟

فقلت، مستشرفاً لقاءات حامية أن نعم بالتأكيد، وضرب لى موعداً فى قهوة الأكتع المزدحمة العالية أمام محطة مصر. ومن اللحظة الأولى بهرتنى فيه وداعة تبطن حرارة عقلية وتفتحاً

روحياً، كان أكبر منى بسنوات قلائل، في نظرتة نضارة منعشة، ولم أجد عنده من يومها وحتى الآن، أدنى صلفٍ أو ادعاء، عرفت أنه ابن تاجر مَوَاشٍ مستور، يعنى على قدر من اليسار، من بلدة قريبة بجوار كفر الدوَّار، وأن له أخوين أصغر منه أحدهما في كلية الطب والآخر في المعهد الدينى، سوف تتوثق بيننا صداقة حقيقية باقية عبر تقلبات الزمن، أما يومها فقد دعانى إلى تذوق المهلبية بالمكسرات التى يقدمها فى محلّ للألبان ومشتقاتها فى شارع محرم بيده، التقيت بعد ذلك بأيام، بسلامة فى هذا المحلّ الذى كان واسعاً ونظيفاً جداً وحسن الإضاءة، أرضيته من البلاط المربعات الأبيض والأسود، له واجهة زجاجية عريضة على الشارع، من ورائها فترينة وضعت فيها برطمانات العسل الفلاحى الأصلى يطفو فيه الشَّهْد الشمعى الأبيض وسط سلطانيات الزبادى المستدير من الفخار بلونها البنى المحروق، طعمها لذيذ خاص، بخيرها، فوقها طبقة سميكة من القشدة، وأطباق المهلبية، والرَّزْبَالِدين، والهريسة الإسكندراني، يغير ما تبقى منها كل يوم، فلم تكن الشلاجات الكهربائية العريضة شائعة عندئذ. وراقنى جداً أنه يمنحها بلا مقابل وفى كتمان إلى عائلات رقيقة الحال مستكنة فى الحياء الماثور عن أدنى درجات الطبقة الوسطى.

توالت لقاءاتنا فى محلّ الألبان الذى كان يفتحه عبد الفتاح فى ساعات الفجر الأولى ليتلقى اللبن الطازج الوارد من الفلاحين على عربات الكارو، فى الأسطال المعدنية الكبيرة، ويتلقى رزقه من ورديات العمال الراجعة من ورش السكة الحديد أو الذهابة إلى كدحها الصباحى الباكر فى فبارك كرموز.

كان النور الكهربائى ينعكس للأوّه على الواجهة الزجاجية الناصعة والموائد المستديرة، مغطاةً بطبقة لامعة من النحاس الأصفر المطروق، مرصوة بنظام إلى جانب قيشانى الحائط الأبيض.

كنت في ذلك الفجر - هل كانت الساعة الرابعة أو الخامسة صباحاً؟
- مستغرقاً معه في حديثٍ مضطربٍ عن معنى العدالة وأنه لا قيمة لهذا
المعنى من غير حرية الإنسان - كل إنسان - بينما كان يردّ على بأن
الحرية محكومة بقوانينٍ وضعية وقوانينٍ إلهية معاً، ومشروطة بأوضاع
مادية واجتماعية لا فكاك منها، فأجيب - مثلاً - بأن تروق الإنسان
للحرية يتخطى كل حدود المواصفات الاجتماعية والميتافيزيقية.
وانتبهت فإذا هذا الرجل الطويل ريفي المظهر في جلابيته الكستور
المقلم المقورة من غير ياقة افرنجي يقف بإزائنا ويصغى باهتمام بل بما هو
أكثر من الاهتمام. كأنه مفتون أو مأخوذ أو مسحور بما لعله كان يدور
في داخله دون أن يدركه أو دون أن يعطيه صوتاً وصيغة.

وبنوعٍ من اندفاع جراءة لا يملك أن يكبحها، مع خجل أو حرج من لا
يعرف كيف يتكلم مع أفندية مشقفين، سأل: لكن يا أستاذ هو الإنسان
مخير أم مسير؟ حرّ أم مجبر؟ ربنا أعطانا العقل لكي نختار، أي نعم،
لكنه فرض علينا إرادته لأن كل شيء يجري بعلمه، يعني هو عارف
الواحد حيختار إيه، يبجي الإنسان مخير إزاي؟

وهكذا وضع سلامة - سألته عن اسمه - القضية التي حيرت كثيراً
من الفلاسفة ورجال الفقه وعلم الأصول، وعندما سألته عن عمله قال
إنه جاء من الفلاحين واشتغل في فاوريكة الغزل والنسيج في كرموز،
تعلم الصنعة على يد أسطوات كبار، وعلم نفسه القراءة والكتابة،
ودخل النقابة، وكان نشطاً في المطالبة بحقوق العمال في الإجازات
مدفوعة الأجر وفي التأمين الصحي ومكافآت نهاية الخدمة ويوم العمل
ست ساعات بدلاً من وردية الثماني ساعات، وبعد إضراب ٥ مارس
طردوه من الفاوريكة، أعطوه أجر أسبوعين وقالوا له: «رح رزقك على
الله، عشان تبقوا تعلقوا صوتكم على أسيادكم»، الفلاح لما يتنجر يجيب
لنفسه وأهله مصيبة. وهكذا وجد سلامة نفسه على الرصيف، بعد أن

بنى بيتاً فى أرض خرابة المكس، كان يسدد ثمن الطوب والأسمنت واللوازم من أجرته الأسبوعية التى انقطعت فجأة، وهو الآن يكسب لقمته - هو وأمه ولا مؤاخذه أخواته البنات - كيفما استطاع، يوماً بيوم، مرة عند نجار دق، ومرة فى اصطبل حناطير، ومرة عند ميكانيكية العربات فى شارع الخديوى ومرة عتلاً فى المينا، ولم يقل - عن حياءٍ ريفى راسخ - إنه يبيت هو وأمه وأخواته مرة متعشين ومرة من غير عشاء.

كنت أفرد له ساعتين صباحاً، من الساعة السادسة حتى الثامنة، يوم نعم ويوم لأ - كيف كنت أجد الطاقة والجهد؟ - لجلس معاً فى آخر محل الألبان وقد هدأت حركة البيع فى هذا الوقت من الصباح. أقنعتة بما كنت أؤمن به إيماناً عميقاً - ربما حتى الآن - أن الملكية سرقة أو ثمرة مسمومة لسرقة، وأنها غير مبررة بحال وغير مشروعة. كم تبدو هذه العقيدة الآن غريبة، إما مضحكة إلى حد ما، وإما جنونية، ومع ذلك فكم هى راسخة فى وجدانى، عميقة ولا عقلانية ربما ولكنها حتمية الصحة والدقة.

كنت ألقنه - كما لو كنت ألقن نفسى - أن العدالة صنو الحرية وقربنها ولا انفصال ممكناً بين تحرر أرض الوطن وتحرر الوطن من لوثة الاستغلال، وبينهما وتحرر النفس من لوثة خزعبلات النصوص القديمة. كنت أحس أن هذا الشاب الفلاح طويل القامة خشن العود، الذى لعله يكبرنى بسنتين أو ثلاث، كأنما هو بمثابة ابن لى أحببته كثيراً وأخلص لى الود والإكبار. فلماذا تركته يتصور أنى أنازعه حبه عابدة؟ بينما أنا أصغو بالهوى المكتوم غير المعترف به لغيرها؟ لماذا تركته يتخيل أن ثم صراعاً بين ذكرين على أنشى؟ وعلى الفور سخرت من الفكرة بل رفضتها. فهل كان ذلك لأننى ظننت فى صفى أنى مثقف وقيادى وغير مدله

بحبها، لكن هاملتى فى العمق، وفى صفه أنه قوى الرجولة مستقيم
واضح وكامن العنف ومثير؟

فى ذلك اليوم، ١٥ مايو ١٩٤٨، بعد أن رجعت من المكس الساعة
السابعة بالضبط، كان ميعادى مع عايده التى أصرت عليه بإلحاح
نهائى، كأنما كانت تحدى بغموض أننا لن نلتقى أبداً بعدها، عند باب
محطة مصر على أول شارع محرم بيه.

جئت متأخراً قليلاً، رأيتها واقفة على الباب الحديدى الصغير، هى
نفسها، صغيرة، أنيقة أنيقة بنات البلد المعتادة: بلوزة من قماش
البراشوت الحريرى من مخازن البحرية البريطانية كنت قد أهديتها إياه
وصبغته أصفر، فصلته وخيطته على مقاسها، البلوزة محبوكة على
صدرها لا تكاد تشفى عن القميص الداخلى بحمالاته الرفيعة جداً،
شريطين حريريين من شرائط البراشوت نفسها، كانت قد صبغت
شفتيها اللحيمتين بروج فان عميق وكحلت عينيها السوداوين -
نهائيتى السواد - بشرطة فرعونية نازلة قليلاً على أعلى الوجنتين،
زوقت نفسها كما لم أرها من قبل، وسحرنى زواقها وهزتنى دلالتة،
كانت اليوم لا ترضى على نفسها، لا بجسمها المدور المشوق فقط، بل
بكل ما هى: جسدانيتها وثورتها، صلابتها فى يقينها الوطنى
والعمالى ولدونتها فى حبها واستسلامها الذى لم يكن تسليماً بل هبة،
ولم يكن خضوعاً بل تأكيداً للندية.

وللمرة الأولى والأخيرة أخذتها إلى غرفة شارع الزهرة فى محرم
ببيه، على سطح بيت من أربعة أدوار، استأجرتها باسم عبد العليم خاطر
ولم يكن يملك مفتاحها غيرى، وضعت فيها مكتبة اللجنة الثورية،
ومخطوطاتنا، ومنشوراتنا، ومكينة الطباعة المرجلة البدائية على
الإستنسل، وفيها أيضاً كنت قد وضعت على جنب، فى الركن، حقيبة
قماش كاكى من مخلفات الجيش البريطانى، فيها القنابل اليدوية الحية

الثلاث التي نقلتها ذات ليلة شتوية باردة من غرفة أحمد النمى وحلمى
الرئيس وشوقى محمود فى المنشية، ركبت الترام والقنابل فى جيب
معطفى الكحلى الإنجليزي حتى هذه الغرفة، كنت أمسكها، ثلاثتها،
بيدى اليسرى حتى لا تهتز باهتزاز الترام، أو تصطدم إحداها بالأخرى
أو ينفك مسمار الأمان فيها.

كنت قد بعث السير النقالى القديم والمرتبة والدولاب لبائع
روبابيكيا لكى أضع بضمنها أجرة الغرفة التى حرصت ألا تنكسر على
شهرأ واحداً، وعلى الحصيرة، تحت ضوء مصباح كهربائى واحد متدل
من السقف، وجنب مائدة عليها مخطوطة الاشتراكية وسيكولوجية
فرويد، وفازة كبيرة وحيدة فيها زهور أورشكت على الذبول، أخذت
عايدة بوجهها الحبشى فى حضنى، وبرفق خلعت عنها البلوزة الحريرية
الصفراء والحبشية الخفيفة المسبوكة على رديها الوثيقين، ونضوت عنها
الكومبين السمنى الساتان، بحمالاته الرفيعة جداً، ورأيت أن حافته
العليا قد تأكلت قليلاً، ونزعت مشبك السوتيان البيج فانفك بصوت
طلقة صغيرة. انهمر ثدياها اللذان فاجأنى أنهما وفيران على خصرها
النحيل، ومتماسكان فى لدونة، وعندما أخذت شفتيها فى فمى تذوقت
طعماً سكرياً إلى حد ما.

شهقت شهقة فيها ألم اللذة عندما دخلت فى شقها الطرى الندى.
كان فعل الحب للمرة الأولى والأخيرة معها، على الحصيرة ونحن على
الأرض مثيراً بشكل خاص.

غريب - ولعله عندى ليس غريباً على الإطلاق فى النهاية - أن المرة
الواحدة الوحيدة من فعل الحب تصنع أو تضع ميثاقاً دائماً وأبدياً وليس
مجرد أمر عارض أو عابر، ليس مجرد إطفاء لرغبة عادية، بل هو ختم
ووشم لا يزول. عقيدة الجسد.

عندما استرحنا تبادلنا قبلة حنان وسلام.

تمطت وهي تتنهد براحة، ذهلت إذ وجدت أن جسمها قد استطال
وتمدد وامتشق، واستكنت في حضني، طويلة الأوصال لدنة ومفكوكة.
قلت : الآن على أتم استعداد لهم عندما يأتون .

في طريقي إلى غرفتي في شقة ابن زهر كان ترام راغب باشا يصل
إذ يشق سكتته بين حشود الناس وباعة آخر النهار والأفندية الراجعين
بيوتهم في بنطلوناتهم الرثة المهذلة . الحر في منتصف مايو هذا العام
قابض للأنفاس . عربات الحنطور تجرى بها الأحصنة المغمأة وأجراسها
تجلجل .

كنت أحلم في قلب ضجيج نهاية اليوم بالتحليق .

مثل طائر فخور شاسع الجناحين يخوض عباب سماء سامقة الارتفاع،
يعبر البحر إلى أرض كومبيونة باريس، أجشو مع الكوميونار وراء
متاريسهم، ببنادقهم الطويلة قديمة الطراز معي إحداها، جنباً إلى جنب
في شوارع الباستيل التي انتزعت أحجار البازلت السوداء منها واتخذنا
منها حصوناً واطئة، ومعى وراء المتاريس سلامة بجلبابه الفلاحي
الكستور بتقوية مدورة، على كتفه بندقية بروحين، وقاسم إسحاق
النوبي الأسواني داكن البشرة يمسك بمدفعه إلى جانب خده الأيسر
الذي فيه شرطتان لونهما أفتح من لون جلده المحروق، وأحمد النميس
يهم بإلقاء قبيلته اليدوية، عبر الأرض الحرام، على صفين متراصين من
جندمة حكومة فرساي .

نرفع رؤوسنا لحظة خاطفة فوق المتاريس لكي نطلق النار على جنود
« تيسير » بخوذاتهم النحاسية اللامعة وستراتهم الحمراء المحزّمة بسيور
جلدية بيضاء إوع يا فندي حاسب إصح أمال والحصان الضخم يمرق إلى
جانبي يكاد يحتك بجاكتي الزرقاء الطويلة الوحيدة، وعربة الحنطور
تدور تكاد تمس ذراعي المحملة بلفة مدورة من صحيفة « لي ميليتان » تبدو
من وراء غلاف اللفة الممزق قليلاً إشارة المنجل والمطرقة وعليها الرقم 4

كنت قد استلمتها من صندوق البريد الذى اشترته اللجنة بقروشها القليلة فى مبنى البوستة العمومية بالمنشية وعهدت إلى باستلام الصحف والمجلات التى طلبناها بالبريد العادى من باريس ونيويورك ولندن، معى مفتاح صندوق البريد أوجه فى ثقبه بين جموع الناس والموظفين فى الساحة الفسيحة أدلف إليها من البوابة الحجرية المقوسة القديمة التى بناها السان سيمونيون على عهد الخديوى إسماعيل والتى كنت أواعد أوديت عليها، فى تمام الساعة الثانية والنصف بعد الظهر فأجدها أنيقة أنيقة خاصة فى الحقيبة القصيرة المحبوكة على ردفها الصغيرين وفخذيها المخروطتين بانسيابٍ سلس وناعم أعرف خصوبتهما ونحن فى سينما عدن على الكورنيش نرقب الفيلم الفرنسى وأنا أتابع بقدر ما أستطيع الحوار الرشيق بينما هى تسايره دون صعوبة ثم تمسك بى فجأة، بلهفة الرغبة والتمتع معاً. إذ ترتفع فى تلمسها الوثيق تحت حبيبة التايير الخفيفة التى ارتفعت إلى منتصف الفخذين، أسندت حقيبتها الصغيرة عليها، وبصوت مستثار مبحوح وقد أصغت بوجهها قريبة جداً منى، وهى تهمس كفاية بقى حبيبى، آه، كفاية... ا حاسب حبيبى بس، بينما أنوار الفيلم تخطف تتلاحق وتخبو وتستضيء فى عتمة الصالة. وموسيقى الأغنية «تحت سماء باريس» والسين المتفرق الضيق يتدفق تحت عدسة الكاميرا التى تقترب جداً من سطحه المتموج فى الوقت نفسه الذى تلمع فيه عينا سيمون سينورييه الواسعتان بأمواجهما فى الكادر بالأسود والأبيض يقترب منها جان جابان ويقول بنبرة حنو أجش: كفاية، كفاية يا سيدتى، فنظر إلى أحدهما الآخر ونكأتم ضحكنا مع انسياب يدي على بشرة الفخذين الأسيلة وموسيقى «تحت سماء باريس» وطلقات المدافع عن الكوميونة تدوى فى داخلى بأصداء بعيدة مكتومة ياسيدنا لفندى ما قلنا إوج أعمال وكرجاج الحوذى يقرقع فوق ظهر الحصان المنطلق بأقصى سرعة يسابق ترام راغب باشا،

الحوذى قد لفَ طربوشه القصير المزيّت بقماشة صفراء كالحلة من أقمشة الكفن، وقد فزّ على ساقيه مرتفعاً قليلاً عن مقعده، تياها مرحاً يكاد يطاول سنجة الترام.

لم أكن قد تغلبتُ تماماً على حسِّ بالإثم - فيه هبوةٌ من حسِّ بالانتصار البخس في الوقت نفسه - بإزاء سلامة. لم أستطع أن أقاوم اندفاعة الحبِّ والرغبة من جانب عايذة. أعرف أنه - هو سلامة - يموت فيها حباً، أما أنا فلا يستأثر بي إلا نوعٌ من الرضا بحبها، فيه بلاشك - أقول لنفسي - قدرٌ لا أقول من الانتهازية، تلك كلمة كبيرة، إنما هو نوعٌ من التسليم بعطية أو قبول لهبةٍ مبدولة عن طواعية دون اقتضاء مقابل، وقدرٌ من الصمت عن هذه الهبة ليس فيه تقصُّ لتشابك العلاقات المضطربة بين أطرافها ولا محاولة جادة لفك التباساتها ولا النظر في تعقيداتها، ولا حتى مجرد السؤال عن (أخلاقية) لعلى كنت - ومازلت - أراها مجرد نفاق سهل من تركيبة مواصفات الطبقة الوسطى بكل درجاتها، وما كنت أجد في ذلك كله تناقضاً مع بيوريتانية مفترضة، بل العكس

كانت عايذة تحدث سلامة أمامي بذلك الصوت الأنثوي الدمث تناديه: تعال يا سلّم. بنعومة لاشك تستفزّ ذكورته الريفية الروعرة، تدفعه برفق في صدره بيدها عندما يصفو بالها بحركة بنات البلد، ثم تأتي إلى لتشكو من خشونته، وتقول:

- بيصّ لي مش عارفة عايز مني إيه، أنا اللي ما يهمنيش لا المباحث ولا البوليس السياسى ولكن بخاف من نظرتة.
أو أنه عندما يأكل يسارع باللقمة وراء اللقمة، ويبلع الأكل بصوت مسموع.

ولا يدهشني هذا التناقض الأنثوي الظاهري وأعرف أنها لم تكن

تجيش روحها - وجسدها - بلهفة الحب نحو سلامة ، لكنها لا ترفض حبه ، فهل بذلك كنت أبرر لنفسي أنني لا أرفض حبها ؟ بل أستغل حسيتته ؟ ومع ذلك ففي داخلي حسٌ مخامر خافتٌ ومُلحٌ معاً يشبه التورط في خيانة غير مفهومة ولعلها أصلاً غير قائمة . بينما أحتضن بين يدي وجهها الحبشي داكن السمرة . أدفن نفسي في عينيها المكحولتين بشرطتين فرعونيتين نازلتين على وجنتين عظيميتين بارزتين ، وهي في رداءٍ حريريٍّ طويل تنسحب أذياله على بلاطات عريضة باردة في قاعة تشبه بهو سينما عدن لكنها خاوية مصمتة ترن فيها أصدااء صوتها «بس حبيبي ، كفاية» وقد سدت علينا أبواب ثقيلة موصدة لن تفتح أبد الدهر ، طلقات رصاص جنائزية تدوى من وراء الأسوار العالية التي يقع الباب الضخم المغلق في وسطها ، لا جدوى من صعود السلالم العريضة وعرة الدرجات إليها ، لن تفضي إلا إلى صمت الباب الخشبي السميك وقد ارتد مصراعاه العريضان وانطبقا بصوت طلقة مدفع مكتومة وقاضية ، بينما تتناقص نسمات الهواء المحبوس وتتسارع أنفاسنا ، ليس ثم سواي وعائدة الشامخة الطويلة في زيبها المنسدل على الأرضية الرخامية الثلوجة وكأنما تترامى إلى من الأرض المرتفعة البعيدة وراء الباب أصدااء موسيقى السلام الملكي ويهجن بي سؤال هل الساعة قد بلغت الحادية عشرة مساءً وقد انتهت الإذاعة أم هي الساعة الخامسة والعشرون وقد انقضى اليوم نهاره وليله لا فارق بينهما في هذه العتمة الخفيفة التي ينساب فيها سلسالٌ من المياه المترجرجة تحت رخام القبر العتيق ؟

وجدت أنني مازلت أحلق بجناحين شاسعين ثابتين في سماءٍ سامقة العلو ، وأنا أحرق بعينين أحسستهما ثابنتين إليهما : إلى عائدة السوداء وإلى نفسي معاً - صغيرين جداً في القبر الفسيح هو نفسه بهو سينما عدن ، وقد تحررت من عبء شبهة خيانتى ، حقيقة أم متوهمة .

وجدت أننى أضرب فى غياهب سماء ساطعة السنا لا حدود
لاتساعها، باحثاً فى صمت كونى كامل عن أصداء موسيقى عدالةٍ مهما
بدت مستحيلة إلا أنها فى متناول الوجود. مهما بدت مراوغة إلا أنها
محيقة وقائمة، لم أكن وحيداً فى هذه الحرية التى لا حدود تحصر آفاقها
بل كانت الحرية معمورة بكائنات لا عداد لها غير مرئية وغير
محسوسة إلا أنها تضىء على هذا الضوء الذى لا نهاية لبراحه أنساً لا
تزاحم ولا تكالب فيه، وقلت بلسانى: «أنا الطائر المخلق فى سماء قبر
باهر الحياة بُعث منه كل الموتى الذين لقوا حتوفهم منذ دهورٍ سحيقة من
جاء حيف بدا لى كونياً وعبثياً وقحلاً لا معنى له ولا يمكن أن يكون له
أدنى تبرير، بُعثوا بعد إيوناتٍ من القهر والاستغلال رسفوا فى أصفاده
تحت سياط جلادين ضربوهم بسلطة السيف المهنّد أو سلطة النص
المقدس سواء، بُعثوا لا ليقتصروا فما من القصاص من جدوى بل
ليستعيدوا ما استلب من فلذات أرواحهم ومن أحشاء أشواقهم التى لا
تغيض نحو كرامةٍ لا يملك أىّ كان أن يطردهم من جنان نعيمها بعد أن
ذاقوا ثمرة المعرفة، كرامة هى حق ميراثهم الذى لا يمكن أن يُغتصب
مهما أهدر طوال حقب مضت وحقب تجىء، طريقى فى قلب الحرية نحو
حبٍ مقدور لن ينى عن أن يجىء».

الفصل الثامن

كنت أراها فى شظية مرآة مكسورة حادة الأضلاع.

ظهرها الناعم المنسرح يدور به شريط عريض ينتهى من الأمام بكأسين محتشدين باللحم الحار، من حرير البراشوت الذى كنت قد لفتته حول جسمى تحت القميص والجاكت الزرقاء والشورت الأبيض وخرجت به من مخزن رقم ٦ فى كفر عشرين.

أما هى فقد فصلته وصبغته بالأصفر مثل عبّاد الشمس الذى ينجذب بلا حول إلى نور الشبق والشهوة الطاغية. نعومة حرير البراشوت تسبكان النهدين وتبرز تحتها حلمتان منتصبتان قويتان، وبين الكأسين عقدة مشرّبة، زهرة شرسة متربّصة.

شظية المرآة تعكس بطنها الغلامى تحت النهدين المدورين المحبوكين بالحرير الأبقوانى. ذراعى المتوترتان تدوران بخصرها الملقوف بشريط حريرى عريض فى صُفرة زهور المرجريتا التى تكسو مروج كنجى مريوط، وعلى وهدة البطن السفلية عقدة أخرى من الحرير متفتحة ومتواشجة الأطراف أعتى شراسة، ضارية.

ساقاها الأملودان ناصعتان تحت نور الكهرباء المسدد إليهما، تهتز عليهما ذؤابات من الحرير الأصفر مستطيلة مستدقة متباينة الطول والسُمك كأنها مزق استبدت بها عرامة نهش شهوى.

لم تكن قد خلعت حذاءها، سيوره الجلدية الرفيعة مفروزة على لحم القدمين، الكعب المرفف الدقيق قد سننته يد زميلنا على أبو الليل، نعمته ومسّدته بحب الصنعة وحب المرأة معاً، وحوّلتها من جلد مصبوغ

مقصود بفن قديم وملفوف بالتصاق الغراء ذى الفوح النفاذ حول
خشب متين ورفيع منحوت بدقة، إلى سهم راسخ ومغروز.
كان العمود شامخاً فوق كهوف ومسارب دقلديانوس والمقابر
المتناثرة حتى مدى البصر قد ازدهرت بحياة مكتومة، العمود الضارب
في كبد سماء مبتلة بغدق رغبات لا ينتهى توقدها.
أم أن هذه ساحة قصر الشتاء فى سان بطرسبرج، الجموع الهادرة قد
انصبّت من كل الشوارع الجانبية وجاءت حشودها اقتحمت بوابات
فاوريكة كرموز ومضارب الأرز على المحمودية وتدفقت بها شوارع اللبان
والأنفوشى وشارع التوزيع ومدارس النيل وجامعة فاروق الأول على ربوة
العباسية عبرت كبارى النيثا المتجمدة مياهه طلقات الرصاص تدوى
متناثرة فى الأول ثم تتلاحق صفوف عساكر القوازي يتقهقرون أمام
هجمة الجماهير الغاضبة المنتصرة وقد انفتح القصر الخاوى لها وغصت
بها أبهاؤه وقاعاته وممراته الهتافات المشتعلة يسقط الطاغية يسقط ملك
النساء والحفاء يسقط عميل الاستعمار يتفجر بها صدرى أم تدوى فى
مسامعى. المحروسة وقد جهزت بطاقم مدافع آر بى جى تستدير وتطلق
زخة على قصر المنتزه وينكس العلم ذو التاج وحرف الفاء إلى الأبد،
الهرارات تنهال من على سهوات الخيل ومن السيارات الفوردي ينزل
منها عساكر البيادة والاحتياط بالألشين الرمادية تلتف حول سيقانهم
الداكنة النحيلة، الأحذية الثقيلة تدق أسفلت الشوارع وتحفر ثقوباً
بمساميرها الغليظة فى جليد الساحة الأبيض الذى سالت عليه خيوط
رفيعة حمراء سرعان ما تحولت إلى برك قانية تغطى وهدات فى الجليد
وقد تهدلت جثث الصرعى ممدودة الأذرع. الأنين غير الواعى غير
المحكوم بصاعد من الجرحى كأنما على الرغم منهم فما بهم قدرة على
كبحه حتى لو أرادوا. الهتاف القاطع بالأوامر: اضرب يا عسكري
اضرب فى المليون... من البكباشى على حصانه الأسود المتوقف الذى

هيجته رائحة البارود والدماء. الأرض المثلوجة تميد بي وتهتز في تقبضات متلاحقة.

كان حلمى الرئيس يقف أمام سريري، فى غرفتى، يهزنى برفق :
- إصيح .. إصيح يا زميل . الوقت فات . ميعادنا الساعة خمسة
دلوقتى خمسة إلا ربع .

فتحت عينى . للحظة خاطفة كنت ما زال فى سان بطرسبرج كرموز
عابدين العمود ودوى الرصاص ما زال فى أذنى .

كان حلمى الرئيس، بجاكتته الرمادى الكاروهات الوحيدة التى ليس
عنده غيرها وبنطلونه الواسع المتهدل، ما زال يحمل طرداً مربعاً : علبة
كرتون ملفوفة بورق جرائد ودوبارة محكمة وثيقة .

كنت قد أغفيت بالقميص والبنطلون والشراب، وعندما نهضت
بجسمى قليلاً، ومازلت تحت سطوة ثورة ١٩٠٥ وثورات أخرى لم
تحدث قط، رأيت يده يضع الطرد ببطء وحرص على المكتب فى غرفتى،
بجانب رصّة كتب سيجموند فرويد بالإنجليزية وكتاب «من نسيهم
الله» لألبير قسيري بالفرنسية وكتاب عن باكونين بقلم ج.ب.
ماكسيموف .

وعلى الفور كنت فى كامل اليقظة . وضعت قدمى فى حذاءى الأسود
متآكل النعل قليلاً، وشددت البلوفر - كنا نقول عليه الجرس - على
القميص، كنا فى أوائل فبراير وفى الجو لذعة برد ندية، وهانذا على أتم
الاستعداد، لم يبق إلا أن أطس وجهى بالماء وأطوع بالمشط كنديشة
الشعر الهائش على رأسى .

كان حلمى الرئيس، وأحمد النمى من كلية العلوم، وشوقى محمود
من كلية الهندسة، يكونون خلية ثورية إرهابية قبل أن نتعرف عليهم .
كانوا يؤمنون، عن حق، أنه لا حل للقضية الوطنية إلا بالعنف . لكنهم،
عن خطر مبین، تصوروا أن العنف إنما يستهدف رموز الطغيان وجنود

الاحتلال، فرداً فرداً. تلك ذكريات جماعات «اليد السوداء» واغتيال
السرदार واستدراج عساكر الإنجليز إلى الباربات ثم قتلهم ماتزال طرية
حية في وجدانهم، هي التي كان منها تراثهم الثورى البرىء فى كل
سذاجته: القتل والاستشهاد.

حكى لى أحمد النمى بأسلوبه الفياض وصوته الأجلش المنفعل
باستمرار، كيف أنهم جمعوا قروشهم، الله أعلم كيف لآوا الجنيهات
التي اشترآ بها من بدو كنجى مريوط قنابل يدوية إيطالية، وغدارة
بريطانية، ولما كانوا طلبة علوم وهندسة ميكانيكية فقد تصوروا أنهم
ليسوا بحاجة إلى من يدرهم على استخدام السلاح.
تصورت، بقوة، ما حدث.

خرج الفرسان مشياً لغاية النزهة، استوقفوا سيارة نقل ازدحمت
بهم جنب السواق ونزلوا فى مفرق مرغم، انجهوا غرباً فى المدق
الصحرأوى الخاذى لشط الملاحه مياها تترقرق وتتألق بلمعة فضية
محمرة تحت وقدة ضحى ذلك اليوم فى أواخر يناير. صحراء مريوط
مازالت بكراً تتناثر فيها بضع مخازن مهجورة من مخلفات الجيش
البريطانى وحطام دبابات وسيارات مصفحة استحالآ إلى هياكل
مهشمة من الحديد الذى أخذ يتآكل بالصدأ. كان الميعاد فى آخر مخزن
على الشمال من المدق. جوه فى الصحراء. لم يكن فيه إلا جدران
متهاوية من غير سقف. كانوا أربعة من بدو مريوط ملقعين بالتلافيح
البيضاء التي تخفى نصف وجوههم، فى سراويلهم القصيرة
وصديرياتهم وشملهم. وبدون كلام تمت الصفقة التي كانت قد رُبت
فى سيدى جابر أول أمس عن طريق المعلم برشومى، ريس أنفار ومعلم
تراحيل. لم يُحص الأعراب نقودهم - الرجل يرتبط بلسانه والمعلم
برشومى حكيم، وانطلق الأولاد بغنيمتهم أربع قنابل يدوية إيطالية
ومسدس إنجليزى وصندوق صغير من الذخيرة. ساروا نحو نصف ساعة

في اتجاه الغرب حريصين على ألا تفيب عن أنظارهم آخر معالم العمار من بعيد، وكان الأعراب قد طمأنوهم أن الناحية هنا خالية من الألغام. تناوب الفرسان الثلاثة على سبيل التدريب إطلاق النار على هدف نصبوه في الرمل، حَجْرَة كبيرة، وهم يتبادلون حمل القنابل الأربعة، واحداً بعد الآخر، حتى جاء الدور على آخرهم. حلمى الرئيس، طالب علوم، كان يعرف نظرياً آلية القنبلة اليدوية. القنبلة على هيئة كمثرى معدنية ثقيلة إلى حد ما، سطحها الصلب محبب ومقوى بدعامات ناتئة تلف جسمها، مسمار الأمان مدور وبارز.

ابتعد أحمد النمى وشوقى محمود إلى الوراء، قبض حلمى الرئيس على جسم القنبلة بقوة، وفجأة انخلع مسمار الأمان، تأخر حلمى ثانية أو ثانيتين في إلقاء القنبلة وعندما طوح بها انفجرت بدوى مكتوم على الرمال غير بعيد منه، سطع بريق نارها في ضوء الظهر العالى برتقالياً باهتاً، وتناثرت شظاياها في كل اتجاه، وثبت شظية إلى إبهام حلمى الرئيس وإلى ما بين فخذه، انبثق الدم وانسكب على يده اليسرى، واحترق البنطلون بدائرة صغيرة من القماش فاحت رائحة شياطه مع رائحة الفتيلة الحريفة، ووجد يده اليمنى ملوثة بالدماء عندما ابتدر، دون وعى، يخفى موضع الشظية عند ملتقى الفخذين، لكن الشظية كانت قد مسّت أعلى ساقه اليسرى فلو ارتفعت مقدار إصبعين لحدث ما لا يُحمد عقباه، على أقل تقدير.

ساد صمت تام في الصحراء الموحشة، بعد دوى الانفجار، كأن لم يحدث شيء. ضمّد الزميلان جراح حلمى الرئيس - كيفما استطاعوا - بمزق من مناديلهم التى سرعان ما غرقت بالدم.

وفي المستشفى الأميرى كان أصدقاءهم من طلبة الطب - ومنهم طالب اسمه عبد القادر خلف الله - كفيلين بعلاج ناجع وكتوم بعيد عن السلطات. من ساعتها كان حلمى الرئيس يتهته قليلاً جداً عند بداية كلامه،

واعترته عنة لم يشف منها إلا بعدها بسنوات فلعلها لم تكن عضوية بقدر ما كانت صدمة المفاجأة التي كتتها على الفور بشجاعة وإصرار. على الساعة الثانية والنصف زرت الغرفة الواسعة الرثة على سطح بيت متهالك في المنشية الصغيرة، في حارة سد وراء كنيسة الروم الأرثوذكس.

صعدت السلم الخشبي المعتم العتيق، أربعة أدوار، درجاته الخشبية تصدر تحت قدمي صريراً مندرأً، وخبطت على الباب الذي خيل لي أنه لا يقفل أبداً فقد كان مائلاً قليلاً وإحدى مفاصلاته واضح أنها مخلووعة. وعلى سبيل الترحيب بي عمل لي حلمي الرئيس الشاي الثقيل في إبريق جديد، على سبوتاية متراقصة اللهب موضوعة على الأرض، ألقى أمامها على الحصيرة ورعى الشاي حتى استوى. شربوا معي في أربعة أكواب مختلفة الأحجام والأشكال، تحت جنب الحائط الوابور البريموس العتيق وعليه حلة هبت منها على من تحت غطائها رائحة طبيخ بايت قردبهي.

جلست إلى المائدة الوحيدة في الغرفة، طويلة خشبها قديم متين الشكل، عليها ثلاث رصات من الكتب والكشاكيل، ومسطرة خشب كبيرة ومثلثات معدنية.

في الجانب الآخر سريران نقالي ومرتبة على الأرض عرفت أنهم يتناوبون النوم عليها، يوماً بعد يومين حسب نظام معقد ودقيق. على الحائط مسامير علقت عليها جلايب وفوط وچاكتات.

جررنا المائدة الكبيرة، بصعوبة شيئاً ما، جنب أحد السريرين، جلست على كرسي خيرزان متين جيد الصنع، وجلس أحمد النمس متربعاً على السرير بينما احتل حلمي الرئيس وشوقي محمود الكرسيين الخيزران الآخرين. وبدأنا حواراً لم نعرف أنه استغرق عدة ساعات إلا بعد أن أظلمت الدنيا وأضانا المصباح الكهربائي الوحيد. وجاءتني من

دورة المياه المشتركة ، على بسطة السلم ، رائحة العطن الخفيف والبلولة
المألوفة التي تصدر عن دورات المياه القديمة .

هل أحتاج أن أقول كيف استفاض بي شرح آليات الثورة ، وتوضيح
الفرق الأساسي بين « الإرهاب الفردي » و « العنف الجماعي الثوري » الذي
لا يستهدف أفراداً - مهما كانوا رموزاً للاستعمار والاستغلال الطبقي -
سرعان ما يحل غيرهم محلهم ، بل يستهدف تغيير بنية المجتمع بأسره .
- ليس للأفراد دور حاسم اجتماعياً ، مهما كان دورهم فعالاً بطبيعة
الحال . لأن التغيير الثوري يجب أن يقع للمجتمع بأسره ، بذلك وحده
يمكن في النهاية تطهير أرض الوطن من لوثة الاحتلال ومن الرأسمالية
المستغلة الوحشية معاً ، عن طريق الفعل الشعبي الثوري لا عن طريق
اغتيالات فردية أو حتى إلقاء قنابل على تجمعات العساكر الإنجليز
كعمل من أعمال المقاومة ، ذلك كله لن يؤدي إلى نتيجة .

قاطعني أحمد النمى ، بحماسة متدفقة ترتفع رويداً رويداً بصوته

المبحوح :

- ما تقول قد يستغرق سنوات طوالاً . كيف نطبق الذل والامتهان
والفقر نحن وأبناء شعبنا حتى تنطلق هذه الثورة الشعبية التي نحلم بها؟
كيف نحتمل حتى تؤلف النقابات ، وتنمو اللجان الثورية وتتزايد
وتتشابك ، بينما الأعلام البريطانية ترفرف على بقاع الوطن ويرفل الملك
وأذنابه في النعيم بامتصاص دماء العمال الذين يقضى عليهم الدرّ
وتحصدهم الأمراض في عزّ الشباب؟ والفلاحين الذين يموتون حفاة عراة
جائعين بالبلهارسيا وفقر الدم والبلاجرا؟ من يتحمل مسؤولية موتهم؟

تدخل حلمي الرئيس ، يتهته قليلاً ، وقد احمرّ وجهه :

- أأى نعم !!! إلى متى نترك المجرمين ينعمون بشمار جرائمهم اليومية؟
دون عقاب؟ لا بد أن ننتقم ، فوراً ، لأهلينا وأبناء شعبنا . فوراً ، دون
إمهال . لا بد أن نقتلهم جزاء وفاقاً .

قلت ، محاولاً أن أعود بالجدل إلى نعمة أهدأ ، وأعقل :
- لعل الأخطر والأهم يا حلمي هو أن تقتل الطاغية الكامن في
داخلك ، وليس الطاغية المائل أمامنا .
تدخل النمس بشيء من الغضب ، كأنما استشعر أن الكلام موجه
ضده :

- ماذا؟ ماذا تريد أن تقول؟ «الطاغية في داخلي». هذا كلام مثقفين .
قلت ، دون أن أسقط في استفزاز لعله غير مقصود :
- أبدأ . بل هو كذلك بالفعل . في داخل كل منا يا أحمد . هذه
النزعة الغلابة نحو التسلُّط والسيادة ونفى ما هو غيرنا ، يعني قتل
الآخرين معنوياً في البداية ، فإذا أتاحت السلطة فهو القتل الفعلي . هذا
ما حدث دائماً ، وما أصاب ثورة أكتوبر وثورات أخرى ، في الصميم .
صمت أحمد ، وبعد لحظة سكوت قال حلمي الرئيس ، وبدا لي أن
شفتة السفلى أكثر ترهلاً :

- ح ح حتى أنت تقول «القتل» !
- القتل بالمعنى المجازي طبعاً يا حلمي ، القتل دون إراقة دماء أو تمزيق
أشلاء ، القتل بفعل العقل ، لا ، ليس العقل فقط ، بل بفعل روعي شامل .
استشاط أحمد ، هتف :

- هذه لغة الشعر ، لغة دينية في النهاية .
- بل هي لغة الواقع ، الواقع الداخلي يا عزيزي ، الواقع النفسي إذا
شئت ، لا يمكن أن ننكره لأنه سوف يثبت نفسه في النهاية ، هذا الواقع
الداخلي الذي لا يقل سطوة وحضوراً عما نسميه «الواقع» ونقصد به
كل ظواهر الحياة بالمعنى الحرفي لـ «ظواهر» .
قال أحمد النمس ، بنوع من التريص :
- أنت تناقض نفسك ، «الفعل الروحي» هذا عمل فردي في النهاية ،
ألا تقول إن المعول هو على العمل الجماعي؟

قلت: صحيح. لكن العمل الفردي جزء أساسي من العمل الجماعي، وبدون الفرد لا معنى للجماعة. والعكس صحيح بالطبع. ليس العمل الجماعي أبداً أن نتحول إلى أرقام في معادلة جبرية. السؤال هو: كيف نصل إلى أن نكون أنفسنا في الوقت نفسه الذي نحن معاً. العمل الجماعي لا يمكن أن يلغى فرديتنا التي تظل قائمة و متميزة طول الوقت وإلا أنكرنا إنسانيتنا نفسها ولكن المهم كيفية انسجام العمل الفردي مع الفعل الجماعي.

قال: «إنسانيتنا» كلمة شعرية أيضاً. قل لي «طبقتنا» أفهمك. أما الإنسانية فتضم أعداءنا أيضاً. هذا يُمِيع كفاحنا المشروع، سواء كان جماعياً أم فردياً.

قلت: صحيح أيضاً. ولكنه صحيح بشكل محدود، الانتماء للطبقة لا يلغى الانتماء إلى الإنسان، من تسميهم أعداءنا - وهم فعلاً أعداؤنا - هم الذين أنكروا إنسانيتهم.

قال: أنت تتعلق بأوهام جميلة.

كأنما ينهي هذه الدورة من المناقشة.

كم من ساعات قضيناها في غرفة المنشية الصغيرة، والجدل الحامي سجال، أتذرع بكل ما أملك من حجج عقلية وتاريخية وبكل ما يتقد في روعي من إيمان بمن أسميهم «البسطاء» أبطال الحياة اليومية، ببطولتهم النسبية المأخوذة مأخذ المسلمات، بينما أدرك في عمق مكتوم متى أن كراهيتي للعنف الفردي - بما فيه من صلف - إنما هي ميراث قبطيتي، أخفيها وراء إيمان جديد بالعنف الجماعي الشعبي وهو وحده مبرر وبرىء وحتمي، في مواجهة عنف الدولة الرأسمالية والاحتلال.

أما القنابل الثلاثة والمسدس فقد ابتدعت الجماعة الصغيرة تقليداً سارت عليه اللجنة كلها بعد ذلك، وضعت العلبة المحتوية على المتفجرات في معمل كلية العلوم، أكثر المواقع أماناً ونأياً عن الشبهات.

كان زميلنا فتحى أبو شادى مسئول هذا المعمل الآن، بينما كان يدرس للحصول على ليسانس الفلسفة وعلم الاجتماع من كلية الآداب .

لكننا الآن فى منتصف فبراير ١٩٤٦ ، البلد تغلى ، لم تكن غرفة المنشية الصغيرة بعيدة عن أعين البوليس السياسى ، وقد كثر الكلام عن اعتصامات وإضرابات فى الجامعة وعن احتمالات اقتحام البوليس - بل الجيش - حرم الجامعة ، لذا كان الأصوب أن تُنقل القنابل والمسدس بعيداً عن الجامعة كلها ، وبعيداً عن أى احتمال للانكشاف .

أعطيت نفسى الحق فى التصرف دون الرجوع إلى اللجنة وظلت الخطة كلها سرّية إلا مع فتحى أبو شادى وحلمى الرئيس ، مراعاة لأقصى ما يمكن من اعتبارات الأمان .

كان حلمى الرئيس من الشجاعة بحيث حمل الطرد ملفوفاً فى ورق الجرائد ببراءة ، تحت أعين المخبرين الذين لم يساورهم الشك فى شيء ، خرج به من معمل الكلية فى محرم بيه إلى بيتى فى راغب باشا . ولم يكن أحد على الإطلاق - بما فى ذلك حلمى الرئيس - يعرف ما الخطورة التالية . نظر إلى حلمى الرئيس مستظلاً ، وقد عدت إلى غرفتى بعد أن طست وجهى بالماء وسرحت كدشة شعرى الأهوج .

كان وجهه مربعاً قليلاً ، شعره أجعد فيه ذؤابة بيضاء ، عيناه جاحظتان إلى حد ما ، باحثتان دائماً ، وفيهما دائماً نظرة منكفة إلى ذاتها كأنما لا تريد - أو لا تجرؤ - على الانطلاق بحرية إلى الخارج ، إلى الناس ، مع كل شجاعته بل تهوره أحياناً ، وشفته السفلى بها ترهل معين يعطى وجهه مسحة كأنها من تخلف عقلى تكذبه العينان الذكيتان بمكر .

قال لى بعد أن وضع الطرد على المكتب ، وهو يعانى ، أكثر من المعتاد قليلاً ، بداية الجملة :

- يا .. يا .. يا زميل عايزنى دلوقتى فى حاجة ثانية ؟

قلت : لا يا حلمى أشكرك . مع السلامة أنت .

الآن أنهى حلمى الرئيس مهمته ، ودعنى دون أن يسأل عن أى شىء ، وترك الطرد عندى ، ابتسم عن سنته الكبيرة الناتئة وخرج يخبأ فى مشيته ، كان بنظرونه الرمادى المتهدل يكاد يعوق خطواته (عرفت أنه كان يضعه تحت مرتبة السرير كل ليلة - مثلى - حتى يحتفظ بشىء من التماسك) .

وأقبل الباب وراءه .

كانت علاقتى به دائماً علاقة حذرة تشربها هواجس غير مبررة . كنت أقبل الآن عمله معنا ، بكل التحفظ والتحوط . ومع ذلك فقد كان لابد أن يعرف عنوان بيتى فى شارع ابن زهر ، لم يكن هذا العنوان مجهولاً من معظم أصدقائى فى جماعتنا ، إذ انعقدت فيه اجتماعات محدودة لما كنا نسميه «اللجنة التنفيذية» وبالرغم من ضخامة التسمية ، وقلة العدد والعدة ، فقد كنا نرى لها قيمة كبيرة .

عهدت إليه بنقل الطرد إلى بيتى ، من كلية العلوم ، فقد كنت واثقاً - بشكلٍ ما - أنه سوف يلتزم الصمت عن هذه المسألة كلها ، لغرضٍ ما فى نفسه لم أتبينه .

لم أستطع قط حتى الآن ، بعد مرور هذه السنوات الطوال ، أن أحسم أمرى بشأنه . كنت موقناً أنه مغامر بما فيه الكفاية ، وربما أكثر من الكفاية ، وبراجماتى مع ذلك قادر على تصريف الشؤون العملية المباشرة ، لا يبالى التنظيرات الفقهية والفروق الدقيقة المرهفة بين التصورات والمفاهيم ، على عكس فتوح القفاص ، فهو إذن ، كما تصورت ، نافع ومستقيم الإرادة ، كان يقوم بدوره كما يجب فى المظاهرات وحشد وتعبئة طلبة كلية الهندسة لها ، وكان من حيله العملية ، أو ما يسميه التكتيك المفيد ، أن يجلس مع البوليس السياسى وحرس الجامعة على باب الكلية ، يثرثر معهم ببساطة ، ومع أنه يتهته

قليلاً - أو بسبب ذلك - فقد اكتسب عندهم مصداقية فلا يعقل في
ظنهم أن يكون من عناصر «الشغب والإثارة». ولكن ذلك نفسه كان
مدعاة للقلق عندي. كنت أسميه مع ذلك رجل الأقباء السرية، الرجل
الكريهتي، دكتور جيكل ومستر هايد.

الآن كان الطرد، بشحنته المدمرة الكامنة، أمامي، في غرفتي، على
مقربة جداً من أمي وأخواتي البنات.
لم يكن عندي أدنى إلمام بالآلية القنابل اليدوية، إلا على نحو غائم
جداً، ولم أكن قد رأيت في حياتي شيئاً يشبهها من قبل، إلا في أفلام
الحرب في السينما.

انتظرت حتى حلّ ظلام آخر الشتاء المبكر، ولبست معطفي الكحلي
الواسع الوافي من المطر الذي كنت قد استلمته - بإيصال مختوم موقع
عليه - في أيام شغلي في البحرية البريطانية، ثم عاش معي زمناً طويلاً
وظلمت كأنما اعتز به ولا أطيق أن أتخلى عنه، وكان له جيبان عميقان
واسعان.

بعد أن أغلقت على باب غرفتي، فككت الدوارة المحيطة بالطرد،
بحرص وبطء، وقشرت عنه ورق الجرائد الملفوف به. دون أن أرفعه،
وفتحته بهدوء.

دهشت قليلاً إذ لم أجد المسدس في الطرد، وحتى الآن لا أعرف ما
حدث.

رفعت القنبلة الأولى من الطرد، فوجئت بوزنها الذي وجدته أخف
مما توقعت، وبصلابة القشرة المعدنية المحيطة بجسمها، وضعتها في
جيب المعطف فاستقرت في عمقه بهدوء. وكأنما أكسبني ذلك عزمًا
أقوى فوضعت القنبلة الثانية بجانبها في جيب المعطف الواسع، كان لها
صوت اصطدام خافت مفاجئ دقّ له قلبي ثم هدأ.

ترددت لحظة ثم حسزمت أمرى، وبدا أن المعطف ثقل على قليلاً، أمسكت القبلة الثالثة والأخيرة وأودعتها هذا الجيب نفسه، فتدحرجت قليلاً فى عمقه. تركت العلبة الكرتون كما هى، وقلت لأمى وأخواتى: أنا نازل، يمكن أتأخر ما تعلقوش على.

ونزلت سلالم البيت الضيقة المعتمة بهدوء وشىء من الحذر.

انتظرت على محطة ترام راغب وعندما جاء يصلصل من ناحية غيط العنب وجدت أنه شبه فارغ. وقفت بجانب السائق، يدى فى جيبى المعطف، حريصاً على ألا يصدر عما أحمل أى صوت.

نزلت فى شارع الخديوى، ولم يكن فى سيرى المتمهل حتى محطة مصر تلهف ولا توجس من أى نوع. خيل إلى أننى سرحت أستعيد مناقشة الأمس الساخنة بينى وبين فتوح القفاص عن الصراع فى «الدولية الأولى»، بين ماركس وتحكمه وإطلاقيته ويقينه بأحقية ونهائية أطروحاته، وبين باكونين المتحرر بأفقه المفتوح للاحتمالات وبراءة إيمانه بأن الدولة شرٌ مقيم لابد من إزالته، أياً كانت وأياً كان تكوينها ومنطلقها، وعندما جاء ترام محرم بيه صعدت بما يكاد يشفى على اللامبالاة، وكان عصف ربح فبرابر قد اشتد قليلاً وفيه لذعة برد مبلولة. لم أدخل إلى دفء المقصورة المنيرة بضوء قوى يسقط على الكراسى الخشبية اللامعة الخاوية، وقفت إلى جانب الباب، وإذا بضابط شاب، نحت على كتفيه لجمتين، يصعد ورائى مباشرة ولا ينظر إلى داخل الترام بل يقف بجانبى تماماً.

تحرك الترام، نحن فى مقدمته، ضابط البوليس يبدو غير مهتم بشىء محدد، وأنا بحمولتى المدمرة، والسائق يضغط على الجرس تحت قدميه فيصلصل فى شارع محرم بيه الخالى المظلل، بالليل، بأشجار وارفة رأيت غصونها داكنة غامضة تهتز بفعل الريح.

هل يتبعنى هذا الضابط؟

هل كان يراقبني؟

ومع ذلك فقد كنت حريصاً على أن أستوثق من أن أحداً لم يكن يرصد حركتي منذ نزلت من البيت .

هل صعد معه مخبران من الباب الخلفي للترام؟

كانت يداي كلتاهما في عمق جيبى المعطف، يدي اليسرى تمسك بالقنابل بحزم، مع اهتزاز الترام وقلقلة عجلاته، رجل البوليس بجانبى، يرمقني أحياناً بما يبدو أنه غير اهتمام، تصورتُ مع ذلك أنه متوتر في وقفته، غير مستريح، كأنه متربص.

جاءت محطتى، ترددت لحظة .

كنت قد قلبت كل الاحتمالات في ذهني، لو كان يراقبني فهل أتركه يتبعني ومعه المخبران حتى غرفة شارع الزهرة التي تحتوى وحدها على ما يكون ملفاً ضخماً للتحقيقات سوف ينتهى بإدانة مؤكدة وبالأشغال الشاقة بلا شك، فضلاً عما أحمل من بلاوى؟

أم أترك محطتى تمضى وأنزل بعدها وأرى ما سوف يحدث؟

أم أرجع بالترام نفسه وأحاول أن أضللهم في شوارع وحوارى راغب باشا التي أعرفها حق المعرفة؟ ولكن إلى أى مدى؟ وكيف - ومتى - تنتهى هذه المطاردة المحتملة؟

وكعادتي وجدت أن ثم قراراً قد اتخذته في لحظة خاطفة، كأن قوة ما لا أدركها قد دفعتنى إلى اتخاذه .

نزلت من الترام، مغامراً، في اللحظة التي تحرك فيها مباشرة، هبطت بقوة على أرض الشارع، يدي اليسرى على القنابل ويدي اليمنى أوازن بها نفسي، كدت أفقد توازنى لكنى اعتدلت بسرعة ووجدت أن ضابط البوليس لم ينزل ورائى، ولا أحد .

انطلق الترام، مضيئاً في ليل الشارع، كنت وحدى تماماً، تلك كانت لحظة سعادة حقيقية .

ابتسمت لنفسي من حماقتي وأوهامي .
مشيت متمهلاً ، هادئ الروع ، إلى شارع الزهرة المتفرع من عرفان ،
كان شارعاً جانبياً هادئاً مظلاً بالشجر العريق .
صعدت السلم الصامت إلى الغرفة .

كان بالغرفة - أيامها - سرير نقالي قديم ، حديد ، صدئ ملته هابطة
ولكن المرتبة جيدة والملاءات التي اشتريتها بنفسى من «أورزدى باك»
نظيفة فلّ ، ودولاب ملابس ضلفته غير ثابتة وغير محكمة (بعثها كلها
روبابيكيا بعد ذلك لأسدّد أجرة الغرفة) .

وكان فى الدولاب إلى جانب الكتب والدوريات والمخطوطات الثورية ،
رُصص النسخ المترجمة ، بالمئات ، من الكتب التي نشرناها على حسابنا ،
قصص لجوركى وتشيوخوف ، من ترجمة فوزى المرّ ، وشفيق راقم .

أودعت القنابل الثلاثة هذا الدولاب ، فى حقيبة قماش كاكى ، خطر
ببالي أن ذلك مصير غير متوقّع لعدّة جماعة إرهابية صغيرة بزعامة
أحمد النمى .

كان أحمد النمى إخوانياً فى الأوّل ، لكنه نقل كلّ إيمانه وحماسه
إلى عقيدتنا الثورية التي ظلّ على ولائه لها طول عمره ، دون أن يخفى
ذلك ، حتى بعد أن طوّحت به الأيام ، يعلم الرياضيات - الجبر والهندسة
واللوغاريتمات - فى مدارس الأقاليم ثم فى السنغال . وانتقل بعدها إلى
أوربا يترجم وثائق منظمة الأمم المتحدة وهيئاتها فى جنيف وباريس
وقينا ، وكتب لى ، قبل أن يموت بقليل ، بطاقة بريدية فيها كل وحشة
العالم ووحشيتته ، بما يشفى على اليأس من كلّ شيء ، والتعلق مع ذلك
تعلقاً عنيداً بالحياة .

كنت قد اشتريت فائزة كبيرة اعتدت أن أضع فيها زهوراً يهديها إلى
جناينى فى البلدية كنت أريد أن «أجنّده» فى الحركة ، أو أغصاناً رفيعة
يابسة متلوّية أجمعها من على الرصيف ، وأقصها على نسق خاص أرى

فيه جمالاً خاصاً، فقد كانت عقيدتي أن الثورة لا يمكن أن تستغنى عن الجمال. وفي الوقت نفسه كانت الزهور والأغصان تنفع في التمويه على أعين الجيران المتلصصة فيظنوا أنني رسّام أو غاري فنّ.

وكان في الغرفة مع ذلك الصندوق الجستتير البدائي الزجاجي وأسطوانته المطاط، وكومودينو، وأباجورة. لم يكن فيها عندئذ لا كرسي ولا كليم ولا حصيرة ولا شيء. كانت عارية جداً، وعامرة مع ذلك بنفس حميم شخصي جداً.

ماذا حدث للقنابل الثلاثة والكتب النادرة والمخطوطات والمنشورات وأعداد نشرة «الكفاح الثوري»؟ ومطبعة الاستنسل البدائية؟ هل عرفت صاحبة البيت العجوز الطيبة التي استأجرت منها هذه الغرفة كيف تتصرف بهذه المواد المتفجرة فعلياً أو فكرياً على السواء؟ وكيف تخلّصت منها؟

لم أسأل نفسي قط: هل كانت المسألة كلها تستحق المغامرة؟ لعل المغامرة وحدها تبرر نفسها بنفسها.

مغامرة بالذات وبالمستقبل وبالأسرة، من أجل حلم بالعدالة وحلم بالحرية وحلم بالحب، أيقنت، من غير يقين نهائي، أنها كلها غير مستحيلة.

لم يكن أعضاء «الخلية الإرهابية» السابقة بعيدين عن متناول البوليس السياسي، ولكن لم أسأل نفسي قط لماذا لم يُعتقلوا معنا؟ ولكنني ظللت أسأل نفسي: هل هناك معنى ميتافيزيقي في كلّ العمل الثوري الذي انخرطنا فيه؟

بالتأكيد لم يكن هناك عندي أو عند معظمنا على الأقل، إن لم نكن جميعاً، أي سعى لمصلحة مهما مددنا من معنى ونطاق «المصلحة»، أو جرى وراء ظموح شخصي، بالعكس تماماً، كان قبولاً بالأخطار والتضحيات.

لماذا؟

هل هذا هو الذى يعطى إنسانيتنا معنىً فوق إنسانى؟

هل هذا هو ما يُسمى بالمقدس، بالإلهى؟

على الرغم من كل المفارقة الصارخة بين هذا وبين ما كنا نؤمن به
(نؤمن؟) من قبيل «المادية» بكل أنواعها، وإنكار كل ما هو «فوق
إنسانى»؟

أين المعنى؟

عندما عبرتُ بالعامرية، وتوغلت قليلاً فى صحراء كنجى مريوط
الخالية الموحشة كانت أنقاض مخازن الجيش البريطانى قد تقوّضت
تماماً، وتخطّف البدو، والزمن، ما بقى من أحجارها.

بين الأعشاب البرية الخشنة التى تنبثق من الرمال الشاسعة رأيت
صخرةً ضخمةً ملساء السطح تماماً، كأنها أزمان وإيونات سحيقة من
الشمس والرياح وصمت السماء قد صقلتها، وإن كانت حوافها ناتئة
وناعمة التدويرات.

انزلقت على الصخرة حيةً رفيعة الجسد، رأسها ملتصق بالسطح
الأملود، تتلوّى بسرعة وتنساب باندفاعة هوجاء ولكنها محكومة، ثم
سقطت ودفنت نفسها فى الرمال الساخنة.

جسدها المترع بالشهوة يرقص على أمواج الأشواق.

مازالت مشروعةً، ومبررةً.

الفصل الثالث

تختفى عايدة السوداء، على ترجيعات موسيقى فيردى والقبر
الفسيح يتخذ مقاييس إنسانية، ويحلّ في إهاب عايدة مثولاً للمجدلية،
ومن القبر تصعد تهليلات القيامة، وأنا أحيط بذراعى ظهرها الشامخ
العريض، أحيط بذراعى أنوثة العالم، أحيط جسم «عايدة» التي تهتز
برفق، على أمواج المينا الشرقية الرقراقة، يهدر المحرك، يتقلب زبد الموج
على الجانبين، تنصبّ دفقة المدفع على المبنى العريق المنيع وتسرى في
الجسم رعشة مع انطلاق الضربة واصطفاق الموج وهتافات الآلاف
المحتشدين على رصيف الميناء، «أورورا» تضرب فيشتعل سحاب سان
بطرسبرج وتتحرق سماء الإسكندرية الساجية. يتهاوى جدار «رأس الثين»
ويرد المدفع الضخم من ربوة سيدى بشر ويتردد صدى القصف المدوى في
صمت المدينة المطبق المفاجئ تتلوه رشاشات من أبراج المنتزه كابية الحمرة
التي طالما أرهبت الناس، بزخات متلاحقة ثابتة تستجيب لها - في تحدى
مقاومة تكاد تكون مستحيلة - طلقات بنادق قديمة من القناصة الثوريين
الكامنين وراء رمل ربوات المنذرة ومباريس باريس، رأيت الجموع تحاصر
قصر السلطان فؤاد في ميدان الأزهار تهتف بسقوط الطفافة وسمعت
أصداء إعلان الجمهورية في أقاليم مصر الثائرة وتعود بي الأيام إلى قصر
الخدوي الخائن توفيق إذ راودت الجمهورية أحلام العربيين، هل قامت
الجمهورية حقاً؟ جمهورية رويسبير، جمهورية الكوميون، جمهورية
أكتوبر، أم جمهورية محمد نجيب؟ يهبّ بحارة «كرونستاد» في فجر
اليوم المشهود من أكتوبر بالتاريخ القديم وتنطلق صفارتها ثابتة بأمل لا

يقبل الإسكات تردّ عليها صفارة «عايدة» ثم تصمت فجأة، وعلى الأرض أمام قصر الشتاء العتيد تهدير الجموع في جموح الاقتحام، أولاد أحمدات ينصبّون من حوارى بحرى والأنفوشى يتهاوى السور الحديدى تحت أقدامهم. ذئاب البحر تعوى، شباك الصيادين المرفوعة على الرمال قد رقت ثغراتها الأيدى الصبور الدؤوب، يجلبجل هدير الحشود المنتصرة إذ تتدفق على ردهات السراى العتيقة آلاف الأقدام الحافية أو المنتعلة تُفرق أرضياتها المفروشة بالسجاد العجمى الثمين، تحيط بأعمدتها الرخامية أذرع مفتولة صوّحتها شمس لا عداد لها فى قلب البحر المفتوح، لا طلقات مدفع التكريم الإحدى والعشرون ولا اصطفااف الحرس ولا رفقة الشوار تصحب الخروج المشين للطاغية منتفخ الأوداج، مصفد اليدين، انكسرت كبرياؤه، سترته البحرية البيضاء ملطخة بدماء الأبرياء الذين قضوا فى أوردى المنتزه والمعمورة أو فقدوا أصابع أيديهم وبُترت أقدامهم بفؤوس السُخرة. كم كان يرودنا ويروعنا، ونحن فى معتقل «أبو قير»، هاجس الترحيل للشغل قسراً فى أوردى مولانا لاستصلاح الأرض الرملية الصخرية وتحويلها إلى جناين وبساتين، من وراء الجسم الثقيل المترهل، فى الطريق إلى «عايدة» قافلة البنات فى فساتينهن الحريرية ملاصقات بعضهن ببعض من فرق المصير المجهول، ومعهن سيدة القصر البضة تحمل طفلها الوليد، وأما البنات فإن وجوههن الجميلة مازالت بريئة الشكل من غير أبهة البرنسياس، أما السيدة فكأنما لا شأن لها بكل ما يجرى. جرس «أورورا» يصلصل فى بهجة تُنير آفاق الروح من غير نهاية، مآذن سيدى أبى العباس المرسى تعلو منها هتفات مليئة: الله أكبر الله أكبر النصر للشعب تغمر بيوت المدينة المتلاصقة تساند بعضها بعضاً، زغاريد نسوان السيالة وباب الكرسته تفتتح لها مغاليق القلوب وتبتل لها أرصفة الفحم والخشب فى الميناء.

ذرعتُ شوارع وسط البلد التى بدت فى الصباح الباكر موحشة

مهجورة، واجهات المحال التجارية الكبرى في شوارع شريف وطوسون وفؤاد قد أسدلت عليها السواتر الحديدية، توقفت الحركة في البنوك والشركات التي صرفت موظفيها وعمّالها إلى بيوتهم، حتى دكاكين البقالة والخردوات وصغار الحرفيين أنزلت مصاريعها إلى النصف أو وارتت أبوابها أو أغلقتها بالضبة والمفتاح.

في الجو كله توتر كهربى، وفي صمت مشحون بالترقب سمعت قلقلة عربات الترام في شارع سعيد.

صعدت سلالم البيت الهادئ في الشارع الصغير العريض خلف مبنى المحكمة، هبّ على هواء البحر المبلول وسمعت صوت ارتطام الموج بسور المينا الشرقي من وراء البيوت التي خيل إلى أنها ساكنة متوجسة.

طرقت باب شقة صديقي أنطوان خير الله. فتحت لي أخته آرييت، كان شعرها الأسود الطويل ينسدل في فوضى حول وجهها البيضاوى الشمعى قليلاً، لم تكن ترتاح إلى كثيراً، رحبت بي فيما يشبه البرود تقريباً. وقالت على الفور: أنطوان لسه في الشركة، ماجاش. وصمت قليلاً ثم قالت بتردد: اتفضل. فشكرتها بسرعة ورجعت إلى شارع طوسون، أحسست أن جو وسط البلد مُنذر ومتربّص مما ألهمنى بنوع من النشوة وعلو القلب ودفق الحماسة، كانت «الميساجيرى ماريتيم» مطفأة الأنوار موصدة الباب، لكنى ضغطت على الجرس بقوة وإصرار. فتح لي أنطوان محاذراً متوجساً فلما رآنى قال لى: «ادخل بسرعة - بسرعة». كان وحده يراجع أوراقاً للشركة في غرفة خلفية قلت له: «استمر أنت في شغلك. هات لى ورقة حوير إستنسل». نظر إلى بتساؤل لكنه لم يسأل، أعطانى الورقة والقلم المعدنى حاد السن، بصمت.

كان أنطوان قد اشتغل معى فى مخزن البحرية البريطانية فترة صيف قصيرة منذ سنتين، توثقت بيننا صداقة، حدثته طويلاً عما يشغلنى، استطعت أن أعتبره قريباً من حلقتنا الثورية إن لم يكن عضواً عاملاً

بالضبط . كان يسمح لي - وحدي - باستخدام مطبعة الإستنسل الضخمة المعدة إعداداً جيداً ، في «المساجيري ماريتيم» التي كان - علي صغر سنه - قد شغل بها وظيفة إدارية مرموقة وبدأ يرقى درجات في مناصبها مما أتاح له أن يفض النظر عن أنني أفيد من معدّات الشركة التي اعتبرتها «مؤسّسة استعمارية» .

كان قد تخرج حديثاً من اليسييه فرانسيه ، لم يلتحق بالجامعة ، لكنه كان شغوفاً بالأدب يقرأ روايات جورج ديهاميل وأندريه موروا وأشعار هيجو ولامارتين ، قرأ لي مخطوطات أولى لقصص وأشعار كنت قد احتفظت بها وتكونت منها مادة خام وأحياناً نصوص كاملة تقريباً لمجموعتي القصصية الأولى ، ولعله كان يقدر ما اعتبره مني كفاحاً عنيداً متعدد الأوجه ، إذ واصلت دراستي في كلية الحقوق مع شغلي في المخزن ونشاطي المستميت في العمل الثوري مع قراءات لا تهن في الآداب والثقافات ، ولعله كان يجد في ذلك كله شيئاً مما تمنى أن يحققه لنفسه . وكنت أزورهم في بيتهم ، تعرّفتُ علي أخته آرليت وأوديت التي كنت أحياناً أشرب معها كأساً في سكارابيه علي الكورنيش ، وأواعدها علي سينما فؤاد أو سينما عدن ، وأخلط بينها في فانتازياتي وبين دولتي التي تسكن تحتنا في بيت ابن زهر وتكتب لي رسائل غرامية تبعث بها إلي في طوايا «روايات الجيب» .

كان أبوه يملك محلّ بقالة في شارع امبرواز رالي في اسبورتنج ، لبنانياً صرفاً حتى لو كان ولد وتربى في مصر ، مازال يتكلم باللهجة اللبنانية ، وأمه تنظر إليّ - علي نحوٍ ما - مثل كل الأمهات علي اعتبار أنني عريس محتمل لأوديت ، مع حرص البالغ ، زيادة عن اللزوم ، علي ألا أتورط ولو بكلمة واحدة في هذا السياق كلّه .

كنت ومازلت ، أعتز بصداقة أنطوان ، وعندما أصابته مسّة من ذرن في الرئة أقمت معه أياماً في فندق «مون ريبو» في كنجي مريبوط ،

وعندما سافر للاستشفاء في بحدون كتب لى رسائل بالفرنسية الكلاسيكية تفيض محبةً وشجناً وكآبة تذكرنى بالفريد دى موسيه . وبعد أن مرّت سنوآت ، ولأنه كان ذكياً ودؤوباً وعلى إمام لا بأس به بأمور الثقافة والسياسة - هل كنت قد أسهمت فى ذلك بنصيب ؟ لا أدرى - وصل إلى أن عهد إليه بإدارة مكتب الإسكندرية - ثم مكتب القاهرة - لشركة «إير فرانس» . ولكنه بعد أن تزوج «لبنانية مصرية» لا تكاد تعرف العربية ولا تكاد تعرف مصر ، هاجر فى ١٩٥٧ إلى بيروت واشتغل فى شركة طيران تاروم الرومانية ، فى وظيفة غير قيادية ، وخلف ولداً وبناتاً كلاهما الآن فى واشنطن ، انقطعت صلته بى ، فقدت عنوانه وشبّت الحرب فى لبنان ، ولم يعن من جانبه أن يصل ما انقطع إذ إن عنوانى - أنا - لم يتغير .

عرفت بعد سنوآت طوال أن ابنه وبنته تركاه للدراسة فى أمريكا ، ثم قررا البقاء فيها ، وتركاه فى بيروت لنوبات حادة وطويلة من الاكتئاب كانت تعتريه فى غربته ، فقد كان مصرياً حتى النخاع ولو كان يرفض ذلك ، ومات فى غمار إحدى هذه النوبات التى كان ينقطع فيها عن الكلام وعن الأكل وعن الحياة كلها .

كنت قد أملت ببيروت قبل اندلاع الحرب الأهلية عندما زرته لآخر مرة ، فى شقته شبه الخاوية فى «سن الفيل» . كان إريك ابنه لبنانياً صغيراً صرفاً ، يهتف بحياة الرئيس شمعون ويترنم بأناشيد فرنسية تمجد العلم اللبناني والأرزوسان مارون ، لا أذكر أننى فى تلك الزيارة رأيت ولهمينا بنته لكنها زارتنى بعد ذلك بأكثر من عشرين سنة عندما عرفت أننى أتقصى أخبار أنطوان ، ولم أكن قد عرفت بعد نبأ موته ، جاءت للقاهرة من واشنطن فى مؤتمر للمنظمة الدولية التى تعمل بها ولم يكن عندها إلا ساعات قلائل فى مصر ، هاتفتنى وجاءت لمدة نصف ساعة ليلاً ، وفوجئت وتزلزل قلبى إذ رأيت فيها وجه أنطوان الأثير

المألوف كما كنت أعرفه في تلك الأربعينيات الزاهرة، الخالق الناطق وجهه ينسدل حوله شعر عمتها آرليت الأسود الناعم. كنت على سفر صباح الغداة ولم يأتني النوم ليلتها إلا غراراً.

ابتسمت لنفسي بقدر من الأسى، وربما التفجع، عندما تذكرت أنه كان يسخر مني إذ كنت - قبل أن تؤسس حلقتنا الثورية - كلما مررت بجندى إنجليزى أو أسترالى بصقت على الأرض بحركة رفض واحتقار صبيانية. قال: هل سيخرج الإنجليز لأنك تبصق على الأرض كلما رأيتهم؟ وبعد سنوات قليلة وقبل أن يهاجر قال لى: على أية حال لن يذكر التاريخ باعتبارك ثورياً عظيماً أو محرراً للبلد، ربما يذكر اسمك بالبنت الصغير فى هامش من هامش كتب تاريخ الأدب.

فهل مازال ذلك يوجعنى؟

يومها، على مسئوليتى وبمبادرة فردية لعلها كانت مفروضة لى من «اللجنة التنفيذية» بشكل مضمّر، كتبت بالقلم المعدنى على ورقة حرير الإستنسل صفحة من «الكفاح الثورى» فى صيغة منشور يدعو «الجماهير إلى الجهاد فى سبيل الاستقلال والحرية» وأنهيت المنشور بالهتاف: تحيا مصر، يسقط الاستعمار، تسقط الملكية الفاشستية، تحيا الجمهورية، تحيا الاشتراكية، على الرغم من الاختلاف المحتدم فى اللجنة حول ما كان قاسم إسحاق يسميه «الوثب على المراحل» وضرورة الالتزام بالتدرج فى الدعوة للجمهورية والاشتراكية.

دخلت الغرفة الخلفية وأدرت مطبعة الإستنسل بحرص وفاحت رائحة الحبر وجاءت النسخ الأولى ملثثة بالسواد مضطربة الحواف وبعد فساد نحو عشر نسخ أو أكثر اتسق الجهاز واستطعت بسرعة أن أنهى نحو مائة نسخة لم أكد أصبر عليها حتى يجف حبرها الطرى، أحرقت ورقة الحرير الإستنسل واستوثقت من أنها استحالت رماداً، جمعت النسخ الأولى الفاسدة من «الكفاح الثورى» فى لفة مدورة وضعتها فى

جيب معطفي الراقى من المطر الأزرق الداكن الواسع، أما المائة نسخة الصالحة فقد أودعتها ملفاً كبيراً استرقته من مخزن «المساجيرى ماريتم». سلّمتُ على أنطوان الذى رَمَقَ ما أحمل ولم يسألنى مرةً أخرى عن شيء، أمسكت بالملف الكبير بعناية، كما يمسك أى موظف أو طالب بملفاته، وفي غمار نهار الثلاثاء ١٢ فبراير ١٩٤٦ وجدت «الكفاح الثورى» طريقها فى حشود المتظاهرين.

كان واهور الزلط فى شارع صفية زغلول يرصف قطاعاً من أسفلت الشارع، حوله ثلاثة عمال وضعوا على أجسامهم القضيصة شوالات خيش مقطوعة الأكمام تبدو منها أذرع نحيلة مفتولة العضل، النار تنزّ تحت قدر ضخّم أسود مدبّب الفوهة يغلى فيه الزيت برائحة نفاذة، يصبّون الزيت الدائب كثيف القوام على الأرض، يقرشونه، بما يشبه سكيناً عريضة مسطحة، على أرض الشارع، إذ يتصاعد منه هبّو أبيض محرق فى شمس الظهر. ذهب قلبى إليهم، فى سداجتته.

بالأمس الاثنين ١١ فبراير ١٩٤٦ كان اجتماع اللجنة فى بيت عضويتها عبد القادر وعبد الفتاح خلف الله، ٧ شارع العباسى، محرم بيه، اجتماعاً عاصفاً وحاشداً.

كانت البلد تغلى بعد معركة كوبرى عباس يوم ٩ فبراير. جامعة فاروق الأول أعلنت الإضراب العام يومها، تلاطمت التيارات السياسية فى صفوف طلابها، انعقدت الاجتماعات الساخنة، علنية وسرية.

أوفدت «المنظمة المصرية للتحرير الوطنى» و«منظمة الشرارة» والجماعات الأخرى مندوبيها للإسكندرية، كنا على اتصال بشكل ما بهذه الجماعات التى قررنا، بأغلبية حرجة، أن نقف معها فى العمل الوطنى مع احتفاظنا باستقلالنا وحرصنا باستمرار على تأكيد مواقفنا

ضد السطوة الستالينية، لم تكن على صلة «تنظيمية» بأية جماعة في القاهرة، ومع ذلك لم تكن حلقتنا تحس بأى قدر من العزلة أو الانفصال، بل كانت صلاتنا بقيادات و«عناصر» عمالية ونقابية قد بدأت تترسخ، وكان لنا نفوذ معنوي، أو على الأقل سمعة ومكانة - إن إيجاباً وإن سلباً - في الأوساط الجامعية والمراحل الأخيرة من بعض المدارس الثانوية. وعلى صغر عددنا، وافتقارنا صرامة التنظيم، وتباين أفكارنا بل اضطرابها، كان يملؤنا إحساس بالأمل والثقة وطموح لا تكاد تحده حدود. كنت قد كتبت كل هواجس السؤال كتباً تاماً.

عندما اكتمل عقدنا، أو كاد، نقل إلينا قاسم إسحاق اعتذار كامل الصاوي عن تخلفه، فقد كان مشغولاً بترجمة كتاب لم يرَ النور قط، عن هيجل، كان كامل أرسقراطى السلوك تقريباً. زرته مرةً أنا وقاسم إسحاق، صديقه وصفيه الوحيد، في شقته الفخمة بشارع الرصافة، رحب بنا ببرودٍ عزوته إلى سمات البورجوازيين المعتادة. وكان في الشقة عبقٌ نسوي يتبدى خاصة في الستائر القطيفة ووراءها ستائر شفافة بيضاء ناصعة، ورائحة يارفان «سواردي پاری» والبيانو الأسود اللامع الرابض في الردهة، والسجاجيد الوثيرة تحت أقدامنا.

كان كامل الصاوي يبدو لي مترفعاً كأنه يحتقرنا إلى حد ما، يرى فينا جماعة من الهمج الانفعاليين الذين جاءوا إلى الثورة بحافز من عواطف ومثاليات الطبقة الوسطى الصغيرة في أدنى فئاتها، أما هو فقد قال لنا إنه اعتنق الماركسية لأسباب عقلية صرفة وعملية أساساً، لا شأن له بمسائل مثل «العدالة» بمعناها الانفعالي، كما قال، أو المساواة بين مصائر الناس، وما شابه ذلك، إنما كان الأمر في يقينه حتمية تاريخية يفرضها التحليل المنطقي والتاريخي الموضوعي، قال باستهانة غير مضمون بها: «وهو شيء بعيد عن جيشان القلوب ونوازع الأرواح».

كان كامل الصاوي طويلاً، له كرشٌ صغيرة، أنيق الملابس دائماً،

يعقد حول ياقة قميصه يابيون رشيقياً، ويضع نظارة مدوّرة بسلك رفيع، ويطلق سكسوكة مشدبةً بعناية تحت ذقنه حتى يزداد شبهاً بزعيمة الروحيّ يعنى العقليّ على الأرجح، وكانت لهجته في الكلام حادةً مقطّعة مبتورة على طريقة الإنجليز.

سوف يتخرّج معنا من كلية الحقوق ويلتحق بسلك النيابة العمومية ويموت محترقاً في فاجعة لا يُعرف على وجه التحقيق إن كانت انتحاراً مقصوداً يحفزه اليأس أو الحسّ بخذلان المبدأ أو الشرخ الذي لا بوء له بين عقيدته العقلية وعمله في جهاز الدولة، أم كان الحريق الذي التهم سريره ومات فيه جاء عن عقب سيجارة «قضاءً وقدرًا» كما انتهت إليه تحقيقات زملائه في النيابة إذ طوى ملفه بسرعة وكتمان.

ثم دخل فتوح القفاص، وفي ركن فمه سيجارة «بول مول» متوهّجة ينفث دخانها، متأخراً كعادته عن ميعاد الاجتماع بنحو عشرين دقيقة دعوتُ فيها إلى الانتظار ونجحت في الإقناع، في مواجهة اتجاه غالب إلى البدء رسمياً دون انتظار لأحد، كما كان أحمد التمس يقول بعنفه واندفاعه الذي لم يكن يقلّ عن اندفاع فتوح القفاص نفسه في احتداد المناقشات واتقاد المنازع.

اتخذ فتوح القفاص جلسته المعتادة، على الأرض، وفتح كتاب «الفوضوية» لهربرت ريد، بالإنجليزية، وتظاهر بالقراءة فيه، ونبّه قاسم إسحاق بجديّة الرئاسة وأقدميّة الخبرة أن أغلق كتابك الآن يا زميل وخلّك معنا، فأغلق الكتاب بصوت مسموع وقال: «طيب أهه، قولوا إذن ما تريدون، هل أنا أمنعكم».

كانت الغرفة المغلقة قد بدأت تعبق بدخان السجائر وتوتر الأهواء. وبصبر وبصوت هادئ مكبوح الانفعال وبدعوة من قاسم إسحاق عدت بنود جدول الأعمال:

١- تنظيم مظاهرة

٢- طبع عدد جديد من «الكفاح الثورى»

٣- الاتصال بالقيادات النقابية لتنسيق الإضراب معها

٤- توزيع المسئوليات

تدخل فتوح القفاص مقتحماً، من غير أن يمنحه رئيس الجلسة إذناً بالكلام، وقال إنه قبل كل شيء وقبل تناول التفاصيل العملية، علينا أن نوضح الآن، على الفور، موقفنا المبدئى من مسألة الديمقراطية المركزية، وحرية المواقف، ومسألة اضمحلال الدولة أو إلغائها.

ثارت ضجة مختلطة الأصوات، كان صوت أحمد النمى، مع بحثه، أكثرها ارتفاعاً واحتداداً وبه نبرة دفاع عن النفس فيما لم يكن ثم اتهام، أما احتجاج عبد القادر فقد كان هادئ الإيقاع بل بطيئاً، وكان صمت عبد الفتاح له دلالة واضحة على الاستياء والرفض.

أما على أبو الليل، وهو العامل - أو الحرفى - الوحيد من أعضاء ما كنا نسميه اللجنة التنفيذية، فقد جلس مطرقاً برأسه الضخم الأصلع، ووجهه الطويل داكن اللون دقيق التقاطيع، يحدق فى الأرض كأنه يعكف على نحت كعب عالٍ لخداء حريمى يرقق صنعته ويرهف انسجام خرطته، لم يكن فى العادة يتكلم أو يشارك فى الجدل أو فى التنظيم، بل كان يومئ برأسه موافقاً، أو ينفجر يقول «لا» بصوت عالٍ أجش قاطع، عندما لا يؤيد موقفاً أو ينكر عبارة ما، وما أندر ما كان يحدث ذلك، بل ما أندر ما كان يواظب على حضور اجتماعات اللجنة ويكتفى بأن يحضر ما كنا نسميه «المكتب السياسى» المكون من قاسم إسحاق رئيساً، ومنى، وعلى أبو الليل، عضوين، وعندما كنا نستعرض خطة أو نقرأ مسودة بيان أو مشروع برنامج عمل كان أيضاً يصغر برأسه وينغضه موافقاً، أو يعدل الكلمات أو الترتيبات باختصارٍ خشنٍ لعله مقصوداً أن يكون فظاً على نحو ما، لكى يؤكد أنه هو الطبقة العاملة

الكادحة بين المثقفين البورجوازيين المنحازين للطبقة العاملة أمثالنا .
أخذ قاسم إسحاق يدق على المائدة الصغيرة أمامه بقلمه فلا يكاد
يسمعه أحد حتى هدأت الضجّة . اقترحت أن نرجئ مناقشة ما أثاره
فتوح القفاص إلى أن تنتهي من جدول الأعمال ، ووافق فتوح موافقةً
ضمنية بأن لم يتكلم .

اقترح قاسم إسحاق ، بشيء من المضمض وربما الملل ، أن يتولى
«السكرتير العام» شرح بنود جدول الأعمال .

سارت المناقشات بنعومة نسبية إذ فصلت خطّة سير المظاهرة من ربوة
العباسية الثانوية (التي أصبحت جامعة فاروق الأول) حتى شارع
إيزيس ، ثم راغب باشا ، وبعد انضمام عمال الخاليج والمطاحن تنعرج إلى
شارع كرموز حيث تلتقى بالكتلة العمالية الكبيرة ، مع محاولة أن تسير
المظاهرة في مجموعات صغيرة متفرقة لكي لا تصطدم بالبوليس حتى
التقائها بحشود عمال فاوريكة الغزل والنسيج في كرموز .

وتطرفت بعد ذلك مباشرة إلى اقتراح بتوزيع المسؤوليات على أن
يكون عبد القادر مسؤولاً عن طلاب كلية الطب ، ويتولى أحمد النميس
ومجموعته تحريك طلاب كلية العلوم وكلية الهندسة ، وأن يوجه قاسم
إسحاق الهتافات في حدود المطالب الوطنية وعليه إحباط الهتافات
الاستفزازية ، وكانت مهمتي تنحصر أولاً في طبع عدد خاص من
«الكفاح الثوري» وثانياً في الاتصال بقيادات عمالية ، ليست في واقع
الأمر أكثر من عنصرين لم أذكر اسميهما بطبيعة الحال هما سلامة
البشلاوي وشاكر المريوطي . أما فتوح القفاص فقد اقترحت أن يقوم
باستخلاص النتائج وبيان الإيجابيات والسلبيات وعرض تقرير إجمالي
على اللجنة في اجتماعها القادم .

أما علي أبو الليل فلم نعهد إليه بمسئولية محددة يومها إذ كان له
تاريخ طويل معروف وكان البوليس السياسي يراقب تحركاته

واتصالاته، قُبض عليه بينما كان صبياً مرتين من قبل، مرة في مظاهرات ١٩٣٥ ومرة بعد معاهدة ١٩٣٦ إذ أعلنت مجموعة عمالية صغيرة بقيادته عن الاعتصام احتجاجاً على عدم تمثيل العمال في وفد المفاوضات الذي أبرم هذه المعاهدة. وفي المرتين أودع سجن الحضرة لفترة طويلة في قضايا لم يُقدم فيها للمحاكمة قط.

انفجرت العاصفة.

وقف فتوح القفاص فجأة، منفِعلاً مستشاراً إلى آخر مدى، هدد بالانسحاب من اللجنة ومن الحركة كلها، وبفضح «ممارساتنا الديكتاتورية» ما لم نناقش على الفور مسألة الديمقراطية المركزية التي قال عنها من الآن إنها ليست ديمقراطية أبداً بل هي ديكتاتورية مُقنَّعة، واستفاض مباشرة في الكلام عن مزاعم أن حرية المناقشة والإقناع أو العكس مضمونة بلا حدود هي مجرد دعاوى لا أساس لها لأن الالتزام التزاماً صارماً برأى الأغلبية باعتباره أعلى درجات التوفيق بين الديمقراطية وفعالية العمل الثوري ليس إقناعاً لفرض رأي واحد وإلزام من هو غير مقتنع به أصلاً باتباعه وتنفيذه، وهو ما يتنافى مع الفطرة الإنسانية نفسها.

كان في أثناء ذلك يروح ويجيء في الفرفة الضيقة يصطدم بالكراسي وبالكنبية وبالمائدة، يتطاير من فمه المنهال بالكلام رذاذ الانفعال، وكان من المفروض عندئذ أن يكبح قاسم إسحاق، باعتباره الرئيس، جموح هذا السيل الانفعالي المنهمر، لكنني بادرت بالرد.

كان قاسم إسحاق صديقي القديم من أيام أخميم - كنا نناديه أحياناً مصطفى، من نحو ست سنوات، حين كنا مازلنا صبياناً أكبر من أعمارنا وأكثر نضجاً، عندما اشتركنا في حركة عمال أنوال النسيج ووقفنا إلى جانب الفلاحين في معركتهم مع الإدارة والمقاول نجيب حسن دياب، في نجع خور - كان أثناء هجمة فتوح القفاص بالكلام يحس أن زعامته أو

رئاسته مهتدة أو توضع موضع الشك ، لكنه أثر ألا يعتقد الموقف بالدخول فى صراع.

أحمد النمى لم يترك لى مهلة حتى أبدأ النقاش النظرى الذى أريده هادئاً متعلقاً فأحاول أن أوجز بقدر المستطاع مسألة الاتساق النهائى بين حرية الآراء والسعى إلى البرهنة على صحة الموقف بالحجة والمنطق من ناحية ، وبين كفاءة الأداء بعد استنفاد إمكانيات الجدل والحوار ، قام أحمد النمى بعنف فسقط كرسيه إلى الخلف بصوت ارتطام حاد ، وصاح أنه هو الذى سينسحب من الحركة ومن اللجنة ويعود إلى العمل الفردى إن لم توقف هذه المجادلة التى أسماها بيزنطية واستفزازية بينما البلد تشتعل بالثورة ويسقط الشهداء والجرحى كل يوم بالعشرات والمئات يقدمون حياتهم وحريرتهم بالفعل قرباناً للوطن وبالفعل لا بشقشقة الكلام .

أحسست إن خطأ وإن صواباً ، أنه على صحة موقف أحمد النمى نسبياً فيما يتعلق بمصادقية الجدل النظرى فى هذه الظروف وأولوية الفعل الثورى فإن هذا التهديد الجديد بالانسحاب - وهو خطأ كامل - إنما يخفى وراءه - أو لا يكاد يخفى - نوعاً من التحدى لكلينا : قاسم إسحاق وأنا ، نوعاً من تأكيد الذات ومطالبة القيادة ، فى اللجنة . لكنى ، مثل قاسم إسحاق ، آثرت أن أرجئ علاج هذا الموقف الذى اعتبرته تخريبياً فى المحصلة ، مع تسليمى بصدق نوايا أحمد وإخلاصه التام (أو المشكوك فيه قليلاً؟) قال : أؤكد على العمل ، على الفعل ، مع ارتباطى واحترامى للقضية النظرية .

قلت : المنهج وليس القضية .

قال بشيء من الغضب ، ولعله الغيظ :

- المنهج يا سيدى ، المنهج ، ما غلطناش فى البخارى .

كنت بيوريتانياً وشديد الصرامة فرددت على الفور :

- يا زميل ليس فى هذا مجال للاستخفاف أو السخرية . هناك مسائل

جادة لا تحمل الاستهانة أو المزاح.

قال على الفور بشجاعة الاعتراف بالخطأ، أو لعله ذكاء المناورة:
- آسف. لم أكن أقصد أبداً، هذا فقط ما يجرى على اللسان دون
قصد إلى استهانة أو إساءة. آسف.

قلت: خلاص، حصل خير. أنا أيضاً آسف لاحتدادى المفاجئ.
هل أستطيع أن أنكر أن شيئاً ما فى حِسِّى، كان يندرنى بأن المسألة
لم تكن عدتْ على خير.

مع جو العنف فى اجتماعاتنا هذه، وانقلاب النظام فى تناوب
الكلام، وانفجار المنازع الشخصية، فقد أحسست على نحوٍ ما بإحساس
أتباع الدين الجديد فى أقباء كنائس الإسكندرية السرية بعيداً عن أعين
الرومان أو البيزنطيين سواء، يلوذون بإيمان مطلق هم على استعداد تام
للاستشهاد فى سبيله، على تنوع فهمهم للألوهية والتجسد ومكانة
يسوع المصلوب فى الثالوث الإلهى، على غرار تنوع فهمنا للحرية
والديمقراطية ومكانة الحزب الطليعى فى آليات الثورة والدولة.

ما زالت نبرة أصوات قاسم وفتوح وأحمد تتردد فى مسامعى بعد
أكثر من نصف قرن، الأصوات مهمة، هل يمكن أن نفصل الصوت عن
الإنسان؟ قد يحدث هذا فعلاً، شئنا أم لم نشأ. الإنسان الواحد أكثر من
واحد، صوت الإنسان قد لا يكون هو كل الإنسان، وقد يشئ بجوهره،
عندما لا يأتى زائفاً ولا خارجياً. الصوت عندئذ نقى غير مشوب، قلت:
ليس هذا مقنعاً، أيمكن أن ينبثق النقاء من الرذغة الموحلة؟ قلت: نعم،
نعم، طبعاً. ألا تونع زهرة اللوتس من الطمى اللزج؟ ألا تتفتح الزهرة
الطهور من الطينة السيخة؟.

قلت: أصواتهم أسقطت أقنعتهم.

عندما خرجت من بيت أنطوان خير الله، بعد الظهر، كانت المدينة
قد استعادت شيئاً من اعتياديتها، رجع أصحاب الدكاكين الصغيرة، إلى

شغلهم وأكل عيشهم، لكن شارع فؤاد كان أهدأ، وأنظف، فيما خيل
إليّ، من المعتاد.

كان صديقي الرسام أحمد قنديل في مرسومه الذي يقع في بدروم
«الأتيليه» القديم.

كنت على غير علم منه قد أودعت مرسومه مخطوطات ثورية وضعتُ
فيها ما أسميته «فجر الحركة في الإسكندرية» وسوف أعيد كتابتها بخط
ميكروسكوبى منمنم على ورق البافرا الشفاف، وسوف أصنع مما يكون
كراسة متوسطة أسطوانة صغيرة أُغلق عليها علبة صفيح إغلاقاً محكماً،
وأدفنها في رمال معتقل أبو قير، تحوطاً من وقوعها في أيدي البوليس
السياسي، وعندما نُقلنا فجأة إلى معتقل الطور لم يُتَح لي أن أستنقذها.
فهل ظلّ «فجر الحركة» كتاباً مخطوطاً مدفوناً في الرمل حتى الآن؟ أم أنسى
- على أية حال - أخلط بين الوقائع والتواريخ وأصنع من الحقائق خيالات
ومن الأوهام أحداثاً إذا لم تكن قد وقعت بالفعل فقد كان ينبغي أن تحدث؟
لا، بل حدث.

دخلت من باب «الأتيليه» القديم المشغول بحديد مصاغ على شكل
أوراق ملتوية وأزهار متفتحة، درتُ حول المبنى واسخ الأحجار، على
أرض ممشى الجنينة الصغيرة المخضوضرة بعشب غير معتنى به تماماً،
ولذلك فطرى ناضر غير مدجن.

لحقت أحمد قنديل من نصف النافذة الأرضية المطلّة على ممشى
الجنينة، أمام لوحة نصف منتهية.

أكملت دررتي حول المبنى ونزلت درجتين إلى قبو الرسم.
كان أحمد قنديل يملأ الفرشة بألوان بنية محترقة ثم يثني عليها
بخضرة زاهية وكانت رائحة الزيت والترابنتين والجواش تنفذ إلى وتهبج
عندي حساً بالشبق، كانت كتب الفنّ النادرة الشمينة ملقاة على الأرض
والكراسي والمائدة كيفما اتفق، وكانت فاطمة الموديل التي اعتاد أحمد

أن يستلهم منها عارياته، تقف عارية أمامه في درأ ركن الرسم، تحت أشعة شمس بعد الظهر المائلة التي تنفذ من نصف النافذة تتخذ وضعها المؤلف، كنت من نحو أسبوعين ثلاثة حاولت أن أرسمها بالقلم الفحم على ورق أبيض باعتباري رساماً هاوياً يضع على الورق تصوّره لعارية إسكندرانى بنت بلد.

لم تكن فاطمة جميلة القسمات بالمعايير المتواضع عليها، كان وجهها مائلاً للسُمرة، وأنفها كبيراً إلى حد ما، وشفتاها ضاربتين إلى لون اللّمي الداكن، تعصب شعرها بعصابة حمراء عريضة، وتضع قرطاً طويلاً ذهبى المظهر يهتز عند أدنى حركة منها ولا تخلعه قط:

- والنبي يا بيه ده فاسوخه باتفاول بيه، ما نسلتوش أبداً من ودانى ولا بالطبل البلدى، يا حوستى...!

كانت عندما تأتي ترتزق برسم جسمها تلقى بملايتها اللفّ على جنب، وتخلع فستانها الكستور المشجر ثم قميصها الداخلى الفسدى بتقوية غير واسعة على الصدر من غير حمالات ومتهرئ قليلاً تحت الإبطين، وتسلت بسرعة لباسها المكشكش الواصل إلى ما تحت الركبتين، عندئذ يبدو جسمها ممشوقاً بديع التكوين، نهذاها السمراوان مشرئبان إلى أعلى بتدويره متماسكة وبطنها هضيم مسحوب، ردفاها مكتنزان فى غير ترهل، أسفل البطن أملس البشرة مربرب مقبب قليلاً منتوف بعناية أو منعم بالحلاوة على الطريقة التى تحسنها بنات البلد.

كانت ثم مدفأة كهربائية صغيرة تتقد فى جانب الرسم بينما آخر أشعة الشمس تأتي من نافذة الرسم التى تطل على المر المخضوضر تسقط على نهديها وبطنها وفخذيها تكسبها نضجاً ووهج اللون الحار. كانت عندما يستثيرها شيء - وما أندر ما تستثار - تضحك ضحكة لها عمق ممتلى وأجش ذكورى تقريباً، ولكنه أنشوى جداً وجنسى ومثير. عندما دخلت ارتعدت فجأة ثم قالت:

- بسم الله الرحمن الرحيم ، زوّعتني يا سى يوسف ، هو أنت
غريب ؟ ما غريب الا الشيطان .

فرغ أحمد قنديل من عمله ، أزاح الباب جانباً وقال إن عنده ميعاداً
فى الفريسكادور: لا تنسى أن تقفل الباب بالمفتاح .

كانت فاطمة ترتدى ملابسها ولم تكن تضع السوتيان على صدرها
الفتى مع أنها كانت أمّاً تجرى على أكل عيش ولدِ وبنّتين تربّيهم بطولها
وتعلمهم فى المدارس .

قالت لى مرّة إنها تضع وصفةً من العطار تجعل الصدر يقوم على حيله
ولا يتهدل ولا يرتخى ، وضحكت ضحكتها العميقة .

أدارت الملاية اللف بسرعة وحذق حول جسمها وقالت :

- والنبي يا سى يوسف تمشى معانا بس لغاية الجامع فى الأنفوشى
لحسن العساكر الإنجليز ولاد القحبة ما بيسيوش حدّ فى حاله ، بيبهلوا
الواحدة منا وحية المرسى أبو العباس ، دول خطفوا واحدة لا بيها ولا
عليها من حتتنا ، ركبوها الأتومبيل الحربى ، وعاديك عملوا فيها اللى ما
يتقال ولا يتسمى وبعدين يا ضنايا زموها على الكورنيش رمية الكلاب .
لوما ربنا ما ساق لها ولاد الحلال نجدوها ووصلوها البيت ، إيوه ياسى
يوسف ربنا ما يورى عدو ولا حبيب ، إحنا عايزين نروحوا بس بالسلامة
نوصلوا لغاية البيت جنب الجامع ويا دار ما دخلك شرّ .

عندما اقتربت منى قليلاً فوجئت بأن عينيها خضراوان ، بلون حقول
قصرية أمى فى الطرانة ، أو بلد أبى فى أخميم ، لماذا تظل ترودنى هذه
العيون الخضراء وأظل أعشقها حتى نهاية العمر ؟

كانت الحارة معتمة وقد حلّ الليل ، ولم تكن ثم مصابيح عندما
وصلت معها إلى بيت قديم مبنى من الحجر الانتري الذى اغرّ وحال
لونه وذاب لحمه بين الحواف من فعل رطوبة البحر وقد جاءنى صوت
ارتطامه بالشاطئ خافتاً ررتيباً وراء البيوت ، تحت رجلين يقفان على قمة

الحارة في زى الأعراب الأبيض ينشغلان بما يشبه الحديث الجاد بينهما .
تساءلت : هل بلغ من ذكاء مخبرى البوليس أن يتكروا على هذا
النحو ، كما نرى في أفلام هوليوود مثلاً؟ أم كانا بالفعل عابري سبيل لا
شأن لهما بما نفعل؟ وما شأن فاطمة على أية حال بما نفعل نحن
الثوريين؟ أم أنهم كانوا يقتفون آثارنا منذ خرجنا من وسط البلد؟
سلمت عليها دون لهوجة وخيل إلى أنها مضطربة ومتوترة قليلاً:
مع السلامة يا خويا ربنا يكتب لك في كل خطوة سلامة نشوفوا وشك
على خير إنشالله .

أنت في أذنى نبرة طفيفة تصورت أنها بدوية أو أعرابية في
كلماتها .

طرحت المسألة كلها خارج ذهني ، كنت مشغولاً بأشياء أخرى .
كانت لفة الملاية السوداء ناعمة النسيج الملفوفة بوثاقه حول جسمها
المدملج الأنيق تذكّرني بالملاية اللف السوداء التي كانت تحكم أمي
دورانها حول جسمها في الثلاثينيات عندما كنت صبياً أنظر إليها في
نوع من النفور وما يشبه الغيرة عليها من أنظار العابرين والحب الطفلي
لكل الأنوثة وملء الحنو في العالم .
ندفق في قلبي حنان لها لا يكاد يُطاق .

وعندما أحطتها بذراعي - وهي في الملاية اللف - لم تنأ بجانبها بل
اقتربت مني أهون اقتراب ، تركت لي جسدها أضمه برفق ، في ليل
الحارة الرقيق .

رفعت يدي إلى وجهها الذي بدا لي فجأة جميلاً وشهويّاً وضممته
إلى صدري ، وكأنا استندت به إلى ، نشقت رائحة حريفة من شعرها
تحت المنديل أبو أوية الأزرق الباهت والعصابة العريضة الحمراء .
رفعت إلى عينيها الخضراوين الواسعتين بصمتٍ وتوسّل ثم ابتعدت
قليلاً بهدوءٍ تامٍ وسبقتنى إلى الباب .

الفصل الرابع

كانت محطة الرمل غاية المظاهرة وبؤرة تجمّعها .
لكنها في ذلك اليوم لم تصل قط إلى غايتها .
نزلت في آخر محطة للترام وسرت في الشارع المظلل بشجر وارف
كثيف .

عبرت كوبرى النزهة الضيق الذى بدأت عتمته أول الليل تخفى
معالمه ، أحسست جريان الماء البطئ تحت الكوبرى ، وصعدت منه رائحة
عطنة قليلاً في ركود هواء آخر الشتاء ، وانعكاس أنوار متراقصة على
المياه المنسابة برفرفة هيّنة .

لم أكن أحمل ساعة قط ولكنى كنت أعرف الوقت تقريباً دقيقة
بدقيقة ، كنت أعرف مواقع الساعات الكبيرة فى المحلات والساحات ولا
أتردد فى سؤال العابرين وكان ميعادى الساعة السادسة تماماً فى القهوة
البلدى ، على جنب ، تحت كوبرى النزهة على الشاطئ الآخر . ومن فوق
الجسر التراي رأيت نور الكُلوّب الواحد يشع بضوئه الفضى بصوت
أزيز متصل تطير حوله سحابة متموجة من الهاموش تصعد وتهبط
بصمت ، والكراسى ذات المقاعد القش على مقربة من الماء وكركرة
الشيثة تعلو وتخفت .

نزلت محاذراً أن أتدحرج على دحذيرة الجسر ، لم يكن فى مظهرى
الرتب بشكل عام ما يختلف عن العمال والصناعية الذين يأخذون
لأنفسهم لحظة استرخاء مع الشاي الكوباية الثقيل والشيثة والمعسل
وربما الجوزة التى يفوح منها عبق الحشيش النفاذ المسكر قليلاً ، جاكته

زرقاء تبدو ملبوسة من سنين وبنطلون رمادى خفيف صوف مترهل
مغضن اختفت طيئته، وجزمة سوداء ضخمة، النظارة ذات الإطار الباغية
البنى السميك، قد تعطينى مظهر أفندى، كاتب فى مخزن مثلاً - هو
بالضبط شغلى - لكنها لا تجعلنى إلا بالكاد من طبقة مغايرة. وعندما
اندفعت نازلاً بأخر خطوة على منحدر الجسر الترابى الموحد قليلاً
جاءتنى دقائق ساعة الجامعة من راديو القهوة الخشبى الضخم ماركة
«باى» الموضوع على رف عالٍ تُضىء عينه الواحدة المستديرة بنور أخضر
ثابت التوهج.

كان شاكر المربوطى بوجهه النحيل العظمى وقامته المسحوبة منحنى
الظهر قليلاً جالساً على كرسيه القش، وأمامه ترابيزة معدنية مدورة
لامعة السطح.

قام بشيءٍ من الصعوبة وسلم على وصفق يديه وزعق بصوت أجشٍ
مبحوح قليلاً، اتنين شاي بوسته ياجدع.

كان ماء الحمودية قريباً جداً من مجلسنا على الشط، وشدة الشيثة
حولنا وعبق المعسل يكسب المجلس المفترض أنه سرى وثورى أنساً لعله
لا يتحقق قط إلا هنا، وبين ناسنا وأهلنا، رغم كل النظريات
والتجريدات.

وفى جيب جاكيتى مشروع برنامج العمل الثورى الذى استلهمناه
من بيانات طلبة جامعة فاروق الأول إذا أعلنوا الإضراب العام أول أمس،
ومن هتافات المظاهرات الغاضبة التى شبت فى مصر كلها من القاهرة إلى
أسوان ومن الزقازيق إلى شبين الكوم ومن طنطا إلى سمالوط، وصباح
اليوم عيد ميلاد الملك، إذ كنت أنا وعبد القادر خلف الله قد شاركنا فى
مظاهرة شارع إيزيس وعلى مقربة من قهوة الاكتع وبعد المقلاة التى لم
تغلق أبوابها اندفع ولد جدع من أولاد أحمدات إسكندرية ووثب فأنزل
صورة الملك فاروق الأول بالحجم الكبير المعلقة على المقهى وربماها فى

هبوطه العنيف على الأرض فتكسر زجاجها بصوت بدا هشناً وصغيراً وانقطع الحبل المدلى الذي علقت به كُريّات الزينة المدوّرة والملوّنة بالأحمر والأزرق والأصفر، انطفأت الأنوار من غير صوت، بادر أحد الأفندية الصغار - واضحٌ أنه طالب في الجامعة معنا - فنزع العلم الأخضر بنجومه الثلاث من على حبل الزينة ولوح به وهو يهتف: تحيا مصر حرة مستقلة، تحيا مصر ويسقط الطغيان، يسقط ملك النساء والحفّاء.

كنت قد استفضتُ في شرح وبيان مشروعنا لشاكر المريوطي، ونحن في القهوة البلدي، قلت: المشروع مبنى أساساً على برنامج اللجنة التحضيرية للجنة الوطنية للطلبة الذي انعقد في كلية طب قصر العينى في الصيف الماضى وعلى برنامج المؤتمر الوطنى لطلبة جامعة فاروق الأول المنعقد في ١٥ أكتوبر الماضى، إذ «كفر الطلبة بالزعماء واتجهوا إلى الشعب القوة الحقيقية» ولكننا أدخلنا على هذه البرامج تعديلاتنا الخاصة.

قلت مشروع برنامجنا يؤكد أن الكفاح بكل وسائل النضال وبخاصة المقاومة المسلحة من أجل الاستقلال الوطنى ليس فقط ضد الاحتلال العسكرى ولكنه أساساً ضد السيطرة الاستعمارية الاقتصادية والسياسية والثقافية وضد الخضوع لأية اتجاهات أيديولوجية تتنافى مع الحرية التى هى حق للفرد بقدر ما هى حق للمجتمع.

(كان إدخال كلمة أساساً قبل الكفاح ضد الخضوع للأيديولوجية مشار نقاش حاد بين الاتجاه «المحافظ»، إلى حد ما : قاسم إسحاق وعلى أبو الليل، وقد كان معارضاً لاعتباره أساسياً، وبين التيار «الفوضوى» الذى يمثله فتوح القفاص وانضم إليه أحمد النمى، وكنت أميل إلى هذا التيار فى كل الأحوال وإن لم أنصُر تحتَه تماماً. ولكنى لم أدخل هذه التفاصيل وأنا أعرض - بكل سذاجتى وإخلاصى الختام - هذا المشروع).

قلت: أما النقطة الثانية من البرنامج فهى أنه يجب القضاء على

عملاء الاستعمار المحليين وكبار المالىين المرتبطين بالاحتكارات الأجنبية -
وفي مقدمتهم الأسرة المالكة - والبورجوازيين الكبار والإقطاعيين . كانت
هذه النقطة موضع الإجماع ، وكان فتوح القفاص يريد إدخال «الكفاح
ضد عملاء الديكتاتورية الستالينية» ولكن اللجنة قررت إرجاء اتخاذ
موقف كهذا إلى فترة لاحقة وكانت حجتها القوية أن المرحلة الآن هي
أولاً مرحلة الكفاح ضد الاستعمار وعملائه وإن كان فتوح القفاص يرى
أنه كفاح متصل الجوانب ومتعدد الأطراف ولا يمكن ولا يجوز ، بل من
الخطأ الاستراتيجي فصل أحد جوانبه عن الجوانب الأخرى ولكنه كان
أقلية مكونة من واحد إذ امتنعت عن التصويت وأقرت الأغلبية صيغة
المشروع الأول .

كان شاكر منذ سنوات قليلة من قادة الحركة النقابية في مصنع
بولفار للغزل والنسيج بالقرب من النزهة ، وكان مشهوراً بصلابته
وعناده في المطالبة بحقوق العمال النقابية في العلاج والإجازة مدفوعة
الأجر وتحديد ساعات العمل والتأمين ضد الفصل التعسفي ، أسس لجنة
نقابية صغيرة في المصنع ثم توسعت النقابة فضمت مصانع أخرى أهمها
مصنع كرموز ، اعتقل وضرب وهدّده بالتشريد ولكن قوته كانت في
التفاف العمال حوله ووقوفهم معه بعناد فلم تستطع إدارة المصنع ولا
البوليس أن يشرّدوه ، لكن نشاطه الدائب وجهده المستميت في العمل
النقابي بعد ساعات العمل الشاقة في المصنع انتهى إلى إصابته بـدرن في
الرئة اليسرى استعصى بطبيعة الحال على الشفاء ، فما كان بمقدوره
الاستشفاء في مصحة حلوان لفترة طويلة مع ما كان متاحاً عندئذ من
علاج بدائي ، في الأربعينيات لم تكن المضادات الحيوية قد عرفت على
نطاق واسع ، وكان الدرّن أو ما يسمى السل داءً عضالاً وقاتلاً في نهاية
الأمر على سبيل الحتم . ما لم يتم تداركه بالراحة والغذاء الجيد .

كان ذلك كله يشغل ذهني وأنا أشرح له نقاط مشروعنا، قلت :
أما النقطة الثالثة فقد استقر رأي اللجنة على أنها نقطة تتعلق
بالتكتيك المرحلي وليس بالإستراتيجية العامة وهي أن طريق الوحدة
الوطنية للقوى المعارضة للاستعمار ولعملائه على أساس عمل جبهويّ
طريق مرحليّ بطبيعته من أجل إلحاق الهزيمة بالنظام الاستعماريّ.

قلت : تحت هذه المبادئ العامة كان مشروع برنامجنا ينطوي على
المطالبة بخطوات محددة أولها بطبيعة الحال جلاء القوات البريطانية عن
كل شبر من أرض الوطن بما في ذلك منطقة القنال ومنها - حتى في ذلك
الوقت المبكر - تأميم قناة السويس وتأميم البنوك والشركات الصناعية
الكبرى وأن تكون إدارتها من لجان العاملين مع عضوية استشارية بدون
حق التصويت في اتخاذ القرارات للخبراء والمديرين السابقين، ومنها
إسقاط معاهدة ١٩٣٦ ورفض المعاهدات التي تنطوي على تبعية
للمشروعات الاستعمارية أو على إقامة قواعد أو نقاط ارتكاز عسكرية
ضد المعسكر الاشتراكي الذي حددنا ضرورة الدفاع عنه مع ضرورة
الدعوة إلى دعم الديمقراطية فيه وتطهيره من البيروقراطية الحزبية التي
اغتصبت سلطة الشعب. ذلك كله تمهيداً لإسقاط طغيان الأسرة المالكة
والقضاء على حكم الإقطاع المتحالف تحالفاً عضويًا مع الاستعمار، وفي
سبيل إعلان الجمهورية الاشتراكية وفتح الطريق أمام الثورة الدائمة.

كنت قد نسيت كوب الشاي الثقيل أمامي على الترابيزة المعدنية
المقلقلة وأنا منهمك في شرح مشروع البرنامج تندفع بي الحماسة إلى أن
أجد صوتي قد ارتفع، التفت إلينا أصحاب الكيف وقد نزعوا لباسهم
الشيخة من أفواههم يحاولون الإصغاء إلى كلمات وأفكار تبدو صعبة
ومفاجئة ولكنهم يحسون بشكلٍ ما حرارتها وبساطتها. مضى بي الشرح :
آخر نقاط مشروع البرنامج ضرورة العمل على إنشاء وتنمية لجان
شعبية في الأحياء والمصانع والقرى وحتى ثكنات الجيش والبوليس

كأساس لإرساء أسس الديمقراطية والاشتراكية (وليس الديمقراطية الاشتراكية فقد كان حرف العطف «الواو» مثار جدل حاد انتهى بإقراره باعتبار أن الديمقراطية والاشتراكية مع أنهما صنوان ومقومان متساويان إلا أن الديمقراطية قد تحمل تفسيرات بوجوازية وأن إدماج الاشتراكية بها قد يكون خدعة لتمييع محتواها الاشتراكي الذي يجب تأكيده بالتساوق والتكافؤ مع الديمقراطية - ولكن ذلك كله تجنباً للديمقراطية الاشتراكية التي وسمت بها «الدولية الثانية» وقد خانت الاشتراكية في عقيدتنا كما خانتها «الدولية الثالثة» بعد انحسار عصرها المجيد أيام لينين وتروتسكي وأصبحت أداة في أيدي الستالينية ومرة أخرى لم أذكر لشاكر المريوطي حكاية هذا الجدل).

لم يكن ذلك كله - كما يبدو الآن بعد نصف قرن - مجرد رطانة أو شقشقة لفظية، بل كانت حميمية وحرارة إيماني بها تكشط عنها قشرة القالب المكرور لتكشف عن لحمها العضوي المنتفض بالحياة.

كنت قد قلت لهم: ليست هذه كلها، في نهاية الأمر، إلا شعارات فخمة، تجريدات، عبارات تنم عن مفهومات صحيحة لكنها بحاجة إلى ملئها بالطاقة الثورية الحقيقية. لأن المسألة هي كيف نخرج بممارسة الفعل من أسر الشعارات، حتى لا يصبح الشعار مجرد ترضية جوفاء مجرد تعويض عن العمل في قلب الواقع الاجتماعي والواقع الفردي على السواء، حتى يصبح للحرية معنى حقيقي.

كانت الورقة المنتزعة من كشكول الكلية أمامي على الترابيزة ونسمة هواء تهب من ناحية المحمودية فوضعتها تحت قعر كوب الشاي عندما دخل القهوة فجأة مخبران «سريان» بملابسهما المميّزة التقليدية عندئذ: بالبطون والعصا الخيزران والجزمة الميري الضخمة، وهما يهتفان: إوع يا جدع أنت وهوه وسع لحضرة الظابط. ودخل بعدهما ضابط بملابسه السوداء وعلى كتفه تاج ووراءه ضابط آخر بنجمتين فقط.

كُبْسَة .

كان معي ما يكفي للحكم عليّ بالسجن سنوات .
وضعت الورقة ببطء وما يشبه اللامبالاة في جيب بنطلوني الخلفي
وأشرت إلى شاكر أن يستمر في جلسته كما هو بينما أخذت كوب
الشاي بيدي وابتعدت بكرسي قليلاً وأدرت وجهي ناحية الترععة كأنني
وحدى .

انتحيت جانباً، بأهون حركة، أولاً حتى إذا قبض عليّ لا أورط شاكر
في القضية، وثانياً، وهو الأهم ربما، لكي أتفادي تهمة التآمر مع عناصر
عمالية ونقابية، أي مع ما كان يُسمى بلغة صدقي باشا، عناصر الشغب
والتخريب من الرعاع والدهماء، أو عناصر عميلة .
كان أُملي ألا يلفت مظهري الانتباه وهو مظهر رث عليّ أية حال بما
فيه الكفاية، لعل قلبي قد أسقط خفقة واحدة وإن احتفظت، فيما
يبدو، بالهدوء، فقد اتجهت الحملة مباشرة إلينا .

لكنها تجاوزتنا إلى آخر القهوة جنب النصبية . أخذ أحد المخبرين
بخرناق زبون ضخمة الجثة نزع من فمه مبسم الشيشة بعنف وحمل
الشيشة كلها، بينما أدخل المخبر الآخر يده بسرعة وخبرة إلى سيالة
جلبابه البلدي الذي يبدو غالي الشكل وأخرج منها كتلة رأيتها من بعيد
بنية اللون ملفوفة بورق زبدة شفاف وجاف .

تأبطه أحد المخبرين وأمسك الآخر بذراعه الأخرى ووقف الضابطان
لحظة ينظران إلى المشهد كله ببرود وما يشبه الروتين .

خرجت الحملة كلها إلى سيارة الفورد بوكس الواقفة على جسر
الترععة من فوق وسمعت صوت اصطفاق الباب الخلفي وزئير انطلاق
السيارة السريع .

لم أكد أصدق ما حدث .

كنا على وشك السقوط في فخ مطبق .

ولكن الحملة لم تكن معنيّة على الإطلاق بأى شيء فيما عدا ما جاءت به التحريات عن المعلم الصغير الذى يروج لبضاعته الصغيرة.

قال لى شاكرو: إلق بيّ فى البيت، بعد نصّ ساعة

ونهبض وحده، كانت حركته وهو يصعد الجسر الترابى صعبة إلى حد ما، ساقاه الطويلتان الرفيعتان فى بنطلونه القديم تتبادلان المواقع بتمهل، وهو محنى الظهر قليلاً، توقف عند أعلى الجسر واعترقته نوبة السعال الحادّ، جافاً صخرياً منحوتاً يهز جسمه الضاوى هزات متتابعة، أخرج منديله ومسح الدم النزر الذى تقطر مع السعال على فمه، واتجه نحو محطة الترام.

كان شاكرو يعرف أنه يموت.

لم يتوقف عن الحركة الثورية فى اتجاه العمل النقابى والوطنى على السواء، كان على أبو الليل هو الذى عرفنى به، وعلى الفور تقرّيباً توثقت بينى - أنا طالب الحقوق فى التاسعة عشرة وهو القائد العمالىّ فى عقده الرابع - صداقة وطيدة واستقر بيننا نوع من التفاهم يتجاوز المشاركة فى الثورة بل يصل إلى المشاركة على نحو ما، فى تحدّى أقدار غير مفهومة تماماً أياً كانت تحليلاتنا لأسبابها الموضوعية الاجتماعية.

فى الحوارى المتلوّية، بعد النزهة، وآخر محرم بيه، عدّيت على الكوبرى المظلل المتأرجح فوق ترعة الفرخة، ودخلت شارع البهاء زهير الذى لم يكن إلا زقاقاً ضيقاً مترباً فى مواضع وموحلاً فى مواضع. اندلق ماء مسكوب من نافذة مفتوحة وراء ظهرى مباشرة ونالنى منه رذاذ طفيف.

سمعت شهقة نسائية ناعمة ومرخّمة، وبصوت قوى ملؤه مع ذلك نوع من الغنج الفطرى غير المصنوع:

- يوه يا سيدنا لفندى يقطعنى والنبي ما كان قصدى. دستورك يا خويا العتب على النظر مش جت سليمة يا ضنايا؟ دحنا برضو ما

نروضوش ليكم بحاجة رديّة شرّ برّه وبعيد..

أومات لها برأسى شاكراً وأسرعت الخطى نحو رقم ١٤ شارع البهاء
زهير، سمعتها تضحك من ورائي ضحكة ناعمة ليس فيها أدنى قدر من
سخرية بل فيها مجرد استمتاع بالحياة.

دخلت من الحوش الصغير الذى وجدت فيه - هنا أيضاً - الفرن
الفلاحى الصغير وصعدت سلالم خشبية درجاتها قلقة لها تحت قدمى
أزيز، مفتوحة تحت السماء ودون درابزين تنتهى إلى فسحة معمولة من
البلاط عليها أقفاص تنقّ منها دجاجات مقفل عليها إذ دخل علينا
الليل، وعندما طرقت على الضلفة الوحيدة للباب الخشبى فتحت لى
الست فائزة زوجة شاكراً فى فستانها البيتى الذى لاحظت، كأنما رغباً
عنى، أنه خفيف مع أننا فى فبراير وواسع التقوية ومبلاً قليلاً ينهض
خلفه صدرها القوى الوافر، قلت لعلها فى العشرينيات صبية وصبوح
الوجه وعميقة العينين بنظرة حسية، جففت يديها على جنبى فستانها
بحركة تمسيد سريع لخصرها من الناحيتين ومدت إلى يداً رخصة كنت
قد عرفت طراوتها ولدونتها من زيارتى السابقة للبيت الذى لم يكن إلا
غرفة واحدة على سطح الدور الأول، يقوم فى جانبها سرير عريض عليه
داير قديم من قماش أرجوانى مخملى الشكل وباهت اللون وعلى الجانب
الآخر ترايزة الطبخ والأكل وهى التى كان شاكراً يستعملها للكتابة
أيضاً فى ركن منها عدة كتب تحت منها «الإمبريالية أعلى مراحل
الرأسمالية» و«الرأسمال» ترجمة راشد البراوى و«الحركة الوطنية» من
تأليف شهدى عطية بجانب وابلور الجاز وحلّة كبيرة وعدة أطباق صينية
وتحت الترايزة طشت به كومة من ملابس قديمة وجنبها كرسي خيزران
واحد، جلست عليه بإلحاح من شاكراً بينما صعدت الست فائزة إلى
آخر السرير وجلس شاكراً أمامى، على حافته، وكنتم نوبة سعال مفاجئة
تركته يتصبّب عرقاً وقد شحب وجهه العظمى قليلاً.

فرشت من استكمال شرح مشروع البرنامج الثوري، وتناقشنا قليلاً في بعض تفصيلاته، كانت عينا شاكر تلمعان بحميا الترقب الذي لا أمل في أن يتحقق وهو مُبتغاه، عندما تكلمنا عن تشكيل اللجان الشعبية وهي ترجمة السوفيتات بمعناها الأصلي كما أكدت له، وحرية التسيير الذاتي للمصانع بالتساوق مع خطة شاملة ومرنة وقابلة للتطوير، ارتفع إلى وجنتيه الضاويتين بقعتان من احمرار الانفعال في وسط شحوب الوجه الجاف المندي بعرق خفيف.

لم أكن أتخذ على سبيل الاحتياط أية وقاية من مرضه القاتل إلا أن أمسح يدي بكونونيا الشبراويشي عندما أعود إلى البيت واثقاً من أن حمياً الانفعال ووهج الآمال في أفقها غير المحدود هي وحدها الكفيلة بمنع الأخطار حقيقية كانت أم متوهمة.

ثم دخلنا في تفصيلات تنظيم مظاهرة الغد ١٢ فبراير، وخط سير مظاهرة عمال بولقارا من النزهة عبر محرم بيه حتى التقائها بمظاهرة جامعة فاروق الأول في أول شارع الإسكندراني، تلك كانت حدود مهمة شاكر أما بعد ذلك قد وزعت المسؤوليات على أعضاء اللجنة. جاءت الست فايزة تقدم لي كوب الشاي الثقيل.

لم أكن أملك إلا أن أتساءل ما الذي جمع بين هذه المرأة القوية الجميلة - بطريقتها - في العشرينيات من عمرها وبين الرجل المتهدم المصدر الذي بدا أكبر من سنه بكثير، ما الذي يجعلها تنظر إليه بعينين ملئهما الحب والحذب والإكبار والحنو والانصياع لسطوة غير مرئية لكنها محسوسة.

لم يكن عندي أدنى شك في إخلاصها لرجلها وتعلقها به بل إجلالها وامتثالها له.

ما طريق رجل بفتاة؟

هل كان الفعل الجنسي بينهما هو، من جانبه، حمى التشبث بالحياة

فى تحدّ الموتِ قادم ومؤكد ولكنه مرفوض من الرجل ومن الفتاة معاً؟
كانت الستُ فائزة، فى تصوّرى، رفيقة درّب، واعية أم غير واعية،
لم تكن مجرد امرأة سرير ومطبخ وست بيت لهذا الذى يواجهه، بصلاية
وقوة، عسف السلطات جميعاً، بما فى ذلك سلطة قدر علوى لا رادّ له.
كان الحكم عليه بالموت قد صدر من سلطة كنت أعزوها، بطريقة
«علمية» لا تخلو من السذاجة رغم صحتها المطلقة، إلى تردى الظروف
الصحية فى المصانع الضيقة المكتظة بالعدد والناس والمفتقرة إلى التهوية
السليمة، إلى سوء التغذية وتدنى الأجور وطول ساعات العمل، وهى
كلها من صنع البشر لا من صنع القدر، لكن لماذا هو؟ وليس غيره؟ لماذا
تقع الإشارة القاتلة من إصبع مجهولة عليه هو دون زملاء له يقاسمونه
الظروف نفسها؟ السؤال الذى لا تكاد تكون له إجابة عن مغزى الظلم
الكونى، عن غياب العدل الكونى، السؤال الذى يدفعنى إلى تحدّيه
بالثورة الدائمة عليه.

«الثلاثاء ١٢ فبراير ثورة جامعة فاروق حمراء لا يقف أمامها طغيان
طاغ». فى مظاهرة عاصفة اتجه الشباب من محرم بيه إلى كرموز الحى
العمالى يستصرخ عمال المدينة أن هبوا معنا نشارك العمال جهادهم،
كانت المظاهرة قد خرجت من الفابريكة فى آخر شارع كرموز.
أما الطلبة فكانوا قادمين من ناحية محرم بيه.

وكان طابور عساكر بلوك النظام قد اصطفوا فى مفترق الشارعين
الكبيرين غير بعيد من الكنيسة الإنجيلية المبنية بالطوب الأحمر،
معلقين فى أذرعهم الدروع الخشبية الخضراء وفى أيديهم البنادق قديمة
الشكل طويلة الفوهات.

كنت قد اشتغلت طول الليل، لم أنم إلا ساعتين أو ثلاثاً، أتحرك من
باب سدره إلى شارع الهرامسة، ومن المحمودية إلى سيدى كريم، ومن
المكس إلى شارع البهاء زهير، أمر على زملائنا القلائل من عمال

الفاوريكة. وعلى سلامة وشاكر، وعبد المنعم وحنّا جريس وسليمان
باخوم، في بيوتهم التي أقاموا في أحواشها أو في الشارع أمامها أفراناً
صغيرة وكوانين فلاحى، وتجري فيها الفراخ والبط، نقلوا إليها عيشة
الفلاحين التي ما كادوا يغادرونها.

أما الطلبة فقد قلنا في اللجنة إنهم مسئولية قاسم إسحاق، ومعه
أحمد النمى في كلية العلوم، وحلمى الرئيس في كلية الهندسة، وعبد
القادر خلف الله في كليتي الطب والصيدلة.

نزلت الشارع في الصباح الباكر، كان على أن أرقب تحركات مظاهرة
الفاوريكة فإذا جدّ ما هو غير متوقع نفذت من عند دحديرة الفخرانية
لكى أنسق الموقف مع قاسم إسحاق الذى اتخذ موقفاً له على آخر ربوة
العباسية الثانوية التي تحولت إلى جامعة فاروق الأول. كان هذا الترتيب
صعباً ومُجهداً وغير كفى، لكنه كان كل ما فى وسعنا من حيلة فليس
عندنا كوادر كافية ولا وسائل اتصال، ولا حتى مجرد درّاجات مثلاً، أما
استخدام تليفونات البقالين، إن وجدت، فلم يكن يخلو - بالطبع - من
مخاطرة غير مأمونة العواقب.

كانت الشوارع قد أقفرت فجأة، وخلّت تقريباً من المارة، توقفت
حركة الأوتوبيسات والترامويات فى محرم بيه وراغب باشا وكرموز،
أقفلت الداكاكين أبوابها، وكان لأى صوت فى هذا الصمت المحيق
صدى، وللأشجار حفيف مسموع، جماعات الطلبة قليلة العدد بدأت
منذ هذا الصباح الباكر تطوف بالحى، تنشد «بلادى بلادى»، و«أماماً..
أماماً جنود الفدا.. سيروا إلى النصر تحت العلم» ثم تقول «سلاما بلادى
وعاش الوطن» بدلاً من «عاش الملك» وكان ذلك وحده جرأة غير
محسوبة العاقبة مما يشارف الثورة.

لكن ما حدث بالأمس من إنزال الزينات وإسقاط صورة فاروق الأول
على الأرض وارتفاع الهتاف لأول مرة «لا ملك إلا الله!» يحفز هذا

التغير «الحاسم» فى النشيد الوطنى العتيد .

كان المتفق عليه ، بعد جدلٍ صاحبٍ وطويلٍ كالمعتاد ، بين ممثلى اللجان والجماعات المتحالفة أن تتجنب المظاهرات الهتافات المباشرة الصريحة حتى لا تُستفز القوات التى كانت متكومة على المفارق فى لوريات بلوك النظام الحكومية ، ولوريات نقل البضاعة المؤجرة من الأهالى .

ومع ذلك كانت بعض الجماعات القلائل تهتف : «الله أكبر ..» «القرآن دستورنا والرسول زعيمنا» .

أغلقت بعض الدكاكين الصغيرة ، التى ظلت مفتوحة ، أبوابها ، أنزلت المصاريع الحديدية ، وعندما تحرك الترام تحت ضغط المتظاهرين الذين تكادسوا فيه واستشاروا الحمية الوطنية عند سائقه ، كان يتأرجح مترنحاً فى شارع راغب باشا ، ليس فيه ركّاب كل يوم بل احتله المتظاهرون وفى أيديهم الأعلام الخضراء بأهلتها ونجومها الثلاث ، ثم اضطربت الهتافات واختلطت : الجلاء الجلاء ، الحكم حكم الشعب ، يسقط الاستعمار ، يسقط الاستغلال ، من ناحية ، ومن ناحية أخرى : يحيا اتحاد الطلبة مع العمال ، لا مفاوضة إلا بعد الجلاء ، الجلاء التام أو الموت الزؤام ومن ناحية ثالثة : الله أكبر والعزة لمصر الموت لأعداء الوطن .

الطلبة يحملون زعماءهم وهتيفهم على الأكتاف ، وهم يجارون بأعلى أصواتهم ويلوحون ، وقد تلاطمت الهتافات .
المظاهرة قد خرجت عن كل تخطيط وتدبير .

الجموع بدأت تُقبل من كرموز ، تقترب من محرم بيده ، عمال الفاورىكة قد انضم إليهم عامة الناس ، شباناً وصبيةً صفار السن بعضهم حفاة الأقدام ، ورجالاً فى الجلابيب والعمم والبنطلونات والطرابيش ، ملتحمين ، متكاتفين يهتفون : تحيا مصر ، يسقط الاستعمار .

نحت فى وسط الجموع جمالات أخت منى ، بلوزتها ضيقة حول صدرها الكبير وشعرها مشعث قليلاً ، وجهها مضرّج بدماء الانفصال ،

تهتف وتلوح، لا أسمع صوتها وسط هدير المظاهرة، وقريباً منها عابدة
النحيلة الرقيقة تشور بيديها وأراها تهتف أيضاً، دون صوت. في
الإيقاع المتصاعد للمظاهرة، ومعها زينب جمالها الفرعوني الجنوبي في
وجهها المنحوت بعظامه المستقيمة وعيناها النجلوان السوداوان
تلمعان بوميض خاص وصلني من قلب المظاهرة كأنه يشع على البعد.
وراءهن غير بعيد، سلامة، قامتة شامخة.

ذهب قلبي إليهم.

جاءت الهتافات ولا جلاء إلا جلاء الإقطاع.. لا جلاء إلا جلاء

الباشوات،

تلك كانت هتافات الأمل.

هل كنا نعرف - أو نتصور - أن يأتي زمنٌ كأنما قدين فيه البلد
بالخضوع لسماسرة التوكيلات وناهبي البنوك وتهريب الثروة إلى
الخارج باسم الخصخصة والعوامة، المرتشين وتجار السلاح والمزورين
وأباطرة المخدرات، وحيثان الأعمال من كل نوع، الأبخع نهياً والأغلظ
ذوقاً والأتكى جشعاً والأبعد جهلاً من باشوات الإقطاع؟

هل كنا نعرف أن الهوة بين الطبقات تصل إلى أن ينفق أحدهم في
ليلة واحدة على حفل زواج سبعة ملايين ونصف دولار أمريكي (أيا كان
الرقم فهو بالملايين) بينما يسقط ثمانون في المائة من المصريين في هوة
الدخل الذي لا يزيد عن دولار واحد في اليوم، واحد وحيد؟

سمعت أوامر قصيرة غير واضحة، فجائية ونهائية.

ترددت طلقات الرصاص، تناثرت أولاً كأنها غير مجدية، كأنها
دقات جافة لا خطر لها، تضيع في الهواء، ثم أصبحت متلاحقة،
مكتومة، في الصميم.

رأيت في وسط الناس بجانبى اثنين، ثلاثة، يهتزّون ويسقطون
بهدوء وكأنني لم أسمع أى صوت، وكأن السكون التام قد حل فجأة.

رأيت صفوف الناس تضطرب وتلتثم، تهتز وتتجمع، تنتشر وتحتشد،
ثم تتبدد ويتهاوى انتظامها .

كان العساكر راكعين على رُكبهم الخشنة المكسوة بالألشين الرمادى
الكابى . الضابط وراءهم، يرفع مسدسه فى الهواء، على حصانه الذى
يتوثب على قائمته الأماميتين بانفعال، وبنادق العساكر، طويلة
الفوهات، مسددة إلى قلب الجموع .

رأيت الناس يحملون على أكتافهم وبين أذرعهم من يسقط على
الأسفلت، ويجرون بهم فى اتجاه الحوارى الضيقة المتفرعة من شارع ١٢
أو شارع إيزيس، أو فى اتجاه الجامعة عن طريق دُخْديرة الفخرانية .
رأيت جمالات تسقط على الأرض .

كان وجهها الجميل أبيض باهتاً كالشمع، ذراعها قد انطوت فى
وضع غريب تحت جسمها الذى ارتطم بالأسفلت دون صوت كأنها دمية
مغلوعة الأطراف، انحسرت جيبتها عن فخذيها، ورأيت أن فى قدمها
فردة حذاء واحدة، قدمها الأخرى حافية ومكشوفة .

انحنيت عليها أحملها، كانت إلى جوارى عايده، ومشى معنا سلامة
حتى بيتها فى حارة الجلنار .

كانت مفتوحة العينين، ثابتتين، بدهشة، وخيط رفيع من الدم ينسال
من ركن فمها، وعلى صدرها الوثيق المحكم فى بلوزتها المشغولة بقعة دم
تتسع ببطء .

مازلت حتى الآن أحس بين ذراعى جسمها السخن الهامد .

لم يكن الموت جميلاً .

حتى إن كان نبيلاً .

عندما وصلت إلى ربوة الجامعة عرفت أن أحد الطلبة الذين سقطوا
قد حمله زملاؤه، وصعدوا به إلى ساحة الجامعة، كان مضروباً برصاص
البوليس، ومات .

الفصل الخامس

عاد الطلبة إلى الجامعة يحملون جثمان الشهيد .
عرفنا أن اسمه هانى عبد العظيم ، طالب في كلية الصيدلة ، جاء من قرية صغيرة بالقرب من طنطا ، وليس له أهل في الإسكندرية .
كان يسكن في غرفة على السطح في شارع الإسكندراني .
في مؤتمر حاشد ارتفعت الأصوات وقد أخذ ضوء النهار ينحسر .
وضعنا الجثمان على أرض الحديقة الصغيرة بين مبنى كلية الحقوق ومبنى كلية الآداب ، ملفوفاً بالعلم الأخضر بهلاله ونجومه الثلاثة .
انتخب مؤتمر الطلبة ثلاثة منا يمثلوننا ، وقف الثلاثة على هيئة وفد ، تحت سلم الجامعة ، وبصوت مرتفع طلب الوفد مقابلة الضابط المسئول .
كانت قوات البوليس قد انتشرت في صفين أحدهما وراء الآخر ، بينهما مسافة تركت العساكر متباعدين قليلاً حول ربوة الجامعة .
كان عبد القادر خلف الله أحد الطلبة الثلاثة ، ومعه طالب من يسار الوفد ، وثالث أقرب إلى الاتجاه الإسلامى .
دخل وفد الطلبة في نقاش هادئ ولكنه صارم ، من وراء الباب الحديدى في نهاية سلم الجامعة ، مع البكباشى الذى خرج إليهم ، لخته ضخم الجثة ، أكرش حول كرشه حزام عريض ، يلتف حزام جلدى رفيع حول صدره بانحراف . بينما كانت جموعنا مصطفة ، متكئة ، على أعلى السلم بشكل منذر ، وكانت هتافاتنا موحدة ومنظمة : تحيا مصر حرة مستقلة .

عاد الوفد يحمل رفض البوليس ، رفضاً باتاً ، اقترحنا بأن نخرج في

جنازة سلمية صامته نشيع الشهيد إلى مقابر العامود في كرموز.
وفي نوبة حاسمة جماعية ضمت كل تيارات الطلبة من أقصى اليمين
إلى أقصى اليسار قرر المؤتمر العفوي الذي انعقد فوراً دفن الجثمان في
ساحة الجامعة.

أتت المعاول والفؤوس من كشك الجنائني، وعندما هبط الليل
أوقدت شموع طويلة مهتزة النور حول القبر الذي ارتفع من أرض
الساحة المنخفضة، والتفنا حوله بينما حل علينا مع الليل خشوع،
وصمت الإجهاد، ورهبة الموقف.

ارتفع في الصمت صوت هادئ وعذب الإيقاع بترتيل القرآن.
بينما كانت صفوف عساكر البوليس قد تضاعف عددها، نراها
تحت، ونحن فوق الربوة، في عتمة الليل لا تثيرها إلا مصابيح الشارع
الذي أقفر تماماً من المارة وإن كانت نوافذ البيوت المحيطة به مفتوحة تطل
منها وجوه الناس في ترقب حذر ولهفة.

وعند هبوط الليل سمعنا هدير عربات الجيش المصفحة ودباباته
الصفراء، وقفت كلها على مبعدة قليلة، عند مفارق الشوارع.

كانت أعواد الكبريت والبطاريات الكهربائية اليدوية الصغيرة
تشتمل وتنطفئ، وجاء طلبة كلية العلوم بمصابيح غاز مرتجلة أوقدوها
حول القبر الذي بدا في الليل مائلاً بحضور متجاوز له وطأة فوق
إنسانية كأنما اكتسب على الفور مهابة تشارف القداسة، كنا جميعاً لا
نستطيع أن نقترّب من القبر أكثر من خطوات معدودة وعلى نوع من
الاتفاق الضمني غير المعلن تركنا مسافة خالية بيننا وبينه لا نجروء على
انتهاكها بينما تناوب زعماء الطلبة الخطابية والتكريم وتحليل الأحداث
وإدانة الاستعمار وقوى القهر والطغيان.

نهض سعدان الأسيوطي، زعيم طلبة كلية الحقوق التي قضى فيها
أربع سنوات وسوف تمر عليه أربع سنوات أخرى قبل أن يتخرج،

وبصوته الجهورى وجسمه الضخم، وقد اعتلى منصةً جىء بها من أحد المدرجات، يهدر منشالاً بخطبة طويلة عصماء جلجل فيها بكلمات ضخام عن التضحية من غير ضنٍّ وعن بذل الدماء زهيدة فداءً لعزة مصر ورفعتها وعن أننا كلنا من هذه اللحظة المقدسة شهداء وهبنا حياتنا رخيصة من أجل مجد الوطن، وكانت الجماعة التي ظلت صامدة حول القبر ملتفة حوله - بعد أن انفض عنا كثيرون نزلوا بسلام من ربوة العباسية لم يعترضهم البوليس - لم يكن عددنا قليلاً مع ذلك. أهاب سعفان الأسيوطى بنا أن قد أعلننا الاعتصام في حرم الجامعة المقدس وأن نظل مستمسكين بالعروة الوثقى على أرضها حتى يتم جلاء قوات الاستعمار الفاشمة عن كل شبر من أرض البلاد وانسحاب قوات الجيش المصرى الذى عليه أن يقاتل العدو المحتل لا أن يحاصر أبناء الوطن البررة وطالب بصوت مدو برفع الحصار عن الجامعة على الفور.

ردد أنصاره على الفور: الاعتصام الاعتصام أو الموت الزؤام، الجلاء التام أو الموت الزؤام، انتحيت بعبد القادر وأحمد النمى وقاسم إسحاق جانباً بعيداً عن صخب الحماسة غير المحكومة وغير العقلانية، وقررنا أننا في اجتماع طارئ وعاجل للجنة، وكانت حجة أحمد النمى أن نتصدى للغوغائية بما يهزمها ولا يفلى الحديد إلا الحديد، أما قاسم إسحاق فقد رأى أن فكرة الاعتصام جديرة بالاعتبار بغض النظر عن الشعارات الديماغوجية وانحزنا إلى هذا الرأى وقام أحمد النمى يعلن الموافقة على الاعتصام في داخل حرم الجامعة حتى يتم انسحاب البوليس والجيش بشرط ألا نترك طالباً واحداً من المعتصمين في قبضة البوليس السياسى وأن نقف صفاً واحداً بكل حشود الطلبة دفاعاً عن أى طالب يتعرض للقبض عليه.

كان نور ما قبل الفجر قد بدأ يتسلل إلى أطراف السماء، ومعه لذعة البرد في هبات الهواء، وقد خبت الشموع الطويلة حول القبر وذابت

في كتلٍ رمادية حول ذبالاتها ، ونفذ غاز مصابيح معمل كلية العلوم .
تدّد الكثيرون على أرض الحديقة وفي مبنى كلية الحقوق متضامين
إلى بعضهم بعضاً وقد أحكموا الجاكتات حول صدورهم وظهرت
مراتب وبطانيات قليلة من العيادة الملحقة بكلية الطب لم يظنّ بها أحد
على زميله وبدا نوع من الهدوء القلق يسود الساحة التي ظلت طول
اليوم تموج بالنشاط المحموم للطلبة وبصخب الخطب والتهافتات .
عند أول ضوء وقبل انبلاج الفجر كانت العربات المصفحة
والدبابات تصعد الطريق الذي يلتف حول ربوة الجامعة ، بينما كان
طابور العساكر ، بقيادة ضابط شاب يرفع مسدسه ، يرتقى أول الطريق
الدائري الذي يصعد حول الربوة ، بخطوات عسكرية منتظمة لها وقع
قوى في الصمت .

هبّ الطلبة النائمون بانديفاع ومن غير انتظام ، وتصدّوا جميعاً في
كتلة متماسكة على آخر الطريق ، من فوق .
تقدّم سعفان الأسيوطي ومعه الآن الوفد الثلاثي ، ونزلوا بخطوات
ثابتة حتى اقتربوا من ضابط الجيش الشاب .
كان الصاغ قائد طابور الجيش ذكياً فأغمد مسدسه على الفور ،
وأشار إلى العساكر بالتوقف ، وهتف بوفد الطلبة إننا وطنيون مثلكم
وأكثر منكم ولا نريد إلا إقرار النظام وإنهاء هذا الوضع العصيب بما
يحفظ لكم كرامتكم وما يصون حرمة الجامعة وحرمة الموت ، إكرام
الشهيد الآن هو أن يُودع مثواه الأخير في مقابر العامود بعد تغسيله
وتكفينه وأداء الصلاة حسب قواعد الشرع والدين . لا نريد إلا أن
نستلم الجثمان .

كنت قد رأيت من بين تحركاتي الصامتة بين الجماعات المتناثرة في
ساحة الجامعة أن إرهاب الأمس قد بدأ يستأدى ثمنه ، أخذت عزائم
الصمود تتحلل ، وكان منطق الضابط الشاب من ناحية ، ومنطق القوة

العسكرية الواضح أنه لا يمكن ولا يصح مقاومتها، من الإقناع بحيث قبله الوفد، ومن ورائه جموع الطلبة - وقد تيقظوا تماماً وبدوا مشعثين مجهدين تورمت عيونهم قليلاً من عنف مجالدة الأحداث ومناهضة النوم معاً.

على شرط واحد، كان إصرارنا واضحاً وقوياً: ألا يقبض البوليس السياسي الرابض تحت، على طالب واحد. لم يتوان ضابط الجيش عن أن يتعهد بضمان ذلك، على مسؤوليته وشرفه الوطني والعسكري، بل ذهب إلى أبعد، وقال: - سأقدمكم، أقف إلى جانبكم تحت السلم من الناحية الأخرى، أمام طابور البوليس، حتى يغادر آخر طالب أرض الجامعة. وهكذا بالضبط كان.

قرأنا في الصحف أن الدراسة في جامعة فاروق الأول قد عطّلت إلى أجل غير مسمى، وظللنا نترقب كل يوم عودة الدراسة، وكنت ألتقي بقاسم وأحمد وعبد القادر وأنطوان كل مساءً تقريباً، إما في لورانتوس أو في الفريسكادور.

حتى جاء يوم ٢٢ فبراير

عندما ارتقينا الطريق الصاعد حول الربوة ودخلنا مدرجاتنا، رأيت أن الدراسة وإن كانت قد دخلت إلى حد ما في سننها المطروقة إلا أنها لم تنتظم حقاً.

كانت انطباعاتنا في اللجنة وفي خارجها تشير إلى أن استقالة وزارة النقراشي ومجيء وزارة صدقي تؤرق جموع الطلبة وتستثير مشاعر الناس.

كانت التيارات السياسيّة، كما هو متوقع، قد أخذت تتبلور وتُستقطب، بين تيار الإخوان المسلمين وأشباعهم وبعض عناصر مصر الفتاة، وقد انحازوا إلى القصر وإلى وزارة صدقي، وبين التيار الوطني

اليسارى العريض الذى ضمّ الطليعة الوفدية والجماعات اليسارية على اختلاف منازعها وبعض أنصار الحزب الوطنى القديم.

تواترت الأنباء عما يحدث في القاهرة، وقررت اللجنة أن يسافر قاسم إسحاق وخاصة أن له اتصالات قديمة بجماعة مجلة «أم درمان» التى كان يحررها مجموعة من السودانيين والنوبيين ولهم على نحو ما علاقة بما يدور على الأخص في شبرا الخيمة، معقل الحركة العمالية.

عاد قاسم إسحاق يحمل أخبار التطورات المثيرة.

وفي اجتماع طارئ للجنة كان صوته يتهدج بالانفعال، وهو يشعل سيجارة لا يكاد ينفث منها نفسين حتى يطأها بقدمه دون أن يدرك ذلك تماماً، على باركيه الأخوين خلف الله، وقد تندى وجهه الأسمر الداكن بعرق خفيف، قال إنه يوم السبت ١٧ فبراير وفي ملاعب القصر العينى بالقاهرة، اجتمعت اللجنة الوطنية العليا للطلبة وأصدرت ميثاقاً طُرح في الليلة نفسها على اللجنة الوطنية العليا للعمال التى كانت قد تكونت في شبرا الخيمة في أوائل الشهر. وفي مؤتمر مشترك ضمّ ممثلى الطلبة والعمال اتُخذ قرار بتأليف اللجنة الوطنية العليا للطلبة والعمال، وإن ظلت أسماء أعضائها محجوبة توقيماً عن عسف وزارة صدقى الجديدة ولعلها ستظل محجوبة أو متضاربة غير مؤكدة إلى أمد بعيد، وحتى الآن، مهماتعددت التكهنات أو الادعاءات بالانتساب إلى هذه الهيئة الصغيرة العدد فيما افترض، والتي اكتسبت مكانة أقرب إلى المهابة الأسطورية في سجلات التاريخ المغمورة، حتى بعد أن انفضت أو فضت عقب حملة صدقى المعروفة في يوليو من ذلك العام، حين قرر حل الهيئات وإغلاق الصحف والمجلات المناهضة لحكمه وحكم القصر والإنجليز معاً، ومنها مؤتمر نقابات عمال مصر الذى تكون في أول مايو ١٩٤٦، ودار الأبحاث العلمية، ولجنة نشر الثقافة الحديثة - وفي فرعها السكندرى كنت قد قرأت أولى قصصى القصيرة وسمعت أولى

سيمفونيات بيتهوفن منذ ثلاث أو أربع سنوات - ورابطة فتيات الجامعة، واتحاد خريجي الجامعة، ومجلة الفجر الجديد والطلیعة وأمّ درمان وصحیفة الوفد المصرى التى ما لبثت أن صدرت تحت اسم «صوت الأمة».

فى ذلك اليوم ١١ يوليو ١٩٤٦ سوف یلقى القبض على أبرز رموز الثقافة والنضال الوطنى عندئذ، ومنهم: إبراهيم یوسف، أبو بكر نور الدين، أحمد شكرى سالم، أحمد كامل قطب، أسعد حلیم، أنور كامل، جمال الدين محمود غالى، رمسيس يد نان، سعد مكاوى، سلامة موسى، سيف الغزالى، أحمد صادق سعد، عبد الله عبد الوهاب، عبد الرحمن الشرقاوى، عصام الدين حفى ناصف، على الصيرفى، فتحى الرملى، لطف الله سليمان، محمد أبو الحسن، شهدى عطية الشافعى، محمد الليثى، محمد رشدى، محمد حسام الدين، كمال عبد الحلیم، مصطفى عبد الحمید مندور، ناحوم منشة، هنرى كوريبيل، عبد العظيم أنیس، زكى نجيب محمود، إبراهيم دربال، أبو سيف یوسف، أحمد رشدى صالح، أحمد المصرى، أنور عبد الملك، حسام مشرف، داوود ناحوم، رزق الله سليمان، سعد زغلول فؤاد، سعيد خیال، صلاح أبو العلا، عباس إبراهيم، عبد المعبود الجبیللى، عبده ذهب، عمر رشدى، فتحى أحمد المغربى، كمال أحمد شعبان، لبيب حنا جرجس، د. محمد الشحات، محمد أحمد عجلان، محمد عبد المنعم خربوش، د. محمد مندور، مصطفى كامل منیب، نعمان عاشور.

وهناك آخرون صدر الأمر بالقبض عليهم وفتشت منازلهم ولم یكونوا موجودین فیها.

أتساءل بصوتى الآن، بعد نصف قرن وأربع سنوات، هل أنسى أنتهك مواضعات الفن القصصى - مثلاً - إذ أورد هذه التقريرات الجافة

دون تنميق؟ وهل من الجفاف الفني أن تأتي أسماء محمد مندور
ورمسيس يونان وهنرى كوريل وعبد العظيم أنيس وأنور عبد الملك
ولطف الله سليمان وزكى نجيب محمود ونعمان عاشور وغيرهم بكل
ما تحمل هذه الأسماء، بمجرد ذكرها، من وزنٍ وخطرٍ ومن إحياءات
عريضة ثرية في تاريخنا، وما اتخذت حياتهم من مسارات وما آلت إليه
من مصائر على تنوع بل تضاربٍ منازعتها، أهذا خروج عن أصول فن
الرواية؟ (إن كان لهذا الفن في النهاية ثم أصول؟).

أعود سريعاً إلي سياق السرد الذى يبدو طبيعياً ومألوفاً - وإن كنت
لا أحبه وسأظل دائماً أخترق حرمة المفترضة - إن كان ثمت - نعم،
هذا صوتى الخالص غير الملتبس بصوت الراوى الذى يمزج خياله بواقعه
وشطحه الفانتازى بصرامة ذكرياته، وله ملء الحق، كما أننى أتصور أن
لى ملء الحق أن أقول - أيضاً - بصوتى الخالص غير الملتبس.

كنت أخطو محاذراً مسرعاً بين البيوت القديمة المتقاربة في حوارى
بحرى، وأحس أحجارها العريقة ندية وروائح السمك الخام الزهمة
تتسلل من الأبواب المعتمة المفتوحة عن عتبات رخامية جلست عليها
الستات متربعات في أول هذا الصباح من فبراير وقد جمعن أفخاذهن
إلى إحداها الأخرى، ينقن الرز في صراني النحاس ويكشطن قشر
السمك عن جسمه اللدنة ويثرثرن بهجة ويتوقفن لحظة لينظرن
بتساؤلٍ قليلٍ غير مهتمٍ حقاً بهذا الوافد ضئيل الحجم في جاكته الزرقاء
الطويلة وينظرونه المتهدل، وهن يرضعن الأطفال من أثداء مليئة سمراء
وخصيبة اللحم وأتوقى أن أرمقهن بالنظر المسترق ولا أستطيع أن أرد
عيني النهمتين عن كل الأنوثة الملقاة على قارعة الطريق بكرم ودون
احتفاء كأنها نبت حوشى وفطرى من هذه الأزقة الريانة بماء البحر
المالح.

حتى وصلت إلى الربع القديم الذى استاجر فيه قاسم إسحاق غرفتين

بالعفشة في الدور الثاني على السطح المسور بسياج قليل الارتفاع، كنت أنا وقاسم إسحاق نطلّ منه في الليالي فنلمح أنوار الأنفوشي من ناحية وأنوار مراكب الصيد المهتزة المتخيلة في نقط صغيرة على موج أسود لا يكاد يصل إلينا منه وشيش خفيض.

عبرت الباب الخشبي الكبير المفتوح باستمرار، اسودّ خشبه العتيق المدقوق بمسامير صدئة غليظة الرءوس على خرطته التي تحجر فوقها تراب السنين الطوال وإحدى ضلفتيه قد مالت قليلاً غاص طرفها السفلى في تراب الحارة التاريخي، أما الضلفة الثانية فكانت مسنودة بثقل رازح على صخر الحائط العريق، وفاجأتني - كما يحدث في كل مرة - رائحة الرطوبة القديمة التي ينفثها تراب مدخل البيت الواسع المعتم إذ يطلع منه السلم الخشبي العريض درجاته المخلخلة تهتزّ وتصيء تحت قدمي وأنا أمسك بالدوابزين البلوط السميك المدور وقد مسدته أياد كثيرة لعله كان منها أيادي شيوخ الصيادين ورءوس أهل الكار من الحمى في أيام زاهرة وغابرة، عندما كانت تمسك بالسبح الكهرمان وتعدّ الجنبيات الذهب الحميدى.

قلت: زال هذا العزّ وبادت أيامه، هل تأتي وشيكا أيام مجد الشعب العامل المسك بمقاليد أموره جميعاً بأيدي تعرف الحزم والعدالة كما تعرف صياغة الحرية؟

وإذ أضع قدمي على أول درجة خشبية من السلم يخرج إليّ من جحره المأثور في أرض الفسحة الترابية الواسعة الشعبان الشيخ، شيخ الشعابين، ينساب ببطء وجلال على الأرض، بجسمه المدور العريض المسدّ والمرقط، يرفع رأسه الملكيّ وعليه تاجه المفرد، ينظر إليّ بهدوء ودون شرّ، عيناه لامعتان بوميض ثابت، مدورتان وعارفتان حكمةً سوف يفوتني دائماً إدراكها، وفي لمح البصر كان الصلّ قد نشر جناحيه حول رأسه المنتصب المتصلّب. التفّ حول صخرة ناتئة من أرض المدخل

الترابى وعليها نقوش مضموسة بالحرف المقدس العتيق فلم أكن أرى إلا
ظهر الجسد المتلوى بطيء الانزلاق وللحظة خاطفة أبرق في ذهني إيهاء
من حركة حلمى الرئيس المتمهلة التى تشى بقدر من التحوط والتحرز
وما يشبه التريص استعداداً لوثبة تنبثق فيها نفثة سم زعاف أو وخزة
لدغ مضم.

صعدت السلم لا أحس شيئاً ولا أعى شيئاً إلا ثقل الصعود كأنما
أرتقى حلماً.

طرفت الباب على السطح حسب الشفرة المعتادة ثلاث طرقات
سراعاً وتلبثت وجيز ثم طرقة واحدة وبعدها بقليل طرقة أخيرة.
رحب بى قاسم إسحاق، كما يرحب دائماً بحرارة وحيوية متوقفة
كأننى ألقاه لأول مرة بعد غياب طويل، وهتف وهو يشد نفساً قويا من
سيجارتته:

- يا ميت مرحب ادخل عوجت علىّ ليه ماحنا اتفجنا تاجى الساعة
تسعة، دلوكيت تسعة فانت من زمانات.

كان معى يسقط لهجته الإسكندرانية المتمدينة ويعود إلى اللهجة
التي عرفته بها منذ خمس سنوات في أخميم، عندما كان أبوه الطبيب
الشرعى في سوهاج وعندما اشتغلنا معاً في حماستنا الصببانية مع
عمال الأنوال والفلاحين في النجع.

كان من أصل نوبى وعلى جانب وجهه الأيمن التشريطان القبليان
التقليديان، وأسيين صغيرين بلون أفتح قليلاً من لون جلده الداكن.
خطفت في ذهني صورة الطقس الصبباني الذي تأخينا به أخوة الدم
عندما شرطنا معصمينا على شطّ السرعة الداخلة في وسط غيطان
أخميم ومزجنا بين دمائنا. كان ينطق الجيم بالعمق والتعطيش الأسواني
النوبى، هو حتى في لهووجه الترحيب مشرق بابتسامة خفيفة تجعل
وجهه الأسمر الوسيم مشرباً للأمام، ولم أملك إلا أن ابتسمت لنفسى

إذ رأيت رأسه ملفوفاً بفوطة كبيرة متعددة الطيات كأنها عمامة نسوية قليلاً، وتفوح منها رائحة البريانتين السكرية العطرية الخضراء يُفارق به حُرشة شعره الجعد الخشن، وكنت أتعجب له - ولعلني أحس بالاستياء المكبوح يخامرني - إذ أجده يقضى ساعات طويلة في محاولة فرد هذه الكدشة من الشعر الحوشى الذى يقاوم جهوده في التنعيم، وأسرّ لنفسي في نوع من الطهرانية ألم يكن الأجدد أن يقضى هذا الوقت الضائع في أن يقرأ شيئاً مفيداً أو أن يسهم بنشاط إيجابى وكم ينتظرنا من مهمات في سياق عملنا الثورى الذى يتضرب الكثير.

مازلت أعتز بأننى بعد أن خرجت من المعتقل في فبراير ١٩٥٠ كان قاسم إسحاق من أكثر الناس فرحاً بلقائى، ودعانى احتفالاً بالمناسبة إلى حفلة في سينما لاجيتيه الصيفية في الإبراهيمية، كانت أول وآخر مرة أرى فيها تحية كاريو كما جميلة نضرة ذكية الجسم ترقص، وأول وآخر مرة أسمع فيها وأرى مغنياً مجهولاً قيل لى إن اسمه عبد الحلیم حافظ يشجى الناس بصوته الجميل الأسيان.

هل كانت تلك آخر مرة أرى فيها صديقى النوبى المناضل الجميل الذى لا أنساه قاسم إسحاق؟

ومع ذلك فقد كان قاسم إسحاق ثورياً صلباً وشديداً الخلوص لثوريته، حتى النهاية، بعد أن انفضت حلقتنا وانضم إلى «حدثو» وقضى فترة معتقلات الواحات كلها بشرف وعندما خرج في الستينيات اشتغل بالمحاماة في أسوان ثم مات بسرطان في المخ، ومازلت حتى الآن أذكره بإعزاز واهتزاز في القلب ولا أتصور أنه مات بل أفكر أننى عندما أذهب إلى أسوان سوف ألقاه ونستعيد كل ذكريات صداقة ومحبة ورفاقة في عمل ثورى اندثر أمره منذ ستين عاماً أو تزيد.

قعد أمامى ببساطة على الكلیم وجلست على الكرسي الخيزران الوحيد في الغرفة، ونحت كتب المرافعات والقانون الجنائى ومذكرات

الدكتور رمزي سيف، وأنور سلطان، وبجانبها أعداداً من مجلة «أم درمان» و«الضمير» السرية و«كفاح العمال».

قال لي: أعمل لك شاي؟ عندي شاي هندي معتبر جاي لي من جماعة صحابنا في الجمر ك عاد.

وبينما هو يسخن الماء في الأبريق الأزرق الجديد الذي طالته لوثات هباب الدخان اتفقنا بسرعة على ميعاد في الساعة السادسة في قهوة البرابرة (كان يغضب قليلاً من هذه التسمية) التي تقع في زقاق جانبي غير ملحوظ متفرع من شارع شريف يأري إليها البوابون والسعاة العاملون بالشركات والبنوك والمكاتب في هذه المنطقة «الراقية» من وسط البلد.

كان عليه بوصفه رئيس اللجنة أن يلتقي بالبحار الفرنسي الذي وصل من يومين على متن الباخرة «كليمنصو» والذي كان عضواً بحزب العمال الثوري ومفوضاً منه للتعرف على نشاطنا وإمدادنا بالكتب، وبمجلة الحزب ومطبوعاته.

كنت قد قابلت جان - هكذا اکتفينا باسمه المصغر - وكنت أسمى نفسي يوسف فكان يدعوني جو - في بيت صديقي أنطوان خير الله. كل شيء حدث بالصدفة وانقضى بالصدفة.

أنطوان كان يتغدى على كأس من النبيذ في بار «كنت» في آخر شارع النبي دانيال، وكان البار مزدحماً في فترة الظهر بالموظفين والمدرسين والعساكر الإنجليز وعلى طريقتهم جلس جان إلى مائدة أنطوان وكانت المكان الشاغر الوحيد، وعلى الغداء والنبيذ تعارفا وتكلما عن الحركة الوطنية في مصر والحركة العمالية الثورية في فرنسا وهي حركة متخمة بالآمال العريضة والإيمان العميق (الذي لا مبرر له، ربما) بحتمية انتصار الطبقة العاملة واندلاع الثورة.

فهل كان عجيباً جداً أن يكون جان هو أيضاً ممن تقوم بيننا وبينهم

أواصر الزمالة الأُمّية والانخراط في حركة ثورية عالمية - مهما كانت
محدودة الحجم والقيمة والأثر ولكن بلا حدود لطموحها واستشرافها
لآفاق مستقبل ساطع بالحلم؟

أم أن الأمر لم يكن كذلك على الإطلاق؟ هل كنت قد كتبت أطلب
الكتب والمطبوعات والمجلات؟ ولما كان صديقي أنطوان بعيداً عن أعين
البوليس - كما تصوّرت - كان عنوانه هو موعد اللقاء؟

في بيت صديقي أنطوان رحبت بنا أوديت وقدمت لنا كأساً من
الكونياك وبملاوة شامية، ورتبنا ميعاداً في قهوة شارع شريف.
لكني لم أذهب للميعاد، كان ثمّ ما هجس في روعي أن هناك أمراً ما
ليس على ما يُرام.

ولم يأت قاسم إسحاق أيضاً ببساطة - كما عرفنا فيما بعد ولحسن
حظّ أقدارنا - لأن امرأة طلعت له في غرفة «بحري» ولم يستطع -
كمعادته - أن يقاوم ساعة حظّ. ولم نعرف قطّ من المرأة؟ هل كانت
إحدى زميلاتنا، أم كانت غلبانة من بائعات الأجساد بثمن زهيد، لعله
كان أيامها عشرة صاغ أو ريال بالكثير.

وعندما انعقدت اللجنة اكتفت بلفت نظر «الرئيس والسكرتير
العام» بعد أن كان أحمد النمّس ثائراً عالي الصوت يهاجم بعنف
الزميلين إذ أخلفا ميعاداً له أهميته الكبيرة، وكان فتوح القفاص يرقب
هذا الصراع الذي يوشك أن يكون سافراً، بنوع من الهدوء المتربّص،
وسرعان ما انتابه الضجّر على أية حال.

قلت إن الخطأ خطئي أنا إذ إن اختيار قهوة شعبية (لم أحدد
موضعها) للاحتفاء ببحار أجنبي لا بد أن يثير الشبهات.

قرأنا في «الأهرام» ثاني يوم إن بحاراً فرنسياً قبض عليه في أحد
مقاهي «البرابرة» (هكذا جاء في صفحة الحوادث) بالقرب من شارع
شريف، ووُجدت معه مطبوعات تدعو للمبادئ الهدّامة، وفي التحقيق

معه قال إن من حقه أن يحوز هذه المطبوعات فهي مشروعة ومسموح بها
في فرنسا، واكتفينا. سلطات التحقيق بترحيله على الباخرة
«كليمنصو».

وبعد أيام كانت الأزمة الصغيرة قد انقشعت.
كان من الممكن، لولا توافق غير منظورة، أن تكون لهذه الحكاية
عواقب وخيمة.

قلت لنفسي: أهذا تفكير علمي وموضوعي كما ينبغي أن يكون
التفكير؟ أم أن القدرية الكامنة في أعماقي لها سطوة ماتزال؟
خطر ببالي - دون أن أتبع الفكرة حتى مداها - أن حلمي الرئيس هو
الوحيد الذي كان يعرف أننا نلتقي أحياناً في قهوة البوابين والفرّاشين
النوبيين التي تظللها تعريشة عنب تكسبها مسحة ريفية، في زقاق
متفرع من شارع شريف، وكنت قد ضربت له ميعاداً فيها منذ عدة
أسابيع، وتحدثنا طويلاً.

لكنني طرحت هذا الخاطر جانباً، بسرعة.

الفصل السادس

استيقظت من نوم مضطرب على حلم قصير واضح كل الوضوح، بل ساطع.

كانت زينب المشراوى أمامي، هادئة جداً كأنها غائبة، أو مائتة، وجهها الفرعوني منحوت من رخام أسود عريق الجمال، عيناها مفتوحتان ورموشها طويلة وكثيفة ومقوسة إلى أعلى بشكل مشير للدهشة إلى درجة أنني في الأول اقتربت منها جداً بوجهي أتلقى هذه الظاهرة.

تراجعت إلى الوراء وقد أجفلت مني وقالت:

- إيه؟ فيه إيه؟

قلت نصف جاد نصف مداعب:

- أبدأ، رمش عينك يفرش على فدان.

ضحكت.

كان صوت ضحكتها أجش قليلاً، وينقطع فجأة.

خطر بذهني - في الحلم:

- على عكس ضحكة عايذة الناعمة الطويلة الأنثوية إلى حدٍ يشارف

الفنج، أقرب إلى ضحكة فاطمة الموديل.

كأنني سمعت تلك الضحكة الناعمة الأخرى متراخية الأطراف، في

قلب ضجة غير مستبينة لعلني ظننت أن فيها أصداً طلقات نار.

استيقظت متلهفاً، عرفت أنني في مطلع يوم له أهمية.

عندما ذهبت للكلية وجدتها صاحبة مضطربة واندرجت في دوّامات

من الطلبة تجتمع وتتفرق؛ الحديقة بين كليتي الحقوق والآداب ضاقت
بمن فيها، لها طنين من المناقشات والجدل والنداءات، وجموع من الطلبة
تتدفق من كليات العلوم والهندسة والصيدلة والطب، والأخبار قد أتت
من القاهرة عبر الصحف والإذاعة وعبر التليفونات في البيوت القريبة
من الجامعة، تأتي المكالمات بشذرة من الخبر ثم تنقطع فجأة وتتعدد
المطالبات لعاملات الترنك بمعاودة الاتصال بمصادر الأخبار - هي أساساً
بين أعضاء منظمة حدتو والشرارة في القاهرة وفي الجامعة وأبرزهم
عباس وشوقي وحسين وبسيروني الذين يروحون ويجيئون من بيوتهم
وإليها- وتأكدت الأنباء بأن اللجنة الوطنية العليا للطلبة والعمال منذ
فجر أمس المبكر قد حشدت صفوف جماهيرها في شوارع القاهرة
وأخذت تنظم الإضراب العام.

عرفنا بعد ذلك أن كل المصانع والشركات قد أغلقت أبوابها، وأن
الدراسة قد تعطلت بجامعة فؤاد الأول والمعاهد الفنية والمدارس الثانوية
والابتدائية، وأن الترام والأوتوبيس قد توقفت.
أحسست أن التوتر قد ارتفع في ساحة الجامعة.

تواترت الأخبار عما حدث في ميدان عابدين، أمام السراي، كان
الميدان قد غصّ بالحشود الحاشدة من الجماهير الهاتفة بالجلأ
والاستقلال، تدفقت صفوف طلبة الجامعة والمعاهد والمدارس من ساحة
الأزهر ومن ميدان الملكة فريدة تطوف شوارع العاصمة الخاوية ثم
وصلت مظاهرة هائلة من عمال شبرا الخيمة إلى قلب العاصمة، وفي
ميدان المحطة التقت هذه الدفقة الجبارة من جماهير العمال مع مظاهرات
قادمة من العباسية ومصر الجديدة والزيتون والمطرية وتوحدت الجماهير
الصاخبة التي قُدر عددها بأكثر من أربعين ألفاً.

عرفنا أن الجماهير الغفيرة قد انتظمت حول تمثال إبراهيم باشا في
وسط ميدان الأوبرا الذي انفسحت ساحته للناس فلم تكن التراموايات

ولا الأتوبيسات قد خرجت من عنابرها منذ الفجر، بينما كانت الكازينوهات والمحلات صامتة موصدة الأبواب. انعقد مؤتمر شعبي ضخم من الجماعات والمنظمات الوطنية، وصدر عن المؤتمر، بيان بالمطالب التي تدعو إلى كشف النقاب عن سير المباحثات البريطانية المصرية، وتحقيق الجلاء التام لكل قوات الاحتلال عن كل أرض الوطن وإلغاء معاهدة ١٩٣٦ واتفاقية السودان لعام ١٨٩٩، ورفع قضية الجلاء عن وادي النيل إلى مجلس الأمن الدولي.

قال لي شوقي محمود إن طلبة كلية طب قصر العيني قد تعلموا منا درساً، قلت: كيف؟ ماذا حدث؟ قال إن طالباً اسمه محمد علي أحمد وقع تحت عجلات عربّة البوليس، أمام الجامعة في الجيزة، ومات.

هل قلت إن اسمه وحده له دلالة أخرى؟ لم يعد مهماً أن يكون فرداً متميزاً - مع كل فرادته - بل كأنه شفرة مصرية عامة، محمد.. علي.. جرجس.. أحمد.. أضف إلى الاسم عباس الأعسر أو عبد الحكيم أو خميس أو شهدي عطية أو نقولا حداد أو مئات وآلاف بلا اسم، إذا شئت، ماذا يهم؟ كل من على أرض هذه البلد هو محمد أو علي أو شهدي أو إدوار.

هل قلت: يا للشهداء الذين سقطوا، بلا اسم، بلا نصب، بلا ضريح..

قلت: هل سقطوا؟ ما معنى السقوط هنا؟

قلت: نعم، شهداء بلا عدد ولا نهاية سقطوا في هوة النسيان.

لهل أنا الآن - ببساطة - أقيم لهم جميعاً نصباً أصوغه من عمق الروح من غير أن أعرف أسماءهم ولا ضرورة أن أعرفها؟ أم أن هذا الذي أفعله كله، ليس إلا قليلاً من دخان يصعد من احتراق داخلي، ويظهر به الهواء؟

قال شوقي: أخذ زملاؤه جثمانه إلى الكلية، قالوا نشيع جنازته

تشجيع الشهداء، وأخفوا محمد علي أحمد في مكان لا يعرفه إلا واحد أو اثنان من اللجنة التنفيذية للطلبة والعمال مع زميل لهم في السنة النهائية، واعتصموا في الكلية، عندما جاء فجر اليوم لم يكن قد بقي من الطلبة في الكلية إلا القلائل.

قال شوقي: عندما افتتح البوليس الكلية بجحافلهم وسياراته وأسلحته وكلابه لم يكن أحد ممن بقي فيها يعرف مكان محمد علي أحمد. وداخت عشرات الكلاب البوليسية بحثاً عنه، البوليس قلب الكلية رأساً على عقب، ولم يعثر عليه أحد، كانوا أذكى منا - يمكن - إذا لم يدفنوه في ضريح مرتجل كما فعلنا، بل وضعوه في المعمل الذي يحتفظون فيه بكلاب التجارب ومن ثم لم تستطع الكلاب البوليسية أن تعرف عليه..

قلت: ربما كانوا أذكى، ضللوا البوليس قليلاً ولكننا كنا مع سذاجتنا ربما أحرص على كرامة شهيدنا.

رمقني شوقي محمود بنظرة لم أعرف معناها، كان عليل الجسم، حاذق العينين، قلت لنفسى إنه مكار وسفروت ولكنه خفيف الحركة يتنقل بين طلبة كليته والكليات الأخرى سواء دون أن يلحظه أحد، ويتلقف الأخبار والحكايات والشائعات دون أن يحس أحد بأنه جهاز معلومات حتى متنقل.

كتبت لطيفة الزيات:

وفي تلك الأيام عندما انتُخبت في كليتي ضمن اللجنة التنفيذية العليا للعمال والطلبة.. فجأة وجدت نفسى، أنا بنت الأسرة المحافظة مضطرة إلى كسر قيودى لأمتزج مع زملائى فى المعركة أعتلى الأعناق لأخطب فى الطلبة.. محرّضة على الكفاح حتى الموت فى سبيل الجلاء.. فإذا بحماسى يشعل الثورة فى نفوس الرجال..

وما أكاد أعود إلى البيت بعد يوم مليء بالعمل الباهر والاجتماعات المتصلة للإعداد لليوم العظيم.. يوم الجلاء والإضراب العام.. ٢٩ فبراير.. حتى أفاجأ باجتماع من نوع آخر..

الأسرة بكامل هيئتها، تلتف في صمت حول المائدة.. تنتظر عودتي لمناقشتي الحساب.. بل لحاكمتي.. بمعنى أدق..

لم يحدث من قبل أن تأخرت فتاة من الأسرة، خارج البيت، إلى هذا الوقت المتأخر من الليل بلا سبب..

يجب أن أشرح لهم جلال العمل الذي أخوضه.. فلا يفهمون من حديثي سوى أنى كنت في بيت أحد زملائي أحضر اجتماعاً كل أعضاء من الشبان.. وأنا بينهم البنت الوحيدة.. ويصدر الأمر ضدى.. بالإجماع.. مادامت الجامعة في إضراب.. فلن أبرح البيت.

ويمرّ يومان.. وتقترب اللحظة التي أعددت لها مع زملائي.. يوم إعلان الإضراب العام والتظاهر لفرض إرادة الشعب..

لقد تعددت فرصتي اليوم في مجرد النظر من النافذة.. لمشاهدة ما أسهمت في الإعداد له يتحرك أمام عيني دون أن أكون في قلبه وسط الجموع.

وأهرب من البيت إلى الشارع وأدع نفسي لتدافع الجموع.. وصوتى يعلو رقيقاً حاداً مردداً شعارات اللجنة التي اشتركت ليلال في تكوينها.. أخيراً أجد نفسي في ميدان الإسماعيلية.. لكن الذى كان يحدث لحظتها هناك كان شيئاً يفوق كل تصور وكل احتمال خطر لهم وهم يستعرضون جميع الاحتمالات داخل اجتماعات اللجنة التنفيذية..

هنا.. يكشف الاستعمار والحكام عن وجوههم بصورة تقطع الطريق على كل متردد.. وتخطر لى فكرة غريبة.. تملؤنى بالغيظ.. ليت أبى وأخى.. هنا الآن، ليعرفوا.. أنه لم يعد ثمة مجال لحرمانى من حقى فى الغضب من أجل أرضى..

لحظتها أحسست .. أن المأساة .. عميقة تمتد إلى جذور حياتنا .. إلى داخل نفوسنا كأفراد .. وليس فقط إلى حدود حرية وطننا وأقواتنا .. وانتبهت إلى صوت مخنوق بالدموع يناديني .. كانت زميلتي في كلية الآداب .. رياً أدهم .. أسرع نحوها .. وأسرعت نحوي .. ثم توقفنا فجأة .. كان ثمة جسد صغير يئن على الأرض الدماء تنزف منه .. وانحنينا .. في حركة واحدة ولم نلبث أن رفعنا رأسينا مدعورين .. فالتقت عيوننا في نظرة .. مذهولة .. بينما كان صوت الرصاص والصيحات .. الفاجعة يصك الآذان ..

قلت : في تلك الأيام - أين ذهبت تلك الأيام ؟ - كان الشعب عرياناً قوى العود غير مخصص بعد، كان يعرف - من علمه ؟ - معنى الحرية وعلى استعداد لبذل الحياة نفسها في سبيل الحرية . كان عصياً على الانصياع لكل سلطات القمع العتيد أو سلطات النهر العتيق ، قلت : لم تكن تضلله - كثيراً - غوايات تغييب الوعي من خلال أجهزة الإعلام كاسحة الانتشار، ولم تكن تضلله وصاية أبوية ديكتاتورية فرضت عليه تحقيق مطالبه هو نفسه فرضاً من غير أن يسهم في الحصول عليها ومن ثم سرعان ما انهارت وجرفتها موجات الخصخصة العارمة وفحش العولمة والتبعية للرأسمالية المتوحشة .
أما يكفي هذا تفجعاً ، أو توجعاً ؟

على السور المحيط بمحطة مصر رأيت الشعارات بالبوية السوداء «أين الغذاء والكساء يا ملك النساء» ويخط آخر أكثر وضوحاً «الخبز والحرية للعمال والفلاحين» .

قلت لشوقي : هذا شعارنا .

قال بغموض : نعم

ثم قال : بالأمس كتب المتظاهرون شعاراتهم «الجلاء أو الفناء، تحيا مصر حرة مستقلة» على مصفحات الجيش في ميدان الأوبرا، اعتلى زعماء الطلبة والعمال عربات الجيش وخطبوا من فوقها.

كان صدقي قد قرر للضباط ٤٠ قرشاً علاوة في اليوم، وللجنود عشرة قروش، أيام النزول للبلد لمواجهة المظاهرات.

قال لي : الأخبار مؤكدة أن ٣٣ شهيداً - على الأقل سقطوا في ميدان الإسماعيلية.

قال لي : الأهرام نشرت أنهم ١٥ قتلى و ٢٣ جرحى - على الأقل، طبعاً هم أكثر بكثير.

عادت إلى صورة الميدان، ثكنات قصر النيل العتيقة من ثلاث أربع سنين، كثيبة قائمة الحمرة بنوافذها الضيقة المتجاورة تطل منها وجوه العساكر الإنجليز، صبية شقر عراة الصدور كانوا منذورين عندئذ للموت في العلمين وطبرق والسهول الإيطالية في حرب لا شأن لهم حقاً بها.

قال لي شوقي : طبعاً عرفت أن المظاهرات كانت قد اندلعت من ميدان باب الحديد وفي شارع لاطوغلي وفي ميدان الملكة فريدة العتبة الخضراء يعنى، وظلت سلمية حتى الساعة الثانية عشرة والنصف ظهراً.

قال : المظاهرة الضخمة التي كان فيها أكثر من ١٥٠ ألف شخص كانت متجهة من شارع قصر العينى إلى ميدان الإسماعيلية أمام الثكنات البريطانية.

انطلقت من داخل الثكنات أربع مصفحات إنجليزية تفتحهم كتل الحشود الحاشدة بسرعة خارقة، وفجأة تدفق الرصاص من المدفع الرشاش الصغير في إحداها وسقط أربعة قتلى حيث كانوا، وفي الوقت نفسه

جاءت سيارتان إنجليزيتان من ناحية كوبرى الخديوى اسماعيل من تحت
تمشالى الأسدين الرابضين، وقف المتظاهرون أمامهما، اندفع الناس،
فتحوا أبوابها وأخرجوا السائقين وانهالوا عليهما بالضرب وتركوهما
فى دماثهما على أرض الميدان وقلبوا السيارتين.

تقدم فؤاد أحمد الرز الطالب بالدواوين الثانوية، كان أول من
أشعلوا النار فى السيارات الإنجليزية، اندلعت كتلة المظاهرة فى حمياً لا
مقاومة أمامها إلى باب ثكنات قصر النيل، انهمر الرصاص من نوافذ
الثكنات فرماها المتظاهرون بكرات من النار صنعوها من جلاليبهم
وقمصانهم وقذفوا بها إلى أعلى، نفذت عدة كرات نارية مشتعلة إلى
داخل نوافذ الثكنات، كان الميدان يبدو كأنه يحترق، سحابات الدخان
والسنة النيران المهتزة ترتفع من احتراق السيارتين الإنجليزيتين ونفثات
الحريق من كرات النار التى سقط الكثير منها على جدران الثكنات،
أطلقت امرأة إيطالية النار من مسدسها على «الهمج أولاد العرب» فى
شارع قصر النيل الأنيق الذى استحال نهراً متدفقاً من الثائرين.

فى ٢٠ فبراير مات أحمد حسنين باشا وكان شخصية شبه أسطورية
فى دماثها وبهاثها معاً، كانت الإشاعات تروج بأنه عشيق الملكة نازلى
الأم وهى الوزّة اللى قبل الفرحة مذبوحة والعطفة قبل النظام مفتوحة،
وقد ضحى بحبها إذ كان يطمح إلى ما هو أكبر من منصب «عشيق
الملكة» وكان يحب أسمهان وهى زوجة أحمد سالم وقد تبادلوا الرصاص
على حبها. وه كان يلزم مليكه المقدى ملازمة الظل فى حياته العامة
والخاصة.

كنت قد قرأت فى أهرام الأمس، قبل أن أذهب للكلية، «مأساة
الوادى» بطولة جرير جارسون وجريجورى بيك فيلم فى سينما مترو
بالقاهرة، أول سينما بتكيف الهواء، ... أسراب الجراد تهجم على
سيناء... تم تصدير أكبر شحنة من الموتسيكلات من لندن إلى مصر...

أنور وجدى وعقيلة راتب يؤكدان إصرارهما على «أنا وابن عمي» على حسين رياض.. هانم متولى الألفى فقدت ختمها في المنصورة وليست مدينة لأحد.. صدقي باشا يؤكد أن نابلسي فاروق هو من أحسن أنواع الصابون، ويخرج في السابعة صباحاً إلى مكتبه بوزارة الداخلية دون إفطار.. اليوم يوم إضراب يبدأ من الأزهر رمز المقاومة الشعبية.. محمد حسين باشا رئيس نادى التجديف وُزِعَ الدعوات لحضور مباريات سباق الزوارق.. الأمير فيصل آل سعود عاد من لندن بعد أن أصبحت صحته جيدة وهو في طريقه إلى بلده... الأمير عبد الله حاكم الأردن في ضيافة الملك في لندن».

أما أهرام اليوم ٢٢ فبراير فقد جاءت تحقيقاته بنبرة محايدة ولكنها لا يعوزها حسٌ مُشايح لنزعات الجماهير الغلّابة، قالت إن المتظاهرين حملوا جثة أحد قتلى ميدان الإسماعيلية طافوا بها شوارع القاهرة، وهم يرفعون الأعلام الخضراء والقمصان البيضاء ممزقة مخضبة بدماء الشهداء والجرحى.

قال لى شوقى، بهدوء جدير بجهاز المعلومات الذى يجسده: بعض الإخوان المسلمين وشباب السعديين والأحرار الدستوريين وربما مصر الفتاة، كانوا ينادون بالذهاب إلى عابدين ليرفعوا إلى «سدة الملك المقدى» مطالب الشعب وهتفوا «كان إسماعيل صديقاً وكان نبياً» ردت عليهم الحشود «تسقط سلطة الباشوات» هتفوا «تموت وتموت ويحيا الملك» فبادرتهم جموع المتظاهرين «لا ملك إلا الله» ولم ينسرب إلى ساحة عابدين من غمار الآلاف المؤلفة إلا نفر القليل.

قال لى شوقى، بتواضع العارفين بخفايا الأمور:

- الليلة الماضية اجتمعت اللجنة الوطنية للطلبة والعمال وأصدرت بياناً معى نسخة منه.

قلت بتلهف: أين هو؟ أرنى!..

مدّ لي يده بورقة كتبها بخط يده الذي كنت أعرفه :

بيان من اللجنة الوطنية للطلبة والعمال :

«بصدد فتح القوات البريطانية النيران على الأبرياء والعزل نطالب بجلاء القوات البريطانية بصفة فورية من كل المدن الكبرى، ونطالب الحكومة بالألا تعود إلى المفاوضات مع بريطانيا إلا بعد صدور إعلان صريح من بريطانيا تعترف فيه بالجلاء».

قلت : بيان شديد الاعتدال، شديد التعقل لا يليق بالتضحيات التي بذلها الناس في هذا اليوم ولا يبرئ دم الشهداء.

قال، بتمهّل وحيطة: لا تنس أن اللجنة تضم عناصر مختلفة الاتجاهات، لعل هذا هو القاسم المشترك الأدنى، ثم إنهم اتخذوا قراراً بإصدار ميثاق وطني يوقع عليه كل القادة الوطنيين وقرروا منح الحكومة المصرية فرصة ١٥ يوماً لكي تتسلم الرد من بريطانيا على مطلب الجلاء، هذا أيضاً انتصار، وإنذار في الوقت نفسه.

لم أجب، كان منطقاً قوياً.

قلت : منذ متى كان المنطق هو المعيار في الثورة أو في الفن ؟

قلت : لهما منطقتي، ليس هو منطق الاعتدال والتحرط.

يوم الأحد وبينما كنا في آخر محاضرة للشيخ أبو زهرة سمعت الهدير البهيج لحشود الطلبة المتدافعين المتزاحمين، كان مصطفى النحاس قد جدد الدعوة للمصريين جميعاً لمواصلة الجهاد، وكانت اللجنة الوطنية للطلبة والعمال في اليوم نفسه قد طالبت القوات البريطانية بالانسحاب فوراً من كل المدن الكبرى، كان هذا النداء مرة أخرى نداءً أقرب إلى التنازل عن الكل للحصول على الجزء. أي أنه كان من قبيل المناورة «السياسية».

قلت : هل كانت المواقف الدبلوماسية أو «السياسية» هي الفخ الذي سقطت فيه هذه اللجنة، واندثرت، بعد أن سطعت شهاباً متوهجاً

وجيز الاشتعال؟ ألم يكن من «المنطقي» - مادمننا نلوذ بالمنطق - أن نرفع نداءات ثورية وليس فقط مطالبات سياسية؟ أم أن «الظروف الموضوعية» - كما قيل - لم تكن مواتمة للمواقف الثورية؟

قلت: الثورة - في السياسة وفي الفن - اختراق وانتهاك وليس مؤاممة ولا تكييفاً مع الظروف.

ولكن أسعدنا مع ذلك - إلى حد ما - دعوة اللجنة أن يكون يوم الاثنين ٤ مارس «يوم حداد عام» بمناسبة أحداث فبراير الدامية.

التمساح انساب على ثبج الماء ثم انزلق على الشطّ كان قاسم إسحاق يطعمه بيده أعواداً خضراً تبدو نضرة طازجة تشرّ بالطزاجة داكنة وطرية وتبدو مع ذلك وكأنها أعواد قطن ملوّز منور وكأنها في الوقت نفسه حزمة برسيم يلتقطها كأنه فرس البحر، وكانت عيناه مدركتين، مدورتين، مثل كرتين عسلتين من بللور عميق الصفاء.

كان التمساح يضرب تربة الأرض الرخوة المبللة بذيله الضخم القوي وفجأة رأته معلقاً على باب ٧ شارع العباسي، أسود محتطاً، متصلباً بلا حياة، لكن عينيه مازالتا عارفتين واعيتين بالذكرى وبالأمل.

حضرت، ومعى زملاؤنا، المؤتمر الثاني الذي انعقد في جامعة فاروق الأول في نهاية ذلك الأسبوع.

عندما ألقى سعدان الأسيوطي بالعلم البريطاني إلى الأرض وداسه بالحذاء وبّلل طرفه بقليل من البنزين ثم أشعله بعود كبريت، تصاعد هديرٌ مدوّ ارتجت له مباني الجامعة الراسخة: يسقط الاستعمار الجلاء الجلاء الموت للإنجليز مصر والسودان لنا وانجلترا إن أمكننا.

جرى فريق صغير من كلية العلوم وجاءوا بكومة من الكتب والمراجع الإنجليزية لكي يرموا بها إلى النار.

تصدّى لهم فريقنا، متكاتفين بالأيدي متحلقين حول النار نهيب بهم

أن حرق الكتب جريمة لا تُغتفر ولا معنى لها فالعلم ليس له وطن وليس في كل الأحوال قريناً للاستعمار. كان أحمد النمى بقامته القصيرة المدكوكة نوعاً ما قد اعتلى كرسياً يخطب بصوته الأبح الأجش المؤثر يهدئ من اندفاع الأولاد بتوع مصر الفتاة، يطعم دعوته بالعبارات النارية المعتادة التي يحبها الجميع.

قال: خست الحكومة المخادعة المهادنة الملاينة، لا تفريط في حقوق الوطن المقدسة ولا امتهان أيضاً لقدسية العلم، لا نامت أعين الجبناء ولا أعين الجهلاء. وهكذا.

ولكن بعض الموسوعات كانت قد ارتفعت في الهواء، قذف بها الطلبة إلى المحرقة التي تصاعدت منها خيوط من الدخان برائحة شياطين القماش واحتراق الورق ونفثات الجلد الحريف من أغلفة الكتب.

ذهبت صيحاتنا هدراً في اندفاع الطلبة الأهوج الذي كان يستثيره طلبة مصر الفتاة والإخوان المسلمين بأصوات مشروخة كان فيها سعار من الحميا ولمسة من الجنون، قلت: أهلاً بالحميا والجنون في القضايا الصحيحة وليس في مجرد هوس الحمق.

صحيفة السفير وعنوانها ٨ ميدان محمد على بالإسكندرية تليفون ٢٨٦٩٧ وثمان النسخة ٢٠ مليماً، قالت في عددها الخاص رقم ٣٨ مكرر لسنة ١٩٤٧ «كان يوماً رائعاً».

جاء في العدد نفسه منها حديث للأستاذ عبد العظيم أنيس، كلية العلوم، رداً على سؤال محرر الصحيفة: ما رأيكم في العلاقات القائمة بين الطلبة والطالبات في الجامعة، وكأنا يستبق لطيفة الزيات ويدين بحق كامل - دعوات «الإسلاميين» في آخر عقود القرن العشرين، قال:

«إن على الطلبة والطالبات أن يدركوا حقيقة جوهرية اليوم، تلك أنه

من المستحيل على المجتمع المصري أن يتقدم ما لم ننظر إلى المرأة

والرجل على قدم المساواة وما لم يعترف الوضع الاجتماعي بهذه

الحقيقة، بل علينا أن ندرك أنه لن يتحقق لكفاحنا الوطنى نجاح تام ما لم تشترك الطالبة مع الطالب فى هذا الصراع الحاسم من أجل حرية شعبنا، ومن هنا ندرك كم تكون مجرمة هذه الدعوات التى تنادى بمنع اختلاط الطلبة والطالبات فى الجامعة، إن هؤلاء الذين ينشرون هذه الدعوات لا يستطيعون أن يتصوروا اختلاطاً نظيفاً شريفاً أساسه التعاون لمصلحة الجامعة والمجتمع المصرى بأسره.

سوف أعرف عبد العظيم أنيس فى معتقلات أبو قير والطور بعد ذلك. وسوف أظل أكن له حتى الآن - مع اختلافى معه فى عدة أمور - محبة على البعد، احتراماً كبيراً.

لم تكن زينب المشراوى طالبة فى الجامعة، ولكنها كانت فى تقديرى أثقف وأنضج فكراً من كثيرات من زميلاتنا اللاتى كان بعضهن يناين بجانبهن عنا فى نوع من الحُفر أو التوقى لعله غريزى ولعله ضغطٌ وليد العرف الاجتماعى، كانت زينب بخطوتها الجسور وضحكاتها الصافية عن أسنان عاجية ناصعة وصدرها الشامخ تذكرنى قليلاً بنوريس فخرى التى سقطتُ صريعاً فى حبها منذ ثلاث أربع سنوات عندما دخلت مدرّج كلية الحقوق لأول مرة، على رغم سمررة زينب النوبية وشُقرة نوريس الشامية الأصل على الأرجح، فى كليتهما روح من التحرر بل التمرد هى التى جذبتنى إليهما عن هوى صبيانى مع زميلتى الحقوقية، وفى صداقة حقيقية مبنية على تفاهم ومودة - هل أقول أيضاً محبة؟ - مع زينب، كنت أعرف أن قاسم يموت فيها حباً، وأحترم صمته عن أن يبوح لى به، كان قد حكى لى فى أخميس منذ خمس أو ست سنوات قصة حب صبيانية أخرى، لعل خبرات الحب الأولى قد أنضجت قلبينا. عندما عرفتُ عرضاً - بعد ذلك بخمسة وخمسين عاماً، أن نوريس ماتت منذ شهور قلائل، أخفيتُ دموعاً فرّت من عيني غصباً عنى.

فى اجتماع اللجنة ليلة أول مارس، فى ٧ شارع العباسى، اقترح

قاسم أن نضم إلى اللجنة عنصراً نسائياً وأفاض في شرح اقتراحه بضرورة الكفاح من أجل حقوق المرأة إذ تقممعها أعراف النظام الرأسمالي والتقاليد العتيقة الموروثة عن المجتمعات الزراعية شبه الإقطاعية والتي مازالت تحكم مصائر النساء، وقال إن عضو اللجنة، ممثلة للمرأة المصرية، يجب أن تكون من الطبقة البروليتارية الكادحة - هكذا بتعبيره - وليس من البورجوازيات المثقفات اللاتي لم يعرفن معنى القهر الاجتماعي.

تحمس على أبو الليل وقد خرج عن تحفظه المعتاد، أحنى رأسه الضخم الأصلع وقال بصوته الخافت المعتاد الذي يخرج بالكاد من بين أسنانه وإن كانت نبرته أعلى قليلاً: إيوه أمال، أنا موافق، الطبقة العاملة هي صاحبة الحق أولاً وأخيراً في عضوية هذه اللجنة.

أحمد النمى بادر بلهجته الاستفزازية المهاجمة بالسؤال عمن يرشحه بالتحديد وبالاسم.

قلت في نفسي: مازال الصراع الكامن محتدماً على زعامات موهومة.

كنت أتوقع هذا الاقتراح من قاسم ويخفق قلبي له بالتأييد ولكني إذ أعرف مدى حبه زينب أتوجس من عقابيل هذا الحب في العمل الثوري وما قد يثير من انشاقات وصراعات لا شأن لها بالمواقف السياسية أو الأيديولوجية بل لها كل الشأن في علاقات عاطفية محتملة معقدة وما قد يجره من أخطار وما قد يترتب عليه من تكتلات (إذ توجد جبهة صلبة دائمة من اثنين على الأقل) ذلك كله على صغر بل ضآلة عددنا، ولذلك آثرت أن أعدّ للأمر عدته فأحاول دون أن يذكر اسم زينب صراحة، كما أحاول أن أسرف في اتخاذ قرار من ذلك النوع.

سارعت بالتدخل وقلت محتدماً إن الزميل قاسم على حق تماماً في طرحه، ولكني أرى الوقت مبكراً على اتخاذ مثل هذه الخطوة مع

التسليم بضرورتها، وقلت إن الزميل قاسم أعرف منى بالقيود التي يمكن أن تعوق اشتراك أي عنصر نسائي (هكذا قلت) مهما كانت ثورتها في اجتماعات لجنة انعقد في بيت يرحب بنا أصحابه ولكننا نتجاوز حدنا معهم إذ جاءت إليه معنا امرأة مهما كان اقتناع أهل البيت، ومنهم والدة زميلينا عبد القادر وعبد الفتاح بنقاء الأمر من كل شائبة وخاصة إذا عرف والدهما التاجر الريفى فى البلد بالأمر، فالمسألة إذن تحتاج إلى وقت.

قلت: عندما يشتد ساعد اللجنة وترسخ أقدامها (هكذا قلت بفصاحة وتفاؤل ونبرة حماسية دائماً) ويكون لنا مقر سرى مستقل، عندئذ فقط يمكن أن ننظر ونقرر فى الاقتراح السليم الذى تقدم به قاسم. وطأ فتوح القفاص سيجارته فى المنفضة الزجاجية أمامه بغيظ أما عبد الفتاح وعبد القادر فقد كانا يحسان بالخرج والتراوح بين المسئولية والنزاهة الثورية من ناحية والعادات الريفية - والحضرية أيضاً - التى تستهجن بالتأكيد حضور امرأة إلى بيت غريب والسهر فيه مع سبعة أو ثمانية رجال، فالتزما الصمت عن حكمة مبكرة، وكان من الواضح لى أنهما سوف يمتنعان عن التصويت لو انتهى الأمر بالاقتراع، وكنت على يقين من أن قاسم قد حسب حساب ذلك وأن الاقتراع سوف يهزم اقتراحه: اثنين أو ثلاثة على الأكثر معه، واثنين امتناع، واثنين ضده، فلن يحرز أغلبية الخمسة أصوات المطلوبة، فسكت دون تعليق.

قال أحمد النمى، بما يشبه نبرة انتصار: إذن أقترح تأجيل النظر فى المسألة.

ومرت الأزمة الصغيرة بسلام

قلت: أقترح أن تناقش مقالة د. محمد مندور فى «الوفد» اليوم، قرأت المقال ببطء بينما كان قاسم وعلى قد أخذ السجائر من علبة فتوح «بول مول» الصفيح السوداء الفاخرة وقام عبد القادر يفتح النافذة

الأرضية مواربة قليلاً، ويدعوني بإشارة من يده أن أخفض صوتي قليلاً:
ولقد بدت بمصر هذه الأيام ظاهرة تعتبر نقطة تحول خطيرة في تاريخنا
الحديث.. ويظهر هذا التحول من المقارنة بين الحركة الوطنية في سنة
١٩١٩ والحركة الوطنية الآن.. ففي ١٩١٩ كانت الأمة لا تتحرك إلا
إذا طلب إليها الزعماء الحركة.. وأما اليوم.. فقد نضج التفكير
السياسي حتى رأينا جموع الشباب من طلبة وعمال يقررون بأنفسهم
خطوات الجهاد العملي وينفذونها وتستجيب لنداءاتهم.. وقد أصبح
من الواضح أن الحركة القائمة لا تعتبر تحقيق الاستقلال نفسه الغاية
النهائية التي يقف عندها الجهاد.. وذلك لأن الفرد قد أصبح يدرك
إدراكاً واضحاً أنه لا خير في إلغاء الرق الخارجي مادام الرق الداخلي
جائماً على صدره وأنه لا جدوى من أن يصبح الوطن عزيزاً إذا ظل
الفرد ذليلاً.

ما أن فرغت من القراءة حتى صرخ فتوح القفاص يتناثر من فمه رذاذ
خفيف في اندفاع حماسه دون تورع:

- حيوان.. ١.. كلام فارغ.. وكلام عمومي في الهواء يعني إيه «الرق»
الداخلي، إحنا مالنا ومال العبارات الإنشائية «ذليل»، «رق»، .. عاوزين
تحديد واضح.

دعاه عبد القادر بإشارة ملحة أن يخفض صوته، وقام يغلق النافذة
وفتوح مازال يهضب بالكلام:

- يقول لنا الرأسمالية والإقطاع والملك، هكذا بوضوح، بدلاً من
كلام غائم عن الذل والرق..

انطلق الجدل القديم المعتاد من إيساره، واستمر طويلاً حتى استنفد
فتوح طاقته وأوشك على أبو الليل أن يأخذه النعاس، فهو قد بدأ الشغل
في دكان الأحذية الحريمي من التاسعة صباحاً وعليه أن يقوم من النوم
مبكراً ليأتي من الوردبان إلى شارع صفية زغلول، وكانت الساعة قد

تجاوزت الواحدة صباحاً .

على الرغم من هذه الصراعات والنزغات الصغيرة فقد كنت موقناً أنهم جميعاً - أنا جميعاً - على استعداد دون تردد لحظة واحدة، إذا اقتضى الأمر، أن نتلقى الرصاص في صدورنا أو أن نقضى بقية حياتنا في السجون، دفاعاً عما نؤمن به .

خرجنا إلى الهواء الطلق في الشارع، كانت بيوت محرم بيه قد أطفأت أنوارها في الحى الساكن الخاوى مطوية على أسرارها ومباهجها أو فواجعها الصغيرة التي يتكون منها - قلت لنفسي - نسيج هذا الوطن المحتدم بالشوق إلى التغيير والنزوع إلى الحرية والكرامة والعدالة . فهل قلت : مهما كنا قليلين لا أثر محسوساً لنا تقريباً في هذا الخضم من الاحتدام والجيشان والثورة التي تكمن خلف هذه الجدران، فلعلنا نعيش أقوى وأجمل لحظات حياتنا وربما أكثر لحظات الوطن إشراقاً بالأمل .

هل قلت : ما القيمة الباقية من كل هذه الحيوية عند جماهير مصر في تلك الأيام؟ ولماذا خفت، وانحسرت، وضاعت؟

بتفاوتل عنيد وغير مبرر أقول لنفسي : قيمتها باقية، مهما ضللتها الزيف، وضرب الفساد في نخاع البلد .

مصر خالدة، ليس ذلك مجرد عبارة إنشائية ولا إيماناً أعمى، بل هو واقع التاريخ، وما وراء كل تاريخ .

أما القيمة الباقية عندي فلعلها ليست ذاتية فقط، لم يكن ذلك - فقط - كفاحاً فيه قدر من الاستشهاد والتضحية بالذات في سبيل وقضية الوطن، وحلم العدالة، بل كان أيضاً - وأساساً - علاقة حب بديل، عشق مستغرقٍ أولى .

الفصل السابع

في الثامنة صباحاً من يوم الاثنين ٤ مارس كانت ساحة الجامعة خالية تقريباً.

الحديقة الصغيرة أمام مبنى كلية الحقوق - الذي قضيت فيه خمس سنوات من الدراسة الثانوية وأربعة من الدراسة الجامعية - مزدهرة بأول زهور البانسيه البنفسجية المرقشة والمرجريتة الصفراء والباتونيا ذات الكؤوس الشفافة والفاولانكس الدقيقة بألوانها الداكنة والدلفينا الزرقاء، كانت الحديقة بين كلية الحقوق وكلية الآداب المواجهة لها قد سويت وزال كل أثر لضريح الشهيد الذي سهرت أمامه ليلة بطولها. وكانت السماء الإسكندرانية صافية لا مثيل لعمق زرقتها الهادئ. كان كل شيء حول الجامعة ساكناً وصامتاً.

كالمتفق عليه وجدت حسن وأحمد وعزيز جالسين على العشب الأخضر أمام تربيعة الورد البلدي، كان باب السلم الحديدي مغلقاً فنزلنا على الطريق المتحدر الذي يدور حول ربوة الجامعة.

مررنا بمحطة مصر وبالقرب من المطافئ أمام مبنى سجن الأجناب، وجدنا مجموعة من المتظاهرين يهاجمون ربوة كوم الدكة العالية التي كانت تطل على ساحة المحطة ويرفرف فوقها اليونيون چاك البريطاني، وطلقات رصاص في الهواء تنطلق منذرة متقطعة، يتراجع الناس متزاحمين، رأيناهم يتجمعون من جديد، ويندفعون من جديد ويتراجعون تحت زخة طلقات الرصاص الجديدة، عدنا من شارع محرم بيه الصامت الخالي إلى شارع منشه، المكتبة البلدية، الكوبري، ملعب الملك، الساحة

أمام الملعب الخضراء الفسيحة، شارع صغير تفوح من حديقته على
الصبح رائحة الياسمين وتتناثر الأزهار الصغيرة البيضاء بين فروع الشجر
امتهدلة اللدنة، شارع فؤاد، المحلات الغالية الأنيقة مغلقة الأبواب،
اللافتات المكتوبة بالإنجليزية أو الفرنسية قد لطحها الشباب بالأسود
وكتبوا فيها بالفرشة السوداء «تحيا مصر» بخط ليست فيه أدنى أناقة.

في صمت الصباح الخاوي كانت أصواتنا عالية لها صدى ونحن
ننشد بلادى بلادى لك حبي وفؤادى ويحيا الوطن، نسير في عرض
الشارع الذي انقطعت منه الرجل وكفت السيارات القليلة على كل حال
عن المرور.

من شارع صفية زغلول إلى محطة الرمل، في الحديقة تحت تمثال سعد
زغلول رأينا طابوراً، لعله من عشرين جندياً من الجيش المرابط يقفون
ومعهم بندقياتهم الطويلة تاريخية الشكل، متراخين شكلهم مرهق،
ركبهم سوداء عظمية وسوداء فوق ربطة ألشين السيقان الرمادية
وأحذيتهم كأنهم لم يخلعوها من يومين ثلاثة، ضخمة ومتربة، حللهم
العسكرية الكاكي باهتة، وإلى الوراء منهم في الظل، ضابطهم الشاب
على كرسي لعله مستعار من التريانون المقابل يقرأ الأهرام ويغالب
الملل، وعلى مقربة منهم كشك البوليس الحربى الإنجليزى من الخشب
الخضراء الباهت وعليه الحرفان M.P. واضحين كبيرين مرسومين بدقة آلية
بالبوية البيضاء، جماعات متفرقة من الناس كأنهم يسرون على غير
هدى، محطة الرمل صامتة. كشك الناظر بسقفه القرميد الأحمر،
وصفان من أشجار النخيل الملوكى يهتز سعفها.

التراموايات الزرقاء - ومنها الترمواى أبو دورين - واقفة وخالية.
يصلنا وشيش أمواج البحر ترتطم بأحجار المينا الشرقية عبر
الكورنيش الذى لا تكاد تمر به سيارات، وأصداء «بلادى بلادى» في
الفراغ الفسيح نسمعها صغيرة وخافتة.

لم تصدر صحيفة واحدة اليوم، كان احتجاج مصر كلها حداداً على شهداء ٢١ فبراير، شاملاً.

عبرنا الكورنيش إلى الرصيف المجاور للبحر. رأينا قارباً صغيراً يبدو جميلاً رقيقاً هشاً، يتحرك بالمجاديف، بسرعة، وسط المينا الشرقية متجهاً إلى مركب عسكرية إنجليزية يرفرف عليها العلم البريطاني.

كان القارب نحيلاً ضئيلاً وهو يقترب من تحت المركب الحربية الحديدية، المجاديف الأربعة تضرب الماء بانتظام المحترفين العارفين بأصول البحر، لا يكاد يسمع صوت ارتطامها السريع بالماء الأزرق الساكن.

وصل القارب تحت المركب وصعد إليها أربعة واضح أنهم من أولاد البحر، تسلقوا جدار المركب بخفة، وصعد أحدهم إلى السارية، أنزل العلم وأسقطه في البحر، تركوا المركب، كان ذلك كله يجري بسرعة لا تصدق، وابتعد القارب بينما كانت طلقات رصاص متناثرة تسقط على الموج في أثره وتنبثق المياه نوافير صغيرة مزبدة في مواقع سقوطها.

فوجئنا، أمام «أتينيوس» بعربة جيب إنجليزية حربية مكشوفة تأتي مسرعة من ناحية ربوة معسكر مصطفى باشا، وتقف أمامنا، فيها عسكريان إنجليزيان يبدوان في مثل عمرنا أو أصغر، ضئيلين قليلى الجسم في الشورت الكاكي الواسع والسترة العسكرية المتهدلة قليلاً، بلا تعبير على الوجهين الشاحبين في النور الصباحي الإسكندراني ونسمة البحر البليلة في مارس تهب علينا، نرمقهم وقد ارتفعت أصواتنا بالنشيد وكأنما لا يعيروننا اهتماماً، أحدهم يمسك بالتليفون النقالي الحربي ضخيم الشكل ويتكلم فيه والآخر يمسك بالتومى جن الخفيف، يبدو هذا المدفع الرشاش في يده رقيقاً وهشاً ولكنه منذر ويحمل طاقة القتل.

سمعنا هديرًا خفيضاً على البعد من ناحية آخر شارع سعيد، ربّما من ناحية المنشية، دوى الهتافات الموقعة بانتظام مازالت غير مستبينة

لكنها تهز القلب، سارعنا بالنفاذ من شارع جانبيّ بجوار القهوة التجارية، وفجأة وجدنا أنفسنا في غمار المظاهرة الحاشدة، التهمتنا الجموع وفقدنا أحدنا الآخر في وسط تموج الناس العارم المتدافع، وجدت نفسي وقد فنت فيهم، لم تعد «بلادى بلادى» نشيداً بل هو نداء كثيف، ووجدت أنني أهتف وقد استأثرت بي نشوة الذوبان في هذا الكيان المتدفق من الأجسام المتكاثفة، الجلابيب والطواقى والطرابيش والبنطلونات والعمم والقفاطين، الرجال والصبيان والشيوخ كلهم نهر واحد متلاطم الموج ومنسجم في نزوع لا يُغلب.

الجللاء أو الفناء تحيا مصر حرة مستقلة يسقط الاستعمار نموت نموت ويحيا الوطن. لعلى كنت لا أسمع صوتي، ولا صوتهم، بل هي أرض الوطن تميد تحت الأقدام بزلزال متقلب ومنتظم الإيقاع.

لم يعد للزمن ولا للمكان ولا شيء آخر وجود خارج هذا الكيان الهادر المدوي من آلاف المصريين الضارين على أبواب سماء الحرية.

عندما كنا أمام مبنى الغرفة التجارية بطرازه الكلاسيكي وعلى يميننا المباني الأنيقة العالية التي تنتهي بفندق سيسيل، سمعنا طقطقات متقطعة، هتافات ويضربوا بالرصاص.. بالرصاص ولاد الكلب، وبنظرة غاضبة رأينا وجوهاً صغيرة تطل من النوافذ العالية ومسدسات صغيرة، سمعت أزيزاً خاطفاً يمرق قريباً جداً من أذني وأحسست حرارة كأنها خطفة برق ورأيت الولد الذي كان يهتف بجانبي، يترنح وتنبثق دفقة حمراء على صدر جلابيته، مفتوح العينين بدهشة الموت، أخذ الدم على الفور ينزف من ركن فمه، وقبل أن يسقط على الأرض تلقفته الأيدي ورفعته إلى أعلى «إلى جنة الخلد يا شهيد - إلى جنة الخلد.. نموت وتحيا مصر»، الهتافات مبسوطة تخنقها الدموع لكنها قوية والناس تتلاطم جموعهم حولي، خطر ببالي، كالبرق أن الرصاصة أخطأتني أنا بمقدار أصبع أو أقل ولولا حركة رأسي بالهتاف في تلك اللحظة بالذات لكنت

أنا الذى تحملته جموع الناس مخضباً بالدماء.

فى خضمّ الناس لحت تحت تحت مبنى سيسيل مباشرةً عربيةً عسكرية مغلقة داكنة اللون، وبداخلها جنود الإشارة الإنجليز، ومن النافذة الأمامية رأينا الجندى يتحدث فى جهاز تليفونى متصلّ بسلك طويل يتدلى من عمود إيريال مثبت على أعلى المبنى، انشقت المظاهرة واتجه أحد شقيها نحو السيارة، رأينا شاباً بقميص وينطون يتسلق المبنى بسرعة وبراعة، الناس تهتف تحته بدوىً صاحب: الله أكبر الله أكبر. وخيل إلى بين تدافع الأكتاف أن عمود الإيريال قد ترتج ومال إلى جنب وسقط، رأيت الكابل الأسود بالفعل يتهاوى متكوراً ويسقط على السيارة التى دار محركها وهى تطلق النار من مدفع رشاش مصوب إلى الناس بزخات سريعة وقصيرة، دارت إلى الخلف بسرعة وخرجت إلى الكورنيش، رأيت الشاب الذى يهبط من على شرفات المبنى متحسّساً الجدار بقدميه الخافيتين يتهاوى وتفلت يداه الجدار ويسقط على الأرض مضروباً بالرصاص.

أحسست هياج الناس قد بلغ المدى، لا يمكن لقوة على الأرض أن تكبح جماحه.

سمعت طلقات متناثرة قليلة من النوافذ العالية، ولكنها ضاعت كأنما لم تكن، واتجهت الجموع نحو كشك البوليس الحربى المغلق الذى غرق وسط الجماهير الغاضبة.

خلع أحد أولاد البلد جلبابه وظلّ بالصديرى والفانلة واللباس العَبَك الطويل، مزق من جلبابه شريحة كبيرة، لحقه الناس فأخذوها منه وفتحوا سدّادات البنزين من السيارات الواقفة تحت المبنى وأمام التريانون وأغرقوها بالبنزين، فأخذها منهم، وانطلقت زخة تومى جن من نافذة كشك البوليس الحربى التى انفتحت فقاذفها الولد بكرة ملتهبة من النار، وجدت فجأة كرات متلاحقة من القماش مشبعة

بالبنزين ممزقة من القمصان والجلاليب تتوالى وتختفى داخل ظلام الكشك، سرعان ما طقطقت أخشابها واندلعت النار من النافذة المفتوحة، لم أر شيئاً بعد ذلك، جرفتنى الجماهير المتلاطمة إلى جنب، وعرفت أنهم اقتحموا الكشك وذبحوا جنديي البوليس الحربى اللذين كان مصيرهما أن يلقيا حتفهما ساعتها، هل ذبحوهما أم قتلوهما ضرباً وطعنأ وركلاً؟ من يستطيع أن يوقف غضب الحشود العارمة.

وما أهمية أن يكون الضحيتان الإنجليزيتان اسمهما جون أو سميث وجاءا من ساسكس أو يوركشاير أو حتى جنوب لندن؟.

لم يعد لهما - ولا لرفقائهما - وجود فردى وشخصى، كان قدرهما - مثل الملايين الذين راحوا في حرب لا شأن لهم حقاً بها - أن يكونا مجرد شفرة، مجرد رمز، مجرد رقم في معادلة قاسية ضارية لا رحمة فيها.

قلت : قضيتنا كانت ومازالت عادلة ومبررة.

قلت : نعم، بلاشك ولا تردّد لحظة واحدة.

قلت : وما قضية الأم التى كانت تنتظره في يوركشاير ولن تراه قط،

بل لن ترى جثته الممزقة؟

قلت : هل تريد عدالة كونية تعرف استحالتها وغوايتها؟

قلت : من يذكر الآن اسم سليمان أبو المجد الذى دفع حياته ثمناً لقطع

شريان الاتصال بين عساكر الاحتلال وقيادتهم، أو مئات مثله لا أحد

يعرف أسماءهم، أو فاروق حافظ الذى وصف نفسه بأنه عضو اللجنة

الوطنية للطلبة والعمال بالإسكندرية وقضى نصف عمره في السجن

ثمناً لجندي بريطانى - من يذكر اسمه هو أيضاً؟ - وقع محبوساً في

كشك البوليس الحربى الذى أغرقه طوفان الغضب الشعبى؟

ألم يكونا هما أيضاً من رموز وشفرات بلا اسم، مثل الملايين من

شهداء الإيمان؟

هل تريد أن يكون لكل خصوصيته وتمييزه وبقاؤه فرداً لا مثيل ولا ند

له، ولا يمكن أن يحل محله آخر أو حتى أن يشابهه آخر، بجانب دوره الرمزي الذي لا محالة هو دوره رغماً عنه أو بمشيئته.

وعلى سبيل الاستطراد - والتزيد ربما - فلا أنسى أبداً نظرة شابٍ على خزينة محلٍ لبيع المجلات والملابس الشبقيّة في برلين الغربيّة، كان الجليد يتكسر في الشارع عندما دخلت إلى التكييف الدافئ في المحلّ. كان الولد حليق الرأس تماماً، كدير الملامح، يرتدى قميصاً ملوناً معقوص الأكمام عن ذراعين مفتولتين موشومتين بوشم بذيءٍ داكن الخضرة على بشرة بيضاء ملساء، عيناه ضيقتان نافذتان فيهما كلّ حقد العالم وغضبه واحتقانه بالإحباط، إذ يرى في نموذج «البورجوازي» الشرقيّ الذي عنده أموال متلتلة (لم يكن عندي منها شيء) وعنده نزععات شبقيّة سهلة ينفق عليها نقوده، تحولتُ عنده إلى شفرة، رمز، موضوع، بملابسي، بنظارتني، ومنظري، بنقودي القليلة الكاش الجاهزة فوراً دون بطاقات ائتمان ولا دياولو.

كيف يُجرّد الواحد من فرادته وشخصيّته فيتحول إلى رقم، أداة، حرف في معادلة جبريّة محلولة سلفاً.

قلت: أهذا ما يحدث لملايين الناس في الحرب وفي منعطفات التاريخ الكبرى؟

ومع ذلك يظل لكل، أياً كان ومهما استحال إلى تجريد، كشافته المتفرّدة التي لا نظير لها.

سوف أقول: وماذا عن الاستنساخ البشريّ الوشيك؟ وصناعة «الوحدات» البشريّة على طريقة الإنتاج الجماعيّ الآليّ؟

قلت: مستقبل مشرق جميل Brave new world.

كان طابور الجيش المرابط يقف الآن متوتراً، لا يتحرك، لم تأت الأوامر إلى قائده الشاب الذي ترك كرسيّ التريانون المستعار ووقف يرقب الموقف دون أن يجرؤ على اتخاذ أية مبادرة، هل كان قلبه مع غضبة الناس؟

فقدت أثر حسن وأحمد وعزيز، انطلق كلُّ منا بلاشك في طريق لا أعرف كيف شققته وسط الجموع، كنت منهم وبهم وفقدت أيضاً نفسي في غمارهم، لم أعد أنا بل نحن.

عندما وصلت البيت ماشياً فيما يقارب غيبوبة النشوة التي تأتي بعد الذروة، وجدت أن صوتي مبحوح لا يكاد يخرج، كان الهتاف بأعلى صوتي الذي لم أكن أسمعه قد أضع صوتي، قالت أمي: يا لهوى، أنت فين يا بنى؟ ادخل وقمعت قلبنا عليك.. مالك يا ضناى؟ مال صوتك؟ وشك مزنهر حبيك منه الدم يا حبيبي، كَلت حاجة؟ أعمل لك الغدا؟ من الراديو الضخم ذى العين الكهربائية الخضراء سمعنا القرآن، والمارش العسكرى، ثم أمر الحاكم العسكرى العام بحظر التجول في القاهرة والإسكندرية وطنطا وأسيوط من الساعة السادسة مساء حتى الساعة السادسة صباحاً، وقوات الجيش نزلت إلى الشوارع مع قوات البوليس لحفظ الأمن والنظام، سوف تطلق النار فوراً دون إنذار على كل من يوجد في الشارع دون تصريح خاص، يُستثنى من ذلك رجال وسيارات الإسعاف والدفاع المدنى.

من غرفتى الدافئة في راغب باشا كانت تصلنى طلقات نار متفرقة لها صدى قوى في الصمت التام الذى خيم على الإسكندرية، وسمعت صفارات المراكب في الميناء تنطلق ضخمة ممتلئة الحلق تأتي قوية عالية عبر أجواء المدينة كأنها تمر بالشارع تحت شرفة غرفتى.

وكانت نتيجة المصادمات بين متظاهرى الإسكندرية والبوليس والقوات الإنجليزية مقتل ٢٨ شخصاً وجرح ٢٤٢ من المتظاهرين،

ماذا تعنى الإحصاءات؟ ماذا تعنى الأرقام؟

دم شهيد واحد لا تمحوه كل الإحصائيات، لا يرقأه شيء، ولا يعوضه شيء، يظل ينزف متدفقاً حاراً إلى الأبد.

ترتفع أمامى في سماء غائمة قمرية غير محددة مبخرة هائلة

يتسرب من خرومها المدوّرة الواسعة سحبٌ خفيفة بيضاء لها بخور عطر، تبدو لي كأنها مأذنة جامع القائد إبراهيم أو برج كنيسة العذراء، وتتخايل فوقها نجمة ساطعة وحيدة متوهّجة بإشعاعات تومض وتخبر بسرعة وكأنما سمعت من يقول، هل كنت أنا الذى أقول: أهذه الزهرة نجمة الحب أم الشعري اليمانية نجمة غامضة المأل؟ عقب البخور الذى كان يذكرنى ببخور قدّاسات طفولتى في الكنيسة أو في دير الملك ميخائيل في أحميم له رائحة حريفة نفاذة وخاصة.

عندما نادتنى أمى للعشاء كانت رائحة سمك البلطى المقلّى تملأ فسحة البيت.

«في ١٠ مارس ١٩٤٦ أصدرت اللجنة الوطنية للطلبة والعمال بياناً ضمنته ميثاقاً وطنياً وصدرته بالمقدمة التالية:

«إن اللجنة يسرها أن تعلن ميثاقاً اعتمده وأيدته إرادة الشعب المصرى. إن هذا الميثاق يقف مع الشعب المصرى الذى يرفض هؤلاء القادة والزعماء الذين يتفاوضون مع الاستعمار وهم لا يعيرون المطالب الشعبية اهتماماً... إن الجلاء هو الطريق الوحيد للدفاع عن استقلال وطننا. إن اللجنة لا تعترف بالمفاوضات غير المخططة التى تجريها حكومة صدقى باشا، وتعلم أن هذه المفاوضات لن تسفر إلا عن ما يريده الاستعمار فى النهاية. وإن اللجنة سوف تواصل نضالها من أجل تحقيق الجلاء الكامل عن وادى النيل... وعاشت مصر حرة مستقلة.»

أما اجتماع لجنتنا في مساء اليوم التالى فقد أيد هذه المقدمة مع التحفظ، إذ وجدناها بالإجماع مازالت صياغة عامة لم تحدد ما هي المطالب الشعبية على وجه الدقة، كما أن المقدمة لم تأت فيها إشارة إلى استغلال الرأسماليين والإقطاعيين وحكم الباشوات التى كانت الصحف الوطنية مثل «الوفد المصرى» أو «الجماهير» تفيض بها، دون ذكر البيانات والمنشورات الثورية التى كانت البلد تغصّ بها.

اتفقنا على أن يُعهد إلى قاسم إسحاق وأحمد النمى وأنا بصياغة
المقالة الافتتاحية للعدد الرابع من مجلتنا «الكفاح الثورى» بحيث
تتضمن هذا الموقف، كما عهد إلى على أبو الليل بأن يجمع أخبار
إضرابات العمال ومطالبهم في مصانع كرموز والمحمودية وبولقارا ودرّة
وكابو وأن يصوغها معه عبد القادر خلف الله للنشر في هذا العدد.

في تلك الليلة القمرية من مارس كنت أسير مع قاسم إسحاق في ساحة
محطة مصر وحدائقها ثم نقطع شارع محرم بيه إلى آخره حتى شارع
الرصافة ونعود أدراجنا من جنب الكوبرى أبو عين واحدة إلى ساحة
ملعب الملك والشارع الصاعد حتى سور محطة مصر من جديد، ونحن
نتحدث بحماسة وأمانة عن تحليله لما يدفنى للعمل الثورى، فقد كان
يعرفنى منذ كنت في أخميم سنة ١٩٤١، وكان يهزنى احترامه عندئذ
لعقيدتى الأرتوذكسية التى كانت تهتز تحت وطأة قراءاتى لترجمات
كثيرة عن أفكار فولتير وروسو ومونتسكيو وفلاسفة التنوير وكتابات
سلامة موسى وتلخيصاته لنظريات فرويد وأفكار الاشتراكيين الفابيين.

قال لى: أنت - حتى الآن - ومع إيمانك الذى أثق فى صدقه بالمادية
الجدلية ما زلت متديناً عميق التدنن، كأنك راهب منقطع فى صحرائه
للدفاع عن عقيدته الجديدة، حتى وأنت تفرق نفسك فى العمل
الثورى، كأنك ما زلت تبشّر بدين جديد مضطهد كما كانت المسيحية
الأولى موضع مطاردة الأباطرة الرومان القدامى.

لم يكن ردى مقنعاً عندما قلت «إن إيمانى بالدين الجديد - إذا صح
وصفه كذلك وهو غير صحيح، لأنه منهج وليس عقيدة، دليل عمل
وليس مجموعة يقينيات - هذا الإيمان إذن مبنى على نظر عقلى بحث
يرفض التسليم بغيبيات مسبقة ويضع كل شىء موضع الشك أولاً ثم
البرهنة بعد ذلك بالدليل العقلى».

قال: هذا أقرب إلى الديكارتية وليس الماركسية، ثم إنك يا عزيزى

تغرق نفسك بلا أدنى تورع في العمل دون نظر لأي اعتبار آخر، كأنك تريد أن تكون شهيداً من شهداء أقباط الصحراء.

يا عزيزي أنت ملحد كأنك قسيس ولست مناضلاً ثورياً عملياً يحسب حساباً للواقع العملي.

ثم قال: أنت تتخلص - على هذا النحو - من مشائيتك بمشالية جديدة، وتغالب انطوائيتك الأصلية وميلك للعزلة بالإغراق في الكفاح - هذا أمر يحسب لك وليس عليك طبعاً - ولكن ألا ترى معي أنك تستبدل حلماً بحلم؟ أنك ما زلت الخالم الشاعر الذي عرفته في أول سنوات الجامعة، وأن حلم الثورة والعدالة والحرية قد حلّ محل حلم الحب الرومانسي والخلوص للفن؟

قلت بانفعال أغالبه بالكاد: ربما.. ربما.. أعترف لك بأنني ما زلت في الصميم الخالم الأبدى، الشاعر الذي لا يعرف رسالة له إلا في الفن، ولكنني عميق الاقتناع بأن الفترة الراهنة من حياة الوطن لا تحمل ذلك، أن الكفاح من أجل الحرية الآن أهم من العمل لخلق فن مصري لعله لم يكتب حتى الآن، سوف أعمل معكم حتى يتحقق الاستقلال الحقيقي، حتى تتطهر أرض الوطن من لوثة الاحتلال، حتى تنفتح بداية الطريق المؤكد نحو الاشتراكية والعدالة الاجتماعية ثم اضمحلال الدولة وزوال القهر، قهر كل السلطات بما فيها سلطة النص المقدس الموروث وسلطة طغيان حكم الملك والإقطاعيين.

قال باسمياً بطريقته العذبة الطيبة: حيلك حيلك يا عزيزي، لا تبشرني أنا بما أو من به قبلك، على مهلك.. أنا أعرف تجربتك الأخيرة، أنت تخرج إلى طريق الثورة من تجربة حب يائس مراهق، إخفاق هذه التجربة الصبانية - اسمح لي - هو الذي دفعك إلى التشبث على هذا النحو من الاستماتة بحب الثورة..

لم أجهه لأنني فكرت أيضاً في فترة الطفولة التي كنت بها موضع

حب مغالى فيه إلى حدّ الحصار، لم يكن مسموحاً لى قط أن ألعب في الشارع ولا أن أركب عجلة ولا أن أعوم في البحر وحدى ولا أن ألعب الكرة الشراب أو غيرها، ولا أن أصاحب الأولاد «الوحشين» كانت مواعيد الذهاب من مدرسة النيل الابتدائية والعودة منها محسوبة بالدقيقة، ولكنى كنت أتمرد على سجن الحبّ الأمومى، وألعب البلى في الشارع وأكسب وأخسر وكنت أخرق الحصار كيفما استطعت.

قلت في نفسى: يا عزيزى قاسم لعل ما عندى أيضاً تمرد أوديبى؟ قلت له: ربما، ولكن إحساسى بالظلم والقهر حقيقى وليس فردياً فقط، ثم إن الموت وهو ظاهرة فيزيقية بحثة صحيح لكن له بعداً ميتافيزيقياً لا أستطيع حتى الآن أن أتبينه أو أن أحده، قد دخل حياتى بتواتر مستمر ومدمر، أليس هذا ظلماً كونياً أيضاً؟ لعلنى أعرف استحالة العدالة المطلقة لكنى لن أتخاذل طول حياتى - هذا عهدى لك - بأن أسمى إليها كلما استطعت إلى ذلك سبيلاً، بالعمل الثورى الاجتماعى الآن وبالعمل الفنى - كما أرجو وأمل - فيما بعد.

قال قاسم: ما يمنع أن تجمع بين الاثنين، العمل السياسى والعمل الفنى؟

قلت: لا أستطيع أن أعبد إلهين في وقت واحد... يمكن أن يكون عندى قلبان في صدرى، أو أكثر من قلبين تصغو كلها بالهوى، لكنها جميعاً لابد أن تكون في عبادة إله واحد.

قال قاسم: هذا أنت، مولع بالاستعارة والمجاز طول الوقت، أنت وشأنك.

كان قاسم بطبيعته ومع كل صدق إيمانه، متساهلاً، ولكنه كان يحب أن يشعر أنه هو «الرئيس». كان أقدمنا وأولنا وكان النضال الذى أسهم فيه معى - قام فيه بالدور المرموق - فى أخميم منذ سنوات قليلة لا يبارح إحساسه، ولكنه أيضاً يحب الجنس ولا مانع عنده أن يخلف أى

ميعاد أو يؤجل أية مهمة معهود بها إليه لو عرضت له امرأة حتى لو كانت عابرة أو قبيحة القسمات «كلهن جسم واحد يا عزيزي» كما حدث بالفعل، لحسن الحظ، مع البحار الفرنسي.

قلت: إخلاصه للعمل السياسي وانغماسه فيه «ينقى» شخصيته.

قلت: هذا الطهراني الذي هو أنا - رغم كل شيء - يتكلم، لماذا «ينقى»؟ لماذا الولع بالنقاء بل الهوس به؟ أهنا ميراث القبطي الأرثوذكسي القديم؟ أم هي سمة مصرية؟ لم لا تكون «الشخصية» عدة شرايين أو عدة معادن متجاورة وربما متصاهرة متشابكة ولكن قائمة، موجودة، غير مصفاة إلى جوهر نقي واحد طاهر ومصمت إلى أبد الأبدين؟

في غيامة الفجر رأيت عايذة تبدو رقيقة جميلة هشة، تنطلق بأقصى سرعة وبضجيج الفرقعة ودوى العنف، في شارع محرم بيه ليلاً، تحت القمر، على موتوسيكل مثل موتوسيكلات الجيش وكأنما هو - بغموض - جيش الثورة.

هل هي عايذة أم ذلك الكيان الأسطوري رامة التي سوف تصاحبني إلى آخر العمر، وما بعده ربما؟

رأسها الصغير تحميه خوذة حديدية مرسوماً عليها المنجل والمطرقة وعليها رقم ٤، ولكنها عارية تماماً، عايذة رامة، تحت القمر، جسمها الأسمر الأسيل ممشوق وساقاها تحفران محرك الدراجة البخارية بقوة، وردفاها المتينان واثقان متمكنان على السرج الجلدي بلونه البني البيج الفاتح، وما بين ساقها ملتصق بمقدمة الآلة المقدوف بها إلى الأمام، دون إمكانية للتوقف أبداً.

خيل إلى أنها تندفع إلى صخرة قامت فجأة عند مفترق شارع الإسكندراني، وأنها لا تستطيع أن تحيد عن الاصطدام المحتوم، صرخت.. ذهبت صرختي المدوية دون إجابة في صمت آخر الفجر..

الفصل الثامن

كنا مع ذلك طالبة فى ليسانس الحقوق، وكان الامتحان وشيكاً. أعددت لنفسى البرنامج المكثف للمراجعة، بساعاته الطويلة المملة المرهقة.

هل توقف نشاط الحلقة الثورية أم اتخذ مساره الخاص، مع سلامة وشاكر وزينب وعائدة، مع على أبو الليل وأحمد النمى وفريد اسكاروس وعزيز نسيم وفتحى أبو شادى؟

فى آخر يوم من أبريل صعدت ربوة الجامعة على الطريق الدائرى الصاعد الذى تحفه الأعشاب النضرة الخضراء، كنت أصعده طيلة تسع سنوات مضت، وكانت سماء الإسكندرية صافية الزرقة خفيفة ونسمات الصبح تهب على روحى المكدودة بهموم كثيرة.

ولكنى وجدت ساحات الجامعة ومدرجاتها تغلى بالغضب والثورة. لم يكن أحد مناقد نسى الأيام التى صاحبت ٢١ فبراير و٤ مارس، وكانت الأخبار تاتى تترى بمفاوضات بين حكومة صدقى وبيشنى، لقينى شوقى محمود، على آخر الطريق وأول الساحة، وقال لى وهو يكتفم انفعالاً حاراً يحتقن له وجهه الطويل الشاحب المصوص: سمعت يا سيدى هم على وشك عقد معاهدة تكبل البلد وتمتهن كرامتنا، تتيح امتلاك المطارات واحتلال ضفتى القنال، لا يمكن أن نقبل.. لا يمكن.. ماذا نفعل إذن؟ ليس هناك وقت.

رددت على الفور: وهل هناك إلا أن نأخذ زمام المبادرة، لا يجوز أن يفلت الموقف.

فهل كنت أفكر على نحو عمليّ برأجماتيّ عندئذ، أم كنت أعنى في حقيقة الأمر أن قضية الوطن لا تحمل المهادنة؟

وعلى أية حال فما أن كدت أفرغ من حديثي حتى جاءني الهدير والطنين الذي أصبح موسيقى معتادة، مجموعات من الطلبة قد انعقدت أو اصرها، ومجموعات أخرى تسارع مهرولة ونشطة وفرحة بالانضمام إليها، كان على الوجوه استبشار وما يقارب السعادة أو النشوة بالخروج على روتين الدراسة اليوميّ المكرور، الذي لم يعد الآن يومياً ولا مكروراً في خضم العمل الجماعيّ وفي حمياً الاستعداد للتضحية بالذات من أجل أشياء أعلى قد استأثرت بأرواحنا، «لا مطار ولا قنال، يسقط الاحتلال.. الجلاء الجلاء»، الهتافات تصعد من صدور ملؤها الغضب وما يشبه فرحاً صبيانياً بالتمرد في الوقت نفسه «الجلاء أو الفناء.. تحيا مصر».

الصفوف الطويلة المتزاحمة تنزل الآن على الطريق الدائريّ حول ربوة الجامعة، والهتافات يربح لها الأفق تنفتح النوافذ على الجانب الآخر من شارع طنطاوي الجوهري المحاذي للجامعة، وتطل رءوس السحّات والبنات والرجال، الأيدي تلوح لنا بعلامة النصر التي تعلمناها حديثاً والأذرع مرفوعة تشوّر لنا، الدعوات لا نسمعها ولكننا نعرفها: الله ينصركم يا أولاد.. ربنا يحفظكم من كل شرّ.

ما أن قاربنا نهاية انحدار الطريق الدائري والتقاءه بالشارع حتى فوجئنا بعساكر البوليس بحلّهم السوداء - لم يكونوا قد ارتدوا اللبس الصيفي الأبيض بعد - وخوذاتهم ودروعهم الخشبية الخضراء، يقف صفّان منهم على الرصيف المقابل.

وبطبيعة الحال اشتعل حماس مظاهرة الطلبة واحتدّت الهتافات «تحيا مصر حرة مستقلة، يسقط الاستعمار».

رصاصة دوى صدها من خلال الهتافات التي كانت تبدو بعيدة في

آخر الساحة ، رأيت وأنا على الربوة ، ضابط الشرطة قوى الجسم مكين
البيان يترنح فجأة ، دون صوت ، ويميل ، ويسقط على أسفلت الشارع ،
أمام صف العساكر فى ملابسهم السوداء .

وفى لحظة كان حولى جمع محتشد متزاحم من الطلبة ، وقد سكنت
الهتافات ، يتدافعون حتى نوشك أن نسقط جميعاً من على حافة الربوة
المعشوشبة .

كان واضحاً من حركات العساكر وصف الضباط أن الضابط قد
قتل .

لم نستطع أن نتبين شيئاً من بين زحمة العساكر تحت ، حتى وصلت
سيارة إسعاف يصلصل جرسها بصوت منذر ودؤوب ، لا يتوقف .
سمعنا أمراً عسكرياً وصل إلينا خافتاً ولكن واضحاً شديد القطع
والجسم :

- اضرب يا عسكرى .. اضرب فى المليون .

ركع الصف الأول من العساكر على ركبهم فى وضع إطلاق النار ،
ودوى الرصاص متلاحقاً فى زخة وراء الأخرى ، والبنادق مصوِّبة إلينا ،
وإلى مبانى كلية الحقوق فى مقدمة الربوة ، وتناثرت تحت أقدامنا
المتسارعة المتدافعة إلى الخلف ، فوارغ الطلقات النحاسية الساخنة .
سرعان ما احتميننا بجدران الكلية ، وسرعان ما انعقدت حلقات
للنقاش والجدل ومواجهة الموقف العصيب .

من أين انطلقت الرصاصة ؟

من الذى أطلقها غيلةً ومن وراء ظهورنا ؟

كان واضحاً أن وراء الرصاصة تراث الإرهاب الفردى ، تصيد عساكر
الإنجليز خفيةً ، وعلنا ، ومقتل السردار ومحاولات اغتيال مصطفى
النحاس .

خطف بذهنى سؤال سرعان ما اختفى : أين ذهبت الغدّارة

الإجليزية؟ كانت مع القنابل الثلاث التي حملتها إلى حلمى الرئيس؟
لم أجد إجابة عن هذا السؤال حتى الآن.
سرعان ما عرفنا أن البوليس قبض على الأساتذة والمدرسين الذين
خرجوا إلى الطريق لمحاولة تهدئة الموقف.
كان الحصار قد أحكم نطاقه حول ربوة الجامعة، وفي هذا الحصار
اجتمع قادة الطلاب- اليساريين والماركسيين وطلبة الوفدين- وصاغوا
بياناً بالاحتجاج على الحصار وعلى اعتقال الأساتذة ووقع على البيان
معظم أعضاء هيئة التدريس، ومن أولهم عميد كلية الحقوق الدكتور
عبد المعطى خيال وعميد كلية العلوم الدكتور حسين فوزى.
ووصل البيان عبر التليفون إلى صديق أرسله إلى صحيفة الوفد
المصرى التى نشرته بتوقيع أعضاء هيئة التدريس عنهم عبد العظيم
أنيس.

هل كان حصار الجامعة فى ذلك اليوم من أبريل أم بعد ذلك؟ وهل
كانت مظاهرة محرم بيه بعدها؟ أم قبل ذلك فى تلك الأيام الحاشدة
الباهرة؟

لم يتصد البوليس للمظاهرة عندئذ، لعل الأوامر لم تكن قد صدرت
بعد. لم يكن ذلك هو اليوم الذى سقط فيه ضابط البوليس. امتزجت
تلك الأيام وانصهرت فى يوم واحد متعدد بلا زمن.
عندما خرجت المظاهرة الحاشدة إلى شارع محرم بيه اتسع نطاقها
وتكاثفت صفوفها بانضمام جماهير الشارع إليها.
- النظام يا إخوان.. النظام.. تحيا مصر

لكن النظام كان قد انفلت، ارتفعت طوبة إلى مصباح الشارع فسقط
زجاجه مهشماً، وانهارت الأحجار والزلط على أبواب الدكاكين المغلقة
وواجهات المقاهى، فجأة رأيت عربة الترام الصفراء يهاجمها
المتظاهرون، معظمهم من صبيان الحرفيين الصغار وأولاد حوارى راغب

وكرموز ومحرم بيه وقد تدفقوا منطلقين من جحورهم المعتمة الرطبة إلى رحباية التمرد الفسيحة المزدحمة بالوطنيين، الأولاد والرجال المقهورون أطلقوا العنان للغضب المكبوت ونزعات التدمير الكامنة في النفوس المسحوقة ضد تجليات السلطة الغاشمة كما يعرفونها : مصابيح النور والتراموايات والمحلات .

من وسط الجموع المتزاحمة رأيت جماعة كبيرة من العيال قد احتشدوا بجانب عربة الترام، أنزلوا سائقها بالقوة، شدوه من حلته الرسمية الصفراء، وصاحوا بالركاب أن ينزلوا، ولم يكن هؤلاء بحاجة إلى هذا النداء فقد هرولت الستات بالملاية اللف والمدورة حول رءوسهن وبنات العائلات السافرات في فساتينهن الإفرنجي القصيرة على الركبة والشعر المقصوص ألاجارسون والرجال الكبارة في حال من الدهشة والخوف ومزيج من التعاطف والإدانة، سارعوا جميعاً بالنزول، وهيه.. هيه.. هيا هوب ترنحت عربة الترام وتقلقت ومالت ثم سقطت على جانبها وصعدت صيحة واحدة هيهه واندلعت شعلة من النار صفراء في نور الصبح متراقصة ولها نفث حريف نفاذ، وفي اللحظة نفسها وصلت ثلاث من سيارات البوليس المفتوحة ونزل منها الجنود بأحذيتهم الغليظة واصطفوا بسرعة وكان الأمر موجزاً وحاسماً : اضرب يا عسكري، انطلق الرصاص من البنادق ثم هجم العساكر بعصيهم الغليظة وانهالوا يضربون دون تمييز ودون تردد : «إمش يابن القحبة إنت وهوه.. إمش يا خول.. إمش يابن الكلب» .

تناثر عقد المظاهرة وتفتت الصفوف وجرى الأولاد حفاة لا يعوقهم شيء جلاليتهم في أفواههم، وهجمت مجموعة صغيرة من الطلبة على سيارة البوكس لكنها قبل أن تصل إليها انطلقت زخة من الرصاص، سقط صديقنا عمرو لاشين قتيلاً وسقط معه الجرحى على أسفلت شارع محرم بيه، بينما كانت النار تتأجج الآن ولها فحيح خبيث وفوح شياط

حادٍ من عربة الترام المقلوبة وصلصلة جرس سيارة الإسعاف الحمراء تتلاحق وتجلجل في الشارع الذي خلا فجأة من كل أحد، وتناثرت عليه الأحجار والزلط وهشيم الزجاج وأجسام الجرحى في دماهم النازفة.

«دوائر غير كاملة الاستدارة أبدأً تثنّ شوقاً للنهاية البداية بلا بدء ولا انتهاء. الأحشاء مصوَّحة تحترق السمنذر الذي لا تناله النار يتلوَّى بما يشبه المتعة أو النشوة بين لهاليب اللظى، الشعبان يمّج اللبن من فمه المفتوح، ليس الآن مدعواً للمجىء، بل هو مقيم، ميتافيزيقا اللحم تتحدّى الحلول والإجابات».

كانت الساعة الثامنة صباحاً يوم الجمعة شاتٍ.

بهذا التبكير، جئت أرى صديقي قاسم إسحاق في بيت «بحري»، لم أجده. طرقت باب شقته على السطح بشدة بالطريقة الشفوية التي اتفقنا عليها، ولا ردّ، ووجف قلبي، وقلت هل قبض عليه البوليس أخيراً؟ ما العمل الآن؟

فتحت أم ميخائيل التي كانت تسكن الدور الأول، بابها، من تحت، ونادت عليّ:

- يافندي، يافندي، صاحبك مشى إمبراح.

- مشى إزاي؟ كده؟ وحده؟

- ما تخافش أمال، ديهدي، إحنا ما يخلصناش نسيبوه، الرجالة برضو وصلوه لحدّة أول شارع خمستاشر، وسي شنوده شال عنه الشنطة لغاية المحطة. وقفوا معاه لغاية ما خد الترامواي.

تصورت مدى الضغوط التي وقعت على صاحب البيت، من ناحية أو أخرى، ربما، وأرغمته على العدول عن اتفاهه معنا، وعن الجنيهات الخمسة الغالية والمغالي فيها جداً أجرة الشقة الصغيرة على السطح.

- لا مؤاخذه يا سيدنا لفندي، بقى صلي على كامل النور، صليت على النبي؟ بقى إحنا برضو ولاد بلد ونعرفوا الأصول. وإحنا نشيلكو

فى عييننا من جوه ياراجل، لكن بقى العين بصيرة.. وأنت كلك نظر.
برضو البيت فيه حريم. آه. وما يخلّاش الأمر من كده ولا وكده. الحرمة
من دول تطلع، تنزل، تيجى هنا، تروح هنا برضو ما يخلّاش. واحنا
بقى ولاد عرب، ودمنا حامى. ما نقبلوش على دمنا إنه يبقى فى البيت
طلّبة.. شباب يعنى لو حديهم فى البيت مع الحريم، داحنا كلّ من حاله
بيدور على المعاش. الجرى ورا المعاش صعب يا سيدنا لفندى،
والشرف برضو صعب، ما تاخذنيش، إحنا ما نقولش حاجة لا سمح
الله. أبداً والله العظيم موش مؤنكن، دحنا رقابينا سدّادة، وانتو أولاد
أصول. آه ما هو الكتاب يتقرا من علوانه، أمال، لكينى بقى لحدية
العرض وما نقدروش. طبّ دا أهل الحمة كلت وشنا، وحياة سيدى
المرسى، بقى لغاية كده ولأ. إسمع بقى يا سيدنا لفندى، إحنا رجاله
برضو وحنوصلوك لغيبة برّ الأمان.

فى تلك الليلة عقدنا اجتماعاً طارئاً حضره عبد القادر وعبد الفتاح
وأحمد النمى وقاسم إسحاق، ولم يأت فتوح ولا أبو الليل. وافقنا
بالإجماع من غير نقاش طويل على الانضمام إلى زملاء الجامعة الذين
قرروا الاعتصام غداً فى الحرم الجامعى.

كان من برنامجنا المطالبة بالاحتفال شعبياً ورسمياً بيوم أول مايو،
ليس باعتباره اليوم الذى تحشد فيه بلاد «المعسكر الاشتراكى» قواتها،
بل احتفاءً بمناضلين عماليين كاد «العالم الشيوعى» ينساها هما ساكرو
وقانزيتى الأمريكيين من أصل إيطالى اللذين أعدما ظلماً، عقاباً لهما
وتحذيراً لزملائهما النقابيين، لجرد إصرارهما العنيد على حقوق نقابية
بدائية، وحين ثبتت براءتهما كان يوم إعدامهما هو يوم العمال.

كنا نعرف أن الدعوة قائمة لعقد مؤتمر عام لنقابات مصر، غداً، أول
مايو، فى نادى الشرقية، على ناصية شارعى كريم الدولة والانتكخانة،
وكان شاكر المريوطى مدعواً للاجتماع بصفته النقابية.

وحكى لنا - بعد أيام - كيف وقفت صفوف البوليس أمام مقر نادى الشرقية، وكيف حاصروا المنطقة وحالوا دون دخول أحد على الإطلاق للنادى الذى أصبح الآن مقر حزب التجمع .
لم أكتب محضر الاجتماع - كالمعتاد - فقد كانت جلسة «غير رسمية» .

قال شاكِر المربوطى : وجدنا الحصار مُحكماً، ذهبنا إلى بيت زميل كان طالباً فى كلية الطب اسمه محمد يوسف الجندى، فى شارع معمل البارود أمام قصر العينى .

قال : عرفت أنه كانت تعقد فيه أحياناً اجتماعات اللجنة الوطنية للطلبة والعمال، لم يكن أمامنا إلا حجرتان ازدحم بنا المكان، كنا نحو مائتى مندوب نمثل نقابات مصر، وجلسنا القرفصاء على الأرض وعلى الكراسى التى أحضرتها من قهوة قريبة .

قال : كانت حماستنا تفوق الوصف، البيت امتلأ بأصواتنا ونقاشاتنا ودخان سجائرنا، فى موجة من التصميم والعزم الذى لا يمكن أن ينكسر . .

تكسر صوته بنوبة سعال حادة، انتهى منها وهو ينهج ويمسح فمه بمنديله الذى ابتل ببقعة حمراء صغيرة، أخفاه عنا ووضعها فى جيب بنطلونه على الفور؛ واستأنف :

- أعلننا تأسيس «مؤتمر نقابات عمال مصر» وقررنا الاحتفال بأول مايو عيداً للعمال كل عام، مهما كانت قرارات الحكومة بمنع الاحتفال .
ثم أكمل : وكان من أول مواد برنامجنا، طبعاً، مطلب الجلاء الناجز الفورى عن وادى النيل والاستقلال التام على كل المستويات السياسية والاقتصادية، وانتخبنا اللجنة التنفيذية، أذكر الآن منهم أسماء حسين كاظم، ومحمود عبد الحليم، ومراد القليوبى، ويوسف المدرك، وطه سعد عثمان، ومحمود العسكرى، وعبد زهران وغيرهم طبعاً .

سأله أحمد النمى : هل كان فى الاجتماع من يمثل المرأة العاملة ؟
خيل إلى أن فى صوته نبرة مكر أو ضربة صغيرة تحت الحزام مسددة
إلى قاسم إسحاق .

قال شاكى : نعم كان فى الاجتماع عدد من الزميلات ربما خمسة أو
سبعة ، كان أبرزهن عاملة من مصنع كرموز هنا ، اسمها زينب ، وكان لها
تأثير كبير .

قال أحمد : لماذا لم تُضم إلى اللجنة التنفيذية ؟

رد شاكى بشىء من اللامبالاة فيما يخيل إلى :

- اعتذرت بمشغولياتها فى إسكندرية وقالت إن الوقت لم يأت بعد
لقبول امرأة فى التنظيمات التى لها صفة سياسية فضلاً عن صفتها
العمالية ، قالت ربما يشير ذلك تأويلات عن سوء النية أو سوء الفهم من
الجهات المحافظة التى لاشك فى وطنيتها مع ذلك .

ثم قال : وافق الاجتماع من غير حماسة .

سكت قاسم إسحاق وإن كان وجهه الداكن قد شحب قليلاً ، لم
يكن شاكى يعرف شيئاً عن زينب ، فقد كان نظام الاتصالات العنقودية
وشروط الأمان مراعاةً عندنا بشىء من المرونة ولكن بشىء من الدقة
والصرامة معاً .

كان ثم سؤال لم يشأ أى منا أن يوجهه إلى شاكى المربوطى : «لماذا لم
تُضم أنت إلى هذه اللجنة التنفيذية لمؤتمر عمال مصر ؟»
وكانما بحدس المحتضرين أحس بالسؤال ، فأكمل ، وفى صوته نبرة
من المرارة حاول إخفاءها بشجاعة :

- كلهم أصدقاء أعزاء ، ولى منهم زملاء اشتركنا معاً فى جولات من
الكفاح ، وعرفنا السجن معاً .

ثم سكت .

كان صمته عن هذا الجانب جديراً بالاحترام .

لكن فتوح القفاص لم يسكت .

اندفع - كعادته - بصوت مفاجئ وعال يوشك أن يكون ثاقباً :

- هل كان مطلب الاستقلال الذي أكدته اللجنة التنفيذية لمن تسميهم «مؤتمر عمال مصر» ، يعنى أيضا الاستقلال عن كل القوى الأجنبية ، بما فيها دول ما يسمى «المعسكر الاشتراكي» ؟

نظر إليه شاكر المربوطى بشيء من الحزن ، والعتب ، قال بصوت خفيض : أنت تعرف يا زميل أن الوقت غير مناسب لمثل هذا المطلب بل ربما كان من الحكمة وحسن التكتيك ألا نعادي حليفاً مؤكداً ضد الاستعمار .

فهتف فتوح القفاص منفعلاً ، والرضا الخفيف يتطاير من فمه :

- الاستعمار الايديولوجي أفدح وأضل سبيلاً ..

رد عليه قاسم :

- نعم ، موافق يا فتوح ، هذا صحيح بالنسبة لنا ، وسنظل نطالب به ، فقط ليس الآن وقته وليس فى اجتماع لتأسيس مؤتمر لعمال مصر على اختلاف اتجاهاتهم الفكرية والسياسية .

صدر عن فتوح ذلك الصوت المعتاد عندما يفحمه أحد ، صوت يقع ما بين أن يزوم أو أن يتهانف بضحك مكتوم ثم نهض واقفاً وخرج من الغرفة دون أن يستأذن ، لكن لم يغادر البيت ، بل وجد لنفسه كرسيّاً فى الفسحة ، جلس وفتح كتاب «القوضوية» لهربرت ريد وقد بدأت صفحاته تتفضن ، وظهرت بقع داكنة على غلافه .

بعدها بسنة كاملة كتب سعد التايه فى «السفير» العدد نفسه ٣٨ مكرر عام ١٩٤٧ ، پاروديا يحاكي فيها كتابات أحمد الصاوى محمد فى عموده الشهير «ما قلّ ودلّ» وفكرى أباطة فى «ملحوس المصور» وحسين فوزى فى السندباد البحرى ، وتوفيق الحكيم بعنوان «حمارى يحصل على الليسانس» :

«عاد حمارى بعد غيبة طالت أربع سنوات لم تغير الأيام منه سوى شارب متهدل على ثغره ونظرة تائهة . جلست إليه كما يجلس الحوارى إلى أستاذه، أسمع منه أحاديث الجامعة وقد بعد العهد بينى وبينها، فلم أدرك الجامعة الحديثة ولا الانقلاب الخطير، جلوس الطالبات والطلبة معاً إلى الدرس..»

تأملت حمارى فإذا به واجم صامت . فلعب الشك بنفسى . أتراه خاب فعاد، أم نجح، ولكنه حمار... قطعت حبل الصمت وسألته:

- أستطيع الآن أن أناديك، بأستاذى الحمار؟

- نعم ولى الفخر.

- إذن فقد نجحت وحصلت على الليسانس؟

- ألا تراه معلقاً حول رقبتى؟

- عفواً ظننتها حلقة البردعة، فعهدى بالشهادات تحفظ فى العقول، لا للاستعمال من الظاهر..

- ولكنها بدعة اليوم، فالشهادات العالية أصبحت وسيلة النفخة الكذابة والثرثرة بالألفاظ الطنانة.

- يا خسارة صرفى عليك، عدت كما ذهبت، رأس جامد وخلق عنيد. ألم تغير دراستك الجامعية من فلسفتك هذه؟

- دراستى الجامعية؟ أو تظن يا حكيم أن هذه المحاضرات التى تملئ إملاء والتى ينجح الطالب إذا حفظها عن ظهر قلب تغير من طباعى؟

- إذن ماذا أفادتلك دراستك طوال هذه السنين الأربع؟ لا أخالك إلا كسولاً قضيتها فى ملء معدتك!

- مهلاً، مهلاً. لقد كنت فى الجامعة صحفياً وزعيماً سياسياً.

- ويحك. زعيماً سياسياً، أو ركيبك الغرور؟

- لا والله يا حكيم، ما ركبنى الغرور لم يركبنى إلا الغرورون.

- وما خبر زعامتك؟

- هى بدعة البدع فى الجامعة. ما من خطيب وما من مهرج وما من

هتاف إلا وأطلق على نفسه ألقاب الزعامة واتخذ سيماها واختال
متبخرأ مزهوا بزعامته .

- أخزأك الله يا حمار، آه لو سمعك زملاؤك لرجموك .

- لا بل لاتهموني بأشبع التهم، عين السلاح، زعماء الأحزاب يتهمون
بعضهم بعضاً وزعماء الطلبة يشنعون عن بعضهم بعض .

ختم سعد التائه صفحته بباروديا أخرى :

محاضرات اليوم:

- يلقي صادق بك جوهر محاضرة عن مجانية التعليم وأثرها في فقر
الأغنياء وذلك بسرأى الأمير عمر طوسون .

- يلقي البكباشى..... محاضرة موضوعها : كيف نحارب
الطلبة الوطنيين وذلك بسجن المحافظة .

حكيم

- اكتبوا على أبواب الجامعة «للأغنياء فقط»

مناظر مؤذية:

- منظر البوليس السياسى المعسكر خارج أبواب الكليات

سعد التايه . عندما التقينا في القاهرة بعد ذلك بنحو تسع سنين، في
عام ١٩٥٦، وكان عندئذ ينهض بعبء جسيم في إصدار صحيفة
«الأهالى» الوليدة، سرتُ بيننا تلك الومضة الكهربائية الفورية من المودة
والإعزاز والاحترام، كان موته بعد ذلك بسنوات طعنة نافذة في القلب لا
تقلّ حدتها عن طعنة موت خليل الآسى وإبراهيم عامر، وفليب جلاب .

في صباح أول مايو ذهبت للجامعة مبكراً جداً، كانت السماء
الإسكندرانية مازالت على صفائها المضيء بزرقته الخفيفة، ومازالت
نسمات الربيع الصباحية تهبّ بنا، لم تتسرّب إليها حرارة مايو ولا
حمياً الغضب .

كان الشارع الذي تطلّ عليه ربوة الجامعة خالياً، محلات بيع الفول المدمس والكراريس والمطابع اليدوية الصغيرة ومحلات تجليد الكتب وبيع الروايات والمراجع كلها مغلقة، والهواء يطير بأوراق جرائد قليلة على الأسفلت.

صعدت إلى الجامعة عن طريق السلم الذي كان بابه يومها مفتوحاً، وحتى ضابط الحرس الجامعي، والعسكري الذي يعاونه لم يكونا في مرمى البصر.

كان ذلك منذراً، ومع الصمت التام كان ثمّ توتر في الشارع وفي ساحة الجامعة التي ارتقيت إليها وليس فيها إلا بضع طلبة قلائل يتحدثون معاً بصوت خفيض.

وما مرت نصف ساعة أو أكثر قليلاً حتى ازدحمت الساحة والمدرجات والحدائق بالطلبة الثائرين الغاضبين.

كانت الكلمة المفتاح التي تتردد على كل الألسنة: «الاعتصام الاعتصام حتى تتحقق المطالب الوطنية، ويتمّ الجلاء، وتسقط حكومة الخيانة».

اختلفت الهتافات الجماعية والصيحات الفردية: «تحيا مصر.. الله أكبر.. العزة لمصر.. لا مفاوضة إلا بعد الجلاء».

«عمرو يا لاشين إحنا وراك ماشيين.. يسقط الاحتلال والاستغلال، لن تذهب دماء الشهيد هدراً، الاعتصام حتى الموت أو الجلاء».

جاءني أحمد النمى، وشوقي محمود، على وجهيهما وفي سلوكيهما ومشيتهما سمات من التوتر والجدية:

- وصلتني أخبار مؤكدة أن الجيش سوف يحاصر الجامعة ويمنع دخول أى أحد، ويأمر الطلبة بالخروج. فهل نقبل ذلك؟ ما العمل؟

قال أحمد النمى، هامساً وقد أخذ بذراعى إلى جنب:

- أعدك بشرفى الثورى أننى لن أقول لأحد أعطنى المفتاح، هاتهُ وقل

لى فقط ما العنوان؟ ثق بى، أليس بيننا ثقة كاملة؟
قلت: نعم، بالتأكيد.

خطر ببالى على الفور أننا سنضطر إلى تغيير الغرفة، لا بأس،
لافتات «للإيجار» كثيرة. ولكنى لم أكن مقتنعاً، لم أوافق على شيء،
ولكنى لم أرفض، صراحةً.

تركانى وابتعدا بسرعة، وعندما عادا بعد نصف ساعة، فقدت
أثرهما، لم أستطع أن أعثر عليهما فى خضمّ دوّامات من مجموعات
الطلبة المتزاحمة التى تفترق وتتفكك ثم تلتئم سريعاً وتتكاثر.

خطر لى: أحمد عنصر لا يمكن الاستغناء عنه، وهو ليس زميلاً
نقط، بل توثقت بينى وبينه صداقة تنمو كل يوم وتزداد رسوخاً.

قلت: صحيح أنه مندفع، ومسيطر، ومع إيمانه وصدقه وحسنه الحادّ
باحتامية الثورة على الظلم وحتمية الكفاح من أجل العدالة فلعل نزع
السيطرة على الآخرين وتأكيد الذات مشتتة وضرورية لتوازنه النفسى.

قلت لى نفسى: الوفاء للمبدأ والالتزام بالمسئولية - كما يراها
ويتصورها بالطبع - قوة حافزة تدعم نزع السيطرة وإثبات الذات.

وتساءلت: أعل هذا يترتب عليه أن يتزعزع أو يزول احترامه
للآخرين - أو لمن يبسط عليهم جناح النفوذ وله معهم الكلمة الأخيرة
- كأنهم ليسوا موجودين، هم، كأفراد وذوات وكيانات مستقلة، بل
موجودون، ربما، كأدوات.

كان شوقى محمود وحلمى الرئيس كلاهما يعبد عبادته، هما مادة
خام صالحة لأن يسخرها هو لما يريد.

قلت: هل احتقاره للضعف وللضعفاء بحجة الحفاظ على قوة الكفاح
مقدمة ضرورية لما يمكن أن يتحول إلى نوع من الإبادة، هل سحق إرادة
الآخرين تمهيد ضرورى لسحق وجودهم نفسه؟

تساءلت بمضض: هل نستطيع نحن جميعاً معاً أن نحول دون أن

يحدث ذلك في المستقبل؟ هل نحول دون أن يتحول أحمد النمى،
وكل أحمد نمى آخر، على كل دعواه بالديمقراطية، إلى ستالين صغير أو
زدانوف صغير آخر؟

قلت لنفسى: أليس هذا إغراقاً فى التشاؤم والتكهن بالفيب؟
هو الآن عزيز إلى - منذ متى وقف الإعزاز حائلاً دون السيطرة بل
دون القتل؟ - ميزاته لا تُعوّض، فهو مع قاسم إسحاق خطيبنا المفوه
القادر على انتزاع انتباه الناس وإسماعهم صوته وإقناعهم أحياناً كثيرة
بما يريد. ولعله اكتسب ذلك من فترة انضمامه السابقة إلى الإخوان
المسلمين وعلى التحديد إلى جناح إرهابى صاحب الصوت من أجنحتهم.
قلت: هل واقعيته وسلوكه البراجماتى الواضح مفيد أم يجعله
محدوداً ويقلل من فعاليته الثورية؟ ولم أستطع أن أقطع - هنا - بالنفى
أو بالإيجاب.

قلت: أهذا الذى لم أعترض عليه بل تواطأت فيه يدخل فى نطاق
العمل الثورى المشروع المَحْتَم فى حدود المقاومة التى تملئها وتبررها
الظروف وتضطرنا إليها إذ نضرب قوى القمع؟ أم تأتى فى نطاق
الإرهاب الفردى، أو المغامرة البلائكية غير محسوبة العواقب؟

كنا نتغدى فى مطعم صغير بالقرب من مقرّ اليونسكو فى باريس.
قال لى: أنت تشير فى بعد سنوات طوال جوانب وخواطر طالما
ترأى لى أن أصرخ فى الناس معلناً إياها.

قلت: اصرخ يا أحمد اصرخ بأعلى صوتك.
قال: يبدو لى وأنا فى خريف عمري أنى لا أقوى حتى على الصراخ.
لم يبق إلا أن أستسلم لليأس الهادئ الحزين.

قلت له: ألا تذكر أننى فى آخر مرة التقيت بك فيها أنت سألتنى
«هل تفهم أصل الحكاية»؟

قال: وأنت رفعت يديك الاثنتين فى حيرة، وقلت «أبدأ». مازال هذا

اللفز يورقنى وعدم الفهم يزيدنى أرقاً.

قلت : سنظل مؤرقين .

قال : يظهر أنه لا جدوى على الإطلاق من محاولة الفهم ، معذرة عن

التفلسف .. !

لكنه لم يكف عن محاولة الفهم - ومحاولة الحب - وقف صلباً
يقاوم علة القلب المنهك ومات واقفاً ، فى الغربية .

كانت الساعة قد تجاوزت الثانية عشرة ، سمعنا من راديو معمل كلية
العلوم دقائق ساعة جامعة فؤاد الأول . ساحة الجامعة وممراتها وحدائقها
تموج بالطلبة تلتئم جموعهم وتنفض ، ويقوم بينهم خطيب وراء
خطيب ، عندما جاءت سيارات الجيش المصفحة والدبابات وأطبقت على
الجامعة ووقف عساكر الجيش يسدون كل المنافذ وانتشرت صفوفهم
حول الربوة من النواحي الأربعة ، رأيناهم يحولون دون دخول أى أحد
إلى الجامعة .

رأيت أحد الطلبة يغافل العساكر على سبيل الشيطنة ويمرق بينهم
ويتسلق الربوة المشوشة بالنجيل النضير ، وهم يهتفون من تحت :
« انزل يا ولد .. انزل يا بن الكلب ، حتى وصل إلى أعلى وقفز من بين
قضبان السور الحديدى واستقبله زملاؤه بصيحة انتصار واحدة « هيه -
يحيا اتحاد الطلبة » .. وجاء الرد من مجموعة صغيرة : « يحيا اتحاد الطلبة
مع العمال ، يحيا اتحاد الطلبة مع الجيش الوطنى .. تحيا مصر .. » .

عندما أخذ التعب بمجامع البعض ، على الساعة الرابعة أو بعدها
وأخذوا يتسللون بهدوء على الطريق الدائرى تركهم الضباط يخرجون
بسلام وعندما أخذت عتمة آخر العصر تحمل لم يعد فى الجامعة إلا عدد
ليس بالقليل ولكنه ليس بالكثير أيضاً .

كنا قد بدأنا نحس الجوع فلم نكن قد ذقنا شيئاً منذ الصباح .

هل كان يوماً أن حفرنا للشهيد عمرو لاشين قبراً فى ساحة الجامعة

وسهرنا حوله والشموع الكبيرة مضاءة حواليه أم كان ذلك منذ أيام؟
وهل مرت علينا أيام ثلاث في نطاق الاعتصام والحصار؟ أم هو يوم
طويل لا ينتهي؟

لم يكن الماء الذى شربناه مباشرة من الحنفيات إلا دافعاً لنا
للإحساس بمزيد من تقلصات الجوع.

كانت نوافذ البيوت عبر شارع طنطاوى جوهرى المحاذى لربوة
الجامعة مفتوحة، ومازالت الرؤوس تطلّ علينا وعلى الدبّابات
والمصفحات صفراء كابية اللون رابضة فى الشارع تحاصرنا. وكان فى
النوافذ بنات وستات بقمصان النوم وجلاليب البيت وكان حراً مايو قد
بدأ يشغل على الناس وفى حموة ما تصورنا أنه المعركة خلعتنا الجاكيتات
وشورنا بالمناديل للنوافذ التى جاءت فيها الآن بوضوح نداءات
ودعوات: ربنا معاكم يا ولاد.. ربنا ينصركم على من يعاديكم ويكتب
لكم السلامة يا ضناى أنت واللى زيك.

جرؤ بعض من عضهم الجوع فأشار إلى فمه إشارات لا تحتاج إلى
بيان، وعلى الفور أدرك الناس فى النوافذ ماذا يعنى الأولاد.

وما هى إلا دقائق معدودات حتى تطايرت عبر عرض الشارع وعبر
انحدارة الربوة ربطات ملفوفة بالجرائد والفوط سقط بعضها على
الأسفلت وعلى عشب الربوة ووصل بعضها إلى حافة الساحة حيث
تلقيناها بصيحات الترحيب، وتدهرج الأولاد الجذعان عبر الدحديرة
لاستنقاذ سندويتش اثنين ثلاثة، ونجحوا فى التقاطها وقد تمزقت أوراق
الصحف التى أحاطتها. ولحقها تراب نشاير الأعشاب ولكن ماذا يهم؟
كان مرح المغامرة واستشارة الموقف كله بهيجاً وما عاد من المهم أن نأكل
العيش بالجنة البيضاء بشيء من التراب أو حبة فرخة التصقت بها أعواد
العشب أو حتى حلاوة طحينية ممتزجة بورق الجرنال، وعندما حلّ
الظلام أخيراً ساد توجس بالوحشة والعزلة وكان الصمت وقد ساد فجأة

بعد صيحات اللعب والمرح يأتينا بحس كأنه الإحباط أو التثييط .
في الفترة الحرجة التي تعقب حلول الظلام سمعنا أصوات هدير
عجلات الدبابات تتقدم على الطريق الدائري وهدير محركاتها يختلط
بهدير محركات المصفحات .

كان الموقف عصيباً، القوات المتقدمة تحت جنح الظلام لن ترحم
أحداً، سوف ينج بنا جميعاً في السجون، تخشبية المحافظة تتناثر عنها
الأخبار الرهيبة، ماذا سوف يحدث لنا والامتحان قد أصبح وشيكاً وهل
تضيع علينا السنة؟ لا تهم أية تضحية في سبيل الوطن، نعم، ولكن
بكرامة واعتزاز، أما الامتحان والتحجير الذي سوف نلقاه فإننا نرفضه.
الدبابات تتقدم ببطء .

سمعنا دوى زخات الرصاص المسددة عبر الربوة المنحدرة
والمصفحات صاعدة إلى أعلى .
ثم جاءت المفاجأة .

كان صوت ارتطام القنبلة بأسفلت الطريق، على بُعد أمتار من
الدبابة الأولى، مكتوماً .
لحت الوميض الناري الخاطف يبرق متشعناً وتتطاير منه شظايا دقيقة
متناثرة في كل اتجاه .
توقفت الدبابة عن الحركة، لم تكن الشظايا قد لحقتها بسوء لكنها
كانت علامة منذرة .

تالت انفجارات مكتومة، ثلاثة انفجارات في نفس الموقع .
بعد قليل من الترقب والصمت المشحون دوى انفجار رابع، صدر عنه
ومض صغير سريع ثم صوت ثاقب، مختلف ومفاجئ .

قالت «السفير» في عددها التاريخي:

«أقبل الليل والإسكندرية تتلقف الأنباء عن أبنائها المحاصرين وبدأت
قوات الجيش تتقدم لتقضي على الشباب في معقله» .

«ألقيت القبلة الأولى ثم الثانية ثم الثالثة . . . وكان دوتياً جباراً أدرك
آذان الاستعمار . . .»

«ألقيت القبلة الأخيرة» .

ارتدت قوات الجيش خارج الجامعة ورفع الحصار وخرج الشباب
مرفوعى الرأس» .

قلت : من أين جاءت القبلة الرابعة؟

تراجع العساكر واصطفوا على جنب الشارع، وهبط سعفان وحسين
وسمير حنا على السلم الأمامي، ومرة أخرى أقسم لهم البكباشي
بشرفه العسكري أن الحصار قد رفع وأن الأوامر قد جاءت بأن يُسمح
للطلبة بالخروج دون عائق وبعد مفاوضة قصيرة وافق البكباشي على أن
يقف مع وفد الزعماء معاً أمام السلم، بحيث يراهم الجميع معاً وبحيث
يضع نفسه - في حقيقة الأمر - تحت تصرفهم دون أن يعترف بذلك
طبعاً وحفاظاً على كرامته .

قال لهم فيما يشبه الاعتذار إن الأوامر قد صدرت إليه وإنه باعتباره
رجلاً عسكرياً كان عليه أن ينفذها حتى إن لم يكن مقتنعاً بها أو موافقاً
عليها، قال لهم يا أولادى أنا لست أقل وطنية منكم، نحن لا نطبق
وجود قوات عسكرية أجنبية على أرض مصر، وقف إلى جانبهم، على
بعد خطوات قليلة منهم، وبدأ الطلبة فى النزول من السلم، ومن على
الطريق الدائرى الذى بدا خالياً آمناً ومفتوحاً .

وفى دقائق كان مسرح المعركة قد خلا من الطلبة تماماً، صافح وفد
الزعماء قائد القوة وأشادوا بوطنيته .

ساد صمت مطبق على القوات العسكرية المحاصرة .

الفصل التاسع

قرأنا تصريحات المسئولين أن حكومة جلالة الملك جورج السادس قد قرّرت أن تُجلى قواتها من المدن الكبرى، وأن وجودها بالقنال مرهون بالمفاوضات النهائية لعقد معاهدة تحدد العلاقة بين حكومة جلالة الملك فاروق الأول وحكومة جلالة الملك جورج السادس.

ولم نكن نعرف متى تجلو القوات الإنجليزية عن الإسكندرية، عن تلة معسكر مصطفى باشا على البحر، وتلة كوم الدكة المطلة على محطة مصر.

الآن ألاحظ فقط أن فتوح القفاص لم يشترك معنا في أية مظاهرة، لم يُسهم معنا في أية مهمة، كان صديقاً حميماً لقاسم إسحاق، وكان هو الذى فاتحنى - مع زمالتى لقاسم إسحاق - فى شأن ما سمّاه جماعة الكفاح ضد الاستعمار والملكية والإقطاع، وفوجئت بأن قاسم إسحاق هو الذى «يرأس» هذه الجماعة، وعلى الرغم من أنه بادرنى بالموضوع، ربما لأن قاسم كان يعرف ميولى الشاعرية والفنية واستغراقى القديم فى الإيمان القبطى الأرثوذكسى ثم رومانسيتى وقد حدس دون أن يعرف تفاصيل حبى الأفلاطونى المعذب لزميلتنا نوريس فخرى ولعله كان يتصور أننى لن أقبل الانضمام.

أما فتوح فكانت صداقته لى شيئاً آخر.

«عندما التقيت بفتوح القفاص سحرنى منه على الفور، أنه بوهيمى المظهر والسلوك، نسيج وحده، كما يقال. كان فريد الطراز، لا يقيم وزناً لأى من التقاليد أو المواضع المألوفة.

كان - مثلاً - فى عزّ الشتاء يمشى بجاكته سپور، بقميص مفتوح من غير بلوفر، شعره أجمد وأشعث داكن السواد وغزير. وفى يده - دائماً - كتاب عربى أو إنجليزى، غالى الثمن مما كان يستعصى علينا أن نقتنى، نحن الذين فى الجامعة بينما هو يعمل، بدبلوم التجارة المتوسطة، فى شركة البيضا، بكفر الدوّار، يسافر إليها من الإسكندرية، ويعود، كل يوم. سرعان ما توثقت بيننا الصداقة.

كان - ومازال - تستطيره الأفكار (أفكاره هو) فيستشيط ويشتعل حماسه ويقذف بنفسه فى جدل حار مع نفسه أو مع غيره يعلو فيه صوته، بطيبة قلب أو بشيء من السذاجة حتى، ويتناثر من فمه الكلام والرداذ، ولم يكن عنده من كلمات السبّ أو الإذانة غير كلمة واحدة: «يا حيوان!» حتى لقبناه بها، وكنا نحويه بها، ونرد على مجادلاته ومشاكساته بها: «يا حيوان!» وهو يبتسم عندئذ، أو يتهانف بضحك خافت متردد إذ يخفض عينيه كأنما هو سعيد بالمداعبة أو على الأقل راضٍ بها.

وكان من مرتبه فى «شركة البيضا» يعول أسرة أبيه ويعلم إخوته فى الثانوى والجامعة ويشترى الكتب الثمينة.

وبينما كان حذاءه الضخم واضح الترقيع وواضح أنه أضيف إليه نصف نعل ربما عدّة مرات، وتشقق جلده، وعليه آثار طين ومطر قديم لا تزول، كان يشتري كل أسبوع تقريباً نصف ستة كتب إنجليزية غالية من مكتبة فيكتوريا فى شارع سعد زغلول، وله فيها حساب جارٍ فتحوره عن طيب خاطر لهذا الزبون النادر، وكان لا يفلت من نهم قراءته كتاباً فى الأدب أو الفلسفة أو التاريخ أو الشعر أو الاقتصاد على السواء.

قرأت منه، مثلاً «آلة الزمن» لـ هـ. جـ. ويلز، فى طبعة مجلدة بغلاف بنى مذهب الكعب، وترجمات بالإنجليزية لروايات أناتول فرانس،

و«دليل المرأة الذكية إلى الاشتراكية» لجورج برنارد شو، و«سندباد
مصرى» لحسين فوزى يوم صدوره، وغيرها كثير.

هل كان ذلك فى ١٩٤٢؟ عرفت أنه اشترى «العالم الجديد الجرىء»
و«بلا عينين فى غزوة»، و«نغمة ونغمة مضادة» لألدس هكسلى ولما
كانت تفتننى - حينئذ - كتابات هكسلى ألمحت له أن أستعيرها منه، فقال
ببساطة: «تعال معى خذها من البيت».

كان بيتهم فى شارع الإسكندرانى.
وأيامها لم نكن نتخرج من زيارة أصدقائنا فى أى وقت ظهراً أو ليلاً
لا فرق.

كنا فى عز الظهر، مدخل البيت القديم العالى نظيف، رخامى،
السلام تلمع ناصعة النظافة وهادئة، أبواب الشقق مغلقة على
ساكنيها، روائح طبيخ الغداء: نفث ثقليّة الملوخية أو نفحة تسبيكة
البامية تتسلل من سرّ البيوت المكنونة على أصحابها. كان محرم بيه
أيامها فيه هبوة أرستقراطية باقية، غير بيتنا فى راغب باشا حيث أبواب
الشقق ليست ضخمة ولا عالية محكمة، بل رقيقة الخشب ومواربة فى
الغالب تسمع من ورائها وأنت طالع السلم الضيق المعتم كل ما يدور
خلفها، لعب الأولاد وزعيق الأمهات ودعاءها على مقاصيف الرقبة
المعجونين بمية العفاريت وطشة الباذنجان المقلّى أو نفحة السمك
المشوى بالرضة على وابور الجاز الذى لا تخطئ فحيحه القوى المنتظم.

وإذا كنا نصعد أنا وفتوح القفاص سلام بيتهم فى الإسكندرانى،
تتعاقب الأدوار ولا نصل، لم يكن قد قال لى فى أى دور سكناهم، وكنا
منهمكين فى نقاش - أخذت أنفاسه تتقطع قليلاً، على حموة الصبا
ونشوة المجادلة - حول عدد سكان مصر عند الفتح الإسلامى، تقديراً
على الجزية المفروضة على القبط، أى على سكان مصر كلهم، وهل
كانوا أربعين ألف أم عشرين ألف ألف، باحتساب قيمة الدينار

نسبة إلى الجنيه المصرى الآن، وكانت الحسبة كلها تكتيكية على جدأ، حتى وصلنا إلى الكات الخامس أو السادس، وإذا بنا أمام باب السطح، وإذا نحن على سطح البيت، فسيحاً، مبلطاً ببلاط ممسوح حديثاً، وإذا بيتهم هو بالضبط هذا: غرفة واسعة على السطح، فيها كل شيء.

وفيهما قبل كل شيء مكتبة عامرة لم أكن قد رأيت مثلها فى أى بيت من بيوتنا، أرفف خشبية مفتوحة متعاقبة محملة بالكتب العربى والإنجليزى منها المجلد النادر المنال، ومنها روايات الجيب، وعلى الأرض رصص المجلات الأسبوعية والشهرية: الرسالة والثقافة وأبولو والهلال والمقتطف والاثنين وكل شيء والدنيا.

على الأرض المبلطة كليم وعليه مرتبة عريضة، وكرسى أو اثنان خيرزان ومائدة مثقلة بالكتب، وزجاجات الحبر، والریش الخشبية مختلفة الألوان بعضها قد جف الحبر على سنّها الرفيع، فى الركن كرسى حمام خشبى منخفض، وطبلىة مدوّرة خشبها مشرب ببقع زيت لا تنجاب، وطشت كبير من نحاس أحمر مصقول، ووابور الجاز المحترق، وحلل الطبخ جنب الحائط، وقصريّة غير بعيدة، وسائر عدد الحياة البيتيّة الحميمة مكشوفة عارية، جلايب وفساتين معلقة على تلك المشاجب القائمة ذات الفروع المتعددة، كأنها قرون غزلان أو أغصان مقوّسة حسنة التدوير، ودولاب ضخّم بمراة بلجيكي عريضة تعكس الغرفة كلها، وتكرّرها فى داخلها، وتعطيها سعة أخرى، فى آخرها المكتبة العتيدة وكنوز الكتب البعيدة.

قابلتنا أخته بملابس البيت الكستور الواسعة، شعرها ملفوف بمدورة بيضاء مفضّنة، وراعتنى منها عينها الواحدة صفراء خضراء، مثل عيني فتوح نفسه، حادة ونفاذة البريق، فى وجه أسرٍ سمح مع صلابة خطوط عظامه القوية.

كان واضحاً أنها هى التى تقوم بمهمّات ربّة البيت، ومستوليّاته

الثقيلة، كل شيء كان مفاجئاً بمعنى ما، ومتوقفاً في الوقت نفسه.
هذه الغرفة، في مرآتي، ليست تكراراً ولا انعكاساً. ماثلة الآن،
وبلا زمن، لها وجود فريد.

هذه الغرفة، وفتوح، والكتب، وأخته، وأدوات الحياة.
عندما زرتة بعد ذلك - بسنين - وبعد زواجه بتلك البنت المغربية
الأصل رقيقة الجسم حادة الروح كالسكين (كان قد هجر أوديت بعد
حكاية لقاءات - وغراميات ؟ الله أعلم ! - ذائعة الصيت) في شقته الأنيقة
بورجوازية الأثاث، تقليدية عادية، كانت المكتبة الخشبية الأرفف
المتروحة قوية العضل قد حلت محلها خزانة الموجنى الغالى ولها
واجهات بلورية تخطف البصر حوافها مشطوفة تعكس أضواء النجفة
الكريستال الكبيرة بومضات زرقاء صفراء وفضية، وبينما جلست في
فوتي الطقم المذهب وغاصت قدمي في السجاد كثيف الوبر، لمحت
بعضاً من الكتب القديمة التي أحببتها، هناك، وراء الزجاج السميك،
أغلقتها شحبت ألوانها، حوافها تأكلت قليلاً من القراءة وعرق اليدين
والاستخدام العنيف، أثناء الأكل ربما وفي الترام وفي القهاوى، وفي
التواليت، لم تعد زى زمان جديدة وبكرًا ومقروءة أولاً بأول، يمكن،
لكنها مازالت تراث الصبا المذخور.

لا أرثى لنفسي ولا أنكرها.

«الفؤاد صعبان عليه... فقط».

صخور الأشياء - وما في داخلها - حادة السنان، ماثلة الآن بقوة،
ليست ذكريات - كما لا أنى أعيد وأزيد - بل هي بكر، حارة الحضور، لم
تتلم فيها حافة واحدة، لم يخفت لها وقيد.

عقدنا اجتماعات مطولة غاب عنها فتوح القفاص وعلى أبو الليل
استقر فيها الرأي على تنظيم المظاهرة التي لا بد سوف تخرج بعد جلاء
الإنجليز، وعلى نوع الهتافات التي يتولى عبدالقادر وأحمد وقاسم

سلامة وشوقى محمود ترديدها بأصواتهم الجهورية وبطريقة منظمة .
وكان منها «لا رأسمالية بعد اليوم .. يسقط عبدالهادى وصديق
عبدالهادى» (عبدالهادى رئيس الديوان الملكى) «لا استغلال بعد
اليوم، يسقط حكم الباشوات . لا جلاء إلا جلاء الإقطاع» .

وكان المتفق عليه أن نقطع الطريق أمام هتافات الإخوان المسلمين
ومصر الفتاة والسعديين وأضرابهم وأن نرفع أصواتنا على أصواتهم وأن
نشوش عليهم ونقتحم هتافاتهم .

فى الصباح الباكر ، ذلك اليوم ، خفق قلبى فرحاً ، وطارت به لحظة
معادة فجائية وخيل إلى أنه توقف لحظة عن النبض ، من المفاجأة .
كان العلم البريطانى لا يرفرف فوق تلة كوم الدكة .

ولم يكن ثمة حرس بريطانى من البوليس الحربى يقف كالمعتاد
شاكى السلاح أمام أول الطريق الأسفلت إلى الربوة .

كان بعض المارة يتقدمون بشيء من الحذر إلى أول هذا الطريق ،
ويغامرون بالسير فيه قليلا ، وبدأت جموع قليلة متناثرة من الناس
يصعدون على أول الطريق بدافع الفول وما أو بلهفة الرغبة فى التحقق
من أن عساكر الاحتلال قد مضوا بالفعل .

دخلت فى غمار الناس الصاعدين فى بهجة كأنهم فى عيد ، لا شيء ،
كلما صعدنا وتوغلنا وجدنا الشكات على الجانبين خاوية ليس فيها
شيء على الإطلاق إلا قليل من بقايا القش الذى يستخدم فى تعبئة
الصناديق وتغليف المعدات ، وأوراق ممزقة تدفعها نسيمات الهواء الطليق
بين أقدامنا .

لم يدهشنى أننى التقيت بعبدالقادر ثم أحمد وسلامة بقامته
الشامخة وعوده المنسوب على جلايته الفلاحى ، وكان طنين الجموع قد
بدأ يرتفع ودوى اللفظ يدور حولنا ، هتافات قليلة بدأت تُسمع : الله
أكبر .. الجلاء الجلاء .. تجمع الناس حول الذين بدأوا يهتفون ، وبشكل

عفوى وتلقائى وسريع انتظمت صفوف الناس وراء زعماء للمظاهرة ارتفعوا فوق الأكتاف، وهم يرددون الهتافات على نحو متقطع أولاً، ثم بشكل متصل ومنتظم.

تكوّنت على الفور مظاهرة حاشدة.

سمعت وهتفت مع قادة جماعتنا هتافاتنا المتفق عليها.

كان من الواضح أن جلاء القوات البريطانية تمّ فى الليلة الماضية، فجائياً غير معلن، تصوّرتُ الشاحنات العسكرية الضخمة والدبابات والمصفّحات تهدر فى ليل الإسكندرية الحارّ الرطب إلى غاية لعلها معسكر مصطفى باشا ومنها إلى القاهرة مباشرة عن طريق المعاهدة الصحراوى، ثم منها إلى معسكرات القنال الممتدة على طول الضفتين. شارع النبی دانيال قد غص بالمظاهرة الصاخبة وهتافاتنا تراحم العزة لمصر، الله أكبر، القرآن دستورنا والرسول زعيمنا.

(تسقط الملكية الفاشيستيّة).

ذكرنى عبدالقادر بعد أكثر من نصف قرن بأن هذا الهتاف كان سبباً مباشراً فى القبض عليه يومها.

قال لى إن البكباشى أمر جنوده: هاتوا لى الواد ده... دهوه... هاتوه. جاءت شاحنات البوليس المحملة بالعساكر ودوت رصاصات إنذار فى الهواء وانقض العساكر علينا بالهراوات الغليظة يضربون بغلظة وقسوة وعشوائية كل من يلقونه وأياً من يلقونه، شُقت صفوف المظاهرة، اندفع الناس إلى الأمام فى الحوارى الجانبية الضيقة وشارع كنيسة الأقباط الواسع. وتمت مبنى شركة التأمين الأهلية القديم الذى أصبح مكتبة الأهرام ومنها إلى شوارع طوسون وشريف وفؤاد.

فى غمار المظاهرة والمطاردة لمحت رأس سلامة مرفوعاً غير هَيّاب، فى جلابيته الفلاحى لم يغيرها، وبالطبع كان عبد القادر وأحمد النمى على أكتاف المتظاهرين ومنهم حلمى الرئيس وشوقى محمود، وكانوا

يهتفون ويشورون بالأيدى وتنشق الصدور تردد هتافاً حماسياً وراءهم.
كان عسكري البوليس قد التقطني بشكلٍ ما، وجري من وراء
المتظاهرين، يتجنب الاصطدام بهم ويدور حولهم لكي يلحقني.
أخذت أجرى مندفعاً كالقذيفة لا يوقفني شيء، رأيت فتى قليل
الجسم، سفروت وعفريت، يقفز في الهواء بخفة، أمام البكباشي وفي
مواجهته مباشرة، ويضغط بيده على طربوشه يكبسه على رأسه،
ويجري متفلتاً معني الرأس بين أقدام العساكر الذين تركوا كل شيء
وتعقبوه، وأشرت إليه بحركة تشجيع وتأييد عفوية انطلقت مني كأنما
بالرغم عني.

عرفت فيما بعد أن الفتى طالب بالمدرسة العباسية وأن اسمه حمدي
يوسف، وأنه قبض عليه وأودع سجن الأجانب في غرفة واحدة مع
عبدالقادر خلف الله، وسرعان ما كان حمدي أحد زملائنا النشيطين،
كان عبدالقادر، بطبيعة الحال هو المسئول عنه وكان لحمدي كلمة
مسموعة بين طلبة الثانوي في العباسية الثانوية وفي المرقسية أيضاً.
وكما هو متوقع ومألوف اعتقلنا جميعاً ليلة ١٥ مايو ١٩٤٨، وفي
الاعتقل كنا أعضاء كومبيونة واحدة، نتقاسم بالمساواة مع أعضاء
الكومبيونة كل ما يرسله لنا الأهل من مأكّل وأطايب مهما كانت تافهة
لها في الحبس مذاق خاص ونعمة مضاعفة.

كان حمدي متمرداً بالطبع، ولعل التحامه بنا - على نحو ما - إنما
كان ثمرة هذا التمرد الكامن مع حيوية عقلية وذكاء فطري حاد، لم
يعن قط بأن يتعمق النظريات ولا أن يعبّ من منهل الثقافة، تخصص في
الجغرافيا فيما بعد وتفوق فيها، وسافر مع أحمد النمّس إلى السنغال،
ودرس فيها الجغرافيا بعد أن علّم نفسه الفرنسية الضرورية لتدريسه
للطلاب السنغاليين، وظل طيلة سنوات يسهر كل ليلة حتى الفجر
يحضر درسه بالفرنسية حتى تميز واشتهر وسافر بعد ذلك إلى تونس

وعرف الرحلة إلى مغاني - وغانيات - أوربا ثم تزوج متأخراً وربى ولداً
وبنتاً حتى سن الأمان .

حكايات الأصدقاء من أيام الكبرياء القديمة لا تنتهى .

أما عبدالقادر فقد كانت له تركيبة نفسية وعقلية أخرى ، كان هادئاً
المظهر - وإن كان بداخله فوران عقلي وروحي - بطيء الحركة شديد
الاتزان والعقلانية والاعتدال فيما يلوح لأول وهلة ولكنه عندما تستأثر
به نزعة الثورة اندفاعى مغامر بنفسه بل لا يتورع عن المخاطرة .
تصورت فى تلك الأيام أنه مثالى وطنى ، ولاحظت أنه لا يحب
الدخول فى مناقشات نظرية أو «فقهية» ولا يحب الجدل العنيف ويؤثر
العمل على الكلام .

قال لى بعدها بسنين بنبرة تساؤل ولعلها نبرة ارتياب وتشكك إنه
لم يفهم كيف قبض عليه يوم مظاهرة كوم الدكة ولم يقبض على
منظمى المظاهرة الرئيسيين ، ولعله كان يقصدنى ، فإننى إذ لاحظت أن
ذلك العسكرى الطويل الأسمر ، بهراوته ، يلاحقنى فى نوع من
الاستماتة ، عقدت العزم - دون تفكير ودون تردد وكأنا بقرار داخلى
اتخذه عنى أنا الآخر الكامن فى دخيلتى الذى طالما اتخذ لى قرارات
مصيرية امتثلت لها - أننى لن أسمح بأن يقبض على يومها .

لا أدرى كيف واتتنى القوة والسرعة إذ انطلقت باستماتة لم أكن
أعرف أننى قادر عليها أجرى وأراوغ وأفر من الملاحقة ، كنت مصمماً
على أن أزوغ بأى شكل من المطاردة ، وفى غمرة زحمة من تجمع الناس
تخلصت من العسكرى ودخلت دون تفكير باب بيت جانبى على
اليمين ، صعدت السلالم الصامتة الخالية أربع درجات حتى وصلت إلى
بسطة آخر دور .

كانت أنفاسى قد انقطعت تماماً ، وأنا ألهث تلمساً للهواء ، أحسست
أن رئتى قد انطبقتا على ، ومن صدرى سمعت صوت الشهيق الذى

يقترّب من زفير متتابع كأنه حشرة متلاحقة النوبات تندّ عن الصدر الذي كاد أن يتمزق وأنا أشهق وألهث .

انفتح باب الشقة وأطلت منها ست البيت بلا شك . كانت تلفّ رأسها بمنديل أسود وفستانها داكن بأكمام مقفول الرقبة ، وجهها أبيض متهدل الطيات قليلاً ، ونظرت إليّ بعينين ضيّقتين وطيبتين ، وقالت : يا ضنّاي ، دانت مفرّهدُ يا حبيبى ووشك زى الكركم ، الله يجازيهم يابنى .. نجيب لك كباية ميه يا ضنّاي .

أومات برأسى ممتناً وغير قادر على الكلام .

عندما عادت بكوب ماء بارد منعش قالت :

- ميه ممستكة من القلّة والنبي ، طب ادخل يا ضنّاي خد نفسك عندي فى البيت بدل ما انت على السلالم كده ، دانت زى ولادى رينا يحفظك إنت واللى زيك من كل سو ، ادخل يابنى .

اعتذرت لها بهزة بطيئة من رأسى ، كانت أنفاسى قد انتظمت شيئاً ما ، وأحسست أن ضجة المظاهرة قد خفتت ، سمعت صوت حركة سيارات البوليس تصفر وتهدر ، وساد الشارع تحت - فيما أحسست - هدوء وصمت .

لم أحك لعبد القادر ، ليلتها ، هذه القصة كلها ، هل كنت أستشعر نوعاً من الخجل لما صممت عليه من تجنّب القبض علىّ وهل كان فى صمتى عن الدفاع عن نفسى - حيث لا اتهام فى الغالب - نوع من الخسّ بالإثم على أية حال ؟

قال لى عبدالقادر إنه فى السبعينيات كان رئيس قسم فى كلية طب بنى سويف ، وكان يسكن فى الكامپاس - فى الحرم الجامعى - وفى أحد الأيام وهو راجع وجد تجمهراً حول أحد مبانى الكلية وصاح به أحد الطلبة : ممنوع يا دكتور ممنوع ..!

أوشك أن ينحرف عن الطريق تلقائياً ولكنه أدرك أن شيئاً ما على

غير ما يرام، عاد وشخط في الطالب - كان ملتحمياً ويلبس السروال
الباكستاني الأبيض القصير - «إيه يا ولد فيه إيه؟»، ردّ عليه الطالب دون
تورّع:

زملائنا مقبوض عليهم في المنيا، نحن قبضنا على الطلبة النصارى،
قيدناهم بالسلاسل، وسنقتلهم واحداً بعد آخر إذا لم يُفرج عن زملائنا.
قال عبدالقادر: يا نهار أسود.. هذا يحدث في الكلية؟ طلبت رئيس
الجامعة بالتليفون فقال لى: أبداً، لا تصدق، هذا غير صحيح، ليس
هناك شيء، فطلبت وكيل الكلية قال لى: نعم، صحيح، وتكلمنا مع
المحافظ، وأرسل لنا قوة وقفت على باب الكلية من الخارج.

قلت: وماذا حدث؟

قال: أبداً. أفرج بالفعل عن المقبوض عليهم في المنيا، والأولاد
أطلقوا سراح زملائهم الأقباط.

قال: ولم يحدث لهم شيء، لما يعاقبوا بل لم يحاسبوا.. فماذا تريد
أن يقع بعد ذلك؟ هل تستغرب أن يقتلوا السادات الذى كان هو نفسه
يدعمهم بالسلاح؟

قال: جاءنى طاب منهم فى لجنة الامتحان يرتدى الجلباب القصير
على السروال الباكستاني، شتمته، قلت له: إمش يا ابن الكلب لن
تدخل الامتحان ولن ترى البكالوريوس أبداً إذا لم ترجع لى وأنت لابس
مثل كل الناس، فعاد بالفعل وقد خلع الزى التنكرى، وامتنحن، وإلا
جاءنى كل الطلبة ثانى يوم بالزى الباكستاني، ألم نكن طلبة نحن،
ونعرف الخطوط الحمراء التى لا يمكن أن نتجاوزها. كل شيء ممكن إلا
عندما يتعلق الأمر بالامتحان والتخرج، وهكذا كان.

فى لقائى بعدالقادر، بعد أيام المعتقل باثنين وخمسين سنة، قال لى:
- كانت لنا أخت..

قلت: فتحية، أعرفها رأيتها عندكم زمان.

قال : تحية .

قال : ماتت .

قلت : بم ؟ هل كانت مريضة ؟

قال بهدوئه وصوته الذى يبدو محايداً بلا لون وإن كانت فيه نبرة تهديج وانفعال مكتوم : أبداً ، لا نعرف سبباً ، هكذا ، ماتت . حصلتُ على بكالوريوس الطب ، والماجستير ، ودرستُ وحصلتُ على الدكتوراه من أفضل جامعات أمريكا ، وتزوجت وخلفتُ أبناء وبنات كلهم ناجحون ولى أحفاد أحبهم ، لكن الفرح لم يدخل قلبى طول هذه السنوات . كان الموت قد دخل حياتى .

سكتُ . بم كان يمكن أن أجيب ؟

هل كنت قد تخرجت فى كلية الحقوق ، ومعنى ليسانس لا أدرى ماذا أفعل به ، فلم أكن قد وجدت عملاً ، وكنت كل يوم أكتب خطاباً إلى الشركات والمصانع والهيئات أطلب العمل ، وكل يوم أتلقى ردوداً بالاعتذار المهدب بأن لا توجد وظائف خالية فى الوقت الراهن وسوف نتصل بك حالما تتاح فرصة تناسب مع مؤهلاتك (كانوا أيامها يردون على الخطابات باللغات الفرنسية والإنجليزية والعربية ، ولا يلقون بها فى سلة المهملات) .

حكى لى عبدالفتاح ، بعد ذلك بسنين ، أنه كان محبوساً على ذمة قضية مختلقة لا أساس لها - كالمألوف فى مثل هذه الأوقات - مع أخيه الأكبر الذى أصبح فيما بعد أستاذاً للنحو واللغة ووكيل كلية دار العلوم ، بينما كان عبدالقادر معتقلاً فى أبو قير .

كان أبوهم عم عبد النبي تاجراً من تجار الماشية ومزارعاً له أطيان فى بلدة صغيرة اسمها سرنامة بالقرب من كفر الشيخ ، وكانت بنته الوحيدة قد ماتت بمرض غامض قبل ذلك ، ووجد الرجل نفسه وقد أوشك أن يفقد أولاده جميعاً .

قال لى عبدالفتاح : كان وكيل النيابة الموكل بالقضية من عائلة
أصهار لنا . ذهب إليه عم عبدالنبي ولم يستأذن بل دخل عليه مباشرة
فى مكتبه الفخم الخالى فى طنطا ، لم يسلم ولم ينمق مقدمات الكلام ،
دخل فى الموضوع مرة واحدة ، قال له اسمع يا بن عبدالحفيظ ، أنت
تعرفنى وتعرف عائلتى وعزوتى هم وأنسبائك ولا يخفى عليك أمرهم .
عندى كما تعرف تماماً ثلاثة أبناء هم الذين خرجت بهم من الدنيا ،
وأنت تحبسهم ، لا تتكلم لا تقل لى إنك لا شأن لك وإنها أوامر عليا ،
اسمع يا بن عبدالحفيظ أريد أبنائى خارج السجن والمعتقل فى ظرف ثلاثة
أسابيع على الأكثر ، وإلا طارت فيها رقاب .

خرج عبدالنبي دون أن يسمع إجابة ودون أن يشرب قهوته التى
حاول وكيل النيابة أن يطلبها له .

قال لى عبدالفتاح : خرجنا كلنا بعد أسبوعين ، لا أعرف حتى الآن
السبب الحقيقى فى الإفراج المفاجئ عنا .

هل قلتُ إن حكايات أصدقاء تلك الأيام - أصدقاء العمر - لا تنتهى ؟

الإسماعيلية فى ١٤ / ٩ / ١٩٤٦

حضرة الأخ الفاضل

أهدى حضرتكم والست الفاضلة امرأة خالنا ، والمدموزيلات تحياتى ،
ونبلغكم تسليماتنا القلبية راجياً لجميعكم الصحة والهناء ، أهنتنكم
بنوال الليسانس وفى الواقع نحن نعتبر أن عصاميتكم مفخرة العائلة
جميعها ونرجو لكم حياة مملؤها السعادة وراحة الضمير حيث التقدم
المستمر ، عممتكم وقرينتنا يشاركاننى شعورى بالغبطة والسرور
لنوالكم شهادة الليسانس ويتمنون لكم معى مستقبلاً زاهراً فى الحياة
الاجتماعية المقبلة .

أعتقد أنه إذا كانت الوظيفة الحكومية فى السلك النيابى (مساعد

نيابة أو وكيل نيابة . . . فهذا في اعتقادي مركز سام والكادر النيابي سريع التقدم ولو أن الماهية الحكومية ضعيفة ولكن ليست المادة هي كل شيء في الحياة وأما عدا ذلك من أنواع الوظائف فلا أوافق .
أما عن الشركات فيتوقف رأيي على نوع الشركة وهل من الشركات المحترمة من عدمه وعلى الماهية التي تعطى فإذا كان كل هذا مناسباً فلا بأس .

المكتب كوتيس وباب للشهرة ولكن أعتقد أنه يلزم قبل فتح المكتب الالتحاق بمكتب محام ذائع الصيت لأن التمرين مهم مثل أهمية الشهادات . وعلى كل حال فالمكتب لا يتطلب اقتناص فرصة أو خلافه فهو في اليد في كل حين .

ختاماً أرجو أن تتقبل تهنئتي مع تمنياتي باطراد التقدم .

سلامي لست امرأة خالنا والمدموازيلات الأخوات ، سلام عممتك ونبيل وأمه وأخته لكم جميعاً .

بشارة

هل كنت على استعداد حقاً للعمل في السلك الحكومي ، وفي جهازه القمعي (كما كنت أقول) بينما أرفع خفيّة البالدبرا رومًا - الراية الحمراء - كما يقول النشيد الثوري ؟

على هذا النحو إذن كنت أحيًا حياتي المزدوجة - أو متعددة الطبقات - حياة الثوري المنخرط حتى النخاع في المروق على مواضع المجتمع ، وحياة المُتَمَثِّل لهذه المواضع نفسها ، السائر على سنّها ، وحياة العاشق الشبق المنغمس في حماة - ونشوة - الشهوات الجسدية والروحية معاً ، والمخلّق معاً في أوهام ليست من هذه الأرض .

أية جدوى من سؤالي : أيها الحياة الحقيقية ؟

ما معنى الحقيقة هنا ؟

كلها - في النهاية - حقيقة .

في أيامها كانت الأولوية للشورى، بلا شك، ولكن لم يكن «أنا الآخر» أو «أنواتي الأخرى» قد اختلفوا تمامًا. كانوا - يعني - كامنين فعالين بالقوة، بالإمكان، إن صح هذا التناقض، وهو صحيح.

في تلك الأيام - عرفت فتوح القفاص معرفة حقّة، في خضمّ عمل حلقتنا، بعد أن كانت صداقتنا، من قبل، صداقة عابرة.

«كانت قصة أوديت أخت أنطوان خير الله، مع فتوح القفاص معروفة لنا جميعاً، ومقبولة، بل نجد فيها شيئاً من الطرافة والإنعاش والروح عن النفس.

ولعل أوديت كانت تكبرنا بسنوات قلائل، يمكن سنتين أو ثلاثة على الأكثر، وكان في وجهها خطوط المعرفة والخبرة المكبوتة التي لم تكتمل.

كانا يتواعدان، أحياناً، في الفريسكادور، تأتي، أنيقة، محكمة الجسم، ورشيقة، على عينيها نظارة نظر حريمى مذهبة الإطار، يداها في قفازين أسودين من الجلد الغالي، حذاؤها بكعبه العالي يرن بموسيقىّ متزنة فيها رصانة وفيها لمحة نزع على بلاط الفريسكادور الذي كانت مقاعده على شكل مقاعد الترام أو القطار، متقابلة وثابتة ومنجّدة ومكسوة بالجلد الصناعي المريح. كانا يشربان، معنا أو وحدهما، فنجان الكابوتشينو الذي اشتهرت جودته ونكهته الطيبة، وعلى رغوته مسحوق القرفة أو الشيكولاته الناعم الذي يكسبه في الفم طعماً فريداً، أو يأخذان كأساً سريعاً من المارتيني الجاف، ثم يذهبان إلى السينما مثلاً أو التريانون أو المونسنيور لعشاء حميم ولا بد أن يكون فخيماً. ومع ذلك، أو بعد ذلك بقليل، كنت أواعد أوديت، صديقين، نلتقى في سكارابيه في ستانلي بيه، أو سينما فؤاد لفيلم فرنسي من أفلام جان مارييه، رأيت معها «أورفيوس» و«تحت سماء باريس»، وكنت أمسك بيدها فقط، أحياناً في عتمة السينما الأنيسة، لم أقبلها قط

- مثلاً - لم أعرف طعم شفيتها .

ذلك بينما كنت أخوض غمرات حبّ يائس يزلزلنى ويبعث فى نشوات وعذابات، وربما نشوات العذابات كذلك، لنعمتى النضرة الحية منعشة الصبا صغيرة القد .

وبالتالى إذن لم تكن هناك بينى وبين فتوح القفاص لا منافسة ولا غيرة ولا تقاؤل، كان مفهوماً - على الأقل عندي - أن ما بينى وبين أوديت صداقة لا أكثر، فهل كان هذا مفهوماً عندها؟ أم أننى فى نهاية التحليل اقترفت إثم الخيانة؟ هل كان مفهوماً أن ما بينها وبين فتوح القفاص كان صداقة غرامية، أم كان غراماً، أو أكثر؟ .

لعلها كانت تطمح بشكل ما أن توقع أحدنا فى حبائل الزواج منها - وليسامحنى من يملك هذا الحق على أية حال - كان يلتقى بها إما فى الفريسكادور أو فى بيتها، وينطلقان معاً، قلت هو أيضاً محبّ معقد لكنه كان يفوقنى بقدرته على سعة الإنفاق وطول الباع فى خبرات الحب، فقد كنت - ولعلنى مازلت - خاماً ساذجاً وأتصور أننى قليل الخبرة جداً بالنساء وأقول إن هذا تصور غير صحيح وإننى أعرفهن معرفة حميمة وحرارة .

قلت : ولكن - من ناحية أخرى - هو الذى دعانى للانضمام، بل فى الواقع لتأسيس هذه الحلقة الثورية . فهل كان هذا من آليات البوليس؟ غير معقول طبعاً . . لماذا غير معقول؟ بل ممكن : هى طريقة بين غيرها لحصر أو حصار الثوريين المحتملين .

كانت أوديت تأتى للفريسكادور أحياناً مع آرليت، أختها الطويلة التى لا أذكر منها إلا شعرها المنسدل الغزير ووجهها بيضاوياً واسع الفم وقواماً فارعاً وشهويّاً، على عكس أختها التى كانت منمنمة الجسم (مشقفة، المظهر .

هل كان فى زواج فتوح بالأخرى الحادة القاطعة، مغربية الأصل، وفى

حبي لنعمتي ، كلانا ، في الوقت نفسه ، خيانة مضمرة - أو سافرة -
لأوديت ؟
ربما .

كان تصوري لفتوح منذ البداية - مع إعزاز شخصي يتحدى كل
المبررات - أن ما أسميته نظامه العقلي مضطرب ، مع قراءاته المتصلة
وذكائه الحاد . وأن إشاره أو نزوعه للحرية المطلقة إنما ينم عن خلل
أساسي غير مدرك في هذا النظام ، فهو مستهتر ، متحمس ومتقلب
وأهوائي ، ليست فوضويته - على خلاف كل مزاعمه - هي فوضوية
باكونين أو كروپتكين أو هربرت ريد المبنية أساساً على فكر عقلائي
وأشواق روحية متوهجة ، بل هي فوضى النزعات والأفكار التي لا
يجمعها نسق أياً كان ، وعلى رغم حافظة لاقطة تكاد تكون فوتوغرافية
وذاكرة أمينة فقد كانت فيه - أيضاً - سذاجة فطرية أو متعملة مصنوعة
لا أدري على وجه التحقيق .

مازلت - بعد أكثر من نصف قرن - لا أجزم بشيء في أمره . هل كان
صادقاً ومخلصاً حقيقة ؟ لماذا لم يصبه أدنى سوء من جانب أية سلطة
بوليسية ؟ ولماذا لم يساهم معنا بأي عمل ثوري حقيقي ؟

مازلت أحتفظ له - على رغم كل ذلك كله - بإعزاز ومودة بل صداقة
حقة ، صداقة استمرت قوية مندفعة قبل الاعتقال وبعده بسنوات .

صحيح أن هذه الصداقة تقطعت وأصرها بالتدريج حتى رئت ،
وسمعت أنه أصيب بجلطة في الدماغ أقعدته ردحاً من الزمن وأنسته
الكثير عنا وعني ، ثم سمعت أنه تماثل وعاد طبيعاً أو شبه طبيعى .

عندما خرجت من معتقل أبو قير كانت الحلقة قد انقضت وبادت
وأمت أضعافاً ذكريات ، وكان فتوح رفيقاً دائماً أو شبه دائم على
طول فترة صعلكة ويأس وتخبط ، وبحث مستميت عن لقمة عيش ،
فتوح يعهد إلى بترجمة براءات الاختراع - ميكانيكية وكيمياوية

وهندسية معقدة وتكنيكية جداً - للمكتب الذى كان يعمل به الآن، ويملكه ماجرى أوفرند اليهودى المالى الإسكندرانى، أكرش، أجش الصوت، طيب القلب، الذى هاجر إلى استراليا بعد الثورة.

وعندما كان اليأس والسأم وعنف الضيق يطفح بى، فى أية ساعة من النهار أو الليل تقريباً، لم أكن أعلم أن أجد فتوح فى مكتب براءات الاختراع فى محطة الرمل، أو فى الفريسكادور - قهوتنا الماثورة التى حل محلها الآن «عمر أفندى» فى شارع سعد زغلول - أو حتى فى «قهوة الأشباح» فى الخندق - الممر الضيق المعتم تحت سفح عمارة أوريكو الشاهقة. ومنه عرفت كيف أدخن السجاير الإنجليزية الفاخرة: كرافن إيه، پول مول، أو بلايرز، فى علب معدنية رقيقة أنيقة مسطحة كل علبة بخمسين سيجارة، ومعه، ومع أحمد قنديل الرسام الذى أحبه، ومع رضوان القفاص، أخيه الذى كان يدرس الكلاسيكيات فى كلية الآداب، وأنطوان - أخ أوديت - الذى كان مازال يعمل عندئذ فى «الميساجيرى ماريتيم» كنا نذهب إلى سينما مترو، من ثلاثة لسته، ومعنا زجاجة ويسكى بلاك آند وايت مبططة، وقد حين أم الخلول فى قرطاس ورق متين، وفى عتمة الظلام والأضواء المتناوبة، وبهدوء وحرص وكياسة، دون صوت تقريباً، وبينما الصور وأحلام هوليرود الجاهزة المعللة تتخايل على الشاشة، تترى، نفتح أم الخلول ونمتص الهلام الطرى الذى يحتفظ فى كنهه بملح البحر - وكأنه يحتفظ فى سر لحمه الحريف بموجه المكتوم - وتمرر زجاجة الويسكى نترشف منها حسوة بعد حسوة، جافة قراحاً، لم تكن السجاير ممنوعة حينئذ ولا كان أحد سمع بأنها ضارة جداً بالصحة، وكان طعم الكرافن إيه بأم الخلول والبلاك آند وايت له مذاق ونكهة خاصة جداً، وكان طعم اليأس من كل شىء طعم استماتة اللذة المندثرة بمجرد سنوحها.

فى الأيام الأولى كتبت عنه: «هو فى نهاية الأمر، سواء عن عمد أو

عن غير وعى، يدمر التنظيم، هل يمكن أن نعتبره ضالماً مع القوى المعادية؟ على أية حال هو مخرب، ويندفع دون تورع في اقتحام اجتماعاتنا بآراء وأفكار منقولة حرفياً أو بتصرف من آخر قراءاته، دون اعتبار للسياق الذى نتناوله ولا بالموقف الذى نعالجه، إنما يؤكد ذاته باستمرار على حساب أى شىء، شخص ملغز، يتزايد استهتاره يوماً بعد يوم، ويتفاقم اتجاهه الواضح نحو التخريب.

أخذنا نقلل من دعوته لحضور اجتماعاتنا حتى توقفت تقريباً اتصالاتنا «الحركية» به، اكتفينا بلقائه فى «على كيفك» أو «الفريسكادور» حيث نشرب كأساً أو قهوة كابوتشينو، ونتحدث فى الأمور العامة كما يتحدث الأصدقاء، واكتفى هو بذلك، ولم يبدِ غضباً أو حنقاً أو حتى استياءً لتجاهلنا إياه، لم يسأل، ولم نكن نشير بشىء إلى ما نفعل.

أعود الآن فأكتشف أن كل صداقاتى - ومحباتى - لا تقوم على أسس «أخلاقية». على العكس وجدت أن هناك جاذبية لا تقاوم بينى وبين أصدقاء وصديقات فيهم وفيهن «عطب» أخلاقى أو روحى يجعلهم جميعاً أئمن وأغلى عندى من كل المستقيمين «الأسوياء».

أعود الآن فأضع ذلك كله موضع سؤال، لماذا لا أصدقه أبداً أن أحداً من أحبهم ارتكب إثم الخيانة، أو حتى عرف معنى الخيانة؟ لماذا يشور الآن عندى سؤال الخيانة؟

لعلنى كنت مسرفاً فى سوء الظن، هل كان ذلك فقط على سبيل التحوط أم يعود لأسباب أعمق وأذهب غوراً فى دخائل النفوس؟

الفصل العاشر

كانت مكتبة شوارتز في شارع صفية زغلول، أمام سينما رياتو .
وتظل عندي كذلك، في مكانها، مهما سوف تتقلب عليها
الأحداث، وتصبح دكاناً لبيع الأحذية أو شرائط الأغاني والموسيقى أو
بيع أقراط وعقود وأكسسوار النسوان، أو وكالة سفر وسياحة .
في الواجهة الزجاجية للمكتبة كتب راشد البراوي و كارل ماركس
ولينين وستالين، بالعربية والإنجليزية، كبيرة فخمة أو على هيئة كتيبات
الواحد بقرشين، منسقةً وجميلةً من وراء الزجاج المصقول الناعم، أو
مطروحة، بنظام وإغواء، على منضدة رئيسية وسط المكتبة .
كانت هذه المكتبة مكاناً نظيفاً وأنيقاً وحسن الإضاءة، وكانت مؤثلاً
ومحطاً نلوذ به بعد مشقة التجوال والتنطيط والمقابلات والاجتماعات .
كان أحمد النمى على الأخص، يتردد على المكتبة أكثر من أى أحد،
يقول إنه يقرأ فيها مراجع الفيزيكا التى لا يستطيع أن يشتريها،
ويسمح له شوارتز عن طيب خاطر، أن يقرأها وأن يأخذ منها مذكرات
وملخصات دون مقابل بالطبع، وإن كان أحمد يبدى له، دون تخرج،
آيات من الإعجاب والتقدير والإعزاز .

كان شوارتز مصرياً إيطالياً يهودياً من أصل المانى، ولد بمصر ولم
يعرف غيرها وطناً، وإن كان لا يجيد الكلام بالعربى الفصيح أو
المصرى على السواء ولكنه يعرفه ويعرف كيف يسلك أمره به، شأن
معظم المصريين الخواجات الذين كانوا فى مصر فى الأربعينيات . هو غير
شوارتز الآخر الذى عاش فى القاهرة وكان له دور ملحوظ فى الحركة

الشيوعية المصرية وحوله أسئلة كثيرة.

كان شوارتز الإسكندراني يؤثر الكلام معنا بالإنجليزية التي يجيدها، دائم الابتسامة، مدور الوجه، أميل إلى البدانة ولكنه خفيف الخطو وخفيف الروح وفيه مسحة طفولية (ليست صبيانية بل طفولية)، فيها قدر من البراءة ولا أقول السذاجة - من قال مثلاً إن الأطفال سذج؟ - ولكنه كان حويطاً كحياطة الأطفال أيضاً، يقول عن ستالين إنه جلف متخلف من جورجيا ولصّ بنوك قديم وسفاح ثم يبيع كتبه ويروج لها عند زبائنه الدائمين أو العابرين، ويشيد بتروتسكى ويراه مثل الثورة البلشفية الحقيقي ولكنه لا يروج كتبه ولا يعرضها في واجهة المكتبة، ربما لأن خصوم النبي المغدور، أقوياء لهم نفوذ واضح ولعلمهم يستطيعون أن يخرّبوا بيته ويوقفوا حاله، مهما كان صادقاً في تصوراته الفكرية ومهما كان استعداده صادقاً للتضحية في سبيلها.

يقسم في مكتبته قطّ أسود يقبع في الركن الخلفي وراء الحائط بين صناديق الكتب غير المفضولة، وفي هذا المأوى الدافئ المعتم بعيداً عن الأنوار الكهربائية، عيناه الصفراوان تبرقان بوميض ثابت مستدير.

دعاني شوارتز مرة إلى زيارته في بيته الذي وجدته فخماً عريق المبنى، أمام المتحف اليوناني الروماني وأهداني عندئذ كتاباً ضخماً عن تاريخ الثورة والدولية الرابعة.

الغرفة الواسعة عالية السقف تطل نافذتها العريضة على الشارع الهادئ وعلى أعمدة المتحف بطرازها اليوناني، والجدران ناعمة الطلاء بلون سمى لم أكن أعرف من قبل دماثته وراحته للعينين، فلا وجود لها في بيوتنا الرثة في غيط العنب أو راغب باشا أو حتى متوسطة الحال في محرم بيه.

وكما هو متوقّع بالضبط أنوارها تتدفق في غير اقتحام من نجفة متعددة المصابيح، من طراز النوفوار التجريدي في تصميمها وألوانها.

قدم لي الشاي - طبعاً - في سرفيس من الصيني الغالي، فناجين

واسعة مفلطحة وخيمة الصنع وليست في الأكواب الزجاجية المخضرة تقريباً التي كانت تنتجها لنا عندئذ مصانع ياسين .

دخلت علينا والدته وخاله - فيما يلوح لى - وتكلموا قليلاً بالفرنسية الإسكندرانية التي كنت أفهمها جيداً ولا أجيد الحديث بها، عرفت أنهما يطلبان رأيه في شراء أسهم شركة الغزل والنسيج في كرموز، وأن سعرها يرتفع في البورصة كل يوم بعد استقرار الأحوال وانتهاء فترة الاضطرابات ومشاغبات «أولاد العرب» كما قالوا. انتابني صدمة لعلى لم أبرأ منها أبداً - حتى وإن كنت أكن للرجل إعزازاً وتقديراً لعله مشوب بشيء من الاستهانة أو الاستخفاف، كما قد يحب المرء طفلاً كبيراً مشاغباً وبريئاً.

الشركة الرأسمالية الضارية التي طردت سلامة والتي تخوض زينب وعائدة ضدها نضالاً صعباً مجرد الحصول على حقوق أولية في يوم الست ساعات وإجازة أسبوعية مدفوعة الأجر وتأمين صحي محدود، الشركة التي أراها تقتل، بالفعل، زملاءنا ورفاق كفاحنا، يشتري هؤلاء الناس دمائهم ويبيعونها، دون وعى بما يدفعه «أولاد العرب» من أرواحهم ثمناً لأرباحهم التي يحصدونها في بيوتهم الجميلة الفخمة.

كان شوارتز لا يرى الصلة بين ذلك كله وبين ما يملكه ويشترهه ويبيعه من أوراق مالية أرى بكل حماسة وكل يقين وربما بكل سذاجة أنها على رغم حسن زخرفتها وصقال ورقها معجونة فعلياً بعرق أصدقائي وزملائي وبالدم الذي ينزفه شاكر وزملاؤه من صدورهم الجريحة بلا أمل في الشفاء.

ومع ذلك فقد اعتقل شوارتز وقضى في الحبس شهوراً ورحل بالقوة إلى خارج الأرض التي لم يكن يعرف غيرها أرضاً له، ومع إيمانه النظري التجريدي بأن الوطن هو الطبقة وليس الأرض، فقد قال لى فكروى نمر إن الدموع غلبته وهو يودعهم، إذ يُطلق سراحه عارفاً أنه سوف يخرج من المعتقل

مباشرة إلى باخرة شركة البوستة الحديدية التي سوف تحمله إلى إيطاليا.
سوف أعرف بعد سنين طويلة أنه فتح مكتبة في ميلانو، وأنه فقد
إحدى ساقيه في صدام عنيف مع بوليس ميلانو، إذ كان في مظاهرة
صاخبة أمام القنصلية الأمريكية دفاعاً عن فيتنام وأنه كان في مجلس
تحرير صحيفة تروتسكية إيطالية.

تركت أحمد النمى ينتحى جانباً من المكتبة يقرأ كتابه الضخم عن
«فيزيكا الفلزات» في الركن، وينظرة سريعة دون اقتحام رأيت القط
الأسود يتمسح برجله فقد ألف وجوده في هذا الركن واطمأن إليه،
وخرجت إلى شارع صفية زغلول الهادئ شبه النائم قبل أن تغزوه
جماهير حفلة الساعة ٩ في سينما ريبالتو، ودخلت إلى لورانتوس.

عبرت المدخل ورائحة الجيجو والهاميون تفوح من وراء المنصة
الرخامية بواجهتها الزجاجية اللامعة، لم أكن جائعاً.

ظل عبد الفتاح خلف الله يحكى طيلة سنوات أننى شديد الأنفة
والتحرف في الأكل، كان يقترح على أن نأخذ سندويتش فول وفلافل
فأصر على سندويتش الجيجو والهاميون وقطعة المكرونة بالفرن مع
كأس نبيذ ع الواقف.

عبرت إلى الحديقة بشجيراتها المقلمة بعناية، على أشكال هندسية
مربعة متحوتة من كتل أغصانها القوية، متناثرة بنظام بين مربعات
البلاط الأبيض الكبير، في الفجوات الرفيعة بينها أعشاب صغيرة طرية
تبدو كأنها أعمدة منمنمة نحيلة جداً، كأنها مفسولة تحت أضواء
مصابيح الكهرباء الزرقاء، وبين البلاطات ممرات سهلة يكسوها الحصى
الكبير الذى أحسسته تحت قدمى يدغدغها عبر جلد الحذاء القديم.

كنت على موعد مع شفيق وفوزى لأتسلم منهما مخطوطات ترجمة
كتابين من قصص مكسيم جوركى وأنطوان تشيخوف اخترناها معاً،
وعهدنا بها إليهما.

اتخذ شفيق لنفسه اسم شفيق راقم وفوزى اسم فوزى المرّ ولم يكونا بالضبط من جماعتنا لكنهما كانا، مع أحمد صبرى صديقى الرسّام، يفهموننا وهل أقول يتعاطفون معنا؟ ترجما الكتابين دون مقابل إلا بضع نسخ من ثمرات كدهما، كنا قد جمعنا من بعضنا بالكاد تسعة جنيهات سوف أسلمها غداً مع المخطوطات لصاحب المكتبة والمطبعة اليدوية الصغيرة فى شارع محرم بيه، ليطلع لنا ألف نسخة من الكتابين على أساس أن نسدد له باقى التكاليف حين ميسرة ومن حصيلة بيع الكتابين، وكنت واثقاً أنه يعرف صعوبة إن لم يكن استحالة تسديد هذا الدين، ولكنى حدثت أنه سيوافق عندما رأيت فى واجهة مكتبته كتاب «الإمبريالية أعلى مراحل الاستعمار» من ترجمة راشد البراوى، وكتب عبد الرحمن الرافعى جنباً إلى جنب مع كتب القانون الجنائى والتجارى والمرافعات، وافق الرجل على الفور، وعندما خرجت من عنده رُصص الكتابين بأغلفتهم الزرقاء تحت شعار «رفاقة الفكر الحر» ورسم تجرىدى يوحى من بعيد بشكل قوس المنجل وقضيب المطرقة، طرت بها فرحاً، واستأجرت عربة حنطور أنا وأحمد النمى وصلتنا حتى مكتبة شوارتز حيث تركنا نصفها أمانة، لم يبع منها إلا بضعة عشرات قليلة من النسخ، ونزل أحمد النمى وواصلت مع الحنطور حتى شارع الزهرة وصعدت بخمسة نسيخة من الكتابين، أربعة أدوار، حتى أودعتها غرفة أركان الحرب التى لم يكن يعرف عنوانها إلا قاسم إسحاق. لم تبق فى حوزتى نسخة واحدة من هذين الكتابين اللذين أذكر شكلهما بإعزاز خاص، بعد أن تكفّلت أمى وخالتى بإحراق كل كتبي الثمينة وبعضها نادر لم أستطع أولم أشأ أن أعرضه، والأوراق التى وضعتها فى صندوق كرتون خاص أسلمته إلى خالتى فى ١٤ مايو.

رأيت القطّ الأسود الصغير يتململ ويتحرك، أرقبه غير مصدق عيني، يكبر ويتضخم ثم يشب فجأة من علبة سجائر كرافن إيه الحمراء

الصفیح المبططة التي يدخن منها فتوح القفاص والتي تعلمت التدخين بها، بعد أن خرجت من المعتقل، أولاً على سبيل الدلع وتزجية الوقت وأساساً من قبيل الاستهتار بكل شيء بعد فقدان الإيمان .

عيناه تلمعان بوميض أصفر مستدير فيه بريق الغدر، ذهب إلى ركنه المعتم وقد انفتحت صناديق الكتب عن أعمال لينين الكاملة باللغة الإنجليزية طبعة موسكو أغلفتها من الورق المقوى السوداء قد تقوست وتجمّدت عن أجسام الكتب السمكية وتداخلت حروف الكلمات، الحروف الكيريلية تختلط بالحروف العربية النسخ القديمة واليونانية العريقة والهيروغليفية بكل قداستها، وبرسوم لم أعرف إن كانت صينية أم كورية، وقف القطّ على كومة الكتب المهوشة العالية، طحت من بينها أغلفة زرقاء خفق قلبى لها، ثم كأنما صمت، وكأنما هبت بينها شعائل نار صغيرة أخذت تلعق بالسنة رقيقة حادة عناوين وأسماء قرأت من بينها شفيق راقم وفوزى المر .

رفع القط إحدى ساقيه دون تعجل وكأنما دون أن يعنى بالنار المتراقصة تحته، رأيت أن ساقه الأخرى جامدة، متحجرة، كأنها مشلولة، تغطى جسمه الأسود الحالك حتى خيل إلى أنه يتمدد ويكتسب طولاً جديداً، مدّ رأسه إلى الأمام، وضعه داخل كوم الورق المتراكم المحترق، ثم رفعه وإذا بأشلاء أبنائه من القطيطات الصغيرة تتدلى من فمه ويتقطر منها دم يسير وفتائل لحم متهتك محمرّ دفىء الشكل، ونفض رأسه يمينا ويسارا فتخلص من جذاذات فرائسه الحميمة واشرباً بجسمه كله إلى أعلى ينظر إلى بعينين كبيرتين مضيئتين بنور التربص والاستعداد للهجمة الآتية على الفور لا ريب فيها وقد أخذ يتضخم ويكبر حتى صار قطعاً برياً جبلياً يشبه فهداً أسود ضامراً وظامناً لأن يبلغ في دماء القلب، وقد خرجت أظفاره من سيقانه الثلاثة ناتئة، مدببة، مسننة، وتحمل نية القتل ومازالت الساق الرابعة متجمدة .

صرخة الفجر المعتادة دوت في نصف العتمة على سرير المعتقل لم يسمعها أحد.

أحمد النمى في نهاية أحد اجتماعاتنا العاصفة عندما جئنا إلى بند ما يستجد من أعمال فاجأنا باقتراح أن نضم شوارتز إلى اللجنة. سمح له قاسم أن يشرح وجهة نظره باستفاضة، وكان يعرف مسبقاً موقفى وهو موقف على أبو الليل من رفض انضمامه إلينا على أساس أن انتماء المصرى غير عميق بما فيه الكفاية، لم تستطع الروح الأثمية التى تسرى فى عقيدتنا الثورية أن تنال من رسوخ الإيمان بمصر إلى حدٍ قد يكون مغالى فيه وهو بالضبط ما ركز أحمد النمى على تأكيده، فى خلال تقديمه المسهب لاقتراحه، قال وقد وقف منفعلاً مبحوح الصوت بحماسة الإرهابى القديم الكامن فى إهابه:

- هذه شوفينية صريحة تتنافى مع المقولة الأساسية أن الوطن مفهوم بوجوازى فى الأصل، وأن القومية من اختراع المفكرين البورجوازيين، أن الصلة بين عامل النسيج فى كلكتا بالهند وعامل النسيج فى كرموز بالإسكندرية أقوى ألف مرة من الصلة بين أيهما وصاحب المصنع فى الوطن نفسه، هذه من البديهيات المُنعمة التى يثبتها العقل كما يثبتها الاستقراء والواقع العملى، كما قال.

انضم فتوح القفاص إلى أحمد النمى فى إحدى المرات القلائل التى اتفق فيها موقفهما، على أساس أن التعصب الوطنى يتناقض مع الحرية المطلقة وضرورة أن يكون لكل فرد موقفه الحر بفض النظر عن أصله وفصله أو عن انتمائه.

قلت له: يا فتوح أنت تحلم بيوتوبيا لا طبقية، ليس فيها حدود ولا بوليس، كلنا نوافق على الحلم، ولكننا نعرف استحالة.

قال: الحلم لا يمكن أن يكون مستحيلاً.

هبّ على أبو الليل فى إحدى نوبات حماسه القليلة:

- والموقف نفسه يقول به زعماء الإخوان المسلمين، أليس كذلك؟
يقولون إن الوطن وإن الوطنية من الأفكار الغربية المستوردة المنافية
لتراثنا وتقاليدنا وإن الدين هو الوطن الحق، هذا غير صحيح في
الحالتين، لحم جسمي وصميم عقلي من تراب مصر التي نكافح معاً على
شأن تحررها من الإنجليز ومن الباشوات، نعم، ولكن لا ننكرها، اسمحوا
لي، ولا نُدخل خواجات أياً كانوا في هذا الكفاح حتى ولو كانوا
خواجات مصريين.

كان قاسم إسحاق يرقب النقاش ويتبعه بعينين سوداوين يلتصق
فيهما بريق الرضا عن موقف على أبو الليل، هل هو أيضاً بريق الصراع
الكامن بيننا في سبيل أن تسود آراؤنا ومواقفنا، كما لو كنا نريد - في
نهاية التحليل - أن نسود نحن، كما لو كنا نقع في الهوة نفسها التي
اجتذبت قيادات ثورية أصيلة نحو التسلُّط والاستبداد والاستئثار
بالحكم على الأشياء والحكم على الناس معاً؟

تدخلت في المناقشة وحكيت لهم عما سمعته في بيت شوارتز عن
شراء وبيع أسهم شركة الغزل والنسيج في كرموز، أحسست كأنني
أخون أمانة أو أفشى سراً ليس لي الحق في البوح به، لكنني تذرعت طبعاً
بمبدأ الأخلاقية العليا التي تبرر انتهاك مواضع أخلاقية صغرى، وإن
ظللت أسائل نفسي في السر بصوت خفيض: أليست هذه هي
الميكافيلية بعينها؟

كانت نتيجة التصويت متوقعة سلفاً: اثنان مع، وخمسة ضد
انضمام شوارتز إلى الحلقة، مع التنويه بجهوده وعمله المساند للثورة،
ومع ضرورة توجيه نظره إلى أن مسألة شرائه وبيعه لأوراق مالية يتناقض
مع المبادئ التي نؤمن بها جميعاً.

وبينما هم فتوح بالخروج يدبذب بقدميه ويتمتم لنفسه بما لا يُسمع
ولا يفهم وينفث دخان سيجارته الكرافن إليه، كان أحمد النمى قد

صمت ، وقد تقبل نتيجة التصويت وفقاً لقاعدة «المركزية الديمقراطية» .
قبل أن يخرج فتوح تماماً من باب الغرفة التي كانت قد عبقت برائحة
السجائر الهوليورود والبلمونت والكرافن إليه هتفتُ به أن ينتظر لحظة ،
واقترحت أن نسمع ما كتبه عن «سيكلوجية فرويد» غداً في بيتنا في
شارع ابن زهر .

وافق الجميع في جوٍ من المصالحة والاسترضاء .

في غرفتي التي يشغل فيها مكتبي القديم جانباً أمام كنية
استامبولي ، ومن الجانب الأيسر سرير كبير ، أحضرت كرسيين ثقيلين
من طقم غرفة الصالون ، لون قماشهما قد حال وذبل وتشعثت أطرافه
قليلاً ، وخشبهما السميك الأرو منقوش بشغل الزخرفة الدمياطي
الأصلي . لم يأت كامل الصاوي ولا فتوح القفاص ، وكان علي أبو الليل
يصغي بانتباه وتركيز لا يملك أمرهما طول الوقت إذ ألمح وأنا أقرأ ،
ببطء ووضوح ، عينيه تسرحان وتتوهان في مسارات خاصة لا وصول
إليها .

وصلت إلى الفقرة التي تتحدث عن الـ «هَو» عند فرويد :

«في الـ «هَو» توجد النزعات الحيوية العميقة دائماً متوقفة بفرض
إشباعها ، وتوجد تلك المادة المكبوحة الموروثة من ذكريات الطفولة
وتجاربها والتي تحاول دائماً أن تصل إلى التعبير الواعي ، ذلك أن الـ
«هَو» يحاول أن يحصل على إشباع حوافزه بدون تقدير لظروف
المكان والمناسبات بل هو يتطلب الإشباع العاجل بلا قيد ولذلك يصنفه
فرويد بأنه خاضع لقاعدة اللذة ، وعلى ذلك نستطيع أن نركز مميزات
الرئيسية فيما يلي :

- ١- أنه لا واع ، ٢- أنه غير منطقي أو غير عقلي إذ إنه خاضع لا
للاعتبارات الواقعية بل لقاعدة اللذة الهادفة إلى الإشباع اللاشروطي ،
- ٣- أنه مستودع ما يسمى بالليبدو أي الطاقة أو القوة الدافعة خلف

كل الحوافز الفريزية، ٤- أنه يحتوى كل المادة المكبوتة، ٥- أنه
يحتوى المميزات العرقية الموروثة، ٦- وأنه لا أخلاقي إذ ليس لديه
أية فكرة عن الخير أو الشر أو الصواب والخطأ، في توقظه المستمر
لإشباع مطالبه.

كان على أبو الليل قد عاد إلينا من متاهته الداخلية ومدّ يده إلى علبة
سجاير قاسم إسحاق الهوليوود، سحب منها سيجارة ونفث دخانها من
فمه دون أن يستوعبه بطريقة الهواة المبتدئين، كان نادراً ما يدخن.
بينما انضم إليه قاسم إسحاق يدخن بأسلوبه المنهجي المنحك بخبرة
طويلة.

وكنا قد شربنا الشاي الذي أعدته وقدمته لنا أمي، مريحة بنا وداعية
لنا بنجاح مقاصدنا وأن يحفظنا ربنا من كل ردى.
فتوقفت قليلاً، ثم واصلت القراءة من الورقة التي أعود إليها الآن
وقد اصفرت وذبلت وكادت تمحى سطورها:

يتضح إذن أن الـهوى، إذا ترك له القيد فلايد أن يؤدي ذلك إلى
انهيار الكائن أو على الأقل وقوعه في صعوبات لا حصر لها، ذلك
أن الاعتبارات الواقعية لا تخضع بسهولة لحوافزه ولا تتكيف وفق
رغباته ونزواته، وإذن فإنه على الأقل يجب أن ينتظر قليلاً حتى
تجانب مطالبه إن أجيب، وعلى ذلك يبتدىء جزء من الـهوى، في
الطفولة الباكرة يتأقلم ويتكيف حسب الظروف الخارجية، وهو ما
يسمى بالـأنا.

والأنا، و«الأنا العليا» كلتاهما تكبح وتراقب مطالب الـهوى. «الأنا»
ترمى إلى إشباع هذه المطالب أساساً ولكنها تتخذ في ذلك الأسلوب
المنطقي أو العقلي، أسلوب تقدير الظروف الخارجية والعمل على
أساسها، فهي تقوم في الواقع على خدمة الـهوى وتلبية مطالبه ولكن
على أساس واقعي عقلي.

يقول فرويد:

«على العموم تضطر الذات إلى تنفيذ أغراض الـ «هو» فهي تؤدي واجبها إذا نجحت في خلق الظروف التي تمكنها من إشباع هذه الأغراض، ومن الممكن مقارنة العلاقة بين «الأنا» والـ «هو» بالعلاقة بين الفارس وجواده»

أو كما قلت «بين أشواق ومطالب الطبقة العاملة من ناحية وقيادتها الواعية من ناحية أخرى».

لم تكن المقارنة بين الـ «هو» الفرويدي وبين «الطبقة العاملة، الماركسية، مقارنة دقيقة ولا صحيحة. لكنني لم أستطع - عندئذ - أن أقاوم غوايتها.

ومطالب الطبقة العاملة مشروعة ومبررة ويجب أن نعترف بها ولكن القيادة الواعية هي القادرة على تحقيقها بما يتفق مع الظروف التاريخية والاجتماعية، مع ضرورة الاحتفاظ بإمكانية الثورة الدائمة على هذه الظروف وإمكانية تغييرها أو تشويرها إشباعاً لمطالب الطبقات الممموعة مع الاحتفاظ بأهم خصائص الـ «هو» - الطبقة الممموعة - وهي الثورة الدائمة والديناميكية المتصلة، فهي ليست طبقات منفصلة ومتدرجة بل هي علاقات متداورة وتشابكات مستمرة».

قلت مستكماً هذا التصور الخاص :

«العناصر الثلاثة إذن، في العقل الفرويدي أو النفس الفرويدية : الـ «هو» والـ «أنا» والـ «أنا العليا» تتدافع ويؤثر بعضها على بعض باستمرار، كما أن عناصر المجتمع : الطبقات الممموعة وقيادتها والطبقة الحاكمة، كلها أيضاً تندرج في ديناميكية صراع وجدل وحراك مستمر».

قلت :

«نعم هذا تصور تبسيطي جداً وتجريدي جداً لكنه على أية حال مقارنة صحيحة لما يمكن أن نسميه واقع الأمر، في كلتا الحالتين».

كنت في ذلك الوقت - نوفمبر ١٩٤٧ - أحاول، ولعلني مازلت

أحاول ، أن أوفق بين الـ«هو» والـ«أنا» والـ«أنا العليا» بالضرورة ، وأريد أن أدخل على كل عقائدية أنفاس التحرر ، ولكن الفرويدية كلها ، في آخر الأمر ، تحولت إلى دوجما ولقيت مصير كل دوجما .

فما أسرع ما تتسلل بذرة الفساد الدوجمائية إلى قلب نزع الحرية ، وما أسهل أن يتحول الدافع الديناميكي نحو الحرية إلى قالب دوجمائي . قلت : حذار من أن تتحول الثورة إلى نظام .

في الحياة وفي الفن على السواء

وقلت : وهل ثم مخرج من هذه الدورة الخبيثة ؟ الثورة تستحيل إلى نظام ، والنظام لا بد أن تنقلب عليه الثورة ، هذا درس التاريخ وكأنه قانون يتجاوز التاريخ أيضاً .

ولكن أى نظام ؟ وأية ثورة ؟

أكثر من ساعة استفرقتها قراءة الورقة المكتوبة بخط لا يكاد يختلف عن خطي الآن ، مع تعليقات وتوضيحات سريعة حتى اختتمتها :

«وعلى هذا الضوء ، ومع تقدير ظروف المجتمع الخارجية ، يمكن أن نتفهم تصرفاتنا وأفكارنا ومشاعرنا ، وعلى هذا الضوء يمكن أن نتوقف لحظة لكي ندرك أهمية هذا المقدار الكبير من تجارب حياتنا وقد طفئ عليه الكبت النفسي من ناحية ، أو القهر الاجتماعي من ناحية أخرى ، وقد دفعنا به بعيداً إلى أعماق اللاوعي وإلى قاع مجتمعنا ، وعلى الأخص اللاوعي الاجتماعي الذي تزرع تحته الطبقات المقموعة ، رغمًا عنها ، وبفعل الطبقة الحاكمة التي لعلها توازي الـ«أنا العليا»

وباستطاعتنا إذن أن نحاول تفسير كثير مما يعرض لنا ، وأن نحاول تفييره ، إذا تفهمنا سيكولوجية فرويد من ناحية ، وتحليلات المادية الجدلية والمادية التاريخية من ناحية أخرى ، فنذكر - مثلاً - أسباب القلق غير المعقول الذي يهاجمنا أحياناً ، أو أسباب الاضطراب

الاجتماعى الذى يقع أمامنا وحولنا ، ونعى أسباب تلك الآلام الفادحة التى تمر بنا أحياناً ، أو ذلك التردد الذى يشوب الكثير من تصرفاتنا بلا دافع معقول ، أو نفهم علة ذلك الكره ، أو الحب ، الذى يبدو غير منطقي ، كما ندرك أسباب خضوع الكثيرين لتقاليد بليت وتعقنت وهى تتناقض مع أبسط قواعد التفكير السليم ، ندرك مغزى تسليم الكثيرين بالبشاعات والمظالم القاسية التى نراها كل يوم فى حياة وبنية المجتمع ، ورضى الكثيرين عن هذا الواقع المظلم المر ، وإحجامهم عن بناء مجتمع صالح جديد وجدير بالإنسان ، مجتمع الحرية والعدالة ، وبذلك نستطيع ، على هدى السيكولوجية الجديدة ، وعلى ضوء النظرية والممارسة الاشتراكية ، أن ننظم حياتنا ومجتمعنا ، على أساس أكثر منطقية واتفاقاً مع قاعدة الفعل والواقع وإن كان ذلك عن طريق الثورة الدائمة .

وعلى نبرة التفاؤل والحماسة العالية التى أنهيت بها قراءتى ساد صمت فى غرفة شارع ابن زهر المغلقة التى عبقها الآن دخان السجاير ، وجهد المتابعة لأفكار بدت عندئذ غير مألوفة ، وإن كانت تُعدّ تخطيطاً فيه قدر كبير من التبسيط إن لم يكن السذاجة أو الخطل الصراح .

كانت تتمطى فى حضنى ورأيت أن جسدها الطويل أسود ناعم ولامع ، وأن عينيها متقدتان ، نهذاها الفتيان المشرئبان قد انتصبت فيهما نبتتان قويتان ومثلثتان ولهما لون أشد سواداً ، وماقاها مشرقتان مسحوبتان تنتهيان بأصابع مطلية بمانيكير أبيض عاجى يتجاوب لونه مع أسنانها العاجية البيضاء إذ تبسم ، شفتاها اللحيمتان تنفرجان عن نواجذها بحركة لم أعرف إن كانت أمارة نشوة ورضى أم إشارة غضب واستعداد للانقضاض .

وهى تشنّ وتموء تحت وطأة اندلاع يبغى الرى الآن ، فوراً ، تحت ثقل قهر لا يُطاق .

أنشى فهد سوداء عارمة التطلُّب عصيَّة على التملُّك ، مدّت ذراعيها
النحيلتين تعانقنى فإذا بقضبان حديدية رفيعة تقوم بينى وبينها متينة
صلبة لا فرجة ولا ثغرة يمكن النفاذ منها ، لا أمل فى ثنيها أو زحزحتها ،
هل كانت القضبان تحيط بى ، تحبسنى فى إصارٍ لا فكاك منه ؟
أم كانت تزعتى إلى التحرر تهزّ القضبان الصلبة فيتزلزل جسدى
كأنما يتمزق ؟

الفصل الحادي عشر

قرأت في الأهرام أن فتاة تدعى فاطمة ميمون الزيتوني وجدت قتيلة، عارية تماماً، أمام عتبة بيتها في شارع القاضي الفاضل بناحية بحري بالإسكندرية.

رأيت أنها مذبوحة. رأسها - وقد انفرط شعرها الأجدع على جبهتها المدورة الناصعة - مفصول تماماً عن جسمها، ملقى بها على أرض الشارع الترابية التي ابتلت ببقعة كبيرة منداحة من دمها.

كانت العينان، في الرأس المفصول، مفتوحتين على سعتهما بنظرة تجمع بين القبول والتمرد، بين مفاجأة الدهشة والتسليم بالمقدر المكتوب، جسمها الجميل المشوق يبدو كأنه ليس من هذا العالم، ناعماً متناسق الجوارح دون أدنى شائبة، ليست فيه طعنة واحدة ولا جرح واحد، ساقاها المخروطتان الأسيلتان منفرجتان عن ربوة فينوس كثيفة جمعاء الشعر - قلت: نمت وتكاثفت...! - حركة انفتاح الساقين الجامدة النهائية ليس فيها أدنى بذاءة بل هو تخلٍ كامل عن كل ما هو أرضي ومبتذل.

كانت نقيّة في موتها وانفصال جسدها عن كل ما هو معتاد وكل ما هو مقبول.

كان الشيخ متولى إمام الزاوية في طريقه إلى رفع أذان الفجر عندما فاجأته هذه الرؤيا في ضوء الفجر الخايل وتحت نور عمود الكهرباء الذي ابتداءً يصفر ويبهت.

لم يصدق - دعك عينيه وهو يبسمل ويحوقل، بسم الله الرحمن

الرحيم، وعندما نظر مرة أخرى كانت الرؤيا أشد تجسداً وأقوى مثولاً.
- لا حول ولا قوة إلا بالله.

ارتعد قليلاً من لذعة برد الفجر أو من اهتزاز اعترى كلّ بدنه برجفة
أنكرها وقصعها، خلع عباءته القديمة الناصلة قليلاً ورمها على الجثة
وعلى الرأس المقطوع معاً، من غير أن يمسهما، وهو يتمتم لنفسه: الله
يرحمها ويرحمنا جميعاً، الرحمة تجوز على الأحياء والأموات.
خبط على باب البيت الذي كانت الجثة على عتبة خبطات متتالية
وقد مرّ بذهنه أنه سيتأخر عن رفع الأذان، لكنه قال في نفسه: كفه
بشوابه.

وفي الفجر المبلل بندى وطراوة البحر الملحية المبكرة اختلط أذان
الفجر بصرخات نسوان الحارة بالصويت العالي وجاءت عربة البوليس
وضابط مباحث الأنفوشي والعساكر وعربة الإسعاف تضرب جرسها
لتحمل الجثة ورأسها إلى المشرحة. كان قرطها الطويل ذهبى الشكل
مازال في أذنيها.

عندما ذهبت أزور قاسم إسحاق في الشارع القريب من بيتها قلت:
من باب العشم أحوذ أسأل.
فعرفت الحكاية من جاراتها.

وعرفت بعد ذلك أن القضية حُفظت، قُيدت ضد مجهول.

هل الموديل التي كانت تخشى عساكر الإنجليز جاءها مصيرها على
أيدي أهلها، ذوداً عن العرض والشرف؟

في تلك الليلة نفسها كان معي ميعاد مع زينب المشراوى في البيت
تريانون في آخر شارع سعد زغلول.

كان لهذا الحلواني «الراقى» جنينة داخلية هادئة تدخل إليها من قاعة
فسيحة تنيرها أضواء محكمة بمكر وحذق لكي تعطى حساً بالراحة
ويفوح منها عبق الجاتوه العطر بالسكّر والشيكولاته والقانيليا والخبز

الفرنسي الساخن، مضفوراً وطويلاً ومدوراً، وبرطمانات المربى
جسدانية الزجاج بما تحتوى من عجائن المشمش واللايخ والبرتقال وثمار
التوت البرى.

كنت أختار مثل هذه الأماكن فى إسكندرية إذ أتصور أنها لا بد أن
تكون بعيدة عن أعين المباحث، فى شارع سعد زغلول «ديليس» و«البيتى
تريانون»، فى محطة الرمل «أتينوس» و«التريانون»، وفى شارع فؤاد
«بودرو».

جئت متأخراً نحو عشرين دقيقة رغم حرصى التلقائى على دقة
المواعيد. خيل إلى أن شخصاً ما يتعقبنى وكان بالزى الرسمى
للمخبرين السريين: البالطو والجلباب والطربوش والعصا الخيزران
والحذاء الأميرى الضخم الفضاح. نفذت من الشارع الصغير الذى فيه
البنك اليونانى ومطعم الأونيون، إلى ميدان المنشية ودرت حول الحديقة
اليانعة بأشجار النخل السلطانى أمام الكاتدرائية الإنجليزية.

أبطأت أمام واجهة مكتبة المعارف، ومحل نظارات مارون آياك
ووجدت أن المخبر قد اختفى، لم يكن يتعقبنى فى النهاية ولا يحزنون.
وجدتها جالسة إلى مائدة منعزلة بعيدة فى ركن الحديقة، ولم يكن
يبدو عليها أدنى تملل.

بادرتنى: عارفة، ظروف الأمان - أليس كذلك؟

ابتسمت شاكراً وطلبت اثنين شاي كومبليه، وتصورت أن الجرسون
نظر إلينا نظرتة إلى عاشقين صغيرين ساذجين ليسا من رواد مثل هذه
المغاني، لاشك أن هندامنا لم يكن فى نظره حسب الأصول.

حدثتنى طويلاً عن موقف إدارة المصنع من مطالب العمالات،
وتهديدها بفصل العناصر المشاغبة ومن يعتنق أو يروج للمبادئ
الهدامة، وعن صلابة البعض وتراجع البعض وصمت الكثيرات دون
إعلان موقف حاسم انتظاراً لما تسفر عنه التطورات.

وعندما أثرت معها احتمال تنظيم إضراب يشارك فيه العمال مع
العاملات، ويقوم فيه زملاؤنا بالتنظيم وبالتحريض، قالت إن الوقت لم
يكن ناضجاً بعد لمثل هذه الخطوة التي يلزم أن ندخرها كإجراء أخير،
وإن مطالب العاملات مازالت أمام الإدارة لم تقطع فيها بالقبول أو
الرفض، وهو موقف يعتبر مشجعاً ويفتح الباب أمام ضغط أكبر بالقدر
المناسب.

كانت زينب المشراوى، وهى تتكلم بكل هذه الحكمة، تتقد عينها
المزججتان بخط خفيف من الكحل البلدى تبدو ان عميقتين غائرتين فوق
الوجنتين العظيمتين شديدتى الدكنة واستقامة الخطوط، وجهها النوبى
مضرج بتدفق دم الحماسة، وكان جسمها النحيل الصغير، فى الفستان
المشجر اللامع بومض حريرى خافت، ثابتاً هادئ الروع فى المقعد
المريح.

جاء الجرسون بصينية الشاي عليها الإبريق الخزفى، رفعه وصب
السائل الكهرمانى فى فناجين واسعة مفلطحة، وعلى الصينية أطباق
الكيك والسكرية وإبريق اللبن، تركها ومضى وهو يلقي علينا نظرة
خلفية مهذبة لا تخلو مع ذلك من الفضول.

سألتنى عن أخبار قاسم إسحاق وقلت إنه مازال مختبئاً من تعقب
البوليس فى غرفته التى استأجرتها له فى بحرى، ولم تسأل عن عنوانها
وطلبت منى فقط أن أسلم عليه وأن أقول له إن قلوبنا كلنا معه.

ولما طلبت الحساب صممت زينب أن تفتح شنطة يدها، كفتها
بهدوء، وضعت يدي على يدها وأحسست بدفء مفاجئ من اليد
الخشنة القوية، ودفعت للجرسون المبلغ الفادح ٢٣ قرشاً وتركت له
النصف فرنك بقشيش فشكرنى ممتناً وكأنه مفاجأ: مرسى، مرسى يا
بيه..!

استاذنت زينب وسبقتى على ميعاد نحدده بعد ذلك عن طريق

سلامة أو عابدة عندما أذهب لواحد منهما في المكس .
في طريقى إلى التواليت مررت بنافذة صغيرة يهبّ منها هواء ساخن
تطلّ على المطبخ والفرن .

في الغرفة الضيقة المشبعة ببخار ودخان وروائح مختلطة ثلاثة رجال
يعملون بعنف أمام الأفران الكبيرة التى تفتح نيرانها من فوهات الغاز
المفتوحة وفي جوف بطونها من وراء صاج الأبواب المطلية بالمينا البيضاء
الموصدة على جحيمها الصغير المتقد . والمواقد الجانبية تثرّت تحت أوعية
كبيرة ضخمة وصلتني روائح سكر مذاب ممتزج بفوح احتراقٍ ثابت
محكوم .

كان الرجال يعملون في ضوء مختلطٍ غير معالم وجوههم فبدت غير
واضحة خيل إلى أن عليها قشرة من هباب الأفران والعرق الذى يتفصد
غزيراً في خيوط مغبرة على الوجوه الجافة قائمة السواد، وكانوا هم أيضاً
لا يرتدون إلا شلالات قصيرة مقطوعة الأكمام تبتثق من أكتافها أذرع
مفتولة ونحيلة وعظيلة في الوقت نفسه، وهم يتنقلون بسرعة في صوت
الفحيح والפורان والأزيز بين النيران، تحت البخار والدخان الخفيف .

ذهب قلبى لهم وأحسست ما فى جوفى يوشك أن ينقلب على .
قلت : أهذا التعذيب هو ثمن الرهافة والرقّة فى صالون الشاي
الحلوانى الراقى الذى اتخذ لنفسه اسم أحد قصور عائلة البوريون
البائدة؟

تمزقت روحى، من غير مجاز .
قلت : هل هذه ستمنتالية فجّة وساذجة؟ أم أن هذه الشاعر حقيقية
أيا كان معنى ذلك وليست زائفة . ليست فيها أدنى طرطشة أو ميوعة
بل هى محتدمة ومحرقة؟

قلت : هل الستمنتالية تظلّ على هذه الصفة أم تنقلب ضدها عندما
تكون بهذه الحدّة، وعندما تُكنّها الجوانح بهذه الصرامة، وعندما تجد

متنفساً لها لا في القصائد العصماء الجوفاء بل في الفعل ، في العمل ،
وفي الفن الصارم الدقيق ، مهما لاح ساذجاً ومستميتاً وكأنه عقيم ؟
قلت : ما زلت لا أفهم ولا أستطيع أن أقبل فداحة الثمن الذي يدفعه
الشفغالبون في الأفران والمطابخ والمصانع والغيطان والمناجم ، ما زالوا في
بلادنا على الأقل ، إن لم يكن حقاً في بلاد الشمال المصنعة ، يدفعونه -
هذا الثمن الفادح - ويدفعون حياتهم فيه ؟

قلت : عندما أحكى لسلامة وزيدان وشاكر وعائدة عن حلم ، عن
رؤيا تقوم فيه آلات ذكية بأعمال ظل العبيد من كل نوع ينوءون بعثها
القاتل طوال القرون ؟ هل أنا حقاً حالم أو شاعر ؟

قلت : وحتى إذا تحقق الحلم هل فيه تعويض ما أو تكفير عن آلام
ومعاناة وعذابات فيزيقية وروحية لملايين بعد ملايين من عبيد الأرض ،
في أثينا فردوس الديمقراطية ، أو في الكونغو ، في سهوب سيبيريا ، أو
أحراش أفريقيا ، في مانشستر فيكتوريا ، أو بغداد الرشيد ، في غيطان
الصعيد أو جبال الأنديز . . ؟

قلت : أهذه أنشودتنا المكرورة نكرت حياتها على السبحة دون كلل ؟
ومع ذلك خرج الأنا الآخر ، أو أحد الأنوات الأخرى ، على أية حال ،
يطل برأسه في خضم الأنشودة وفي قلب حلم اليوتوبيا ، يضع قدميه
على الأرض بكل طينها ، بكل ما فيها من اتزان وتعقل وتحوط ، وهأنذا ،
أنا الآخر ، أتلقى خطاباً من قريتنا الذي كان يشغل منصباً كبيراً في
الحكومة ، ينصح ويشير ويساعد على اختيار الطريق «الصحيح» بعد أن
تخرجت من كلية الحقوق :

تحريراً في ٢٨ نوفمبر ١٩٤٦

ولدنا العزيز الأستاذ

بعد التحية

وصلنى خطابكم وأنا طريح الفراش لمرضى وسررت جداً لنجاحكم فى الليسانس فأهنتكم راجياً لكم كل توفيق ونجاح فى حياتكم المقبلة . أما ما يمكن أن أشير به عليكم حسب طلبكم فهو الالتحاق بأحد مكاتب المحامين بسوهاج وهم كثيرون ومعروفون لكم وخصوصاً أن بعضهم من الأقارب وهذا لا يمنعكم من الدراسات العليا التى ترغب فيها مثل التحضير للدكتوراه ، أما الموضوعات التى يمكن أن تأخذها فى دراسة الحقوق فيمكن أن تكون أحد الموضوعات الآتية أذكرها لحضرتكم على سبيل المثال لا الحصر وهى : المجالس المليية بالقطر المصرى ، أحكامها وطرق تنفيذها ويشمل ذلك التضارب فى أحكامها مع المجالس المليية الأخرى والمحاكم الشرعية ، هذا موضوع واسع يمكن أن تستفيدوا بخبرة أحد حضرات المحامين بسوهاج الأعضاء فى المجالس المليية مثل الأستاذ كامل زكى ونجيب ساويرس المحامين بسوهاج .

وإنى أرجو لكم التوفيق والنجاح فى هذه الدراسة
وتفضلوا بقبول فائق احترامى ،

المخلص إسحاق تكللا

فلماذا كنت أنظر بشيءٍ من النفور إذ إن زميلنا كامل الصاوى قد التحق بسلك النيابة العمومية ؟
وهل كنت حسن الحظ لأننى أخفقت فى كل تلك المشروعات التى أشار بها على قريب العائلة ، ولم أنخرط فى سياقها من الأصل ؟ حسن الحظ أم حسن الإرادة ؟

قال لى فتوح القفاص :

- صديقى إسماعيل عامر جاء من القاهرة أمس ، وعنده اقتراح وليس عندنا وقت للمناقشة وطقّ الحنك ، يعود غداً للقاهرة .

قلت : إيه الحكاية ؟ ما الاقتراح ؟

قال ببساطة : نذهب الآن فى سيارته إلى كفر الدوآر، وندخل معه إلى مصنع الغزل والنسيج بصحبة عامل قديم فيها، صاحبه من زمان، ونتكلم مع اثنين ثلاثة من النقابة .

قلت : الآن ؟ هكذا ؟ دون إعداد ؟

قال وهو يخبط بمودة على كتفى : يا حيوان .. بطل هذا العقل كله، موافق تيجى أو غير موافق ؟

قلت : موافق طبعاً، أين إسماعيل عامر ؟

قال : سوف يكون فى انتظارنا فى سيارته أمام باب الكرستة ع المينا الساعة اثنين ونصف .

تركته وخرجت مع زيتب وعائدة، كنا يوم أحد وعندهما إجازة، اشتريت لهما أسطوانتين : النزوة الإيطالية وبحيرة البجع . ثم بالكاد روحت وأكلت لقمة وأخذت ترام الجمرك .

كنت قد عرفت إسماعيل عامر فى زيارتى للقاهرة فى أواخر صيف ١٩٤٦ ، موفداً من اللجنة للاتصال بأصدقائنا الذين لم نكن على أية علاقة بهم، أعطانى قاسم إسحاق عندئذ رقم تليفون عطا الله سليمان ، وما أن نزلت من القطار فى باب الحديد حتى طلبته واتفقنا على ميعاد غداً صباحاً الساعة ٩ فى عنوان على شارع النيل فى العجوزة .

تعشيت فى اكسيلسيور، مكرونة بالفرن وسندويتشات چيجو وكبدة مع سينالكو، قضيت ليلتها فى فندق جراند أوتيل بجنيه مصرى واحد لليلة، وفى الصبح كان يوم جمعة نزلت شارع سليمان وكان يبدو طويلاً وأنيقاً هادئاً شبه خاوي، عماراته بطرازها الإيطالى والفرنسى فيها نفحة عراقية، بعد أن أفطرت فى الأميريكين على قهوة باللبن وقطعة كيك .

وصلت إلى ميدان الإسماعيلية، وثكنات قصر النيل الحمراء قبيحة

الشكل سيئة السمعة تبدو مهجورة، عبرت كوبرى قصر النيل وانحرفت يمينا حتى وجدت العنوان، كانت الشقة فى دور أرضى، وفتح لى عطا الله سليمان نفسه. رَحَبَ بى بصوته الأَجَش القوى فيه أثارة لا تكاد تلاحظ من لكنة شامية أو متمصرة، وقال دون مقدمات ودون حرج وبشثيمة التدليل لأصدقائنا:

- تعال، ولاد... كلهم هنا ياسيدى مستنيين أخبار إسكندرية.

دخلت إلى الغرفة الأرضية الفسيحة المظلة على جنيئة صغيرة يبدو من ورائها شارع النيل والنهر المتدفق فى أوائل موسم فيضانه يهدر من وراء النافذة المفتوحة على أرض معشوشبة بخضرة زاهية وفيها مربعات زهور البانسيه والمرجريت اليانعة.

كانوا جالسين على فوتيات قش مشغول، عليها شلت مريحة، وأمامهم تراييزة قش مدورة زجاجية السطح عليها كل جرائد ومجلات الصباح، وأحسست أن فى ذلك كله ترفاً ورفاهية لم أكن قد عرفت مثلها قط من قبل، كان شراء صحيفة واحدة كل يوم بقرش صاغ أمراً لا يستهان به عندى ويحسب له حساب. وفى النهاية ربما كان ما تصورت رفاهية وترفاً ليس إلا من قبيل المألوف المتوسط عند هذه الطبقة من مثقفى البورجوازية الثوريين.

عرفنى عطا الله سليمان بسرعة بهم واحداً بعد واحد، بنغمة التدليل التى صدمتنى أولاً ثم قبلتها كأنها بعد ذلك لا تصدمنى ولا تعنى عندى شيئاً «أهم ولاد...»، إسماعيل عامر، أمجد كامل، حسن رشدى.

لكنهم كانوا فيما يبدو على شىء من الجدية، وربما اللامبالاة قليلاً، لم يكن عندهم الكثير مما يقولون، كان واضحاً عندى من اللحظة الأولى أنهم جماعة من المثقفين همهم الأساسى هو الكتابة السياسية والاقتصادية، قال عطا الله سليمان إنه فى سبيل نشر كتيب صغير عن

السوق الرأسمالية المصرية وأشار إسماعيل عامر بغموض إلى أن العمال في شبرا الخيمة مازالوا يطالبون بالاعتراف بمؤتمر النقابات العمالية العام وبحقوقهم النقابية ولم يتكلم حسن رشدي يوماً بل أخذ يتفحصني بعينين فاتحتين وشعره الضارب إلى شقرة مع شيب خفيف، أما أمجد كامل فقد كان يصفي باهتمام محني الرأس ومثقلاً بهموم كثيرة فيما تصورت وأنا أحكي باختصار ودون ذكر أسماء محددة أو مواقع بعينها عن نشاط اللجنة في أوساط الطلبة والعمال في إسكندرية.

إسماعيل عامر هو الذي جاءت جلستي على الفوتوي القش بجانبه مباشرة.

كان أميل إلى القصر والامتلاء متقد العينين بسواد عميق نفاذ، مشتعل الرأس بشعر أجعد أسود وكان متدققاً ودقيقاً، واثقاً تماماً بنفسه ويعمله ومما يقول ولم أعرف ولا سألت عما يفعل على سبيل كسب العيش، لاهو ولا أحد من هذه الجماعة التي اتضح لي أيضاً أنها غير متماسكة التنظيم وأنها تلتقي - كلها أو بعضها - بطريق الصدفة بين الحين والحين، أى أنها ليست «تنظيماً» كما كان يقال بل هي جماعة من الأصدقاء، لعل علاقتهم أحدهم بالآخر ليست حميمية ولا وثيقة الأواصر.

ومع أننا في إسكندرية لم نكن نعتبر أنفسنا تنظيمياً بل لجنة أو حلقة على شيء من الانتظام ولكن دون صرامة التنظيمات الحديدية إلا أنني أحسست بشيء من الإحباط وخيبة الأمل. كانت هذه في معظمها أسماء كبيرة سمعنا عنها وعن تاريخها وها أنا أجدهم في جو أبعد ما يكون عما تصورت أنه جو الكفاح «البروليتاري» الثوري.

مال على إسماعيل عامر وسأل بصوت جهورى لم يعن بأن يخفض من نبرته:

- هل تحب الموسيقى الكلاسيك ؟

أجبت باندهاش قليل وعلى الفور: جداً، أحبها جداً.

قال: إذن تعال بكره نسمع، هل تعرف البار الذي فى آخر شارع سليمان، اسمه الثرى بلز يعنى الأجراس الثلاثة بالإفرنجى، لماذا لا يقولونها بالعربى لا أعرف.. المهم.. تعال لى هناك الساعة أربعة ونص بكرة.

ترددت قليلاً، فقال بسرعة:

- تعال يا أخى عازمك على بيرة على حسابى.

بشكل ما كنت أنتظر أن يكون الميعاد فى إيزايقتش على ميدان الإسماعيلية ولكنى كنت أعرف أن هذا البار هو أيضاً موئل لليساريين القاهريين.

كانوا ينظرون إلينا، وكأنه لا يهمّ فيما يفكرون.

قال عطا الله سليمان:

- أراك فى المكتبة أى وقت الصبح، من الساعة ١١ يعنى

قلت: آسف يا أستاذ عطا الله

قاطعنى: أستاذ إيه وبتاع إيه.. قل لى عطا الله على طول.

فضحكت بصوت عال دون أن أملك للضحكة رداً وقلت:

- طيب يا عطا الله بكره الصبح ليس عندى وقت، سأذهب لأرى

رمسيس يونان فى القلعة.

قال: خلاص.. الليلة تبات عندى فى البيت، سيبك من الهوتيل.

قلت: اتفقنا.

كان الآخرون فى تلك الأثناء قد أخذوا يتبادلون قراءة الصحف والمجلات، ويشربون القهوة التى جاء بها، فى إبريق فضى كبير لامع مع سرفيس شكله فضة وفناجين كبيرة صينية أصلى وإبريق اللبن، جرسون نوبى فى جلباب أبيض وحزام أحمر حسب الأصول تماماً وكما نشاهد فى الأفلام المصرية.

أدهشني قليلاً مرة أخرى جوّ الراحة البورجوازية اللطيفة الذي ينعم فيه أصدقاؤنا الثوريون .

قلت : معلىش .. ليس فى هذا كله بأس مادامت مبادئ وممارسات العمل والفكر والتطبيق سليمة وقوية .
ولم أكن مقتنعاً تماماً بما قلته لنفسى .

الأقرب إلى نفسى جوّ شارع العباسى المتواضع جداً ، بالحصىر والكنب الأسطمبولى والسجاير المطفأة المهروسة فى أغطية زجاجات السينالكو ، وأكواب الشاى الزجاجية المخضرة من مصانع ياسين .

فى اليوم التالى ذهبت إلى درب اللبانة صباحاً وإلى غرفة موريس عوض فى شارع سليمان ظهراً ، قدمنى إسماعيل عامر إلى موريس عوض الذى كان قد عاد حديثاً من إنجلترا بزوجة أيرلندية وكانت الغرفة فى هذا البنسيون يشغلها سرير كبير ومكتب صغير على جنب ، وعدة كراسى وفوتيات . تربّع إسماعيل عامر أرضاً على السجادة واقعد الأرض جنبه اثنان ثلاثة خمّنت أنهم من طلبة موريس عوض وجلست أنا على كرسى خيرزان وأدار موريس أسطوانات الكلاسيك على جهاز كبير لامع الخشب ، وسمعت كسارة البندق لتشايكوفسكى والتاسعة الكورالية لبيتهوفن وسوناتات لباخ ، وجبة دسمة فى مناخ طقوسى يشبه التعبد .

شرح موريس عوض بلهجة المعلم الأستاذ شيئاً عن الخلفية التاريخية والبنية البوليفونية لما سمعت ، بلكنة المشقفين الوافدين على الفور من بلاد برة .

منذ اللحظة الأولى - كما يحدث معى - توطدت بينى وبين إسماعيل عامر صداقة تفاهم وإعزاز - هل فيها شىء من التحفظ أو الاحترام المتبادل أيضاً ؟

تقطعت أواصر العلاقة بيننا ، لا لسبب ، ربما بحكم ما يسمى

«بالظروف»، ربما لأن كلاً منا سار في طريق، وانشعبت الطرق، على رأى المثل الشعبي: خالتي وخالتك وتفرقت الخالات... 1
عمل بالصحافة وشغل فيها مكاناً بارزاً وكتب عن المسألة الزراعية في مصر كتاباً صغيراً لكنه مازال لا غنى عنه، وتقلبت بنا أمواج الليالي، عرفت أنه يشتغل في بيروت مع جماعة أو جماعات من الثوريين الفلسطينيين إبان الحرب الأهلية، وأحسست عمق طعنة في القلب عندما قرأت أن قبلة أو صاروخاً سقط على مبنى الصحيفة التي كان يسهر فيها، وأن كل شيء قد انصهر في بوتقة المحرقة التي اشتعلت في المبنى كله، وأن إسماعيل عامر، المليء بالحياة المتفجر بعرامتها وعنفها، قد استحال ذوباً منصهراً بين رصاص المطابع الملتهب والأنقاض المتهاوية.

قابلني يومها، بالقميص والبنطلون، أمام باب الكراسته في الجمرك، وهو في سيارته الفورد القديمة نصّ عمر، أو لعل عمرها الافتراضي قد انقضى كله، خرج وأخذني بالحضن الحشن القوي، كان عندي قميص كاكي قديم لبسته على البنطلون الرمادي المتهدل. ولم يكن مدهشاً لي - لم يعد يدهشني منه شيء - أن فتوح القفاص كان يلبس جلابية وعليها جاكته، شكله مثل شكل أيّ عامل عريق.

وبعد ساعة بالسيارة وصلنا إلى كفر الدوار. ركن إسماعيل عامر جنب محطة السكة الحديد حيث قابلنا هناك عامل عجوز مفضن الوجه جداً ولكنه حاد العينين وأعطى كلاً منا تصريح دخول للعمال بأسماء حقيقية.

قال لي: تسمح تخلع النظارة يا فندي وتخليها معي.
أخذها ووضعها في كيس قماش به ثلاثة أرغفة بلدي وخرطة جبنة قريش وقال لنا: ندخل في زحمة وردية الساعة أربعة.
تدافعنا مع عمال الوردية المتزاحمين وعلى الباب لوحنا بتصاريح

الدخول بين الأذرع الكثيرة التي ترفع بالكاد أوراق التصاريح المزينة ونفذنا بالجانب من الباب الضيق الذي لا ينفذ منه إلا واحد واحد، والنوبتجى على الباب - لم تكن كلمة «الأمن» معروفة في الأربعينيات - لا يكاد يلمح أوراق الداخلين بالأكتاف والمناكب وقد اشتركنا معهم في نداءات أهدنا الآخر كأننا زملاء عمل قدامى: يا حسن - يلاً يافتوح... الله يفتح عليك... يا عم اسماعيل جايب لنا معاك حلالة؟ تنفست بارتياح عندما دخلنا إلى الساحة المسفلتة الفسيحة ومنها تسللنا ثمشى بثقة وتشاقل وعدم اهتمام، كأننا نخرج من وردية الصبح ونذهب إلى عنابر النوم.

قادنا عم بيومي العجوز في متاهة من الممرات المتقاطعة بين مبان كالحة متقاربة مظلمة الأبواب حتى وصلنا إلى عنبر نومه .

دفع الباب الخشبي ودخلنا أربعتنا إلى ما يشبه زنزانة معتمة ليس فيها نافذة ولا نور، فيها لمبة كهرباء مدغمشة متدلّية من حبل تراكمت عليه مخلقات الذباب السوداء ينزل من السقف الواطئ وعلى الحائط مسامير مدقوقة معلق عليها عفرينة زرقاء باهتة وجلابية تحتها ما حدست أنه غيار، فائلة بأكمام ولباس طويل . إلى يسار الباب مصطبة حجرية ناتئة من الحائط عليها مرتبة قش صفتانة، يجلس عليها بالفعل ثلاثة عمال شبان واضح من مجرد جلستهم الواثقة أنهم قياديون .

وليس ثم شيء آخر أبداً إلا مجرد سبرتاية عليها كوز صفيح قديم بسلك مضفر .

قال عم بيومي: صحيح ممنوع نعمل حاجة هنا لكن يعنى مافيش لا بوفيه ولا مطعم جوّه، والأمر ما يستغناش .

وفي أكواب صغيرة دار الشاي الثقيل علينا وقد اكتظت بنا الغرفة - الزنزانة، ونحن نسمع أصوات العمال الراجعين إلى عنابرهم أو الخارجين إلى القهاوى بعد ثماني ساعات شغل .

نظرت إلى إسماعيل بشيء من القلق فقال : لا تشغل بالك ، هناك من يقف على ناصية الممر ، ناضورجى يعنى بلغة الحرامية لكنه ناضورجى ليس هناك من هو أشرف منه ، لن يفاجئنا ملاحظ ولا مباحث ولا أحد .
ماذا يهم الآن فيم انخرطنا من حديث طويل مستغرق ونحن نشطف الشاي بأصوات عالية ؟

هل كنا ننظم أو نحاول تنظيم إضرابٍ محتمل للمطالبة بالتأمين الصحي - وقد انتشر الدرن من غبار الملحج في صدور العمال وانعدام تنقية جو المصنع مع الآلات الحديثة الدوارة بلا كلل - أم كنا نفكر في تكوين خلايا سرية للنشاط الثورى ؟

لعلنا كنا فقط نتعرف على أحوال العمال في المصنع .

كان إسماعيل عامر يأخذ مذكرات سريعة بقلم رصاص في نوتة جيب صغيرة فلعله كان يفكر في فصل من كتابه القادم عن الفلاح من القبط إلى المصنع ، من بيئة زراعية إلى جو صناعي ، ومدى انتقال ثقافته الريفية وتغلغلها أو تسللها إلى نمط حياته الجديدة .

هل طوقنى الحلم وتعثرت خلف الأخيلة وأنا خارج مع أصدقائى وسط العمال الراجعين من وردية الليل ، لوحت بالتصريح فى نصف العتمة على الباب ، ولم يكن النوبتجى مهتماً ، على أية حال ، بمن يخرجون .
ذهبنا إلى قهوة على التريعة ذكرتنى قهوة المحمودية وعزمت على أن أزور شاكر المريوطى غداً .

بعد أن خرجنا سلمنى عم بيومى نظارتى التى حرص على إخفائها طول الوقت ، وقد تغبشت الآن ، أخذت أنظفها بقوة بمندبلى الذى لم يكن نظيفاً تماماً ، أما فتوح فكان مستريحاً تماماً فى الجلابية والچاكتة عندما عدنا بسيارة إسماعيل عامر المتهالكة إلى إسكندرية النائمة بعد منتصف الليل .

خرجت زينب المشراوى من قلب الماء المتدفق بمويجات صغيرة متقطعة ضاربة إلى الحمرة، وكانت ترتدى ما يشبه زى راقصات الباليه باللون الأحمر الداكن، نعم، كانت بالفعل تتحرك راقصة على موسيقى «كسارة البندق» ومعها على أنغام تشايكوفسكى حوريات النيل فى زى راقصات الباليه باللون الأصفر. طقوس الحركة الخاطفة الإيقاعية والانحناء والدوران ونزغات الصعود إلى أعلى باستماتة تعطينى معنى واضحاً لا أشك فيه من فرط قوته معنى التضحية على مذبح قاس. أسرع إليها ملهوفاً، كمن يريد أن ينقذها من شرٍ محيق مطبق لا فكاك منه، فأجد أنها أصبحت أخرى، من الأخرى؟ أوديت؟ أم دولت؟ أم عايدة؟ أم امرأة كأنها ليست من البشر غامضة الملامح ملتبسة الكيان، تتقدم إلى كأنما لتعزىنى عن فقدان لا يعوض، هل فقدت زينب أم لعلى فقدت نوريس فخرى التى كنت أهيم بها حباً وعذاباً من أربع سنوات، ولكنه قد مضى واندثر هذا الولع الذى ظننته شيئاً مراهقاً، وربما ساذجاً فى كل آلامه. ألم ينقض هذا الحب هذا العذاب؟

كأنما زينب - أو نوريس - قد ضحى بها قرباناً، على أى مذبح؟
تقدمة لأى إله؟ ألم أكفر بكل الآلهة؟

أحملها بين ذراعى وقد أصبحت طفلة صغيرة ولكنها تنظر إلى بهاتين العينين العميقتين الواسعتين، لكنهما ليست عيني زينب ولا عايدة ولا نوريس ولا حتى المرأة الغامضة المرادة القادمة فى قابل السنوات، هل هما عينا فاطمة المغدورتان، وهى طفلة ناضجة ناهدة الشدين، عزيزة إلى جداً، متدثرة بمعطف داكن الحمرة، فى لون النبلد أم فى لون دم الذبيحة المسفوك؟ ألقفها به وأجرى أجرى فى شارع راغب باشا أعرف أن البوليس بخوذاته الحديدية وهراواته الغليظة يتعقبنى وقد خلفت ورائى أجواء مظاهرة عارمة مازلت أسمع هديرها، أجواء الثورة تتجمع من بعيد، وثم جماعة عند ناصية شارع إيزيس كأنها هيئة

ثورية أعرف أنها تتآمر عليّ، أستنجد برجل عجوز مضىء الوجه حادّ
النظرة يفهمنى من غير كلام، لكنه يقودنى بنفسه إلى هذه الجماعة، قد
غدر بى، أوقعنى فى فخّ، من هو؟ من أنا؟ تلمع خناجر وبنادق، كأنهم
يتشاورون ليقررّوا مصيرى المحتوم، أجرى مرة أخرى، وحدى الآن.
اختفت طفلى كأن لم تكن قط، أدخل إلى الإصطبل الذى كان أمام
بيتنا فى غيط العنب، الخيول تمحّم ولكنها لا تصهل ولا تتوفز
بسيقانها فهى تألف وجودى، أجرى بين أجسامها المتينة الضخمة، ليس
هناك مخرج من الإصطبل، أصوات المطاردة تأتىنى من بعيد، ثم تتضخّم
وتقترب وتدوى، تسلّقت عموداً خشبياً إلى سقف الإصطبل، ثم وثبت
وثبة مستميتة ووجدت نفسى على السقف المغطى بأكوام من التبن
والبرسيم الأخضر وأسلاك شائكة وراء حائط مصمت ومنذر من حجر
رمادى وكأنا طلقات النار تنتظرنى من ورائه، احتميت بجزء ضئيل
جداً من حجر الحائط على شكل كوع متين وانبطحت ملتصقاً به وراء
الأسلاك، وقد نجوت أخيراً وإن كنت مازلت محاصراً.

هل نجوت؟ أم أن الحلم مازال يحاصرنى؟

الفصل الثامن عشر

لا أذكر الملابس التي أدت إلى هذا المشهد .
أستطيع بالطبع أن ألق الأسباب وأختلق الظروف - على نحو مقنع
وكل شيء - كما أفعل أحياناً في غمار هذا النص المتقلب الذي يجيش
بأنصاف الوقائع وأشباه الذكريات كما يحتشد بصحيح الأحداث
وتحليقات الخيال، ولكنني لن أفعل، الآن، على الأقل .
سئمت صنعة الروائيين والحكّائين .

فقط يسطع في ذاكرتي المشهد الليلي في شوارع محرم بيه النائمة .
مع منشورات تدعو المواطنين إلى شيء أو آخر مما كنا ندعوه
برنامجنا، هل كانت دعوة للإضراب أو الاعتصام أو التظاهر؟ هل كان
الهدف إسقاط الوزارة وإدانة مفاوضات عقيمة؟ أم المطالبة بما كان
يتجاوز الأحلام: تأمين قناة السويس وتكوين لجان شعبية في المصانع
والمزارع والمدارس والأحياء وحتى الشكنات؟
ذلك كله ممكن ووارد .

لكن المشهد يقتصر على وأنا أحمل كوزاً أو سطلاً صغيراً، وعاء
معدنياً على أية حال مليئاً بسائل كثيف لاصق، غراء مخفف أم صمغ
ثقيل؟ وفرشة صغيرة مما يستخدمه عمال الطلاء، وكمية من المنشورات
المطبوعة على الإستنسل، على رأس المنشور علامة المنجل والمطرقة ورقم
٤ ونداء: أيها المواطنون ..

في محطة الترام الخالية وقد انقطعت الرجل وفات ميعاد التراموايات
من زمان ألصق المنشور على عمود المحطة، أبلل العمود بفرشة الصمغ

وأمر على ظهر الورق بالفرشة مرّاً سريعاً وألصق وأسوى بيدي.
أنتقل في الشارع الموحش المنير إلى حيطان البيوت، أنتقى رقعة
أتخيرها بحيث تكون في مستوى صالح للقراءة وأكرر عملية اللصق
والتسوية.

ومن بعيد أرى عكري الداورية، حلتها سوداء وحزامه الجلدي يلمع
من بعيد، أسرع الخطى أدخل في شارع جانبي والدم يتدفق في جسمي
بقوة، وأنفذ إلى حارة موازية، ثم أمشي ببطء، أتحنن الفرصة للمعاودة.
هنا ينطفئ نور المشهد، وتسود ظلمة النسيان، لماذا كنت أنا بالذات
أقوم بهذا العمل؟

أنا «المثقف» معي ليسانس الحقوق تخرجت به منذ شهرين ولا أدري
ماذا أفعل به.

أم هل كنت مازلت أذاكر للليسانس وأنا في مخازن كفر عسري؟
هل كنت قد تركت العمل فيها، بانتهاء الحرب، وتلطمت شهوراً
بحثاً عن عمل، أكتب خطابات كل يوم باللغات الثلاث، وأتلقى ردوداً
مهذبة بالاعتذار أو بالتسوية؟

هل كنت قيّدت نفسي بالفعل في نقابة المحامين، تحت التميرين؟
أم لعلى قد تركت العمل مترجماً ومحرراً بجريدة «البصير» ثم
نجحت في امتحان الالتحاق بوظيفة «محترمة» في البنك الأهلي، قلعة
الرأسمالية والاستعمار الإنجليزي، بينما أوصل العمل السري الثوري
بحمياً واستفراق، أحيا حياة مزدوجة طول الوقت، لعلى مازلت
أحياها؟

والمفروض أنني «سكرتير عام» اللجنة، على أية حال...
ياللدعاوى الضخمة...! ولست تحت الاختبار بل أنا - مع «الزملاء»
بالطبع - الذي يقرر نتائج اختبارات الصلاحية للانضمام والعمل في
حلقنا الثورية.

لعل المناسبة كانت من الإلحاح والأهمية بحيث تحتم على أن أنفذ هذا العمل.

ولعلّ «الزملاء» كانوا مكلفين بمثل هذه المهمة في مناطق أخرى، أم لعله كان امتحاناً متّى لنفسي، مخاطرة - ربما لا ضرورة لها وربما حمقاء، على كل حال - لكي أثبت لنفسي شيئاً ما.

كنا نأخذ أصول هذه المنشورات بعد ساعات العمل الرسمية إلى المخزن الخلفي بشركة «الساچيرى ماريتيم». يفتح لنا أنطوان الباب ويدعنا نمرّ إلى الخلف ومعنا ورق الإستنسل المخرم بالآلة الكاتبة العربى - كتبناها مع فتح القفاص فى مكتب براءات الاختراع الذى كان يعمل فيه (هذه هى مهمته معنا 1.) - ثم نطبع المنشورات والأعداد الأربعة الوحيدة من مجلة «الكفاح الثورى»، فى نصف العتمة حتى لا يفضحنا نور الشركة..

وبعد أن ننتهى أحمل نصفها إلى باخوم الذى أسميته زكى إبراهيم صدوق ابن البلد اليهودى الإسكندرانى القح، الذى يشتغل فى فابريكة بولقارا. لم يكن زكى يعرف أننى على صلة بـ «أستاذه» وزعيمه القديم فى الشركة شاكر المريوطى، كان يسكن فى الدور الأول من بيت قديم جنب جامع فى حارة بالعطارين مع أهله: أخته مارسيل، وأمه، كلتاهما أراهما بالجلابية والمدورة البلدى، ومع أبيه صغير الجسم الذى كان يشتغل بتصليح الكراسى من بيت إلى بيت.

كان زكى أعرج قليلاً، وذراعه اليسرى مشلولة، ولكنه لمّاح الذكاء شديد الإيمان بالثورة، وعدواً لدوداً للصهيونية ومناهضاً بقوة لفكرة وممارسة قيام دولة إسرائيل، وكان قد اشتغل صبيّاً فى دكاكين البقالة، وأسطبلات العربات الكارو، وعند الحدادين والسمكرية، وفتح الله عليه أخيراً بشغلة سقع، فى الفابريكة. كان يلبس الجلابية والبالطو البلدى، ويعرف يكتب اسمه بالعربى بالكاد، ولا يعرف كلمة بأية لغة أخرى.

في ١٩٤٩، بينما كنا نحن في المعتقل، وضعه بوليس الملك فاروق على مركب، بالقوة، ورحله إلى جنوا ربما المركب نفسها التي رُحِلَ عليها شوارتز - على غير معرفة بينهما - وكثيرون، وانقطعت أخباره عني تماماً.

كنا نخرج من المساجيرى ماريتيم وقد لففت الورق الإستنسل ونصف رزمة المنشورات تحت بالطو المطر الأزرق الغامق الذي كنت قد أخذته، بإذن مكتوب وقع عليه وختمه مستر «لى»، من مخازن البحرية البريطانية في كفر عثري، وأخفيت في جيوبه ثلاث قنابل يدوية قديمة اشتراها صديقي أحمد النمى من عرب العامرية، لعلهم هم أنفسهم الذين قتلوا فاطمة ميمون الزيتوني، تطهيراً للعرض وحفاظاً على الشرف.

مشهد آخر يظل ساطعاً على رغم مرور السنوات الطوال: قهوة بلدى على شارع محرم بيه، على الرصيف الآخر من المكتبة التي بها مطبعة يدوية صغيرة اتفقنا مع صاحبها على نشر مجموعتي قصص مترجمة من جوركي وتشيفوف.

كان الميعاد الساعة الرابعة بعد الظهر، ساعتين أو ثلاثاً قبل أن تزدهم القهوة بهراة الشيثه والشاي الثقيل من أهل الحى والعمال الحرفيين يستروحون لحظة نسيان وراحة بعد رهق العمل.

سلامة فى القهوة، ومعه رجل ضخم الجثة كبير الرأس متين البنيان فى زى رسمى تعرفت فيه، كما كنت أتوقع، بدلة كسمارية أو مفتشى ترام الرمل.

كان سلامة قد قال لى، آخر مرة رأيتة فيها عند ذهابى إلى بيته فى المكس، إنه كان ذاهباً إلى باكوس وبينما هو فى الترام صعد المفتش يراجع تذاكر الركاب، اشتبك معه بالنقاش. شاب أطلق لحيته وحفّ شاربه وفى يده مسبحة وهو يتمتم بما لا يفهم قتمات خافتة، قال

المفتش: تذكرة.. تذكرة.. فتظاهر الشاب بأنه لم يسمع، كرر المفتش: تذكرة يا أخي.. تذكرة يا أستاذ، ولكزه بخفة في كتفه فزعم الشاب أنه يعود من نشوة التسبيح وقال: لا إله إلا الله الحمد لله، نسيت أن آخذ تذكرة من الكمساري بكم التذكرة يا عم؟

قال سلامة: غضب المفتش، وقال: يا ناس راعوا ربنا اللي بتقولوا إنكو بتعبدوه، يا أخى الإنجليز اللي كانوا كابسين على قلبنا ومحتلين أرضنا غصباً وعدواناً أرحم منكو، ع الأقل بيراعوا الحق فى كلامهم. تدخل الركاب - كالعادة - وصالحوا بينهما، وهدأوا الموقف.

قال سلامة للمفتش: لا مؤاخذة.. ممكن نقعد شوية برآ الشغل، نتكلم أنا وانت، استريحت لك كده ما اعرفش ليه.

قال إنه قعد معه على قهوة فى محرم بيه مرة ومرتين وفى الآخر فتح معه موضوع العمل معنا أو أقله التعرف علينا.

قال إنه أخذ ميعاداً غداً الساعة أربعة دون أن يفصح له عن شخصية الأستاذ الذى سيقابله، قال: هل عندك مانع؟ أغير الميعاد؟

لعل هذا المشهد الساطع فى ذاكرتى مشهد مركب من عدة لقاءات لم ألبث أن أفضت معه فيها عن تاريخ ثورات ١٨٧٠ و ١٩٠٥ و ١٩١٧ و ١٩١٩، وعن الكوميون وعن اللجان الشعبية وكيفية ممارستها وانحرافات تطبيقها وعن فائض القيمة وبرنامج العمل الوطنى الشيوعى (لم أخرج من استخدام الكلمة ولم أتوان عن تصحيح مفهومها الراجح).

كان يصفى إلى بعطش الراغب فى المعرفة وعطش المشتاق إلى الحرية والعدل، ويظمن إلى كرسية بكرشه الضخم وبنية جسمه الركينة الشاهقة، بينما أنا - صغير الجسم متوقف الحركات - أتدفق بكلام أخفف من اصطلاحاته قدر ما تلهمنى اللحظة من غير أن أخونها.

كان الرجل ديناً حسن التدين، ودخلنا فى مناقشات طويلة ولكن

يسودها حسن النية والتسامح من الطرفين، وكنت أيامها - في رد فعلٍ على أرثوذكسيّتي العريقة القديمة - شديد اللجج في ترويجي لما كان يُسمى «المادية الجدلية»، وعنيف الشطط في دحض الأساطير الميثولوجية، وكان الرجل يجادلني بروحٍ لعلها مزيج من عطفٍ أبويّ بشكلٍ ما، وإعجابٍ وتقديرٍ للحماسة الوطنية العقلية التي أظنه يراها عندي.

لا تبرح ذهني صورة لقائي معه يوم ١٤ مايو ١٩٤٨ فلعله كان آخر لقاءاتي في سياق العمل الثوري، حدثته بموقفنا من دولة إسرائيل التي قلت إنها دولة عنصرية وعدوانية وإن تأييد الاتحاد السوفيتي لقيامها دليل آخر على انحرافه عن الاشتراكية الحقيقية، وقلت إنه لا حلّ لقضية فلسطين إلا «بقيام دولة لا دينية، علمانية، ديمقراطية تقودها الطبقة العاملة وحلفاؤها» (هكذا قلت في سذاجة الإيمان المطلق بما يشبه المستحيلات) ويندرج تحتها كل من يدينون بعقيدة دينية، أيا كانت، ومن لا يدينون. كان المناخ السياسي ملتبداً ومنذراً وكنت أعرف أنهم هذه الليلة سيأتون إليّ.

على كوبيّ شاي ثقيل حكى لي أحمد النمّس أنه في تلك الزيارة للعرب المقيمين في خيام من صوف الجمال مضروبة الأوتاد في داخل الصحراء وراء أطلال مخزن بريطاني قديم، عندما كان يفاوضهم في شراء القنابل والغدّارة، لمح بنتاً مغزومة الأنف تلف عصابة زرقاء على رأسها تلمّ بها شعرها المجدّد الخشن، قال لي إن جسمها كان ممشوقاً في ثوبها البدويّ المزخرف بنقوش بارزة حمراء وصفراء باهتة.

قال لي: أحكى لك هذه الحكاية لأنني متأكد الآن أنها البنت التي كانت في ملاية لف إسكندرانية ورأيتها معك في شوارع بحري ومشيت وراءكما من غير أن تأخذ بالك ورأيتك توصلها إلى بيت في السيالة.

قلت: صحيح، موديل تشتغل عند صديقي أحمد قنديل، وصلتها

بيتها، كانت خائفة من العساكر الإنجليز .

قال، بغير اقتناع، وبلهجة العارف ببواطن الأمور: آه.. طبعاً.
ثم أكمل، بعد لحظة تردد:

- يا أخى خيل إلى أننى رأيت، على قمة الشارع، الأعرابيين اللذين
باعا لى القنابل السنة التى فاتت، ولولا أنهما أسرعاً بالدوران حول
القمة لتأكدت منهما، لكن مع ذلك لا أعرف، لست متأكداً من شىء.

فصمتُ، ماذا كان بوسعى أن أقول؟

لكنى قلت كأنما على الرغم منى:

- راحت، على كل حال.

قال: راحت؟ أين؟ أين ذهبت؟

قلت: ألا تقرأ صفحة الحوادث فى «الأهرام»، أو حتى فى «صوت
الأمة»؟

قال: لا، ماذا حدث؟

قلت: أبداً، قُلت، وُجِدت مذبوحة، أمام بيتها.

سأل: هل عرفوا الجناة؟

قلت: طبعاً لا، ماذا يهم من مقتل بنت بدوية «سيئة السلوك
والسمعة» كما قيل فى «الأهرام».

ثم بدا لى فاستدركت:

- لماذا قلت الجناة، ولم تقل الجانى مشلاً؟ ألا يمكن أن يكون هناك

قاتل واحد؟

قال: لا أعرف. طلعت هكذا منى.

ثم أكمل متفكراً ومنكراً: تفتكر أنها جريمة شرف؟

قلت: أبداً كانت أشرف من كثيرين جداً، ومن ستات بيوت لا حصر

لهن، عملها موديل للرسامين عمل شريف وجميل أيضاً.

قال بشى من الكليبة:

- مين يقرأ، ومين يسمع..!

كنت - فيما أذكر بوضوح تام - قد اعتدت أن أمر كل يوم أو يومين على دكان الأحذية الذى يعمل على أبو الليل فيه، صانع أحذية حريمى فائق الصنعة، تنهافت هوائم اسكندرية المرفهات على أحذية من عمل يديه الحاذقتين بفن رفيع .

كانت ورشته الصغيرة الخاصة به وحده تقع فى خلفيّة الدكان المطلّة على الشارع الموازى من وراء شارع صفية زغلول .

لم تكن هذه الورشة أكثر من ثلاثة فى أربعة أمتار، مثلاً، ضيقة مزدحمة بالعدد الحديدية والأدوات الخشبية والإبر والمخارز التى يستعملها الإسكافية وصنّاع الأحذية، وكان يصنع الغراء الخاص به بنفسه وبطريقته، وعندما أمرّ عليه أحياناً أجد وعاء الغراء الأصفر الداكن يتقلب على وابلور الجاز وتطفو على سطحه فقاقيع صغيرة تفوح منها رائحة نفاذة جداً حريفة لا تكاد تطاق .

وأجده عاكفاً باستفراق كامل على كعب حذاء حريمى يسويه ويضبط مقاييسه، يدقق فى نعومة واستدارة خشبه ويمسك بالمخراز الطويل قوى السنّ أو بالمقص الحديدى صدئ المقبض ولكن حاد الشفرة جداً - يقطع الجلد الغالى بعناية على المقاس المطلوب، يُحنى عليه، بما يشبه الحنان الشبقيّ، رأسه الضخم الأصلع لامع الصلعة، وعلى الجانبين لُمة من شعر مهوش خالطه شىء قليل من الشيب .

كان يدقّ جلد حذاء رقيق على سندان مدبّب عالٍ مستوى السطح، بشاكوش رفيع، وهو يصغى إلى .

- ولاد قحبة..!

هتف وهو يشدّ فتلة مضمفورة بعد أن غمسها فى عجينة لدنة من الكولا البيضاء فى كوز مطبّق واضح أنه قديم، صاحبه فى الكار عمراً طويلاً .

عندما هتف بالشتيمة التي لم أعرف بالضبط إلى من كان يسدّها، كأنها طلقة رصاص، إلى الإنجليز، أم إلى الباشوات، أم إلى المتقاعسين المؤثرين السلامة والسائرين جنب الحائط، لاحظت ربما للمرة الأولى أن فمه واسع وإن كانت شفتاه رقيقتين جداً، مطبقتين دائماً على فك قوي بما يشبه خطأ حاداً بل قاطعاً.

كان صديقي.

صفاء قلبه وصدق ثوريته وعنف تمرّده على أوضاع القمع الاجتماعي والسياسي مع إخلاصه العجيب لصنعتة - أيّا كان مآل ما يصنع - كلها كانت تفتني وتخصه عندي بمكانة لا نظير لها.

في تلك الورشة الصغيرة - كأنها صومعته - كان يصفى إلى حديثي «المثقف» عن النظرية والممارسة والتاريخ الثوري والثورة الدائمة بانتباه لا يكلّ وشغف متوهج بالمعرفة، نادراً ما يتكلم لكنه لم يكن يتردد أن يشتم بصوت عالٍ بأقذع الشتائم كل من يراه جديراً بالاحتقار وكل ما يعتبره ظلماً أو عسفاً أو افتئاتاً على الحقوق، لا يتحرّج أن يسمعه المارة، فقد كانت ورشته الصغيرة مفتوحة على الشارع يغلقها باب من الصاج المضلع كنت أجده موصداً في بعض الأيام فأحسّ فقداناً وإحباطاً كأننا لن يعوضه شيء.

قضى على أبو الليل أسابيع أو شهوراً في سجن الحضرة بعد أن مرّ بتخشيبه المحافظة المرهوبة، عدّة مرات، كان يعمل بنشاط وحمية لتكوين نقابة لعمال الأحذية، تقابله الإدارة المختصة باعتراضات قانونية متعدّدة ويعاقبه البوليس بالقبض عليه وضربه كالمعتاد وإلقائه في السجن دون اتهام ثم الإفراج عنه بعد تليفق قضية لا تنتهي إلى شيء.

وكان من الغريب أنه مع إخلاصه اللانهائي للقضية الثورية كان، كما يقول الإسكندرانية: «يلعب في السبق». مع علمه الواضح بالخدعة التي تنطوي عليها ولا تنطلي عليه، كان يتابع سباقات الخيل في نادي

اسبورتنج يوم الأحد، يدفع رسم الدخول أو يقف على الباب إذا لم يكن معه نقود، مع جمهره البوابين والصنایعیة الآخرين الذين يحلمون بالتغيير السريع السهل لحياة الضنك والعوز ويراهن ويخسر دون أن يسأم ودون أن يكف.

لم أعرف قط إذا كانت له أسرة، هل كان يعول أحد أم كان عزباً، وذنباً وحيداً؟ كتمانته وتحفظه يردع كل شبهة من التطفل على ما يراه خاصاً وشخصياً - واحترم ما يراه - وكان عناده في الإصرار على ما يراه حقاً يكاد يبلغ مبلغاً يستحيل معه الحوار أو النقاش، تصورت أن تلك سمة من سمات القياديين الذين يرون طريقاً واحداً جلياً مرسوماً بلا حِوَل ولا حيوَد، على عكس المثقفين الهاملتيين من أمثالي الذين تناوشهم باستمرار رؤى البدائل والاحتمالات وخيالات الإمكانيات التي لا تكاد تنتهي.

قلت: لعلّ الرهان على ما هو غير معروف بالضبط لكنه قادم بلا محالة هو أحد مفاتيح هذه الشخصية، يراهن على الخيل الآن استشرافاً لرهان آخر، على المستقبل، رهان على التغيير..

لعلّ حلقنا كلها لم يكن يتجاوز عدد أعضائها ورفاق طريقها، و«المتعاطفين» معها (بلغة تلك الأيام) أكثر من أربعين خمسين شخصاً. ومع ذلك كنا واثقين أننا بنقائنا الثوري سنغير وجه مصر، إن لم يكن وجه العالم على نحوٍ أو آخر، فهل كان ذلك من قبيل السذاجة الكاملة؟

كان لكل من على أبو الليل، وشاكر المربوطي، وسلامة البشلاوي مجموعة - أو خلية - لا أعرف أعضائها، ولعبد القادر في كلية الطب، وأحمد النمى في كلية العلوم، وشوقي محمود في كلية الهندسة، مجموعة لا يعرفها الآخرون.

بهذا كانت تقتضى قواعد التنظيم العنقودي، وشروط الأمان،

لكنى كنت مسئولاً عن أحمد النمى وعلى أبو الليل وسلامة وشاكر،
ولى علاقة مع فريد اسكاروس وفتحى أبو شادى وأنطوان خير الله
وزكى إبراهيم باخوم، ولعننى كنت بذلك، معرضاً للانكشاف.

قاسم إسحاق مسئول عن عبد القادر وعبد الفتاح وله علاقة مع
زينب المشراوى وعائدة أبو زهرة وفتح القفاص (بشكل ما) وونيس
عزيز بشاى، واحسبها إنت كم كُنا...

من أمام محل الأحذية الذى كان يشتغل فيه على أبو الليل فى شارع
صفية زغلول كانت مظاهرة البنات من مدرسة تبوية موسى التى كانت
قريبة، فى شارع السلطان حسين، قد تدفقت وهن يهتفن بالأصوات
البناتى الثاقبة: «يسقط بيثن»، «يسقط مشروع صدقى - بيثن»، «الجلء
التام»، «يحيا الوطن»، وفى دقائق كان طلبة مدرسة محرم بك الثانوية قد
وصلوا من شارع منشأ، وطلبة مدرسة المرقسية الثانوية قد وصلوا من
شارع كنيسة الأقباط، وفى الوقت نفسه كان طلبة دون بوسكو فى
شارع الخديوى، وعمال الجمرك والمينا من الورديان والقبارى وباب
الكرمنة قد تجمعت صفوفهم، كأن الهتافات لا تند عن صدورهم بل عن
صدر مصر الجريح «الجلء التام.. الاستقلال التام»، «يسقط الاستعمار
والاستغلال»، بيثن بيثن يسقط بيثن.

عربات البوليس تنزل من مبانى الشكنات من محطة مصر، ومن مبنى
المحافظة فى شارع الخديوى، ومن جهورهم الأخرى لا أعرف أين، محملة
بالعساكر فى خوذاتهم الحديدية ومعهم دروعهم الخشبية وهراواتهم.
فى ميدان محطة مصر، وقد أتينا من مدرسة النيل الابتدائية
والثانوية وعبرنا شارع راغب وشارع إيزيس وتجمعتنا مع تلاميذ محرم
بىه تحت قهوة الأكتع العالية أمام مبنى المحطة، نهتف «تحيا فلسطين...
يسقط وعد بلفور... نحن فداك يا فلسطين».

من عربات الجيش المربعة العمودية الجوانب جنود بلوك النظام

ينزلون جرياً على سلالم قصيرة مثبتة في مؤخرة السيارات،
ويطاردوننا، بقمصانهم الطويلة المهدلة، وسراويلهم تنزل إلى ما فوق
الركبة بقليل، وسيقانهم السوداء مربوطة بلفائف الألشين الكاكي
الرمادية التي ترتفع إلى ما تحت الركبة بقليل. ونحن نجري في ميدان
المحطة الفسيح بين عربات الترام الصفراء اللون التي توقفت، واحدة بعد
الأخرى، على قضبانها، والناس ينظرون منها بفضول.

الصدام غير متكافئ بين قوات منظمة مدرّعة ومسلّحة وبين قلوب
متدفّقة عفويّاً بحبّ البلد وحبّ الحرية، قلت:

هل طلب الحرية أقوى وأعظم منعة؟

قلت: نعم لقد تفتّرت قلوب مصر، جلا العساكر الإنجليز في
النهاية وجاءت عساكر غير مرئية من القروض والمعونات والخبراء، من
وزارات الخارجية والتعاون وهيئات المال والتكنولوجيا، حلّ عساكر
مدججون في خوذة زرقاء تحت شعار خادع في معسكرات نائية معزولة
على قطعة من أرض الوطن لا يسمح لنا بأن نرسل إليها أحداً إلا إذا
كانوا تحت أقمعة الخبراء.

«يسقط بيثن» «يسقط بلفور» كان تلاميذ المرقسية ورأس التين قد
انضموا إلينا، وكنت أهتف ولا أسمع صوتي: «تحيا فلسطين، يسقط
وعد بلفور. الاستقلال التام.. حملت العلم يا عبد الحكم...» الشمس
حارة في دمائنا ونحن نجري، والشتائم البذيئة من العساكر تلاحقنا،
والعصى القصيرة في أيديهم، وكانت الشتائم موجعة جداً، والغضب
يلغى العالم.

حضر على أبو الليل اجتماع اللجنة ليلتها.

استمع بمزيج من الغضب والرضى عن تقرير موجز قدمه إسحاق

قاسم عن تطور الأحداث ..

كان صدقي قد شن حملته الشهيرة ضد الوطنيين واليساريين والشيوعيين ومن عارضوا معاهدة الدفاع المشترك التي كانت تهدف - كما هو واضح - ربط مصر بالعجلة الخلفية للاستعمار الإنجليزي وتُقنن وجود جنود الاحتلال على أرض مصر، في القنال، وتُكسبه مشروعية ومصداقية .

قال قاسم، بالأسلوب المعتاد في تلك الأيام وحتى الآن في تلك الأوساط، قد أراه الآن مبتدلاً وسطحياً، أو لعلى أراه بسيطاً وصحيحاً، قال:

- صحيح أن حزب الوفد هو في نهاية التحليل حزب البورجوازية، لكن فيه طلائع تقدمية تعكس أهدافها على قياداته التقليدية، هذه الطلائع نعتبرها من حلفائنا المرحليين، يهمنا أن نحتفظ بها وإن لم تكن من صفوف الطبقة العاملة القادرة على تحقيق المطالب الوطنية والاجتماعية معاً للشعب كله.

ثم أكمل تقريره:

- صبرى أبو علم زعيم المعارضة الوفدية قدم استجواباً في مجلس الشيوخ من أيام قلائل، بالتحديد في يوم ١٥ يوليو الجارى، حول اعتداءات الحكومة على الديمقراطية وضد الصحف الوطنية والوطنيين الشرفاء.

صدقي باشا ردّ عليه وذكر أن البلد تهددها موجة «المبادئ الهدامة والتخريب» وقال إنه على الحكومة بصفتها الأمينة على الاستقرار وحفظ النظام - كما قال - «أن توقف هذا المدّ المدمر للمصالح الحقيقية في البلد».

قال قاسم إسحاق: ثم أورد صدقي باشا مقتطفات مما نشر حديثاً في الصحف والمجلات والمنشورات.

قال صدقى باشا إنهم كتبوا ما يلى :

- «الحكومة تزيد الأغنياء غنى، والفقراء فقراً، إن جانباً ضخماً من ثروة مصر تحتكرها أقلية من الناس لا تبغى لغالبية الشعب غير المرض والفقر والجهل، إن الباشوات الرأسماليين يشتركون فى مجالس إدارة عدة شركات، بلغ استغلالها للشعب حداً كبيراً، ولا هدف لها غير توفير الأرباح الفاحشة لحفنة من كبار الرأسماليين».

- «إن جموع الأمة عاقدة العزم على تغيير الأوضاع الاجتماعية».

- «إن القوانين فى معظمها لمصلحة الرأسمالية».

- «الناس سواسية كاستنان المشط».

- «يجب على الطبقات الشعبية أن تقوم اليوم بالدور الرئيسى فى الحركات الوطنية، لأن الطبقات الحاكمة الحالية تتعاون مع الاستعمار».

- «إن سوء توزيع الثروة القومية يتطلب إعادة توزيع الأرض، ومنحها للفلاحين فى شكل ملكيات صغيرة، وإنشاء نظام تعاونى».

- «إن الشرق يتحرر، لا بالمهادنة والاستجداء، ولكن بالعنف والثورة.. وفى مصر ثورة تأخذ نيرانها فى ازدياد كل يوم، بل كل ساعة».

أكمل قاسم تقريره بأن أورد أبياتا للشاعر كمال عبد الحلیم استشهد بها صدقى لیبين خطورة الموقف، ومنها :

يا أخى تنعم الكلاب لدى القوم ونشقى، فيالها من مضحكات
أطلق الثورة التى تسكن الصدر وجفف دموعك الماضيات
هى حرب الحياة، أمسا حياة أو ممات بكل معنى الحياة
سكت قاسم وقد نال من صوته شىء من الإنهاك.

قال فتوح منفعلاً :

- حيوان..! هذا الشعر كلام فارغ، إنشا، تهريج، من هذا الشاعر؟
أليس من أنصار القمع الستالينى الذى يمارس حتى الآن فيما يسمونه

«المعسكر الاشتراكي». أنا أرفض الاستماع إلى شعر مزيف، وركيك أيضاً، وإلى شعارات جوفاء.

قلت، أكرر ما قلت من قبل:

- هذا كله عظيم، ولكنه تجريد وتعميم. كيف نحول هذه الشعارات إلى واقع فعلى؟ كيف تصبح أعمالاً وليس مجرد نداءات وتقريرات مهما كانت صحتها تظل كلمات وعبارات.

وهل كنا نعرف عندئذ أنه سوف يأتي يوم ترى فيه مصر هذه الشعارات (التي لم تكن نرضى بها تماماً لأننا نريدها فعالة ونافذة ومتحركة) كأنها من بقايا عصور بالدة، وربما من تخاريف متهوسين متطرفين لا يعرفون معنى «الواقعية»، و«المصالح الحقيقية»، يوم نجد فيه أن أخبار البورصة تأتي قبل كل شيء آخر، وأن الشعارات السائدة قد أصبحت «أنت متميز»، «أنت من النخبة».. «أنت من الصفوة».. «أنت وحدك خاص»، أما المساواة والعدالة والحرية فهي أضغاث كلام..

في تلك الليلة هبت العاصفة المعتادة من الجدل والصياح. ولكن أمكن كبح جماحها، تآزر على أبو الليل مع فتوح القفاص في ثورة صاخبة، لكن صوت الاتزان جاء من عبد القادر وعبد الفتاح، ولأد أحمد النمى هذه المرة بصمتٍ حكيم.

كان قرار اللجنة ليلتها: العمل بكل الوسائل على تأييد الحركة الوطنية ومساندة الوطنيين المسجونين على ذمة قضية ملفقة لا تقف على ساقين.

لن تنتهى ثنائية - أو تعددية - الأنا المتقلب فى داخلى. هانذا فى القاهرة أكتب فى ١٠ يناير ١٩٤٧ إلى أمى فى الإسكندرية، بكل

الإكليسيات اللفظية والفكرية وفي غير تخرج من العامية والأخطاء
اللفوية :

«والدتي المحبوبة

أرسل إليك سلاماً أعطر من الورد وشوقاً صادقاً، وأتمنى لكم جميعاً
خير صحة وأحسن حال .

وصلني خطابكم صباح اليوم، ووصلت النقود بكاملها .

قابلت الدكتور حماد أمس مرة ثانية أما صحته فحسنة على العموم
بعد الحادثة التي مرّ بها والجرح بسيط، وهو يذهب لعمله كالعادة
وكل شيء . ولكنه لم يذكر لي حكاية رئيس الوزراء ووعدته بأن يجد
لي عملاً وإنما قال إن رئيس الوزراء مشغول جداً ونصحني بالذهاب
لجريدة «الكتلة» وغيرها . قابلت جماعة «الأهرام» فحوّلوني على
مجلة ثانية اسمها مجلة «الدنيا الجديدة» ولكن قالوا لي إنهم لا
يريدون محررين ولا حاجة فما فيش فائدة من ناحية «الأهرام» .

وقابلت مدير جريدة «المصري» فقابلني مقابلة جيدة وأخذ اسمي
وعنواني ووعدني بأنه سيكتب لي في الإسكندرية .

وذهبت أيضاً لجريدة «الكتلة» وكانوا معي أظرف والطف وأخذوا
الاسم والعنوان ووعدوني بأنهم سيكتبون وقالوا إنهم بحاجة فعلاً
لمحررين مثقفين، أما الجرائد الأخرى «أخبار اليوم» و«آخر ساعة» كانوا
أولاد كلب، ولا فائدة منهم، وذهبت لمجلات «الهلال» و«المقطم»
وطلبوا أن أكتب طلبات وقد كتبتها وسأذهب لهم بها مرة ثانية
صباح باكر .

(تري هل كنت سأصبح صحفياً يبيع قلمه أو يعيش على معارضة
مدينة للنظام؟ أكان هذا متصوراً؟ هل حدسوا أنني خامة لا تصلح؟)
والهم أنه لو كنت تقابلين الدكتور حماد في إسكندرية فحاولي نقولي
له أن يكلم واحد محامي ولا أكثر في إسكندرية فأحسن حاجة أن

الواحد يتمرن ولو بماهية بسيطة في الأول فإذا كان هذا ممكناً فيبقى
أفضل بكثير وسأذهب أنا من هنا لبعض المحامين بإذن الله .

وكذلك إذا وصلتني خطابات لإسكندرية فحوليتها من هناك من غير
ما تفتحها يعنى بنفس ورقة البوستة القديمة لعنوان بشاره، يعنى ما
تستلموهاش وقولوا لساعى البوستة على العنوان الجديد ٢٨ شارع
مراسينه السيدة زينب، وعلى العموم لازم تكتبوا لى وتذكروا
أحوالكم بالتفصيل .

أما قرابى فكانوا فى مصر لأن زكى أفندى عنده مأمورية فى مصر
ستنتهى غداً ويسافر إلى أسوط أما شاكر أفندى فإنه اتنقل فى فرع
شركة بيع المصنوعات فى مصر، وزاخر أفندى موجود هنا وهو
بيشتغل مدرساً فى المدرسة الإلهامية الابتدائية للبنات ومستريح
والحمد لله .

عمتى أرسلت لك سلامها فى الجوابات التى فاتت وهى على كل حال
سألتنى كثير عنكم وشرحت لها كل حاجة وهى تدعونا باستمرار
وصحتها جيدة وتهديكم أرق سلامها . بشاره أفندى وقرينته
يهدونكم السلام ونبيل مريض شوية صغيرة وابتداً يتحسن .

أما أنا ففى شوق شديد لكم وقلق كثير عليكم . ولن أنتظر هنا أكثر
من يوم الاثنين القادم سأقوم فى قطر الساعة ٧ وأوصل الساعة ١١
مساءً، لأننى لا أرى فائدة أكثر من هذا وأننى أقوم بكل جهد فى سبيل
الحصول على عمل .

وقبلاتى لهناء ولويزة وإيزيس ولك يا والدتى العزيزة أرق سلام
وتحياتى لستى وللجميع .

ولدك المحب

(مخاء)

وأختي المحبوبة الست أم امرأة أخى المرحوم
أهديك تسليماتي القلبية وأشواقى الحارة راجية لك مع الآنسات
المحوبات كل صحة وسعادة وبعد :-

حضر طرفنا الابن العزيز وكم سررنا به جداً وكم كنا نكون سعداء لو
كنت حضرت أنت والآنسات ، وإننا ندعو له من الله أن يوفق له
بمعيشة مناسبة له هنا فى مصر حتى نحظى بقبولكم علينا والله يعمل
له ما فيه الخير ، ليتك تحضرى وتشرفينا ولو يومين قبل سفر الباشا
ونرجوك عدم إزعاجه بالإلحاح عليه بالحضور إلى أن يتم له الله بالخير ،
من هنا بشارة أفندى وأنا والست رومة بخير وبلبل كان منحرف شوية
ولكن متحسن شوية . رومة تتمنى لو تزورينا والآنسات المحوبات
ونهدىكم أزكى السلام وكذا بشارة أفندى والجميع يهدوكم أزكى
السلام وسلامى مع حار شوقى لك والآنسات ودمتو .

اختك

أم بشارة

عدت إلى البيت فى شارع راغب ، وفى الشارع سمعت آخر أغنيات
أم كلثوم تصدح ، وتصوّرت شدوها يتدلق فى فسحة بيتنا من الراديو
الضخم ذى العين المستديرة الخضراء الذى اشتريته أمى بالتقسيت كل
شهر عشرين قرشاً .

ليه تلاوعينى وأنت نور عينى

إيه جرى بينك فى الهوى وبينى

ليه تحاورينى والفؤاد سلم

واحتمال بُعدك أمر مش ممكن

كانت أمى وأخواتى البنات فى سابع نومة ، كما يقال ، وقد تركت
لى على المائدة الرخامية فى الفسحة عشائى : سمكتين بلطى مقلّى بارد

ورغيف عيش بلدى ، فى طبق واسع فيه شوكة وسكينة مُغطى بفضوطة نظيفة . كانت تقول «لا أعرف كيف يأكل السمك بالشوكة والسكينة ولا يترك منه إلا شوك الظهر والديل وعضم الرأس بعد ما يمصمه» ، كان البلطى المقلّى بنى اللون باهت الجلد بعد أن صُقّى زيتته تماماً ، وخرزة العين سوداء محدّقة ، على الرغيف الطرى الغامق عليه هبوة من ذرور الرضة يفتح النفس

الغرام أصله نظرة واتمكن

والجمال يسحر والدلال يفتن

الصوت شجى وحزين ، وموسيقى القصبجى مناسبة بشجن سهل عيس القلب بنوع من بساطة الأسى .

وجدت على مكتبى ، بين الكتب الثورية وكشاكيل قانون المرافعات والقانون الجنائى ، جذاذة مكتوبة بالآلة الكاتبة بالفرنسية كان عمرها عندئذ ثلاث سنوات فقط ، هى دعوة لحفلة كونسير موسيقى مسجلة فى مقر جمعية الثقافة الحديثة ، ٢٦ بوليثار سعد زغلول يوم الجمعة ٨ يوليو ١٩٤٣ حيث يتكوّن البرنامج من رقصة أورفيوس موسيقى جلوك وأمامها كلمة «جهنمية» بخط يدى ، والسيمفونية رقم ٣٥ مقام رى كبير ، موسيقى موتسارت ، وكلاهما من عزف أوركسترا نيويورك الفيلهارموني بقيادة أ. توسكانينى ، ثم سوناتا ضوء القمر لبيتهوفن من عزف بادرينسكى على البيانو ، وأمامها بخط يدى كلمة «بديعة» .

لما معنى أنى أجد هذه الجذاذة الآن ، صفراء ذابلة ، تحتفظ مع ذلك بعبق نضارة لا تبلى ، بعد سبع وخمسين سنة كأنها لم تمس وكأننى أصفى الآن إلى الموسيقى الإلهية ويتزلزل قلبى بها لأول مرة ؟

لماذا يتزلزل قلبى الآن ، بعد كل هذه السنين ؟

موسيقى تنسكب كالدم .

مازلت أسمع الموسيقى المسجلة من أسطوانات تدور على قرص جهاز

الفونغراف الكبير القابع في وسط قاعة فسيحة منسّقة غير مزدحمة ولكنها مونقة بجمع أنيق حسن الهندام منمّق الكلام بالفرنسيّة والعربيّة.

مازلت أذكر كيف أن ذلك الفتى في السابعة عشرة من عمره، خاماً، بكراً بمعنى ما، ومواراً بقوى لا يعرف تماماً مدى سطوتها، قرأ في هذه القاعة، على عدد قليل من المثقفين الشوام والمصريين، مسودة قصّة كان عنوانها أولاً «الأحذب» ثم «مخلوف»، ونُشرت بعد ذلك تحت عنوان آخر في أول مجموعة قصصيّة له، وكيف أعجبوا بها، وأثنوا كثيراً على رؤيته للريف المصري، كما أثنوا على لغته العربيّة المتميّزة، كما قالوا..

فمهما أخلصتُ عندئذ أحلى سنوات الصبا للعمل الثوري، غير نادم بل معتزّ به - فقد كنت أرقن، كما قلت لقاسم إسحاق، أن رسالتي الحقّة - إن كان ثمت - هي في الفنّ.

هل أصنع فناً من جذاذاث الحياة؟

أم أن الحياة منذورة للفنّ؟

الفصل الثالث عشر

فى ليلة ١٠ فبراير ١٩٤٧ توقعت أن البوليس سوف يهاجم البيت رقم ٧ شارع العباسى، محرم بيده، بدأت ألاحظ أن المخبر السرى بزيه الرسمى المعروف، لا يكاد يفارق ناصية الشارع، فى أى وقت من بعد الظهر حتى ما بعد منتصف الليل.

مازلت أعتز بذكرى هذا البيت تطوف به صور حية منه - مثل بيت شارع الزهرة، وبيت شارع ابن زهر، ثم بعد ذلك بيت الشعرى اليمانية الذى لا ينسى.

كان البيت غاصاً بأوراق وصحف وكتب متناثرة، على المكتب فى غرفة عبد القادر وعبد الفتاح التى كنا عادة نجتمع فيها، وفى الغرفة الأخرى الكبيرة التى تشغل جانباً منها كنية اسطمبولى كبيرة تجلس عليها الست أم عبد الفتاح، هادئة وكينة فيها رسوخ أمهات حقب طويلة من ستات مصر اللائى يصعب أن تضعهن فى طبقة اجتماعية معينة لأنهن يتجاوزن الطبقات وكأنهن يتجاوزن التاريخ نفسه، وعلى هذه الكنية نفسها كانت تحية أخت عبد الفتاح وعبد القادر تجلس إلى جانب أمها إذا فرغت من الترحيب بنا وتقديم الشاى لنا وأحياناً سندويشات الجبنة أو سلطانيات الزبادى بالقشدة السميكة على سطحه والرز بلبن الذى نجد فيه حبات الزبيب البنى الطرية أو الصنوبر العاجية هشة الكسر، كانت تحية سمراء صافية السمرة وخفيفة الحركة مبتسمة وتشع منها روح الأخت الصافية. وكانت - ومازالت - تذكرنى أختى عابدة.

ليلتها قررت أن «أطهر» بيت العباسي من كل ورقة تحمل الإذانة أو حتى تشير شبهة.

لبست بالطو المطر الأزرق الداكن الواسع العتيد (لم أفترق عنه إلا بعد أن أو شك أن يتهرأ، كنت متعلقاً به كما يتعلق البدائي - ربما - بطوطم أو تعويذة.)

وعندما مررت بالمخبر الرسمي لم أعره أدنى اهتمام.
دخلت وبدأت عملية التنظيف.

لمت الكتب التي أخذناها من مكتبة شوارتز والكتيبات العربي والإنجليزي من بين كتب الطب ومراجع الفلسفة وعلم الاجتماع وكشاكيل عبد الفتاح وعبد القادر. لم يكونا في البيت، وأعطاني ذلك حرية أكبر في إتقان عملي.

خرجت إلى غرفة القُعاد أو غرفة المعيشة، استأذنت الست أم عبد الفتاح وتحمية أن تسمحالي بالبحث، فلم تمنعنا بقليل من الدهشة وكثير من الشقة، فقد كانتا تعرفان مدى حبي للأخوين وحرصى على سلامتهما، وخاصة بعد أن قبض على عبد القادر وأودع سجن الأجانب أربعة أيام على ذمة قضية المظاهرة التي حفظت بعد ذلك على أية حال.
ركعت أمام الكنية الاسطمبولي، وزحفت تحتها تقريباً، مددت ذراعى في الفجوة بينها وبين الأرض، وأخرجتها بكومة من صحف «الدبلى وركر» وكتيبات لينين.

ألقيت نظرة فاحصة على غرفة السفارة، ودخلت المطبخ وبحثت في الحمام والتواليت، وجدت نسخاً شاردة من بياناتنا ومنشوراتنا الثورية، مع «الدبلى وركر» و«صوت الأمة» و«الجماهير» و«أم درمان» جمعتهما كلها، دسستها في جيوب المعطف الأزرق الداكن التي طالما حملت الكثير، وخرجت في برد ليلة فبراير وعبرت الشارع. كان المخبر السرى يراقبنى بعين متربصة، خطا نحوى خطرة واحدة ثم توقف، لم ينادنى،

لم يستوقفنى، وكنت أنا قد مررت به وتجاوزته إلى الشارع الجانبى
المفضى إلى شارع محرم بيه.

وبعد ذلك كان طريقى سهلاً إلى غرفة شارع الزهرة. لم يكن يتبعنى
أحد، وكانت الشوارع خالية وهادئة بل وموحية بنوع من الجمال،
الأشجار الوارفة أنيسة ومدفئة، والترام يتهادى بين الحين والحين منيراً
وليس فيه إلا قلائل من المتعبين الذين يغالبون النوم فى طريقهم إلى
بيوتهم.

فى الطريق إلى شارع الزهرة مررت أمام بيت كامل الصاوى.

طالما دخلنا فى مناقشات وطرحنا أسئلة فى بيت العباسى.

كان عبد الفتاح قد ترك كلية التجارة، وأغلق محل الألبان فى شارع
محرم بيه، بعد أن ماتت تحية، فجأة، دون مقدمات، كما كانت عابدة
أختى التى لم أنسها قط قد ماتت فى سنة ١٩٤١، ولما سألته بعد ذلك
بسنوات طويلة، لماذا ترك كلية التجارة؟ لماذا أولاً وقبل كل شىء، انضم
إلى جماعتنا؟ قال إن موت تحية هز قلبه هزاً - ألم أكن أعرف أنا معنى
ذلك؟ - وإنه التحق بكلية الآداب، قسم الفلسفة بالذات، حتى يبحث
عن إجابة لسؤال ما الموت؟ ولماذا؟ وما الشر؟ ولماذا؟ وانضم إلى
جماعتنا لكى يحاول أن يجد معنى للظلم؟

الظلم هنا أكبر من مجرد التفاوت الطبقي الاجتماعى، الظلم - كما

قال - له معنى أشمل وأعمق من هذا، هل هو معنى الظلم الميتافيزيقى؟

قلت له: وهل وجدت إجابة على الأسئلة؟

قال: وأسفاه.. لا.. لا أجد إجابة إنما قد أجد تبريرات.

قال: أما الموت، فلا أعرف ما يحدث فيه، أو بعده، لا أحد يعرف.

قلت: لا يحدث شىء.. خبرة الموت هى خبرة توقعه وانتظاره

والرجم بالظنون حوله، خبرة الموت الفعلية لا يعرفها أحد، لعلها تشبه

خبرات لحظات من المرض البرح، حينما ينطوى الجسم والعقل على

الألم، خبرة مجالدة الألم، كل شيء آخر بلا معنى، الخوف من الموت طفلي وغير جدير بالإنسان الناضج عقلياً، ما من أدلة في هذا السياق.. كل تخمين، كل تصور، هو ضرب في المجهول الذي يظل مجهولاً إلى ما لا نهاية.

قال: والإيمان؟

قلت: نعم. لاشك الإيمان مريح، الاستكانة إلى الإيمان والركون إلى ما يعد أو يتوعد به، مريح، ولكن اسمع لي، أنا شخصياً مع احترامى الكامل للإيمان وأصحابه لا أعرفه ولا أطمئن إليه، أنا، كما يقول العقل، لا يرو عنى القلق ولا يخيفنى المجهول. لكل دينه، على عيني ورأسى بلا شك، أما أنا فدينى هو ما يمليه العقل وحده، والفكر المستند إلى أدلة منطقية لا تدحض أو إلى تجارب ثابتة لا تنكر. دعنى إلى قلقى المستمر، خلتنى فى هذه الثورة الدائمة، لا أستطيع أن أستنيم إلى ما هو مريح وجميل. قلقى وسؤالى لا يريم..

قال: يا عزيزى أنت لم تفعل إلا أنك استبدلت إيمانا بإيمان.

قلت: لا، ليس إيماناً، بل منهج رؤية ومنهج عمل - أو منهج حياة - موضوع دائماً للنقاش والسؤال، وحتى الشك فيه مشروع أحياناً - بل دائماً - وضرورى، وليكن شكاً ديكارتيّاً أو شكاً نهائياً لا حل له. لكن ذلك لا يعوق عن العمل، عن الفعل الثورى - وعن الفعل الفنى فيما بعد - لا لحظة ولا طرفة عين.

فى حوارٍ دار بعد كل تلك الحكاية بسنوات طويلة قال لى: أمازلت تؤمن إيماناً راسخاً بأن رأس المال سرقة متصلة وافتئات على العمل؟ قلت: نعم.

قال: تؤمن بأن رأى الناس جميعاً فى السياسة جدير بالاعتبار؟ قلت: نعم. حتى لو لم يكمل إعدادهم وتأهيلهم بالثقيف

والإعلام، حتى لو تركوا وفطنتهم الفطرية، بل خصوصاً وأساساً إذا تركوا يقررون بأنفسهم دون تضليل أو إغواء. حكمهم عندئذ سيكون صواباً، وقد صدر عن حرية أساسية لهم، على أية حال .

قال: وما زلت تدين الممارسات والجرائم القمعية الكبرى التي اقترفت في أول دولة تطبق النظرية؟

قلت: بل ثبت ما كنت أتنبأ به - وبناءً على استقرار موضوعي - كما تعرف، الانحرافات الجسيمة، البيروقراطية العلوية، ديكتاتورية القلة أو عبادة الفرد، كان ذلك، كما كنت أقول منذ أكثر من خمسين عاماً، هو ما أدى إلى انهيار الدولة وليس انهيار النظرية أو أساساً ليس انهيار الشوق إلى العدالة وإلى الحرية.

قال: نعم، ما زلت أذكر أنك على رغم إيمانك بالنظرية وحماسك لها، كنت دائماً تقدر آراء الآخرين.

ضحكت وقلت: هل تذكر فتوح؟

قال: طبعاً، كيف يمكن أن أنساه؟

قلت، متذكراً بنوع من الحنين: كان ينحاز لباكونين وللفوضوية التي تنتفي فيها كل قطعية وكل سلطة فوقية، وكان يحمل على ماركس المستبد برأيه الدوجماتيقي القاطع في حتميته. ولكني لم أكن أضيق به، بل ربما كنت أميل إليه قليلاً، كنت - كما تذكر - أفضل أن تدور اهتماماتنا، في حينها، حول تنظيم مظاهرة أو كتابة بيان لتأييد مظاهرة أو إضراب في مصنع.

سرح عبد الفتاح ببصره قليلاً.

قال بنوع من النوستالجيا: في مستقبل العمر كنت ثائراً لا تهدأ ولا تبالي بالمخاطر الجسيمة التي تتعرض لها أنت وأسرتك.

قلت: أظنني ما زلت ذلك الثائر القديم نفسه وإن تغيرت الطرق والمسالك.

قال : كنت أخاف عليك وعلى أسرتك ، ألم تكن أنت العائل الوحيد
لأمك وأخواتك بعد وفاة والدك أثناء دراستك ؟ كثيراً ما تحدثت معك
في هذا الشأن .

قلت : كنت أغير مجرى الحديث .

قال : أو تلوذ بالصمت كعادتك دائماً عندما لا يروق لك الحديث ،
وكانك تقول لي في صمت ، وهناك ما هو أهم بكثير من الحياة ومن
الدراسة الجامعية ، ومن لقمة العيش للأسرة . هناك كرامة الإنسان ،
وهناك كرامة الوطن .

قلت : مازلت ذلك الطفل الذي وكم بكى طول عمره ، تحت غطاءه
بنفس حس افتقار العدالة له ولوطنه وناسه ، وللفقراء والمساجين
والمضطهدين والصامتين وللآخرين . . . وكم دفع فادحاً ثمن الأحلام ،
نظر إلى عبد الفتاح نظرة حُبٍ يمكن معه أن يتسامح إلى أبعد حد مع
نزواتي العقلية .

كان عبد الفتاح قد أودع السجن في قضية لا تقوم على ساقين ،
وأفرج عنه بلا محاكمة ، كتب لي ذات مرة يذكّرني بما قلت له من أنه
ظلّ يعيش سنين طويلاً ينتظر شيئاً مجهولاً يغير مجرى حياته : كشفاً أو
إلهاماً قال : ذلك حدث .

عرف وأحب المرأة التي سوف تشاركه عمق الحياة بمسراتها وآلامها .
كتب لي : الحبّ حلّو حلّو وأنا سعيد جداً وفرحان ، من زمن
بعيد لم أكن قد عرفت الفرح ، هي حلوة جداً وجميلة جداً وأحبّها .

سافر إلى فرنسا وحصل على الدكتوراه في الفلسفة من السوربون
وعندما عاد كان في مجرد نظرتة وطريقة كلامه ما ينم عن تغيير أساسي
- بذرتة كانت كامنة بالتأكيد حتى ازدهرت في مناخ الفكر والدّرس
العميق - وجهه الأسمر الوسيم اكتسب مسحة من التحضّر والتأمل
وشيناً من الحزن مع إقبال على الحياة غلاب كأنما استوعب وتمثّل - حتى

دون أن يدرك ذلك بوضوح كامل - ما فى مصر العريقة من تراث لا حدّ لشرائه وتطلّع إلى آفاق لا حدّ لاتساعها - وتقلّبت به صروف العمل - كما تتقلّب بنا - درّس الفلسفة اليونانية ورأس أقسامها وشغل مناصب أكاديمية قيادية فى جامعات الإسكندرية ودمشق والرباط، حكى لى حكايات عن عمله فى محاربة الفساد والتزوير فى الجامعة ومحاربة العشيقات أو العشيقات المُحتملات وبيع أطروحات الماجستير والدكتوراه لطلبة الخليج مقابل المبلغ المرقوم المعلوم، كلها أفعال يقترفها - دون أن تطرف لىم عين - أساتذة لىم أسماء مرموقة وشهرة مستطيرة، ولهم أيضاً إسهامات علمية مذكورة أيا كانت قيمتها .

حكى لى أيضاً حكايات عن غرامياته الصبيانية فى القرية، دفع به أبوه إلى الإسكندرية لىنأى عن حبيبته البنت الفلاحة الجميلة، كان فى صوته بعد أن جاوز السبعين نبرة تهدّج وحرارة ابن العشرين وهو يستعيد حبّ صباه التى تزوّجت وخلفت وعندما عاد إلى القرية سأل عنها ورحبّ به ابنها الفلاح الذى استأجر منه أرضه من الباطن وقام بزراعتها له طيلة سنين من غير أن يراه وجها لوجه .

عزم عليه الرجل الفحل ابن حبيبته القديمة بالشاى والغدا ودخل معه إلى غرفة البيت الكبيرة حيث كانت أمّه تجلس على الثلثة، سيّدة ممثلة الجسم تصبغ شعرها صبغة ذكية، وجهها مازال مثل القمر مثل لهطة القشطة، انحنى عليها عبد الفتاح وفعل ما لا يفعله أحد فى ريفنا، قبلها فى جبينها وقلبه يخفق كما لو كان مازال فى عزّ الصبا، وعندما سمع صوتها وهى تقول الحمد لله ع السلامة يا عبده، عاش من شافك، اختفى الزمن، لم تكن قد انقضت تلك السنوات، لم تكن قد جاءت أصلاً، عاد إليه حسّ جسمها الصبى الفتى وهو يحتضنها وراء الطاحونة التى تدقّ دقائقها الرتيبة فى عتمة أول المساء، وثمّ كلاب تنبح من بعيد، وأصوات الفلاحين العائدين بماشيتهم قد خفتت، وضعت قفّة الطحين

على الأرض، وما زال على طرحها ذروره الأبيض، وشم، من جديد، كأنه لم يفارقه لحظة واحدة، فوح دقيق الذرة والحلبة النفاذ الذي ظل طول عمره كلما هبت عليه رائحة الحلبة، يهيجه ويدفع الدم فوراً إلى قلبه.

قال لي: لا، لم أجد معنى للعدل قط، العدل بالمعنى المطلق الذي تبحث عنه وتريده أنت، لم أجده، لا في موت تحية، ولا في حرمانى من حب الصبا الذي لا يعوض، العدل نسبي شأن كل شيء في حياتنا، نحن نتوق لمطلق الأمور لكن لن نجد إلا نسبيتها.

قلت: من غير نشداننا مطلقها لن نجد معنى حتى لنسبيتها.

ومع هذه النسبية لماذا الشر؟ لماذا الألم؟ لماذا يتوجع طفل لم يقترف ذنباً أوجاع المرض والجماعة والموت؟ لماذا يقوم هذا الوحش، وحش الألم، وحش الظلم، وحش الموت، يلقي بظله الأسود على حياتنا؟ سوف نقهر هذا الوحش يا عبد الفتاح سوف نقهره.

فهل كان ذلك الإيمان بعض ميراثى من صراعى مع الأرثوذكسية القبطية التي أظن أننى رغم جحودى بها لم أبرأ منها قط.

قضيت أياماً فى بيت عمى ديمارس بالقاهرة، فى مناخ مسيحي كان ثقيل الوطأة على الفتى الذى أسقط عنه - فيما ظن - شرنقة الإيمان بالموروث.

أما فى بيتنا فى الإسكندرية فقد كانت هذه السحب الراححة قد خفت وشفقت كثيراً، لم تكن عائلتى الصغيرة قط قوية التمسك بالعقيدة ولا بتصوراتها وطقوسها.

أما فى بيت عمى فقد كانت امرأة ابنها بشارة تنتمى إلى الإصلاحيين البروتستانت المتشددين، على عكس ما كان فى بيتنا من تسامح بل تراخ فى الممارسات الدينية، إلا فى مناسبات الأعياد، وعيد الملك ميخائيل، حيث البهجة بالحياة تأتى قبل الانصياع للعقيدة.

تلقيت بعد عودتى من رحلة القاهرة - بحثاً عن مورد للرزق - رسالة

من الست رومة زوجة بشارة أفندي ابن عمّتي ، عندما أقرأها الآن أعرف الفرق بين المناخين . وأعرف ازدواجية أظن أنني لم أتحرر منها قط .

١٩٤٧/١/٢٧

حضرة المحترمة والفاضلة الست امرأة عمي دامت بخير
أبعث إلى شخصك المحبوب عاطر سلامي وعظيم شوقي وأرق تحية راجية
لك مع أفراد الأسرة الكريمة كل صحة جسدية وبركة روحية وبعد
أعرف حضرتك يا ست امرأة عمي إنه منذ أسبوع أو أكثر وأنا أشعر
بصوت الربّ يأمرني ليلاً ونهاراً بأن أرسل لك حوالة مالية مثل التي
طيه ولكنني أهمل هذا الصوت وأعتقد أنما هذا إلا مجرد مشاعر تجول
بخاطري ولكن اشتد الصوت عليّ بالبحاح قائلاً لا تعصى لا تهملني
حتى أنه من كثرة نداء الصوت بقيت مرتبكة ولا أنام الليل ولا النهار
علماً بأنه نسبة لتعبني في عمل المنزل حالما أضع رأسي ليلاً حالاً يهجم
عليّ النعاس بالرغم من أن أكون غير مستريحة في النوم بالنسبة
لترضيع سهير أو أكون مكشوفة فأنام إلى الصباح أو يوقظني بكاء
سهير فلما وجدت هذا القلق الشديد لم أجد بداً من أن أكون مطيعة
لهذا الصوت الرقيق اللحوح وإنني لا أدرى سرّاً لهذا ولكنني واثقة تماماً
أنك أنت تعرفين السبب في ذلك ومما كان يؤخّرني في تنفيذ هذا
الطلب أنني لم أكن أتعود أن أكتب أية رسالة سرّاً ولا حتى لوالدي ،
والسبب الثاني هو أنني لم أكن متأكدة أن هذا الصوت من الله ولكن
وضعت أمامي عدة اختبارات لأعلم إذا كان منه أم لا فكانت جميعها
بالإيجاب ، فلذا أنا فعلت ما أمرت به وأرجوك كل رجاء بأن تكتفي
هذا السرّ تمام الكتمان وأن لا يتعداني وحضرتك و..... أفندي
الذي الخطاب باسمه ، وإنني يا ست امرأة عمي أرجوك كل رجاء أن
تلحني على الأخ أفندي بأن يقترب إلى الله ويقدم له شكراً
على مساعدته له في كل الماضي وعلى مساعدته في إتمام مراحل

الدراسية على أحسن حال وعرفيه أنه بقربه لله لا يحس شيئاً مطلقاً ولكن يملك السلام ويشعر بفرح دائم ولذة تفوق كل لذة وأن قربه لله وصلاته له بإيمان تقضى كل أمر عسر، وعرفيه أنه ليس عدم إدراك العقل أمراً هو الدليل على عدمه أو أنه محال، فالله موجود وعظيم جداً جداً، ولا تقتصر يا أفندي أن تنظر إليه من أعالي بنائه من بعد بعيد فتجد عليه عز وجل اعتراضات كثيرة لجهلك أصوله العميقة وأسس الوطيدة الراسخة وتعجب من نفسك ظاناً أنك حزت الغلبة حال كونك مغلوباً، بل تعمق في الدين واختر الله ومواعيده الحلوة وسلم له قلبك تسليماً كلياً وجزئياً وكذا أمورك كلها وهو يتولاها. وأسرع يا أخى ولا تتأخر، جربه، صل له بإيمان كاف واطرح أمامه كل شيء وهو يقول اسألوا تعطوا اطلبوا تجدوا اقرعوا يفتح لكم من آمن بي لا أخرجته خارجاً. اليوم يوم خلاص إن سمعتم صوته لا تقس قلوبكم واعلم يا أخى إنه لو لم يكن الرب جلّ وعزّ حتى وموجود لكان نسخ كتابه ولا يخفى عليك أن هذا الكتاب الإلهي الأقدم من كل ما كتب في العالم موجود بأيدي العبرانيين اليهود باللغة التي أنزل بها طبق ما هو بيد النصارى بلغات مختلفة الأسماء ومع كونه باعتبار نبواته يضاد اليهود في إنكارهم المسيح وكفرهم به ويضاد كثيراً من فرائض وطقوس أكثر المذاهب النصرانية مع ذلك لم يقدم هؤلاء ولا أولئك على تغيير أو تبديل شيء من نصوصه بحيث يكون على نوع ما موافقاً لآرائهم واصطلاحات عباداتهم فلا جرم أن ذلك من أقطع الأدلة على كونه محفوظاً أبداً بيد من أنزله تعالى من التلاعب فيه رغماً عن كل مقاوميه ومضاديه، فإذا كان كتابه محفوظاً إلى هذا الحد البعيد في كل المقاومات والاضطهادات والعصور والأزمنة مما يثبت قوة صاحبه فاستيقظ يا أخى وتسلح بسلاح الله الكامل لكي تغلب واعلم أن محاربتنا ليست مع دم أو لحم بل مع قوات وسلاطين أي مع إبليس وجنوده، فالله القادر على كل شيء

يضمك إلى حظيرته وليمجّد اسمه فيك وبك ، يسرني كثيراً جداً لو كنت ترسل وتستعير منا كتاب «الباكورة الشهية في الروايات الدينية» الذي لدينا وقد كنت عرضته عليك وأن يكون هذا من رغبة داخلية فيك أنت لأنى أرى أنه خير مرشد لك والله يتولأك وحده .
يهمنى جداً أن أطمئن على وصول هذه الرسالة فأرجو أنه إذا وصلت الحوالة والخطاب يكتب أفندى خطاباً لبشارة أفندى ويقول له إنه فاتنى أن أسأل عن صحة بلبل فى الخطاب السابق فأعلم من ذلك أنه وصل ووصلت ما بداخله وإن لا سمح الله لم تصل ما به أرجوه أن يكتب خطاباً فيه يقول أرجو إذا كان وصلت لديكم خطابات باسمى إرسالها ، فمن ذلك أعلم بعدم وصول الحوالة وأرسل لكم نمرتها وقسيمة الحوالة . من هنا الست امرأة عمى وبشارة أفندى وبلبل وأنا وسهير وزاخر أفندى وأسرتهم بخير نهدىكم جميعاً أذكى السلام والشوق ودمتم .

ابنتك المخلصة

رسالة فخري

لا مؤاخلة لرداءة الخط لأنه كتب بسرعة
أرجو تمزيق هذا الخطاب وأكون شاكرة وممنونة جداً ثم أرجو أيضاً كنتم هذا الخطاب نهائياً وشكراً .
ملحوظة : الرجاء مراعاة الحرص فى الأ يعلم بشارة أننى قد كتبت لكم دون معرفته وطبعاً يتألم أننى كتبت رسالة دون علمه لأى أحد بل يكون الرد مثل ما عرفتكم وشكراً
كم يسرني أن تزوروا كنيسة نهضة القداسة (الإصلاح) حيث دائماً مملوئين بالنعمة والبركة والسلام الروحى .

لماذا لم يمزق هذا الخطاب ؟ كيف وجد طريقه إلى هذه الحكاية كلها ؟

مازلت أرانى أسير فى الصباح الباكر الساكن، تحت سماء لؤلؤية،
إلى البيت القديم، أسير إليه، وأنا أحمل فى داخلى شوقاً عميقاً، وحساً
بانتماء لا ينفصم إلى هذا البيت، ولوعة لفقدانه.

أعرف أننى لن أسير إليه أبداً، لن أدخله مرة أخرى، أبداً.

خطواتى - فى هدوء الحوش، بعد أن أغلق خلفى باب الشارع
الكبير، تحت الجميزة العتيقة - لن تحدث.

أخطوها، مع ذلك، على الدوام، من غير وصول.

أعبر عتبة الباب الرخامية، حافتها الناعمة غاصت فى الأرض، عليها
نقوش كتابات هيروغليفيّة كادت تَمحى، ماثلة مع ذلك تستجلب
البركة تستصرخ الذكريات.

أعرف أنه على هذه العتبة الخفية مرّ من قبلى بيبى مارتان ومحمد
ناجى، راغب عياد، وكامل التلمسانى، أنور كامل وجورج حنين وفؤاد
كامل، موسكاتيلى وسند بسطا، كاترين سُرْسُق وبولا العلايلى،
خديجة رياض وإنجى أفلاطون وغيرهم ممن لا اسم لهم، هؤلاء الذين
عذبتهم أرواحهم وطوّحت بجسومهم النزوات والمعاشق، ومفازع مجرد
الوجود، وأنه هنا حُسمت مصائر أو عُلقت إلى الأبد دون قرار، رُسمت
أقدار وتجمّدت شطحات شعر هذا البلد.

لكننى الآن أذهب للقاء نادر وعزيز، لقاء رمسيس يونان.

الحوش كان دائماً خالياً، من غير وحشة، مكنوناً داخل الحيطان
السميكة السامقة، بأحجارها التى تضرب إلى الرمادى الفاتح، لون
قديم، نظيف، تظلله أشجار كافور وجزورينا عفيّة وارفة، تنفى عنه فجأة
كل ضجة القاهرة، وتضفى عليه سكوناً وسلاماً لم أجده فى أى مكان
آخر، ربما لأنه كان يعدّنى لكشفٍ ومعرفة وبصيرة لم أجدها فى أى
مكانٍ آخر.

أحجار السلالم عالية الدرجات، محصورة بين حائطين فى بئر السلم

الضيقة، تبشّرني، كائني أسمع من ورائها طنين حياة مليئة بالقوة والوعود.

وعندما يفتح الباب المحكم الوثاق، أخيراً، تهبّ على أنفاس البيت الهادئ حميمه وصافية.

زرتّه في الأربعينيات، الدور الثالث من البيت القديم، (٥) درب اللبّانة، الغرفة التي كان يقيم فيها رمسيس يونان عندئذ، كانت فسيحة، خافتة الضوء، لكنها كانت عبقة بحضور غريب من الأشواق والأهواء والصبوات التي لم تكن قد بادت بعد، شطحات العشق التي كأنها لن تندثر، المشربّة المنمنمة، مثل مشربّة بيت في شارع الشعري اليمانية، أو أصفر قليلاً، والمشكاوات القديمة من النحاس والزجاج مدلاة بسلاسل حديدية تهتز قليلاً من عوارض السقف الخشبية السوداء بين النقوش التي كادت تنطمس ألوانها، والشّلت الطرية ناعمة القطن على الحصير المفروش، وزوايا أركان الحيطان العريقة لها مهابة تومئ إلى جلال من أقاموا هنا، أحبوا وصنعوا الحب هنا، غامروا بالروح، ثم غادروا البلد وإن لم يتخلوا عن روحها - أو هكذا أظنّ.

هل وصلوا قطّ مع كل حرارة قلوبهم إلى روح هذه البلد؟

يومها، لا أنساه، لم ألتق به قطّ من قبل، ولكنه كان صديقي، منحوت الوجه، ضاوي الجسم، زيتونيّ المسحة من سمرة صعيدية لا تحوّل، ومتأجّج العينين السوداوين، يكلمني، ببطء، وعناية عن ضرورة مراجعة الماركسية - كنا في أواخر ١٩٤٦، وكنت منخرطاً حتى عمق كياني في حركة ثورية بالإسكندرية - حدثني رمسيس يونان يومها عن ضرورة النظر بعمق أكثر في وجهي الماركسية المتناقضين: التحرري والإطلاقي، وقال، بحزن، إنه سيغادر البلد هو أيضاً، بعد أسابيع قلائل، كان إسماعيل صدقي قد سجّنه أيامها مع جمهرة من أبرز وألمع المثقفين والكتّاب، كان منهم محمد مندور وسلامة موسى.

هُوجَةٌ لَمْ تَسْتَمِرْ وَلَمْ تَسْفِرْ عَنْ شَيْءٍ .

عاد مع ذلك إلى القاهرة بعد أن ضربت الطائرات الفرنسية والإنجليزية والإسرائيلية بورسعيد والقاهرة، رفض أن يذيع من باريس ما رآه إهانةً لبلده، واستقال من مورد رزقه هو وعائلته في الإذاعة الفرنسية، ترك بيته ومعاشه ومكانته، وأخذ بنتيه وزوجته الفرنسية بولندية الأصل، ولوحاته - لحسن الحظ - ورجع خاوي الوفاض كما يقال، إلا من إيمان - ساذج ربما وحاد - بوطنه، أعطاه الناصريون ما يقيم الأود من أحاديث إذاعية ثم ألحقوه بوظيفة مدير الشؤون التقنية في منظمة الشعوب الأفريقية الآسيوية، ثم منحوه تفرغاً لعدة سنوات، كانت أخصب سنوات عمره، أبدع فيها لوحات تحترق بلهب الصعيد ولهب صخور روحه - أين ذهبت الآن هذه اللوحات؟ - ثم سحبوا منه التفرغ، وهو أحد أعظم الرسّامين المصوّرين المصريين، وقالوا له، وهو الفنان الملهم والمثقف النادر: «ترجم أندريه مالرو صفحة بصفحة لكي تأكل خبزك يوماً بيوم»، فمات، قتلوه وهو في عز النضج، قتلوه، ببساطة، هكذا.

هل الفنان الرهيف والمفكر الشاقب، يسقط الآن في هوة النسيان المصري الذي لا يرحم.

أين لوحاته؟ أين هذا الكنز الروحي الآن؟

لماذا يحتفى الآخرون بكتّابهم وشعرائهم وفنّانهم، ولا ينسوهم؟ لماذا مصر تهدر أبناءها بلا حساب؟ لأنها ولّود خصيب، معطاء تثمر كل يوم عبقريات بلا حساب، فلا يهتمها إن ضاع منها هذا أو ذلك، مهما كان نادراً ولا يعرض؟ هل الخصب يعنى الهدر أيضاً، بالضرورة؟ كان من تصاريف القدر أنني حللت في وظيفته تلك في التضامن الأفريقي الآسيوي.

فى تلك السنة نفسها ١٩٤٧، كتب رمسيس يونان :
 «بعد ثلاثين سنة من ثورة أكتوبر، وبرغم تأسيس وانتشار الأحزاب
 المسماة ثورية فى كل العالم، لا تكف السبل الإنسانية عن ازدياد توغلها
 فى الظلمة، ويخيم على المستقبل ظلُّ أكثر شراً، وفى هذا يحكمنا
 اليأس، لكن لا يجب أن يميت هذا اليأس طبيعة الإنسان نفسها.
 وبانتظار أن يسبق وعى الإنسان رفضه لحياة الكلاب هذه، لا نزال
 نستمد من اليأس ما يكفى لتغذية نار التمرد فى أنفسنا، إننا نصرح
 بأننا مجانين، التجارب لم تعلمنا شيئاً، نحن لا نتغذى سوى من
 هذياننا، وهذا لا يحرمنا من بصيص ضوء، وإذا كنا نرفض أن نرى فى
 الفشل الحالى للحركات العمالية نهاية أحلامنا، فإننا لانزال مفجوعين
 بثقل هذا الاضطهاد المتشعب الذى لا يفتأ يتزايد يوماً بعد يوم.
 إن الصراع الطبقي لم يعد يجاوب على حاجتنا، إن غايتنا التى لم
 يسبقنا إليها أحد فى التاريخ، مع استمرار نضالنا من أجل مجتمع لا
 طبقي، هى فى رفض الانتماء إلى أية طبقة. إن الانتماء الطبقي فى
 نظرنا هو خيانة، وحدهم التمردون على طبقاتهم لهم الحق فى الكلام
 عن المستقبل. إن حالات أشخاص مثل ماركس، إنجلز، ساد، لينين،
 تروتسكى تؤكد ذلك. وهكذا نستبدل الصراع الطبقي بالصراع ضد
 الطبقات، أى صراع الذين خارج التصنيف الطبقي ضد المصنفين
 طبقياً، إن أبناء العمال، مدعوون، مثل أبناء البورجوازية، إلى رفض
 واحد لطبقتهم، يجب أن يجمعهم قاسم واحد مشترك، النضال ضد
 آبائهم، هذا عمل جنونى ربما، لكن الحرية تستحق هذا الثمن، فلا
 يمكن العمل فى خدمة المجتمع والعمل على سحقه فى وقت واحد.
 لندعم صفوف الخارجين على طبقاتهم ولينتشر جنوننا حتى يشل كل
 وظائف هذا المجتمع المجرم.
 يا شبان العالم، سقها آباءكم!
 ابصقوا فى وجوه عسكريكم!»

فى الألفية الثالثة مزال هذا كله قائماً وقائماً، فانظر مدى صدق
استشرافه المستقبل .

لكننا فى ذلك الصباح من أوائل أبريل من ١٩٤٨ لم نبصق فى
وجوههم .

عندما نزلت من البيت فى شارع ابن زهر وجدت الشوارع غير
مألوفة على أى وجه .

الدكاكين والمحلات مغلقة، السيارات والتراموايات تسير وحدها دون
أن تأبه لشارات المرور التى ظلت مطفأة لا يديرها أحد، حلقات صغيرة
من العيال، حفاة بجلاليبهم عليها جاككات كاكى قديمة من مخلفات
«أورنس» الجيش الإنجليزى، ومجموعات من العمال والمتسكعين
يسيرون فى عرض الشارع دون أن يعترضهم أحد .

رأيت صفاف غير منتظم من عساكر البوليس يسيرون فى شارع
الخدوى رافعين بناذقهم فى الهواء وقد رشقوا فى كل سونكى رغيف
خبز .

أول يوم فى إضراب عساكر البوليس .

على الساعة العاشرة رأيت من نافذة البنك الأهلى فى شارع طوسون
جماعات من حرافيش الإسكندرية وزعمائها وجدعانها يهجمون على
محل ليون جاتى الفخم بالشواكيش والعصى والشوم الضخام يحطمون
الواجهة الحديدية التى نزلت إلى الأرض فجأة بصوت انهيار معدنى
مجلجل فى الشارع وقد خلا من السيارات وساد فيه نوع من الصمت
الغريب لا تقطعه إلا أصوات صفير ثاقب ونداءات خاطفة: يالآيا وآه
تعالوا هنا يا جدعان. وعلى الناحية المقابلة وقفت جماعة من عساكر
البوليس ترقب مشهد الاقتحام والنهب بلا مبالاة .

تحطم زجاج الباب والواجهات السمىكة الصافية وسقط الفتات
والشظايا على الأسفلت، ورأيت العيال والجدعان يخرجون من المحل

يحملون على أكتافهم لفات الصوف الغالي، القمصان من الحرير
والبدل الفاخرة تحت آباطهم، والعيال تزاحمت تخطف ما تصل إليه
أيديهم ويجرون جميعاً خارجين من شارع شريف ويختفون لا أحد
يصدق منهم أنه نجح بغنيته.

في آخر شارع شريف الذي كان أرستقراطياً وغالياً، وفي الهدوء
الذي ساد بعد توقف السيارات تماماً، أصوات جرى العيال والشبان
ووقع الأقدام الخافية على الأسفلت وضحكات خشنة - على الصبح -
كانها من أثر الحشيش والسلطنة.

- ما فيش حكومة يا جدعان.. كل واحد يعمل ما بدا له.. اللي عايز
يشلح النهاردة يشلح على كيفه.. واللي عايز يشخ على كيف كيفه..
هيه..

من أين خرجت الطلبة وكيف انعقدت حلقة الرقص البلدى فى
عرض شارع فؤاد والجدعان يصفقون للراقصين أولاد البلد على واحدة
ونص.

أغلقت البنوك والشركات أبوابها وصرفت موظفيها.

الشوارع الفخمة النظيفة فى وسط البلد تناثرت على الأسفلت
والأرصفة فيها قطع ممزقة من ملابس داخلية حریمی أنيقة وقطع جاتوه
شيكولاته وميل فى مهروسة تحت الأقدام وشظايا معدنية وزجاجية
وزجاجات سينالكو وكوكاكولا نصف فارغة.

قال فتوح القفاص: بص.. عندما أحس الناس بأنه لا توجد حكومة
رقصوا من الفرحة، لم يسرقوا أحداً من الغلابة الذين طفحوا الكوته، لم
ينهبوا دكانة صغيرة بل أخذوا - مرة فى حياتهم - ما حرموا منه طول
حياتهم، هجموا فقط على المحلات «الراقية» ملك الخواجات والأغنياء،
كانهم يستردون حقوقهم.

فى أول شارع النبی دانيال فوجئت بصفوف منتظمة من عساكر

البوليس بحللتهم السوداء الكابية وأحذيتهم الميري تسير في صمت
تام وقد رفعت البنادق إلى أعلى، أرغفة الخبز مرشوقة في السونكي
الذي تلمع شفرته في أشعة شمس الصباح الإسكندراني المنعش،
ودقات الأحذية الثقيلة على أسفلت الشارع الهادئ الخاوي لها وقع
رتيب .

سمعت من الراديو الضخم ماركة پای في فسحة بيتنا إعلان حظر
التجول من الساعة الرابعة بعد الظهر حتى الساعة صباحاً .
وفي الصمت الموحش الذي حطّ على المدينة كانت ثم طلقات رصاص
تدوي من بعيد .

كان الجيش قد نزل المدينة .

ساد الصمت في النهاية .

كتب لي عبد الفتاح خلف الله بعد السنوات الطوال :
«هل تعتقد أن وحش الألم، وكل ما يلاقيه الإنسان من شرور يمكن أن
يسد من نفسك النور الفامر البهيج الذي سطع في عينيك في
العمودية وملاً قلبك، وبدت الدنيا أمامك واسعة، واسعة؟
أنا أعرفك، وأعرف أنك عانيت كثيراً من آلام الحياة وشرورها، ومع
ذلك لم أجده يوماً شاكياً ولا متبرماً ولا يائساً، ولكنك كنت على
الدوام متجاوزاً، عزيز النفس، شامخاً كالجبل .

لا يمكن أن يكون الشر في الدنيا غلاباً، لأن معنى ذلك فناء العالم .
ولكني أقول مع ابن سينا إن الشر كثير ولكنه ليس بأكثرى، الوجود
في جوهره خير والشر يدخل في الوجود بالعرض . وجود النار خير
لأنها تنضج لنا الطعام ولكنها قد تمتد لتحرق ثوب رجل فاضل فقير .
دعني أذكرك بأنك القائل بأن الوجود والحياة دحض نهائي للشر
وإدانة للوحش، أنت قلت : «مجرد أن أشم رائحة بخور وعطارة مع
دقات الزار في بيت أم فكري وأن أسمع صلصلة الترام في شارع
راغب ونداءات الباعة : المانجا، روبايكيا، حمار وحلاوة، والانغمار

فى وجود الناس المصممين دون وعى وربما دون فلسفة، على البقاء
على الحياة، وعلى المتعة بها رغم كل شىء، هو إنكار للوحش.

قلت : نعم هو إنكار للوحش، لكن الإنكار لا يعنى إلغاء وجوده، ولا
يعنى كلام ابن سينا تبريراً لاحتراق ثوب الرجل الفاضل، وربما احتراقه
هو نفسه وأطفاله وامراته. لا تهمنى الإحصاءات، الملايين من المحترقين
والمطعونين والجوعى والمنصهرين فى وقدة النار النوروية الأكالة، أى
واحد منهم فقط لا يمكن قبوله، لا يمكن تسويغه. لا معنى ولا ضرورة
للشر ولا للألم، ولا لافتقاد العدالة ولا لانتهاك حرية شخص واحد فما
بالك بالملايين؟

فى أيام الكبرياء القديمة كما وصفتها يا عبد الفتاح كنا نؤمن بأن
القضاء على الوحش ممكن بل فى متناول اليد، كان الأفق مشرقاً واعدأ
بآمال لا حدود لها.

فماذا حدث؟

قلت : حتى إذا كان، قتل التين مستحيلاً، فلن نُسقط رماحنا أبداً -
نحن جماعة الحالمين الخائبين - سوف نظل نضرب حراشيفه الصلبة،
سوف نظل تناوشه ونصارعه ونجالده، بما لا نهاية، لا نهاية.

الفصل الرابع عشر

كنت أعرف أنهم الليلة سوف يأتون .

بعد الظهر عند عودتي من البنك الأهلي ومبنى البوستة العمومية حيث التقطت آخر ما وصل إلى صندوق البريد ٧٧ باسم يوسف قلادة، فتحتة بالمفتاح الصغير الذي ليس مع أحد غيري، واستخرجت آخر أعداد الديلي ووركر ولافيريتيه وعدت مشياً في الحر والغبار والضجة المعتادة. زحمة الناس في شارع راغب باشا تضيق صدري وأكوام طوب وزبالة وريش طيور وبقاياها على الرصيف أمام البيت .

«لافيريتيه» الحقيقة، براقدا، تحملني على أجنحة مُحلقة إلى سماء باريسية لم أكن قد رأيتها قط، أنطوان خير الله قال لي: أتمنى أن تراها معي، لقد وقعت في حبها من أول لحظة وسوف تقع أنت في هواها بالتأكيد بل سوف تتدله بها حياً. لم أكن أعرف في ظهر ذلك اليوم الحار أن نبوءته ستصدق تماماً، لكن باريس يومها كانت باريس الكوميونة، باريس التي تقف وراء متاريس الحرية، مدينة نور الكرامة والعقل، طريق نسر في السماوات، أصحیح أنه لم يبق له أثر؟

أحمد صبري كتب لي بعد ذلك بسنتين أنها مظلمة لأن الحرب ضربتها، والكهرباء تنقطع من شرايينها، لم يهمني ذلك، كانت وتظل منيرة ساطعة سطوع سان بطرسبرج، ذئبة مقاتلة عن شرف ثورة دائمة..

وسيعحدث .

ستُقاتل باريس سنة ١٩٦٨ بعد عشرين عاماً بالضبط من يومها،

منافحةً عن إيمانٍ بالعدل لن يتهاوى حتى لو وطأته جحافل بعد جحافل من فكر التتار والكاروبوي المعاصرين أو بضائعهم العقلية والاستهلاكية.

ذهبت إلى غيط العنب، ومعى حقيبة سفر صغيرة، تقليد الجلد، ملأتها بالكتب والمجلات والأوراق التي تصورت أنها دليل إداة ومنها «الحقيقة» و«العامل اليومية»، ونزلت في آخر محطة أمام الكركون، وحوّدت إلى اليسار، رحّبت بي امرأة خالي سوريال، بنصف قلب، وقلت لها باختصار إنني أرغب أن أترك هذه الحقيبة عندها أمانة، لمدة قصيرة إن شاء الله، هل يمكن؟

ولم أشرح لها ما في الحقيبة، ولا لماذا أتركها عندها، قلت، من باب العشم.

فقلت بعد ترددٍ وجيز: حاضر من عيني، لما يجي خالك حاقوله طبعاً.

على الساعة العاشرة التقيت بقاسم إسحاق أمام الباب الرئيسي في محطة مصر، كان على سجيته من الانفعال والتوتر، يلقي بسيجارته قبل أن ينتهي من تدخينها ليشعل أخرى، في يده حقيبة سفر صغيرة أو لعلها متوسطة.

قال: عندي نصف ساعة قبل ميعاد القطار، تعال نسير في حدائق المحطة، لا أحتمل الجلوس في البوفية. هانت ترى كم أنا متوتر.

قلت: كلنا ذلك الرجل ولكن علينا أن نكتم هذا القلق، ماذا يجدي؟

قال: يجدي؟ يجدي؟ هل أستطيع التحكّم في شعوري، أنا؟ أنا يا أخي لا أستطيع، الليلة سيعلنون الأحكام العرفية بالتأكيد في منتصف الليل تماماً، الليلة ستتحرك جيوشهم إلى أرض فلسطين. هل عندها سلاح كافٍ، هل عندها تدريب كافٍ؟ هل هناك إعداد فكري ونفسي

للعساكر الذين يروحون ربما لكى لا يعودوا؟ أبداً، أبداً.. ليس هناك
شئ من هذا كله، تريدنى أن أكتم القلق؟ طيب كيف؟
قلت: يا سيدى اقلق على كيفك.. لكن قل لى لماذا تسافر للصعيد
الآن؟

قال: فرصة مثل غيرها لأرى والدى بعد أن أحيل للمعاش وأساساً
طبعاً لكى لا أقع فى قبضتهم، مائة فى المائة سيعتقلوننى لو مكثت فى
إسكندرية، مهما اختفيت عن أنظارهم، وحتى فى الصعيد لن أبقى فى
بيتنا فى سوهاج طويلاً أو قليلاً، سأذهب إلى أقارب لى فى أخميم أو فى
نجع الخور، أمل ألا يعرفوا طريقى.

قلت بشئ من الخنو والخشونة معاً:

- الا ترى فى هذا نوعاً من الهرب؟

رد بشئ من العنف: الهروب؟ والوقوع فى أيديهم، أليس استسلاماً
لهم؟ أليس نوعاً من التخلّى عن المسئولية؟
قلت، متحيراً قليلاً ومتراجعاً قليلاً: ما أصعب الاختيار.

قال: عيبك يا عزيزى أنك لا تستطيع الحسم، لا يمكن أن تقطع
بشئ. ربما كانت هذه ميزة عند المثقف، أو الشاعر، لكن المناضل
الثورى لا بد أن يختار، لا بد أن يتخذ القرارات الصعبة.. أنت طول
عمرك تعاني هذا التناقض بين ما ترسب فيك من قراءات فى الأدب
الأوروبى والفلسفة الغربية..

هممت أن أقاطعه فقال:

- والشرقية يا سيدى، لم أغلط فى البخارى، أعود فأقول ما قد لا
يتاح لنا وقت أن نقوله، ربما لا نلتقى بعد الآن أبداً.. لا تحتج.. دعنا
نكن واقعيين.. دعنا نواجه واقع الحال..

قلت: قل يا سيدى وخلصنى.

قال: التناقض عندك قائم وغير محلول بين أصولك المصرية الشعبية

وثقافتك العقلية الغربية أو الغربية عنا .

قلت : ليست غريبة طبعاً ، هي وريثة ثقافتنا نحن .

قال : أسلم لك بهذا ، لكن التناقض قائم أيضاً يا عزيزي بين التقاليد الدينية الراسخة في داخلك للأقلية القبطية ...

قاطعته بسرعة : ليست أقلية ، نعم قد تكون عددياً كذلك لكن مفهوم «الأقلية» لا ينطبق على أقباط مصر ، علمياً وموضوعياً ، مفهوم «الأقلية» يحمل في طبيعته معنى للغربة والنشوز والانفصال .. التحليل العلمي ينتهي بعكس ذلك .

قال مسلماً : مرة ثانية موافق ، ولكن هذه التقاليد أو الطقوس أو الرموز القبطية تتناقض بالتأكيد مع ما تثيره أنت الآن بالضبط عن التحليل العقلي «العلمي» أو الموضوعي أو الماركسي ..

قلت : ليس بالضرورة ، مادامت في غير نطاق العقيدة أو الدوجمائية بل في سياق ثقافي حضاري ولغوي .

قال : أليس في هذا تناقض آخر ؟ أعني عشقك للغة العربية هذه ، عشقاً أجد أنه مغالى فيه وغير مبرر ، وانحيازك أيضاً لتراث الثقافة الإسلامية الذي تقول عنه إنه قد تجذر في حياتنا ؟

كنا قد درنا حول حدائق محطة مصر مرتين ، وكان التعب قد اعترائني ، فقد مللت هذا النوع من الجدال . على معرفتي بحسن النية الكامن وراءه .

في تلك الليلة ، في ١٥ مايو ١٩٤٨ اعتقلتنى حكومة النقراشي ، عشية حرب فلسطين الأولى ، مع مئات من كل أصناف «الخطرين» أو «المشبهين» سياسياً ، من أقصى اليمين إلى أقصى اليسار ، وجاء للمعتقل بعد ذلك من جماعتنا حمدي محمد يوسف ، وفريد اسكاروس وعبد القادر خلف الله ، وشوارتز . قاسم إسحاق ، لم يعتقل ولا كامل الصاوي ، ولا فتوح القفاص ، ولا أحمد النمى ، أفرج عن زملائنا كلهم

بالترتيب، بعد فترات متراوحة، وبقيت وحدي، ذهبت إلى معتقلات
هاكستيب والطور ثم عدت إلى أبو قير وكنت من أواخر الذين خرجوا
في فبراير ١٩٥٠. استيقظت ذات صباح ووجدت أن المعتقل خارج
تقريباً، مفتوح الأبواب على الصحراء والفيضان، الطريق المسفلت كان
أمامي ليس فيه أحد، وركبت الأتوبيس، بثلاثة تعريفه، إلى المنشية
ومنها بالترام إلى بيتنا، بستة مليم، ومعى شنطة ورق مقوى على شكل
الجلد مربوطة بحزام، وافقتني طول التنقلات بين أبو قير والطور،
وبنظارة مكسورة مربوطة بسلك، وكانت الجزمة بوزها مفتوح وواسعة،
قضيت فترة الاعتقال كلها إما بالصندل أو بالجزمة الكاوتش.

كان الناس في الشوارع وفي الأوتوبيس والترام لا يكادون يلتفتون
إليّ، وأنا أتحرك بحرية لأول مرة منذ عشرين شهراً، وكأنه ليس للحرية
طعم ولكني كنت أملاً صدرى بهواء مفتوح، ليس عليه حرس.

في ١٩٤٦ تخرج كامل الصاوي، معنا، وبينما ظللت سنة تقريباً بلا
عمل، غرقت خلالها في النشاط الثوري حتى استبدت بكل لحظة من يومي
وبشطر كبير من الليل أيضاً، وأنا مع ذلك أواصل إرسال خطابات طلبات
العمل وأتلقى جوابات الاعتذار المهذب، عرفت أنه عيّن معاون نيابة في
الجمرك، فور تخرجه بترتيب «جيد» فقط، أصبح إذن جزءاً من السلطة،
من «أجهزة القمع القانوني أو المقنن» كما نقول، هل نسي هيجل،
وتروتسكي، والفلسفة الثورية؟ كان هذا هو المنتظر، طبعاً، وتم الانقطاع.

بعد سنة أخرى فقط، قيل أن أعتقل مباشرة، قرأت في «الأهرام» أن
«الأستاذ كامل الصاوي، معاون نيابة الجمرك بالإسكندرية، قد لقي
ربه إثر حادث أليم، فقد غلبته سنة من النوم وهو يدخن سيجارة،
واتضح من التحقيقات أن السيجارة المشتعلة سقطت على السرير،
وتوفى سيادته محترقاً في شرح الشباب بينما المستقبل الزاهر
ينتظره، رحمه الله رحمة واسعة.»

صدمنى الخبر، وهزنى، رغم كل شىء.

راودتنى أفكار شاردة عن احتمالات موت متعمد، مقصود عن وعى أو غير وعى، أهى فضيحة جنسية؟ هل كانت بطلتها الأم الأرملة المنحررة، أم الخادمة التى تضخم بطنها؟ أم هو شق عميق لم يبرأ بين الثورى القديم وبين رجل السلطة، خطر لى أن حسه الخلقى الكامن ربما تيقظ فجأة، تغلب على (موضوعيته) العلمية، ودفعه إلى حافة النار، فتردى، سقط، أم لعله قد علا؟ هل كان النوم (أو الموت) قد غافله فعلاً؟

ظل سريره المشتعل يؤرقنى شيئاً ما، ويحيرنى.

قربان الموت، الأخير على شاطئ «الجناح» أو «الستايكس» سواء، هل لقيته نمفية النهر العارم الذى لا غلاب له والذى يصب فى غيابات الظلمة، قاطنة الغرب النائى. على حواف الليل فى مأواها المظلل بجبال معتمة شامخة، سريره المرتفع وأحطاب الوقود عطرى الرائحة وأعواد البخور وترانيم التعبد والتذكر بأصوات رتيبة النغم فى الحر الذى يسحق الحس ويعطل الفكر.

السنة اللهب متطايرة تصعد إلى العنان والدخان والعبق الأبيض به شرائح دسمة سوداء، يفلت من بين النيران صوت أجيج الاشتعال وفحيح اللظى لا يكاد يخفى طقطقة العظام المهيضة التى تتقوض فى الحريق ولا لزوجة الأوصال التى تذوب فى حنوطها تحت هرم الكومة المتقدة.

سرير كامل الصاوى فى غرفة نومه البورجوازية الضيقة فى محرم بيه قد احترق به بصمت، دون نجدة، دون ترانيم، وانطفاً من تلقاء نفسه، وترك البقايا وسط الرماد وجذاذات متفحمة من القطن والقماش والأسلاك المتلوية، تحت المصباح الكهربائى الذى ظل مضيئاً فى نور النهار. تدحرجت نظارته ذهبية الإطار وسقطت على الأرض وبقيت

سليمة وصافية. مات وحده، دون حب، دون مجد.

قالت: لو كنا في الهند فلن أكون أنا الذي أحترق معك على سرير

موتك. ليس مكاني على سريرك الأخير المشتعل.

قلت: مكانك اشتعال آخر، حتى أبداً، ليس له انطفاء.

قلت في سرى: ومع ذلك مكاني معهم، أشاركهم أحلامهم، قد لا

أعتنق أيديولوجيتهم تماماً، لكنني لن أتردد في العمل معهم، في

الانخراط في صفوفهم، سأظل أنا نفسي، محتفظاً بجوهر نفسي،

لكنني أيضاً سأجد نفسي معهم، ومعهم سيكون جوهر ذاتي معنى

وقبيمة. لا أستطيع ولا أريد ولا أطيق أن أنكر جماهير الشهداء

والضحايا، عن طواعية أو عن عسف سواء، في سبيل هذا الحلم، لكم

يبدو مستحيلاً لكنه عنيد لا يموت جيلاً وراء جيل وألف عام وراء ألف

عام، هذا الحلم هو الإله الذي لا يشبع من تقدمه القرايين، يتزياً مرة بزي

أسطوري أو شعري ومرة بزي علمي عقلائي، لكنه يظل هو لا يريم،

نعم، نعم، أنا حالم، أحلم هذا الحلم الذي يظل ساطعاً حيناً أو مراداً

وخفياً ومكبوتاً حيناً أو أحياناً كثيرة، يظل هائماً غير متجسّد وغير

مصوغ في حياة الملايين المسحوقين من الناس، يدركون ذلك أو لا

يدركونه سواء. يحيون حياتهم بلا مبالاة بالحلم، فيما يبدو، حياة

عاكفة على استدامة ذاتها، مليئة بالكذب والسعي للمتعة، مليئة بالحب

والأحقاد، مليئة بتحريك الأحشاء، من يقول إن هذا الحلم غائب كل

الغيبة عنها؟

قلت لقاسم إسحاق ليلتها: يا عزيزي ألم نتعلم من هيجل وتلاميذه

أن التناقضات يمكن بل ضروري أن تقوم معاً؟ وأنها تجد حلاً منطقيًا في

القضية المركبة؟ ألم نتعلم من فرويد أن التناقض هو قانون الحياة

الداخلية في اللاوعي أو فيما هو تحت الوعي؟ وأن الذات أو الأنا مهمتها

الأساسية هي التوفيق بين هذه التناقضات؟ العمل الثوري نفسه يحمل

تناقضه لكنه يُغفل أحد جانبي التناقض لمصلحة جانب آخر .

مازلت أسأل : هل الفن وحده هو سيد التناقضات ؟

أجد المرأة كمنجعة ذائبة على تاج عمودٍ من رخام النخيل المصفور وهي تحتضن شعر الخيل الأشعث المخايل بالشطح في سهوب سيبريا المثقلة بعرق لينين وديستويفسكى والديسمبريين . الجواد القنطور يدير رأسه الإنساني إليها فتشد اللجام الحديدى حول فكّيه المطبقين . لا يستطيع أن يتكلم بما رآه في حلمه الطويل وعلى صهوة سفينة تمخر عُبَابَ وجنة امرأة تتلاطم أمواج الغضب تحت عينيها المفتوحتين في سهومٍ لا نهاية له ، ترسو السفينة بأشرعتها الذهبية إلى قلب السماء فوق صخرة لها أنف أفتى وفم مطبق مستقر على قاع المحيط الشاسع وجه المرأة . أصابع أنثوية مصبوغة بطلاء عاجي تسند «الصخرة - الوجه» بينما تُمِيع أعجاز النساء الزرقاء وتدوب حواشيها ، أعضاءهن الجنسية داكنة وناتئة تحت البطون المخسوفة من الجوع . هوائيات الإرسال والاستقبال رفيعة متشابكة قد تقطعت وتهدلت فوق رءوس عساكر صببية حمر الوجوه بقاماتهم النحيلة المنذورة للموت تحت شجرة دهريّة عريقة هائلة الجذع نهودها الكثيرة متضخمة ولها بروزات صلبة وفروعها السحرية تهتز ممتدة فوق سطح الصوامع ومخازن الفلال الرومانية . أجسام الفلاحين محنية على أعواد القطن تنقى الدودة وترش المبيد المغشوش في أبعاديات الباشا ، فينتفخ الخدّ بنفث دخان السيجار الكوبي ويتجشأ . الصخرة المدوّرة مشعثة الحواف تخبطها رياح قوية خبطاً متوالياً عالياً معلقة فوق حاجب العين المفتوحة على حلم مضطرب لا ينتهى .

دقات على باب الشقة في شارع ابن زهر ، لم أكن قد خلعت القميص والبنطلون ، نمت بالشراب والحذاء ، الدقات على الباب متوالية عالية ، قمت من النوم عارفاً هادئ الروع .

ها هم قد جاءوا .

عندما نظرت بسرعة إلى ساعة الحائط قديمة الطراز ذات البندول
النحاس رأيت أنها لم تكن قد جاوزت الواحدة.
جاءت أمي من غرفة النوم الأخرى، تضيق بيدها فتحة فستانها
وخلفها هناء التي تصغرني بأربع سنوات، أما أختاي الأخرى فقد كانتا
نائمتين، لم تستيقظا على ضجة الخبط على الباب.
فتحت فدخلت على الفور ضابط بوليس شاب على كتفه نجمتان
وراءه اثنان عساكر بالزى الرسمي الأسود واثنان مخبران بالبالطو
والجلاية والعصا.

سألني عن اسمي فأجبت.

قال بأدب وتحفظ: تفضل معنا.

قالت أمي بلهفة وخوف: إيه.. فيه إيه؟

قال: خير إن شاء الله لا تخافى يا ست.. مشوار بسيط لغاية

القسم.

قلت: تسمع لى آخذ كتاب شعر إنجليزى معى؟

تردد لحظة ثم قال: لا مانع.

لم يلق نظرة على مكتبي ولا على كتبي أو أوراقى.

قلت فى سرى: مهمته فقط أن يأخذنى.

قلت: أين نذهب؟

قال: لا شىء.. مشوار بسيط.

لم يقل لى: خذ معك جلاية، بيجاما، فوطة، أى حاجة.

ربما لأنه لم يشأ أن يفزع أسرتى. خطف فى ذهنى سراب مخادع:

ربما هى ليلة فقط أو ليلتان، ثم نعود. لكنى لم أتعلق به على أية حال.

أخذ أحد المخبرين بذراعى، ونزلنا السلم الضيق متزاحمين، وراء

أحدنا الآخر، أمام باب الشارع وجدنا التاكسى الذى احتملنا جميعاً

سنة أشخاص والسائق، وقطع شوارع راغب وكرموز الخالية بالليل حتى

وقف أمام مبنى كنت قد دخلته من قبل عرفت فيه قسم كرموز.
صعدنا سلمتين ودخلنا إلى قاعة القسم، أشار لي الضابط على
كرسي خيرزان، وقال: اتفضل اقعد.
جلست صامتاً، لم أسأل، فقد كنت أعرف أن الإجابة ستكون
مراوغة على كل حال.

جلس الضابط الشاب إلى مكتبه المحمل بسجلات ضخمة وفتح
أحدها وكتب فيه كلمتين.

رفع سماعة التليفون وأخذ يتكلم بصوت خافت، لكنني فهمت
بصعوبة أنه يأخذ توجيهات معينة لم تكن واضحة.

إلى جانب الجدار كانت هناك دكة خشبية طويلة جلس عليها ثلاثة
أشخاص وعلى يمينهم ويسارهم اثنان عساكر بوليس ومخبران أيضاً.
سوف أعرفهم - فيما بعد طيلة ما يقرب من سنتين - معرفة وثيقة
وحميمة، وسوف أعرف ولا أنسى أبداً أسماءهم.

صابر محفوظ

محمود شبارة

وحسين شكوكو

معهم، ومع سلامة البشلاوي، وشاكر المربوطي، وزينب المشراوى
وعايدة، وفاطمة ميمون الزيتوني، معهم ومع قاسم إسحاق، وأحمد
النمس، وفتوح القفاص، وأنطوان خير الله، وعبدالفتاح وعبد القادر
خلف الله وزكى باخوم وعلى أبو الليل، وشوارتز، وفريد اسكاروس،
وفتحى أبو شادي، وحمدي محمد يوسف وونيس شنودة، مع أوديت
ووجدي حبيب ولطفى مذكور وفكري نمر وإسماعيل عامر، من لا
أنسى أسماءهم، عرفت ديمقراطية وأخوة أبناء القبيلة الأولى البدائية
التي وقفت وعملت وقاتلت في وجه العسف ومن أجل الحلم، قبيلة
الإخوة التي ضربت الديناصورات والكوابيس ونقشت الرقى والتصاوير

على جدران كهوفها الصخرية، ولكنها الآن مترجمة إلى مضمون
عصرى فى أربعينيات القرن العشرين .

قلت : وحتى الآن ؟

معهم وبهم - مهما اختلفت انتماءاتهم - عرفت كيف أقبل قيود
الواقع ، لا ، لا أقبلها ولا أنصاع لها ، بل أفهمها ، وأتأقلم معها مع رفضى
لها وتمردى عليها .

معهم وبهم - وبمعاشقى الكبرى وهى حبّ واحد - عرفت كيف
أفلت من اليأس الذاتى المحيق بل المدمر ، من جنون الانعزال والانفصام ،
إلى ساحة الأمل .

وعرفت كيف أنه لا خلاص ، لا هنا ولا هناك .

ولا استسلام لليأس .

معهم وبهم - وبالمراة الواحدة المتعددة التى أكنّها فى أعزّ مكان من
قلبي ، وبأصدقاء أثروا الحياة فى مساراتها القديمة والحديثة على السواء ،
أحمد مرسى ، سامى على ، بدر الديب ، مصطفى بدوى ، عدلى رزق الله ،
والبنات اللاتى أحببتهن ، بهم ومعهم جميعاً عرفت شجاعة أن أواجه
الخاوف التى كأنها ميتافيزيقية .

فإذا كان أحمد النمى قد التمس معذرة عن التفلسف فلعلنى أتمس
هنا معذرة عن النبوة الشعرية العالية ، أو هى نبوة رومانسية ؟ أو هى خبرة
سنتمثالية ؟ ألم نقل إن السنتمثالية إذا كانت حارة لم تعد كذلك ؟

على أية حال كل ما أرجوه على فرض أنها رومانسية أن تكون
رومانسية صلبة بل خشنة نازلة فى الأرض طالعة م الطين .

قلت عن نفسى إننى أتحدى المخاطر والخواف مع الحذر الواجب ، فهل
غلب التحدى كل الحذر وكل المخاذير ؟

عندما نظرت وجدت أن عندى إيماناً مصرياً قديماً مصرغاً صياغة
خاصة وطول عمرى أغلب القدرية أو أسلم بها ، طالما وجدت أن ليس

بيدي ما يمكن فعله .

أما إذا كان الفعل متاحاً أو ضرورياً، فإليه المآل .

متعصب في كراهة التعصب، نعم .

عنيف في كراهة العنف، نعم .

لكنه العُنفُ الفرديُّ المندفعُ غيرَ المحكوم ما أكره .

أما العنف الثوريّ - عند ضرورته - فهو المحرك للتاريخ وهو الردّ

الذي لا مفر منه على العنف القمعي المتصل أو المقنن .

كأنما كنت أنحدر في طريق اللا مقاومة الغانديّة، في داخل تيار

كاسح من المقاومة .

كان صابر جالساً أمامي على دكة قسم كرموز، جسمه الكبير

مستريح في إهابه، وجهه الأسمر البيضاوي تحدّق منه عينان واسعتان

جاحظتان قليلاً، لا يتكلّم بل لا يكاد يتململ أو يتحرك .

في طي هدوته العجيب ثورة لا تهدأ، وحكمة عريضة عراقية أرض هذا

الوطن .

محمود، عفريت صغير الجسم، يشبه جسم صبي صغير، سفروت،

متوقّز ومتوهّج، نحيل الوجه، طويل الأنف، فمه رقيق وحادّ، سيكون

شعلة من نشاط وحيوية طوال سنتين من أغرب السنوات .

أما حسين فلا يكاد يلمّ بعضه على بعض، طلب الذهاب إلى الحمام

ثلاث مرات في نصف ساعة، أو ما الضابط الشاب برأسه موافقاً كلّ

مرة، وفي المرة الرابعة شخط فيه: إحنا خلعب ولا إيه يا ولّه . . . أقعد

مطرحك بلاش دلح .

سمعته يتمتم بصوت خافت ولكنه اعتاد المواجهة :

- اسمي حسين، مش ولّه . . احنا ما بندلعوش يا بيه .

- طب اسكت يا سي حسين، خلاص دي آخر مرة اعمل حسابك .

وسوف يكون حسين عزاء متصلاً من قسوة الوحشة وينبوعاً قادراً

على ابتعاث البهجة من خلال تهريج صريح خفيف الظل دوماً في
ظروف الحبس القاسية .

فتحت كتاب «التنين الذهبي» الذي لم يكذ يفارقني أبداً، وقرأت
شعر بايرون في قسم كرموز .

عندما أوشك ضوء الفجر أن ينبلع - أو على الأصح أن يحيط بنا -
أنهى ضابط البوليس الشاب مكالماته التليفونية، وضع السماعة بحم
وصوت عالٍ موضعها وقام .

أشار إليّ وإلى عساكره .

نهضت وأخذني الخبير من ذراعي مرة أخرى، ونزلنا السلمتين إلى
الشارع الذي بدت معالمه تخايلنا في غبشة نورٍ مضطرب غير مستبين،
وجدنا التاكسي ينتظر .

دفعني الخبير بشئٍ من الخشونة إلى وسط المقعد الخلفي، وجلس إلى
جانبي، وجاء الخبير الثاني من الناحية الأخرى، يحيطان بي، ومازال
ذراعه في ذراعي .

جلس الضابط إلى جانب السائق، وأشار إليه :

- اطلع يا سطي .

كانت شوارع الإسكندرية خالية وبيوتها في كرموز ومحرم بيه تبدو
واطئة، مغلقة على ما فيها من حياة مكدودة وصامتة، عبرنا شوارع
وسط البلد، أصوات أذان الفجر خافتة وبعيدة من جوامع قليلة، حتى
شارع أبو قير، في طريق الرمل .

اقتربنا من محطة سيدى جابر .

الهواجس لا تكفُّ عن مهاجمتى، وخيالاتي لا تتوقف عن الهجاء
والذهاب .

المحطة؟ إلى أين يأخذوننى بالقطار؟

لكننا مررنا بها بسرعة، ودخلنا في الشارع الطويل، وعلى أن

التاكسي كان يجرى فقد أحسسته لا يسير على الإطلاق، البيوت المغلقة نائمة وراء نوافذها، قلت لنفسي تركنا المحافظة، وسجن الأجانب من زمان، يبقى لازم سجن الحضرة؟

كان التاكسي الآن يقطع طريقاً وسط الحقول والزرور العالية وأشجار النخل تبدو إلى جانبي الطريق، وتتعاقب غيطان المعمورة والمنتزة، وقف قلبي لحظة، هل يذهبون بي إلى أوردى المعمورة الرهيب، حيث يقطع عتاة المجرمين أيديهم حتى يفلتوا من عذاب السخرة بالعمل الشاق طول ما نور الشمس موجود، في استصلاح واستزراع أراضي الملك الغمقة المألحة؟ الحكايات المرعبة تتناقلها الألسن، بأصوات مكبوتة، عن أوردى المعمورة والمنتزة.

سيارات أجرة وسيارات حكومية سوداء وسيارات بوكس فورد كبيرة تسابقنا وتصاحبنا ونسبقها على الطريق.

الخصي يتطاير من تحت عجلات السيارة وكأنما تخبط، في رشاش منتظم، جدران القصر الأسطوري المهيب، تضرب سوره المشيد بأحجار يميل لونها إلى الحمرة في هذا الفجر المنيثق بين الغيطان، السور الذي لم يكن أحد يجرؤ أن يقترب منه، جنود الحرس الملكي رابضون متربصون في أبراجهم وبأيديهم مدافع رشاشة مصوبة إلينا.

على الأرض الصلبة الرملية التي تبت فيها أحراش صغيرة شرسة من نباتات برية شائكة، خيوط من دم قان ضارب إلى السواد وأشلاء أيدي مبتورة مفتوحة الأصابع، وعيون مفقوءة ومفتوحة تحدق بقسوة من بين الأعشاب الخشبية وهيشات الحلفاء المتشابكة.

السيارات الأجرة والعساكر كلها صامتة تذرع طريقاً غير ممهد وغير مسفلت بين الغيطان، تتأرجح وتميل وتعتدل على نتوءات الأرض غير المسواة وتمضي إلى غاية لا أعرفها.

إلى أين تمضي؟

الفصل الخامس عشر

على أول نور الفجر دخلت سيارة الأجرة إلى طريق فرعى بين غيطان
الذرة.

كانت الأنوار الكهربائية قد شحبت واصفرت قليلاً على البوابة
الحديدية التي توقفت عندها السيارة، قال الضابط وهو يلوح بورقة
رسمية دون اهتمام.

- واحد قسم كرموز.

ردّ التحية العسكرية على الجندي الواقف بالباب، وعلى كتفه مدفع
رشاش صغير.

الساحة الكبيرة تسقط عليها أنوار مختلطة من الفجر الذي
يستضيء ومن مصابيح كهربائية عاكسة قوية، تناثرت عليها سيارات
حكومية سوداء وسيارات أجرة وسيارات البوكس فورد المربعة الكبيرة،
جنود الجيش بملابسهم العسكرية الكاكي وأسلحتهم الخفيفة يقفون هنا
وهناك، كمن لا يعرفون ماذا يفعلون وإلى يمين الداخل مبنى مستطيل
سقفه من القرميد الأحمر. له نوافذ صغيرة عليها قضبان حديدية
رفيعة، وفيها أنوار قوية ونحن نقف أمامه سمعنا لقط الكلام ورنين
التليفون وحركة الأقدام، تركنا الضابط في سيارة الأجرة أنا والمخبرين
السريين، ودخل ثم خرج بعد قليل وعليه سيماء من خلص من مهمة
أخرى ليست صعبة ولكنها ليست أيضاً خفيفة الظل، وأشار للمخبرين
الذين سلّماني بشيء غير قليل من الخشونة لعسكري جيش، أخذني
بدوره إلى باب المكتب حيث وجدت ضابطاً كبيراً - صاغ أو بكباشي

ربّما - ومعه ضابطان صغيران - ملازم أول ويوزباشى - وثالث بملايس
مدنية أنيقة جداً من قماش فاتح فيه خيط حريرى .

قلت فى نفسى : ضابط مباحث لاشك .

أخذ ينظر إلى نظرة صائد وقع على طريدة، لكنى كنت فى مزاج
التحدى، قال : أهلا شرفقت، فلم أردّ ولم أخفض عينى عنه، قال لى
القومندان بصوت أبوى وحازم : تعال يابنى، امض هنا . وقعت فى سجلّ
كبير، دقّ جرساً ودخل عسكري الجيش نفسه وأخذنى من ذراعى إلى
باب عنبر ضخّم عالٍ .

على باب العنبر الواسع اصطفت سرّية من عساكر الجيش . دفعنى
العسكري بحركة عنيفة مفاجئة، بلا كلام، إلى الداخل .

العنبر يموج بالناس الذين يتحركون ويتكلمون وينقلون أشياء لم
أبينها فى وسط الزحمة واللغط الذى تتردد له أصدااء فى العنبر
الفسيح مرتفع السقف، لم أكن أعرف منهم أحداً، ولم يهتم أحد بى
للوهلة الأولى .

فى جانب بعيد ومن وراء الأكتاف المتلاصقة وتحركات القمامات
المتدافعة تحت جماعة تبدو كما لو كانت من رجال الأعمال أو عملاء
البنوك الأجانب أو المتمصرين الذين عرفت أمثالهم فى أثناء عملى فى
البنك الأهلى .

وقفت متحيراً لا أدرى ماذا أفعل .

كان شعورى بالوحدة الكاملة ممضاً، فى وسط هذا الضجيج الحارّ لا
أحد يعرفنى ولا أعرف أحداً، ناس من كل الأشكال يتجمعون معاً فى
حلقات ويتهامسون أو يتكلمون بصوت عالٍ بلغات ولهجات
إسكندراية، تبينت منها الفرنسية وعربية الشوام وعربية أولاد البلد
ولغات أخرى حدست بغموض أنها ألمانية أو سلافية .

كان منهم شابّ أطلق لحيته أسمر شرقى الملامح مفتول العضلات

نضاً عنه القميص والفانلة وبقي عارى الصدر، بالشورت الكاكي
وصندل جلدي، وحوله جماعة واضح على الفور أنهم من يهود
الإسكندرية المستغربين بعضهم رقيق الجسم ذابل وبعضهم بدين مترهل
يتحدثون بالفرنسية فيها كلمات استنتجت أن فيها عبرية .

غير بعيد لم يكن من الصعب على أن أعرف مجموعة من الإخوان
المسلمين، كنت قد لحت بعضهم في الجامعة وبعضهم في غمار
مظاهرات ١٩٤٦، كانت على وجوههم سيماء النظرة المغلقة على
ذاتها لا تخطئها العين الفاحصة، وهم يناون بجانبهم عن مجموعة
كبيرة ممن لم أتردد في أن أنسبهم إلى اليسار، بل وتعرفت على وجوه
كنت قد رأيتها عرضاً في تجمعات الجامعة، يفيضون حيوية ويلوح
عليهم نوع من العزم على المواجهة بتفاؤل حذر.

قلت : هأنذا بعد قلعة الرأس المالية البريطانية في البنك الأهلي في
معتقل كان عنبر الطيران البريطاني الحربي .

تركوه لنا، بعد أن هجروه، لكي تحوِّله حكومة النقراشي (الوطنية)
إلى معتقل.

اقترب منى السفروت صغير الجسم الذي رأيتَه في قسم كرموز أول
الليل، وقال ببساطة وحيوية وشيء من المرح وهو يسلم على بيد متوترة
عصبية :

- أهلاً . رأينا أهدنا الآخر في الكركون، وها نحن وصلنا، اسمي
محمود شبارة، وزميلي صابر محفوظ، وزميلي حسين شكوكو .

مد صابر يده الكبيرة السمراء بحركة بطيئة واثقة دون أن يتكلم
وقد سقطت على وجهه طيب القسمات خصلة كثيفة من شعره الأسود
الناعم الثقيل، أما حسين فقد فعل ما لم أكن أتوقعه : أخذني بالحضن
بحركة عفوية وهو يقول : شرفت يا أستاذ .

على غير معرفة، وعلى غير انتماء ضيق توثقت بيني وبين الثلاثة

صداقة سأظل أعتز بها دائماً حتى بعد أن انقطعت أواصرها تماماً بعد
نحو سنتين فقط.

قال حسين: اللوكاندة هنا آخر ألسطة. خُدْ لك مرتبة اتنين تلاتة زى
ما أنت عاوز.

وأخذنى من يدي إلى كومة عالية فى جانب العنبر رُصت فوقها
مراتب محشوة بالقش، وإلى جانبها كومة مضطربة من المخدات المحشوة
أيضاً بالقش، عندما حملت مرتبة ومخدة كان القش داخلها خشناً
يخشخش بصوت جاف، وكان غطاؤها من قماش عبك جديد لَنج.
قال لى حسين: خد واحدة تانية وتعال.

فرشت مرقدى مرتبتين ومخدة بجانب الحائط الحجرى المطلقى بوية
صفراء قديمة واكتشفت أن جيرانى هم فرسان كرموز الثلاثة.
بعد يوم واحد كتبت لأمى خطاباً ثانياً، يبدو أن الخطاب الأول ضاع،
أو لم يصل، وكان من الجلى فيه أننى أحاول تهدئة روعها، لم أتجاوز
الواقع كثيراً، لم أكتب لها عن الواقع المرير بأننا مسجونون أسرى،
مهانون فى الصميم بحرماننا من أول مقومات الحياة: الحرية. لكنى
رَكَزت على ما تصورت أنه سيدخل على قلبها شيئاً من الراحة.

أبوقير ١٦/٥/١٩٤٨

والدتى العزيزة

أهديك أرق تحية وأرجو أن تطمئنى ولا تقلقى كثيراً خاصة وأن
التفكير لن يفيد شيئاً بل سيضر صحتك وهى ضعيفة على أية حال
ويجب أن نتقبل الأمر الواقع. ونعتبر أن المسألة خارجه عن أيدينا
الآن.

أما أنا فلولا أننى بعيد عنكم فإننى مرتاح تماماً وهم يعاملوننا
كضيوف. نفطر شايبا ولبناً وبيضاً ونتفدى غداء مطبوخاً وعشاء

محترماً ويسمحون لنا بحرية التنقل والراحة في مكان فسيح وفيه
شمس وأشجار وهواء طلق وحرية تامة في الكلام والجري والغناء
ومعنا كثير جداً من الأجانب الراقين وننظم حفلات ونقضى الوقت
في تسلية تامة ولا يشغلني غيركم أما أنا فإنني في الحقيقة في شبه
إجازة أو فسحة طيبة (11)

أرجو أن تهتموا بمسألة الأشياء التي طلبتها في خطابي أمس، وهي
ملابس للغيار وبيجامة وعدة حلقة وكتب وفوطة وبطانيتين ضروري،
كما كتبت لكم، لدينا هنا مرتبة - ونستعمل عدة مراتب ومخدات -
والظاهر أننا سنظل هنا لمدة لا نعرفها. وعلى كل حال حريتنا مكفولة
تماماً (11) وأرجو من ناحيتكم ألا تشغلوا بالكم ووكّلوا الأمر لله
وليكن عندكم ثقة بالمستقبل فكل شيء سيتحسن ويسوى (11)
الكتب وملابس الغيار وعدة الحلقات والفوطة وبطانيتين ضروري أما
السرير فليس ضرورياً إذا لم تستطيعوا شراءه.
مع تحياتي الحارة وقبلاتي لهناء وإيزيس ولويزة وفوفو.

ابنتك المحب

(مضاه)

هذه الصورة الوردية ما حقيقتها؟

كانت الأسلاك الشائكة قد ضربت حول المعسكر وأقيمت على
أركانه الأربعة أبراج خشبية يقبع فيها عسكري جيش بمدفع رشاش،
يتغير كل ١٢ ساعة ويبدو ناحلاً وداكناً في اللبس العسكري الكاكي،
بالشورت الذي يصل إلى الركبتين، يقف بمدفعه الرشاش القصير في
برج خشبي علوي ضيق على كل ركن من أركان سور السلك الشائك
المزدوج الذي يحيط بنا، النور الكشاف القوي يطوف ببطء على السور،
فتدور بقعته المستديرة الساطعة دورة متمهلة متربصة.

قلتُ: أهذه صورة من أفلام الأربعينيات عن معتقلات النازي؟ أهذا
مشهد من صنع هوليوود، أم هو من صنع ذاكرة امتزجت فيها الوقائع
بالأوهام؟ كلها مع ذلك حقائق أكبر من كل واقع.

قلت: لا، هذا العسكري الأسمر بالشورت الكاكي والبدلة المتهدلة
نوعاً ما، ولقات الألشين الخشنة الرمادية تلف ساقيه الرفيعتين ليس كما
تأتى به أفلام معتقلات الأسرى فى الحرب العالمية الثانية، ليس من
الجنس الآرى المتعجرف الفخور، ولا هو يابانى تحركه وطنية أتوماتية
مبرمجة عمياء - كأنه كائن آلى من كوكب آخر - بل هو من أبناء
بلدنا. هذه صورة تظل - وحدها - باقية. ليست وردية بالتأكيد ولكنها
ليست كاملة السواد ولا أحادية النغمة فهو طبعاً عسكري مجند غلبان
بيومية عشرة قروش على الأكثر، هذه صورة ليست من أفلام هوليوود.

كيف قضينا ذلك اليوم الأول فى أسر العسف والأحلام؟
هل قدم لنا الإفطار شاي ولبن وبيض مقلى أيضاً؟ فى أكواب وأطباق
معدنية؟

كيف انتظم أمر هذه الجموع من المعتقلين فى ذلك العنبر الفسيح
الذى ضاق بهم - أما المعتقلات «البنات» فقد كن فى مبنى مجاور ولم
نرهن إلا بعد أيام.

جماعات جماعات من الماركسيين واليساريين وطلبة الوفديين، من
كل جنس ولون، من الجريج والأرمن إلى المصريين الأقحاح، العمال
والصناعية والتلامذة وأساتذة الجامعة، من اليهود متمركسين - كما
كان يقال - إلى صهاينة صرحاء الانتماء إلى الماكابي والمهايى، من
اليوغسلاف الهاربين من حكم تيتو الذى انتصر حديثاً على النازي
وانشق حديثاً عن الستالينية، إلى الروس البيض الذين فرّوا من وجه
الثورة الشيوعية البلشفية فى العشرينيات ووجدوا أنفسهم مع
الشيوعيين المصريين.

فهل كانت هذه المجموعة متناقضة المنازع والمناحي تصويراً مجسماً لما كان قد حدث منذ سنوات، وأنا في سنة الثالثة ثانوي، عندما قلت، بصوت عالٍ، وسط تلامذة العباسية الثانوية، إن لكل واحد الحق في آرائه ومعتقداته أيا كانت، وإن الواحد إذا كان ملحداً فله كل الحق في أن يكون - وأن يقول - وإن «قولتير وروسو كانا ملحدين وكانا من أعظم الفلاسفة والمفكرين». . . «لكل أحد الحق المطلق في أن يكون ملحداً، إذا شاء أو إذا اقتنع»، (هكذا قلت يومها) وعندئذ حدث ما لا أنساه أبداً - وما لا تتيح لي هذه الأيام المعتسة أن أنساه - أن اجتمع حولي «زملائي» من الطلبة يتصايحون ويقولون بغضب جامح أن كيف أجرؤ على التطاول على الدين، وانتهاك القيم والعقائد الثابتة. واجتمعوا حولي - أنا الذي كنت مازلت ألبس الشورت ربما، فحياً صغيراً الجسم قليل الحول - بتهديد صريح، يهيمون بأن يصل الغضب بهم إلى الضرب وتمزيق الملابس، لولا أن تصدى لهم صديقاي جورج، وجابر، كان كل منهما قوياً وجسيماً ومصمماً، في قلب الضجة والصياح، أخذاني بعيداً عن المتهجمين.

كان ذلك على الأرجح في سنة ١٩٤٠، وكان من المتاح أن نقرأ عندئذٍ مقالة بعنوان «لماذا أنا ملحد» بقلم إسماعيل أحمد أدهم، ورد محمد فريد وجدي بعنوان «لماذا هو ملحد» يتبادلان الحججة بالحجة، من غير أن ينطلق الرصاص أو ترتفع السكين أو يُفرق بين المرء وزوجته بتعلة الردة والمروق.

كيف تغدينا في هذا اليوم الأول العصيب، غداءً مطبوخاً؟ هل أخذ كل منا رغيفه وغدائه - مثلاً - مغروفاً من حلة بامية كبيرة ساخنة يتصاعد بخارها، في طبق من الصاج، وربما طبق صيني، يُسلم بعد الأكل للمتعهد الذي عهد إليه بأمر الطبخ والتغذية، وينتحي كل

منا به ركناً، نغمسه بالخبز، أم كانت فيه قطعة لحمة وكانت معه شوكة
وسكينة؟ لا أظن، فهل كان الغداء أرغفة خبز بلدى بالجينة والحلاوة؟
أما الرياضة والتمشى فى الهواء الطلق فى مكان فسيح به أشجار
قلعه كان استشرافاً وتنبؤاً بقدر ما كان واقعاً نراه من خلال باب العنبر
العريض. كنا محبوسين وكان الحس بالقهر وبالجهول أقسى من الحبس.
أما المشهد الذى لا ينسى فهو صباح يوم ١٥ مايو بعد ليلة الاعتقال.
كانت حكومة النفراشى لم تعد للأمر عدته تماماً، وكانت الحمامات فى
المعسكر البريطانى القديم معطلة لا يجرى فيها الماء.

وعلى الساعة الحادية عشرة كانت جموع المعتقلين على اختلاف
مللهم ونحلهم تتصايح وتحتج وتطالب بحقها الإنسانى فى إفراغ
الأحشاء، أى نعم، أيامها كانت المطالبة بالحق الإنسانى ممكنة بل واردة
وضرورية وكان كل من جانبى العسف مقتنعاً بها، السجنان والسجين
كلاهما.

وعندما لم يعد ممكناً، بعد، حبس المعتقلين فى العنبر من غير قضاء
هذه الضرورة وسُمح لنا بالخروج اثنين اثنين، وقفنا فى طابور طويل
متململ، وتقدم كبار السن والمرضى إلى الأمام، وعندما جاء دورى
صحبنى عسكري مع زميل لى لم أكن أعرفه حتى اقتربنا من الغاية،
ووقف العسكري على مبعدة ينتظر، كان مشهد الحمام الجاف من غير
مياه، لا يطاق، وتعفن الفضلات ساطع نفاذ لا يكاد يُحتمل وقد تناثرت
على الأرض المبلطة وحتى أمام المراحيض حيث كان من الضرورى اختيار
موقع القدمين بينها، وكان أداء الضرورة رياضةً بهلوانيةً فى موقع ضيق
مرصع بكل أصناف وأشكال الفضلات الآدمية، الطرى والصلب منها،
الأصفر البانع والمسود القاتم، المكور المدور والمستطيل الحلزوني، وكان
الهدف الأول هو الفراغ من المهمة بأسرع ما يمكن.

وليلتها تكرر المشهد الأليم تحت النور الساطع وتحت أعين الحرس.

جاء السباكون وأصلحت المواسير وجرت المياه في مجاريها في ثاني يوم، فلعل «الهواء الطلق».. إلى آخره.. كان فعلاً في ثاني يوم..

أبو قير ١٧/٥/١٩٤٨

والدتي العزيزة

بعد إهدائك أرق التحية والسلام.

لم يصلني شيء حتى الآن (الساعة ١٠ صباحاً يوم الاثنين) وأرجو أن تهتموا بالمسألة.

كل ما أريده الآن هو شبشب والشورتات البيض.

أما السرير فليس ضرورياً لأنه متصلنا سراير من جهات أخرى.

أنا مرتاح طبعاً من ناحيتي فلا تقلقوا، رياضة وشمس وهواء ومعاملة حسنة جداً، وأكل طيب (١١) ولا ينقصني غير الكتب فأرجو إرسال ما طلبته منها.

إن لم يكن هناك طريقة أخرى فأرسلوا هذه الأشياء إلى نقطة بوليس أبو قير، وستصلني إلى المعسكر بسلام.

(سطر مشطوب بالقلم الثقيل بمعرفة الرقابة)

أرجو أن تحافظوا على كتبي - كلها - بكل عناية.

إذا أمكنكم إرسال كوب المونيوم يبقى حاجة عظيمة - وإن كان ذلك غير ضروري جداً، يمكن أيضاً الاتصال بالبنك ومعرفة الموقف هناك.

على فكرة أي تاكسي يمكن أن يصل للمعسكر ومعه أي شيء بكل حرية، فإذا كان خالي يونان أو خالي سوريال مستعداً يبقى حاجة عظيمة جداً أيضاً. في الختام سلامي للجميع، هناء وإيزيس ولويزة وقبلاتي لفوفو وسلامي لجدتي ولك يا والدتي أعطر السلام.

(أعضاء ضابط المعتقل)

ابنك المحب

(أعضاء)

ما لم يأت ذكره في الخطابات أننى وقعت مريضاً بعد الاعتقال
ببومين ثلاثة، البرد فى مايو والحمى والكحة العنيفة طرحتنى على
السريـر النقالى الذى وصل ووزع على العنبر ووضع صفوفاً بينها ممرات
معقولة وإلى جانبها علب من الكرتون جاء بها الأهالى وفيها أطيب
الأكل المعتادة فى مثل هذه الحالات، وقد وضعت فيها، مثلاً، الغيارات
والأكواب والأطباق والكتب والمجلات وما إلى ذلك من متعلقات الحياة
التي تذكرنا بأننا مازلنا آدميين لنا خصوصيات. بدأ على العنبر شيء من
الانتظام وانقسم ثلاثة أقسام، قسمين كبيرين: إلى اليمين اليهود
والصهاينة والأجانب بالقرب من «عنبر البنات»، وإلى اليسار قسم
الماركسيين واليساريين، وبين كل قسم ممر واسع. إلى الأمام، بالقرب من
البوابة تركت مساحة واسعة نسبياً، حيث كنا نقف فى صفوف من
خمسة، ونحن نأخذ المسألة كأنها لعبة كل صباح بعد الإفطار وكل
مساء قبل العشاء، فيمر الضابط النوبتجى ليحصينا.

ولما كان الكثير من المعتقلين لا يعرفون العربية - أو لسبب آخر
يصعب على تحديده - فقد كان النداء دائماً يعلو بالفرنسية سانك
سانك، cinq cinq أى خمسة خمسة بالعربية.

سانك سانك هو النداء الذى يبدأ به يومنا وبه يوشك أن ينتهى.

عندما انتابتنى الحمى العنيفة لم أكن أعرف من الذى قدم لى كل
خمس ساعات (بانتظام) حبة أسبرو مع كوب من الماء، من الذى كان
يأتى إلى بطبق الشورية الفاتر المائع الذى فيه بالكاد نسيرة لحمية أو
فراخ.

هل كان صابر هو الذى يعنى بهذا المريض؟ أم كان الشاب اليهودى
الملتحمى هو الذى يعطيه حبات الأسبرو، فى نوع من مَنضض التضامن فى
المحنة؟

كل ما أذكره فى غيبوبة الحمى نظرة منه تصورت أنها نظرة ازدراء أو

استهانة لضعفى وقلة حيلتى .

نظرات الاستخفاف أو الإهانة تظل كاوية لا تُنسى .

ما لا يأتى ذكره فى الخطابات بعد ذلك أن العنبر الكبير له جدار واحد جانبى وأما باقى الجوانب فهى مفتوحة، الجانب الأيمن كان يفصله عن «عنبر البنات» ساحة ليست صغيرة جداً مسورة بأسلاك شائكة من ممر ضيق وكان العنبر الكبير مفتوحاً على هذا الممر أما الجانب الأمامى فله مصراعان حديديان كبيران بينهما فجوة عريضة هى بمثابة بوابة المعتقل ومن اليوم الثانى عرفنا أن «البنات» كن فى العنبر الصغير المبنى على طراز ثكنة لنوم الطيارين أو العاملين .

ومن وراء الأسلاك الشائكة على بعد أمتار قليلة كان بإمكاننا أن نراهن .

اليهوديات كن جميعاً على الفور تقريباً بالشورت القصير والبلوزة أو القميص الجابونيز دون أكمام، اتخذن مجلسهن على مقاعد قماشية أو كراسى خيزران، أما المصريات القليلات - ومنهن زينب المشراوى، فهن - كما يُنتظر - بالفساتين حتى لو كانت موضة الأربعينيات هى الفستان على الركبة فوقها أو تحتها بقليل .

رجال متلفحون بأوشحة رمادية ساذجة يحومون حولى بعيون لامعة لمعان شفرة خنجر ولحى سوداء تطول وتطول باستمرار كل ثانية حتى تكاد تصل إلى منطقة أحزمتهم الجلدية العريضة المح فيها غددات ضخمة لا أصدق أن المعتقل - أنا أعرف أننى فى المعتقل - فيه هذه الأشباح المسلحة بطبنجات شريرة الشكل، ترتفع قامات الرجال الملتحين الموشحين كأنهم يحلقون خفافيش ضخمة لأجنحتها حفيف ولأسنانها صرير وأنا أرتجف من وقع الحمى وأكتشف أن أسنانى تصطك برعشات متلاحقة .

مالدى من خطابات بعد ذلك صدر عنى فى ٥ يونيو :

أبو قير فى ٥ يونيو

والدتى العزيزة

أهديك أرق تحية وأعطر سلام وأوصيك مرة أخرى ضرورة المحافظة على صحتك وعدم الانشغال والقلق لأن هذا أولاً لا نتيجة له، ثانياً يضر الصحة وبعد ذلك يأتى الندم كما تعرفين فإن نتيجة الهم والتفكير فى الماضى كانت أن صحتك ضعفت جداً وندمت ولم يكن هناك أى فائدة فأرجوك إن كنت صحيح تحبيننى ألا تفكرى كثيراً وألا تقلقى فأنا من ناحيتى مبسوط ولا بأس هنا، ومن ناحيتكم فإن الحال ماشية على كل حال .

مسألة الزيارات : أرجو أن تبعثى لى فى أقرب فرصة شوية كتب ولا يهم الأسماء فأرسلنى لى بعض كتب من الرف الأول من المكتبة ويستحسن أن تستشيرى أنطوان فى هذه المسألة أو أى شخص يعرف ميولى .

هناك كتاب كبير مجلد بغطاء مبيض سميك اسمه Plays by Maxim Gorky أرجو أن ترسله فى أقرب فرصة وكان يوجد فى الدرج الثانى (من أعلى) من مكتبى .

كذلك أرجو إذا أمكن إرسال قبقاب وليفة حمام . تحياتى الحارة إلى كل من يسأل عنى وأعز سلامى لأختى الحبيبه هناء وقيلاتى الحارة لفوفو وسلامى لإيزيس ولويزة ولك يا والدى المحبوبة أصدق مشاعر الوفاء والإعزاز .

والدتى العزيزة

أرجو أن تهدي أنطوان خير الله أحر تحياتى وهو يمكن أن يساعدك فى اختيار الكتب التى ترسلينها لى هنا . وعلى الأخص روايات كبار القاصيين : تولستوى، ديستوفيسكى، جوركى، جوجول، تورجنيف .

كذلك إذا قابلت أحمد صبرى فأرجو أن يرسل لى بعض ما لديه من كتب كبار الكتاب الإنجليز المعاصرين: جيمس جويس، ألدس هكسلى.. الخ أو غيرهم.

فأنا بحاجة شديدة للقراءة هنا، ولك يا والدتى أرق تحياتى وشوقى.

(امضاء)

يمكن إرسال جوابات إلى العنوان الآتى:

معتقل أبى قير - طرف محافظة الإسكندرية.

ويسرنى جداً أن أتلقى خطابات من كل الأصدقاء فبلى أنطوان وصبرى وغيرهم.

نظر ويوصل

امضاء قوه سندان المعتقل

كان مرأى «البنات» من وراء الأسلاك الشائكة نصف عاريات تقريبا فى أصباح الصيف الحارة، يشعل خيالنا. كان ذلك، أيضاً، هو الذى يشعرنا حقا أننا أسرى العسف والأحلام. حمامة بيضاء كبيرة جداً تطوف حول الأسلاك الشائكة التى تطوق المعتقل ومن الجانب الأيمن أراها، فى وقدة جرانحى، فوق سيقان البنات المفرودة بكل جمال قدها المخروط فى الشمس، فى بحر الحُمى لم أستطع أن أدرك العلاقة - التى وجدت أنها ضرورية وحتمية بشكل مطلق - بين تخليق «الحمامة - الصقر»، الرءوم الجارحة وبين غواية الأفخاذ النسوية التى تخايل بأنها مبدولة من وراء الأسر، ولكنها منيعة مع ذلك منة لا تُنال.

الفصل السادس عشر

كما استدركت حكومة النقراشي - أو محافظة الإسكندرية - مسألة جفاف المياه في حمامات معسكر سلاح الطيران الملكي البريطاني الذي تحول إلى معتقل مرتجل على وجه السرعة، أخذت تستدرك، تحت غطاء الأحكام العرفية، وما عرف بحرب فلسطين الأولى، ما فاتها من قوائم اعتقال غير المرضي عنهم، أو من كانوا يسمونهم «العناصر الهدامة». دخلت الجيوش العربية - أياً كان معنى هذه الكلمة - أرض فلسطين، وأخذت المأساة تدور فصلاً.

ودخل معتقل أبو قير أصدقاءنا، واحداً بعد واحد.

نصطحح على الصبح بالتهليل والترحيب لمقدم الوافدين الجدد.

جاء عبد القادر وحمدي وشوارتز وسليم اندراوس الذي أسميته

فريد اسكاروس.

وعلى طول توقعنا لم يأت قاسم إسحاق طبعاً، فلعله الآن في

الصعيد الجوانبي، ولكن لم نفهم لماذا لم يأت لا أحمد النمى ولا على

أبو الليل.

هل كنت أشك كثيراً في أن فتوح القفاص سوف يأتي؟

الدهش أننا بعد أن خرجنا جميعاً لم يكن فتوح القفاص يشير

بكلمة واحدة إلى حلقتنا الثورية البائدة، ولا إلى اجتماعات شارع

العباسي، ولا أي من نظرياته الفوضوية المأثورة عن باكونين وكريوتكين،

كانها - هذه - لم تكن.

ولكن ألم نكن، مُعظمتنا، قد آثرنا السكوت تماماً عن هذا الذي كنا

نحياه بكل جوارحنا، بكل حلوه ومره، بكل نشوات أمجاده المتصورة
وكل عذابات القلب المحرقة؟

لماذا لم يأت علي أبو الليل، هل أودعوه مرة أخرى سجن الحضرة؟
أم لعلهم تركوه في حاله، وقد مالوا إلى الظن - وربما اليقين - بأنه
علي أية حال قد انكسرت ثوريتته، يعنى بطل شقاوة وشاف أكل عيشه؟
في العنبر العالى الفسيح العامر الآن بصفوف منتظمة من السراير،
أنظر إلى السقف الحديدى مثلث الجنبات الحديدية النازلة منه إلى منتصف
المسافة بينه وبين الأرض، بمسافة تسع للطائرات الحربية بأن تندرج داخله
إلى مأواها في العنبر، أقضى ساعات طويلة من التأمل واسترجاع أيام
الكبرياء. كانت أحلام مواصلة الكفاح - علي رغم كل شيء - وتنمية
عناقيد الخلايا السرية والعنوية تطوف بي وتراودنى حتى فى الحبس.

كذلك طاف بذهنى أن علي أبو الليل لم يكن مجرد صانع أحذية
حريمى، بل كان فناناً وكان فى خلوصه لفنّه ما يقارب الشبق أو حتى
الفيثيشية، هل يبرأ كل فنان حق من لوثة شبقيه أو فيثيشية هيئة كانت
أم رازحة الوطاة متطلبة؟

لا تستهن يا عزيزى بالصنعة، أياً كانت. كنتُ زمان، أيام
رومانسيتى أنظر بشيء من الاستخفاف إلى «الصنایع». علّمنى علي أبو
الليل غير ذلك، بمجرد رؤيته يشتغل.

قلت: ما أوهى الخطّ الدقيق الفارق بين بدائع الصنعة وبدائع الفن.
أشتاق إلى شارع صفية زغلول وإلى «دكانة» علي أبو الليل فى
الشارع الخلفى، كما أشتاق إلى انطلاقات الفن وشطحات الشعر.
أشتاق إلى شارع الكورنيش فى ليالى الشتاء، خاوياً موحشاً وجميلاً
مع وشيش البحر وتلاطم أمواجه تحت فى الظلمة، والأوتوبيس نمره ٢١
يقطع الطريق بسرعة وهو يترنح، ليس فيه إلا القلائل من العائدين إلى
بيوتهم فى سيدى بشر أو المنذرة أو العصفرة، ينفضون رءوسهم

يغالبون النعاس بعد شقاً طول النهار، مازلنا في أول الليل ولكن البيوت مغلقة على الكورنيش، بنوافذها التي صدئ خشبها وحديدتها، وطلاؤها الذي يتساقط من الرطوبة والنسيان .

أشتاق إلى الحرية الفردية لى فى التنقل والصعلكة وتقرير ما أشاء من مسار قدر اشتياقى إلى حرية شعبى - إلى حرية الناس جميعاً - من القهر ومن الألم .

لأن الألم لا يُغتفر ولا يُبرر .

أشتاق إلى لفحة البرد المبلل برذاذ البحر من نافذة الأوتوبيس وأنا فى الطريق إلى بدروم بيت فريد الذى اتخذه مقراً خاصاً له، غرفته الخاصة ينام ويذاكر دروسه فيها ويكتب أبحاثه لقسم الإنجليزى فى كلية الآداب، ولعله يلتقى فيها أيضاً بصديقاته سواء كنّ عابرات سبيل أو زميلات فى الكلية، هجر أهله «البورجوازيين» فى أعلى، وانتحى بنفسه فى صومته السفلية .

تنزل إلى البدروم أربعة سلالم مدوّرة وأنت داخل من باب القيلاب الصغيرة الأنيقة بدوريتها الأرضى والثانى، وتدفع الباب لأنك لن تجده موصداً أبداً، فيفتح لك عن عالم فريد اسكاروس . سريره دائماً مهوَّش مشعث ملاءته مفضّنة مرمية كيفما اتفق، تماماً مثل كتبه على المكتب الخشبي الأنيق الذى ضاعت أبهته تحت أكوام الكتب والأسطوانات العارية أو فى أغلفتها والأوراق وزجاجات الخير المدلوق فى بقع جافة كبيرة على الخشب الموجنى الشمين، فوتى عريض عليه مخدّات وكراسات ومجلات، كراسى ثمينة مركونة إلى الحائط، على أحدها فونغراف نقالى مفتوح على أسطوانة لتينوروسى وبجانبه رصّة أسطوانات لتشايكوفسكى، وموتسارت، وطبعاً بيتهوفن العتيد .

أطباق أكل منسية تخثر فيها طبخ أمس وربما أول أمس، وأطباق فيها بقايا جبنه بيضاء وبصطرمة فواحة، أعقاب السجائر، عشرات من

أعقاب السجائر، وعلى الأرض وفي منافض مرتجلة أو غالية على السواء،
علب البلايرز الزرقاء أو علب الهوليورد متناثرة، بعضها مفتوح تطلّ
منه أعناق السجاير بيضاء رقيقة وبعضها غير مفضوض بعد.

البدروم ليست فيه نافذة على الشارع، تهويته الوحيدة من نافذة
تطل على أرضية منور القبلاً ويدخل منها نور الشمس في زاوية غريبة
منحرفة خاصة ساعة الغروب فقط، والنافذة لها مصراعان خشبيان
مفتوحان باستمرار.

قلت له: فريد ألا يدخل لك فيران من المنور؟ قال: فيران؟ تدخل،
وماله، تأنسني، أحياناً أقعد أراقبها تلعب وتقلب في الأكل وتجري
بمرح، لا أشبع من رؤيتها.

الكتب في كل مكان، منها كتب الشعر والروائيين ومنها كتب
الثوريين والفوضويين أيضاً «الفلسفة السياسية لباكونين» من تأليف
ج.ب. ماكسيموف ود عن فن وصناعة الكتابة، لماكسيم جوركي
وفلاديمير ماياكوفسكي وأليكسي تولستوى وقسطنطين فيدين .

وكان عندئذ يتردّد بين أن يكتب رسالته للماچستير عن د.هـ
لورانس وتمرده على الطابوهات الشيكتورية، أو عن لورد بايرون
واشتراكه في حرب تحرير اليونان من الرقبة العثمانية، ثم استقر عزمه
على لورد بايرون .

كانت رائحة البدروم خليطاً من دخان السجاير ونفحة من عرق النوم
وقوح الكولونيا وغبار الكتب الخاص الفريد ونفثات من بقايا الأكل، لم
تكن رائحة غير طيبة بل بالعكس لها جاذبيتها.

وكما اشتقت إلى آفاق الحرية الفسيحة من على الكورنيش اشتقت
إلى دفء وحميمية بدروم الصديق الحافل بوجوده وبحضور أطياف
الشعراء الثوريين .

كان فريد وسيماً، مائلاً إلى سمرة خفيفة، أنيقاً في فوضاه، نحيلاً،

عصبياً، دائم التوتُّر، لا تكاد تسقط السيجارة من ركن فمه .
عندما جاء للمعتقل كان همه الأول والأساسي هو الحصول على
تموينه المنتظم من السجناء، لم يمكث معنا طويلاً ولكنه ترك فراغاً
كبيراً عند خروجه .

أما في سيدي بشر فقد كان أسلوبه في الحياة هو ما يلوح أنه لا
مبالاة، وما هو في الواقع تورط حتى العنق في القضايا التي كنا نعتنقها .
هل كان وراء هذا التورط تمرد أوديبي من نوع ما، لم يُشف بعد تماماً،
على سطورة الأب الموظف الكبير في بلدية الإسكندرية، عضو المجلس
الملى القبطي، ومالك الأطيان الواسعة في الصعيد؟

قد تكون هذه صيغة نمطية، أيقظ ذلك من حقيقتها؟

كان يقضى نهاره في المعتقل على سريره، بالشورت والقميص
نصف كم، يقرأ بايرون والشعراء الرومانسيين الإنجليز كما يقرأ
«الريدرز دايجست» والأهرام والإيجبشيان ميل، ويدخن بلا انقطاع،
ثم يخرج إلى ساحة المعتقل يمشي طويلاً أمام «عبر البنات»، ويعود
للغداء وقيلولة بعد الظهر والقراءة من جديد، وكان بين الحين والحين
وبشكل متقطع يعطى دروساً في الإنجليزى لخمود شبارة وصابر محفوظ
وحسين شكوكو معاً، ولكن من غير دأب ولا انتظام، فلا أظنهم قد
أفادوا منه شيئاً كثيراً، لكن العبرة بالنوايا في نهاية الأمر .

في بدروم سيدي بشر كان جدلنا لا ينتهى عن معنى الالتزام والحرية
في الفن ولم يكن دفاعى عن الالتزام - مع تحفظات كثيرة - حاراً جداً
بل على سبيل استكشاف كنهه عبر الجدل، على الأسلوب السقراطى
العريق، حوارات بينه وبينى كأنها بينى وبين نفسى، بدأت في بدروم
سيدي بشر واستمرت في معتقل أبو قير ومازالت متصلة بعد أن رحل
فريد عن عالمنا وحتى الآن، وكأنه مازال كامناً في روحى، لم يرحل قط
ولن يغيب .

يقول: لا وجود للحرية إلا إذا كانت مطلقة، لا تحدّها حدود، كل قيد على الحرية انتقاص منها.

أقول: هل تعنى أن الحرية المطلقة ليست هي الانفلات والفوضى وانعدام القانون؟

يردّ وهو يلقي بعقب سيجارته الذى أوشك أن يحرق شفتيه المتوترتين المرتعدتين بالانفعال:

- طبعاً، هذا بديهيّ لم يعد يحتاج إلى تأكيد، الحرية المطلقة هي قانونها بلا اقتراق.

- يعنى هذه الإطلاقية في الحرية هي في الوقت نفسه قانون مضمّر وكامن؟ أم هذا ما تقول؟

- أيوه.. أيوه.. سوف أستيقك، وأقول، هي بالتالي مسئولية ولكنها ليست فرضاً من علي، ليست إلزاماً من الخارج، ليست خضوعاً لأية سلطة أخرى غير سلطتها هي نفسها.

- لكن يا عزيزي ألا تظن معي أن الحرية تقوم على احترام حرية الآخر؟ وأن..

فيقاطعني بحدّة: طبعاً يا أخي.. الحرية ضروريّ أن تقوم على الحوار، كما نفعل الآن، حتى لو انفعلنا وشططنا، لكن تقوم على العقل.

ويواصل دون أن يدع لي فرصة للتنفس - حتى - دَعَكَ من الحوار:

- في الفن كما في السياسة الثوريّة ليس على الخيال أي قيد ليس له أن يمثل لأية قيود، تحت أية دعوى، مبدأ الحرية الكاملة المطلقة هو المبدأ الوحيد المقبول.

فأحاول أن أسترّد شيئاً من معقوليّة الحوار:

- معك، معك تماماً.. ولكن شرط الفعل الثوريّ هو الالتزام بالديمقراطية، والديمقراطية هي الصيغة الوحيدة المقبولة التي تفتح العقل البشري عنها لتسيير أموره، يعنى قيد خضوع الأقلية العددية للأغلبية

مع إعطاء الأقلية كل البرّاج في أن تعرب عن مواقفها وآرائها وأن تروج لها وتدعو للانحياز لها، من غير ذلك لا يمكن لأى شيء أن يحدث .

فيقول بشيء من التردد وشيء من التسليم :

- نعم، فى الفعل، فى العمل، ولكن هذا لا يحول دون أن أحتفظ

بحريتى كاملة فى رؤيتى للأمور، حريتى فى الحلم .

وأعود فأنحاز إلى جانبه قليلاً :

- حقّ الحلم قوة إيجابية لتغيير المجتمع، علينا دون أى إلزام خارجى

بالطبع أن ننصت لصوت الحلم معك تماماً .

سوف أقول مع رفقاء السيرىالية :

«أن ننصت إلى الصوت الملهم الدافئ المتفجر من ينباع الحارة

الأولية، ينباع الحياة، هى نفسها ينباع القوة الكامنة فى طوايا هذا

الكائن الحى الموار الذى نسميه الشعب، أن ننصت إلى الرسالات

الهامسة أو المدوية المنبعثة من مكان النفس، ومن الأغوار التى تخفق

بها أجواء القلب وتجيئ بها أشواق الناس للحرية وللعدل،

هل كان ذلك كله حواراً بينى وبين صديقى أم هو مازال حواراً بينى

وبين النفس ؟

لم يكن فريد اسكاروس، وهو فى أوتوبيس ثمره ٣ فى طريقه للكلية

أو حينما يتصعلك قليلاً فى فناء الكلية - عندما كان فى الليسانس -

يتردد فى أن يثير مناقشات حامية مع زملائه وأصدقائه من الطلبة،

وخصوصاً من الطالبات، عن الحرية والاشتراكية والإيمان والإخاد

وعسف الرأسمالية وطغيان الستالينية .

وكانت ثمّ جماعة من شباب كلية الآداب فى مقرها الجديد على

المحمودية (كان المبنى أحد اصطبلات الأمير كمال طوسون) قد بدأوا

يتحلّقون حوله مفتونين بسحر آفاق التمرد والانطلاق التى يفتحها لهم .

سوف يخرج فريد أندراوس قبلى بأكثر من سنة، وسوف نلتقى

بالأحضان، سوف أجد له عملاً مؤقتاً في شركة التأمين الأهلية
بالإسكندرية، وسوف يقع في حب بنات الشركة - وخاصة ستيفو
اليونانية ذات الصدر الناهض المهول التي أطلق هو عليها لقب «البقرة»،
فلم تغضب بل قبلت اللقب بسماحة وفهمت منه معنى الإعزاز
والخصوبة بل ربما التقديس قليلاً، سوف يقعن في حبه، حتى إذا وجد
مكانه في التدريس الجامعي، تزوج تلميذة نجية وجميلة، وانقطعت -
كما يحدث كثيراً - أوامر العلاقة، وإن لم تكن أوامر المحبة قد رأت
ولا بليت ولا انقطعت، وبعد سنين طوال سوف يهف على خاطري أن
أتصل به، بعد كل هذا الانقطاع، فاسأل عنه صديقة كانت تعمل معه
في التدريس، فتقول لي:

- يا خير.. كيف تسأل عنه؟ تسأل عنه اليوم بالذات؟ ألا تقرأ

الأهرام؟

- خير.. ماذا حدث؟

- تعيش أنت.. نعيه في الأهرام بالأمس، الأمس فقط، مع صورة.

سوف أبكيه يوماً بصمت وأظل أبكيه دائماً.

ليس بكاءً على الأطلال.

كان فريد قد أو شك أن يقع في هوى البنت التي أطلق المعتقل كله

عليها اسم «الحصان» (لي شيقال).

ليس الفرس، بل الحصان.

كانت فارعة الساقين، ممتلئة باللحم العففى، طويلة الجذع، ناهدة

الصدر، ووجهها طويل ولها خطم أو ضبب يأتي قليلاً إلى الأمام على

نحو غير منقر بل قد يكون جذاباً، حصان أنثوى حقيقى.

وكانت تستلقى في ساحة «عنبر البنات» الضيقة الرملية، وراء

حاجز من السلك الشائك الرقيق، على شيزلويج قماش، تمد ساقها

العاريتين البيضتاوين بالشورت الضيق القصير المرتفع حتى أصل

الفخذين تقريباً، في شمس صباح يونيو الإسكندرانية، تدير رءوس كل رجال المعتقل، بما فيهم عساكر الحرس، وخاصة الصاغ فؤاد الضابط المسئول بعد القومندان، وكان رقيق الجسم قصير القامة نوعاً ما، داكن السمرة، تلوح عليه سمات قارئٍ ومثقفٍ وله نظرة ثاقبة ذكية، مهذباً جداً، خافت الصوت لا يحب لبس الطربوش إلا في المناسبات الرسمية، كان حازماً في إدارة شئون المعتقل لكنه يصغى بانتهاب إلى طلباتنا تقدمها له «لجنة القيادة» التي تكونت عفويّاً من ثلاثة أربعة ممثلين للسيارات المختلفة فيما عدا الإخوان المسلمين الذين كانوا قد أبعادوا إلى عنبر آخر، وكان بالفعل يلبي مقترحاتنا التي تقع في حيز المعقول، سمح بتركيب مصابيح كهربائية على كل سرير معلقة من أسلاك جئنا بها من بيوتنا، وأتاح للجنة ومن تنتدبه أن تقوم بوزن وفحص توريدات الفول والبيض واللحم والخضار والخبز والحلاوة وسائر الأغذية قبل أن نتسلمها من المعهد، كما ترك لنا حرية الاشتراك الفعلي في إعداد الطبخ والإشراف عليه مع عمال المعهد في مطبخ المعتقل، ورفض بشكل بات كل الاتصالات بالكتابة أو الكلام بين رجال المعتقل وعنبر البنات، وإن كانت الأقاويل قد راجت وشاعت أن ثم أموراً تحدث في أنصاف الليالي، وقيل إن ذلك بمعرفة الضابط فؤاد، إن لم يكن بتدبيره.

سرعان ما توثقت بين الضابط فؤاد وفريد اسكاروس صداقة غريبة، كانا أحياناً يقضيان وقتاً طويلاً وهما يتحادثان بهدوء كما يتحدث أصدقاء قدامى، بل كانا يلعبان الطاولة ساعات دون كلل. فريد كان يجيد اللعبة وأنا لم أكن أعرف منها حرفاً.

ومع ذلك فقد كانت «لى شيفال» أبعدها ما تكون عن شبهة ابتذال أو بداءة. لعل جمالها الخاص القوي كان يضرهم في قلوبنا شهوة لا نعرف كيف نعالجها، ولكنها في الوقت نفسه كانت تلهم المعتقل كله بروح غريب من الأناقة والبساطة، لكنها روح ملتبسة ومعقدة، فقد

كانت صهيونية، أو على الأقل متعاطفة مع ما كان يُسمى عندئذ
إسرائيل المزعومة. وكنا نحن أهل اليسار الأيديولوجي أو الروحي،
نمقت الصهيونية وعنصريتها واستعلاءها وتصوراتها عن شعب الله
المختار واغتصابها أرض الوطن الفلسطيني.

كانت جاذبية الحصان، المرأة غلابية، وفي الوقت نفسه كان نفورنا
منها وتوجُّسنا من انتمائها، وارتيابنا في نواياها، لا تُقاوم.

ومع ذلك كله فقد كانت تبدو بريئة الشكل، وغير معنيّة بالسياسة
ولا بالأفكار والأيديولوجيات، مجرد فتاة يهودية إسكندرية من فتيات
النوادي والمراقص، بما فيها النوادي التي يديرها ويوجهها الصهاينة
المتصلِّبون الذين هم على دراية كاملة بما يفعلون.

أما البنات الأخريات يهوديات أو أجنبيات الأصل، والمصريات
القلائل ومنهن زينب المشراوي فقد وضعتن «لى شيفال» في الظل، لا
عن عمدٍ منها بل بطبيعة الأشياء.

لم نعرف قط، ربما لم نعلم بأن نعرف اسمها الحقيقي، كان المعتقل
كله قد وقع في هوى «لى شيفال».

وفي استلقائها الهادئ تصطلي شمس الإسكندرية الصباحية كانت
«الحصان» تصعد بنا جميعاً على الرغم منا تقريباً إلى بحار السماوات
الفيّاحة مخيلة الخيالات سابحة السحابات مترققة الزرقة.

كان مجرد مرآها، عبّر ذلك المرّ الرملّي الضيق بين عنبر الرجال
وعنبر النساء، يحلق بنا إلى فضاء حرةٍ فسيحة، قد تكون مجرد وهم،
لكنها تعلّنا بالأمانى المستحيلة.

لم تكن بوابة العنبر تُغلق علينا بالليل، كسبنا ذلك بالتعاون الهادئ
الرصين مع الضابط فؤاد وموافقة القومندان، كانت ساحة المعتقل الرملية
الفسيحة مفتوحة لنا بالنهار وبالليل، نخرج وندخل دون عائق، بشرط
واحد تمليه الضرورة: ألا نقرب كثيراً من سياج الأسلاك الشائكة.

الأشواك المعدنية المدببة تحت أضواء الكشافات هي التي تذكرنا أننا،
في نهاية الأمر، لسنا في معسكر للاستجمام والرياضة، بل في سجن
مقيد للحرية، قاهر، منذر بمآل مجهول، أو بمصير مروّع.
تبقّظت بعد منتصف الليل في عمق السكون الهامد لا تقطعه إلا
أصوات غطيظ النائمين، وشخيرهم وزفيرهم البعيد، أو تنهداتهم
وأناث نومهم الحسير، وجدت سرير فريد اسكاروس خالياً، تقلبتُ
أغالب النوم القلق، قلتُ لعله خرج يتمشى قليلاً في الهواء الطلق
الرحب، وأغفيت، سقطت أسير غيابة الأمواج المتلاطمة القائمة في ذلك
النوم الذي تروده مزقُ مبعثرة من رؤى غائمة، وعندما عاودتني نصف
اليقظة أحسست بغموض أن فريد يعود إلى فراشه، وفي العتمة التي
تدخلها انعكاسات أنوار الحراسة وإشعاعات سماء زرقاء صافية
وعميقة، خُيلَ إليّ أن وجهه مبلل بندى خفيف مضرّج بوهج خاص لا
أعرفه إلا عند الارتواء الشبقي وأن أنفاسه تتلاحق وهو ينفث دخان
سجارتة الليلية بعمق وباستمتاع، ورضي نادر عن الذات.
تعدد على سريريه، بالبيجاما الخفيفة، من غير غطاء، واستغرق في
النوم.

خايلتني في نومي شمس ساطعة تسقط على ساقين مبسوطتين
مستدين ناعمتي البشرة وابتسامة مستسرة لا تكاد تُلحظ تفتّر عن
سنتين أماميين ناتئتين وعاجيتين.

لكن الرؤيا لم تؤرقني، ساقنتي بسلاسة وهدوء إلى سياق نعاس لم
أصح منه إلا على نداء الصباح:
- سانك سانك.

وكوب الشاي واللبن يقدمه لي فريد اسكاروس وقد هبّ من النوم
نشطاً على غير عادته، وهو يتسم:
- صح النوم. ناموسيتك كحلي.

فهمست له : يا عمّ صحّ بدنك .. صباحية مباركة
وضحكنا معاً فقال الزملاء حولنا : ضحكونا معكم .
فلم نقل شيئاً .

كانت الأسلاك الشائكة في نور الصباح تبدو قريبة، شريرة الشكل .
في المعتقل ترجمتُ مسرحية ماكسيم جوركي «في الحضيض» .
ومثلناها على مسرح مرتجل أقمناه في آخر العنبر الواسع العريض .
غيرنا نظام فرش الأسرة وصفوفها ، ليلة واحدة لم تتكرر بالطبع .
كانت حفلة الافتتاح هي حفلة الختام . كان ضيوف الشرف هم قومندان
المعتقل وضباطه ، الضابط فؤاد والضابط رفقي ، والصُّولات علي وميلاد
وحسونة .

كانت مجموعة مسرحيات مكسيم جوركي التي طلبتها من أمي ،
بغلافها السميك المبيض قليلاً ، قد وصلتني بسلام ، وطق في رأسي أن
أترجمها للعربية ، هكذا ، دون هدف ، دون أن يخطر لي ببال ، طبعاً ،
أنها يمكن أن تمثّل في المعتقل .

فرغت من ترجمتها بالقلم الأبنوس وبحبر واترمان أسود من زجاجته
المضلعة على ورق كراسة من كراريس التلاميذ بعد أسبوع تقريباً ، وكان
عبد القادر وفريد وحمدي هم أول من قرأوها ، لم يكن شوارتز يعرف
العربية ، ولكنه انفعّل بشكل لا يصدق فرحاً واستثارة ، وقال إنه سوف
ينشرها عند خروجنا قريباً من هذا الأسر .

وفجأة تناقل هذه الترجمة أصدقائنا وزملائنا و«خصومنا»
السياسيون أيضاً إن صحت هذه العبارة فلعلها من ناحيتنا كانت اختلافاً
فكرياً جذرياً ضارياً للأصول أكثر مما كانت «خصومة» فقد كنا نعمل
معاً في كل أنشطة الحياة في المعتقل . ذاع أمرها ، وفجأة اتخذ قرار - لا
أدرى ممن وكيف - أن تمثّل المسرحية ، في المعتقل .

أقيمت خشبة المسرح المرتجل من ألواح الخشب التي كانت ، عند

قدومنا أول أيام المعتقل ، تستخدم في مقام الأسرة ، ثم ركنت على جنب بعد أن جاءت الأسرة النقالى ، ومن ألواح أخرى أقيمت عمادات جانبية شدت عليها ملاءات سرير وبطانيات متسقة الألوان فصنعت جانبى الكواليس ، أما الخلفية فقد مدت فيها ملاءة كبيرة ضحى بها صاحبها ورسم عليها ديكور يوحى بشوارع روسية رثة فى جانب ، وبغرفة فقيرة بها ساموفار حديدى متهالك . وعلى الخشبة وضعت مائدة عرجاء بثلاثة قوائم مسنودة على رصّة من الطوب ، ومقاعد خيرزان جىء بها من مكتب الضباط . وُصّلت أسلاك الكهرباء بمصابيح كبيرة ٢٠٠ شمعة وُزّعت على الخشبة بحيث يسقط نورها على الجانب الذى يمثل الشارع وجدران الأكواخ الخشبية ذات المداخن التى رسم الدخان يتصاعد منها ، ثابتاً ، لا يحركه إلا اهتزاز نور المصباح الكهربائى .

وبهذا اكتمل الديكور والأكسوار .

عمّلت ستارة بحبال وبكرات تفتح وتغلق من على الجنبين وعُهد إلى زميلين بمهمة فتحها وإسدالها .

استعيرت الملابس النسائية من عنبر البنات ، زينب أعارتنا فستانها ، ومدوّرة زرقاء تحولت إلى إيشارب روسى شعبيّ حول عنق حمزة الدمياطى الذى نهض بالدور النسائى أساساً ، وأعارتنا «لى شيغال» أصبع الروج وعلبة البودرة وباروكة شعر ، وساهمت بنات أخريات بالحذاء والشرابات الحریمی السوداء ومناديل رأس سوداء وملونة اتّخذت منها الطرح والمانتيلات الروسى . حفظ «المثلون» أدوارهم - كل ممثل نقل دوره فى كرامة وحدها .

كنا على أهبة الافتتاح ، حفلة البريمبير التى هى حفلة الختام فى الوقت نفسه ، البروفة جنرال والفينال مرة واحدة .

المواهب - بل العبقریات - التى تضافرت فى إخراج حفلة واحدة لم تلبث أن تمرّ عرضاً دون بقاء دون ادعاءٍ للخلود ، شأنها فى ذلك شأن

كل عمل مسرحي، كل أداء فني بل كل أداء في فعل الحياة وفي فعل الحب وفي فعل الثورة، يتم تمامه مرة واحدة بالضرورة ولا يتكرر أبداً. مهدر مرة واحدة وإلى الأبد، لكنه متحقق أيضاً مرة واحدة وإلى الأبد، هذا التحقق الذي يحدث بلا سابقة ولا لواحق مهما تكرر حتى لو تكرر، ففي كل مرة تمت فرادة بلا مثيل متطابق كل التطابق، هي استحالة العودة، ومع ذلك لا تتوقف غواية مناوشتها، مرة بعد مرة، ثم إنها حتى لو تمت مرة واحدة واندثرت، فهي ذى باقية، بشكل ما، أو هأنذا أتصور أنها - الآن - باقية لا تزول.

رُصت الكراسي في الصف الأول حيث جلس القومندان وضباطه وخلفهم الصولات وأعضاء «اللجنة القيادية».

ورُصت السراير بعدها على شكل مقاعد المسرح.

أضيئت أنوار المسرح وأطفئت أنوار الصلاة وخفقت القلوب.

وعندما فتحت الستارة دوت الصلاة بتصفيق حماسي استمر طويلاً

وانحنى «الممثلون» للجمهور، شأن المحترفين القدامى.

ودارت المسرحية فصلاً.

كان نجاحها في أعيننا وقلوبنا أعظم من نجاح أية مسرحية ليوسف

وهبي أو زكي طليمات أو فرقة التمثيل المصرية أو حتى «الأولاد فيك».

شد القومندان على أيدي اللجنة القيادية، وهنأهم بإيجاز وابتسامة

عسكرية هادئة، بينما كان اللفظ الفرح وأصوات التهنئة تتصاعد في

العنبر الفسيح.

كان الممثلون هم الذين ظفروا بآيات الإعجاب وسرقوا الأضواء

كالعتاد.

أخذ تأليف المسرحية وترجمتها مأخذ الأمور المنتهية المسلم بها أصلاً

دون حاجة لتنويه، كالعتاد أيضاً.

لكن قلبي كان يتفطر، بحس من الحسرة وشيء من التفجع على ما

انقضى ولن يعود قطّ، ما من شيء يعود، صحيح، ولكن ما من شيء
ينقضى أيضاً.

هبّ الزملاء ينقضون ما أبرم، يطفشون المصابيح، ينزلون القوائم
والألواح الخشبية، يطوون الكواليس، يلّمون الملاءات والأكسسوار،
ويخلعون الأسلاك والفيشات من البرايز المثبتة في الجدار، وأخذ الممثلون
يمسحون الماكياج ويخلعون الفساتين والإشارات والبنطلونات القديمة
التي رُسّمت عليها رقع مخيطة بفرز كبيرة.

هل هذه كتابة ذاتية، تدور حول هموم من يجعل نفسه بؤرة للعالم؟
هل هو حقاً يظن أن الكتابة هي الخلاص وهي المطلق وهي اللغة
الإلهية؟

هل هذه النماذج هي تصويره لأبطال النضال في سبيل المبادئ التي
يقول إنه يؤمن بها؟

استخدام «الأنا» هنا ليس إلا حيلة سردية من بين حيل أخرى كلها
مشروعة وكلها تندرج في النص لا في الذات، ضمير المتكلم هنا يمكن
أن يجعل محله أي ضمير آخر: أنت، هي، أنتم، هم، هنّ، إلا أنه يتيسر
للنص، ربما، أن يروود مناطق قد لا يتاح للضمائر الأخرى أن تتغلغل
فيها كما ينبغي للنص أن يفعل.

ليس ثم خلاص.

هل الخلاص في الثورة؟

ليس هؤلاء «الأبطال» هنا إلا أمشاج خيالات روائية، أليس كذلك؟

لم يكد يمر شهر في الأسر إذ نحن نحاول أن ندبر أمور حياتنا في
المعتقل، ولم تكن الزيارات مسموحاً بها بعد، لم تكن بحاجة إلى
تهريب الرسائل أو تلقى ما يبعضه الأهل خفية، فقد كانت القنوات
«الرسمية» مفتوحة، الرسائل والزيارات والطرود كلها تمر بسلام -
تقريباً - عبر رقابة القومندان وضباطه، وكانوا من الجيش لا من
مصلحة السجون، باعتبارنا أقرب ما نكون إلى الأسرى لا إلى

المساجين، تسرى علينا موثيق جنيف بشأن معاملة المدنيين في وقت الحرب، وتطبق بدقة.

لا أريد أن أقارن بين معتقلات فاروق ومعتقلات عبد الناصر، لا مجال للمقارنة ولا ضرورة لها.

الأسر، أو الحبس، وأنواع من العذاب - مقصودة أو غير عمدية - كلها هناك وكلها في النهاية واحدة.

أبو قير في ٨/٦/١٩٤٨

معتقل أبي قير

والدتي العزيزة

أهديك أرق تحية وأعطر سلام وأصدق شوق وأرجو أن تكونوا في خير صحة.

أنتهز هذه الفرصة لأطلب منكم علاوة على ما طلبته في الخطاب الماضي: عدد شهر أبريل وعدد شهر مايو من مجلة The Reader's

Digest، أنظروا ربما يستطيع أن يساعدك في العثور عليهما.

سطران مشطوب عليهما بالقلم الأسود الفليظ

أنا في حال طيبة ولا يشغلني إلا التفكير في أمركم ولكني أرجو أن تكونوا متشددين وفي خير حال.

وأخيراً أبعث لكل الأصدقاء تحياتي وأرجو أن أتسلم منكم جوابات بالعنوان الآتي: معتقل أبي قير طرف محافظة الإسكندرية.

وفي الختام سلامي لأختي العزيزة هناء ولويزة وإيزيس وقبلائي العديدة لفوفو ولك يا والدتي أرق تحيات ابنك المحب.

(مضاء)

ملحوظة: هناك مسألة مهمة في إرسال ما أطلبه من أشياء فبدلاً من مجيئك لغاية هنا يمكنك إذا أردت أن ترسلي الأشياء إلى «حاييم درة» صاحب المصانع المشهور وهو يأتي هنا مرة كل أسبوع ويسلم الطرود

الفصل السابع عشر

انتظمت الزيارة مرة كل أسبوعين، ومادامت فقد أصبحت كأنها نافذة - مهما كانت صغيرة - يطل منها الروح الحبيس على البراح الفسيح، تدخل داليا الصغيرة، دائماً في بدلة خفيفة مفصلة تفصيلاً جيداً - قلت: أمي لاشك فصلتها وخيطنها لها - إما البدلة الروز أو البدلة الزرقاء السماوي صافية الزرقة، بخطواتها النشطة السريعة وتتعلق بعنقي في حضن الحب الطفلي وتقول لي بصوت كله جدية ومسئولية: إزيك يا خويا إزاي صحتك؟ مبسوط؟ عايز حاجة؟ وأريت على كتفها وأنا أسلم على أمي بخجل - نحن الأقباط من طبقتنا لا نقبل أمهاتنا عادة ولا نعرف ملاطفات الطبقات الراقية أو المتحضرة سواء الوسطى منها أو الثرية - ولا تملك أمي نفسها أحياناً فتنهمر الدموع من عينيها وأسى بكلمات متعثرة إلى أن أخفف روعها وتدعولي بأن يرد غربتي سالماً غانماً ببركة يسوع والعذراء مريم، لم تكن متدينة جداً ولكن الاستنجاد بشفاعته المسيح وأمه طقس مصري قبطي أساساً وليس عن مجرد عقيدة مسيحية.

ومن ثم سوف تنقطع الخطابات، إلى حين، بعد ذلك - على الأقل ما بقي لدى منها - فلم تعد بنا حاجة إليها.

إلا أن خطاباً قديماً أعاد إلي بقوة، وعلى نحو غير متوقَّع، ما كنت قد أنسيته تماماً.

جاء عسكري يناديني، في غير موعد الزيارة المعتادة، يستدعيني إلى مكتب القومندان، لم أكن أعرف ما الداعي لهذا الاستدعاء غير المسبوق.

الفصل السابع عشر

انتظمت الزيارة مرة كل أسبوعين، ومادامت فقد أصبحت كأنها نافذة - مهما كانت صغيرة - يطل منها الروح الحبيس على البراح الفسيح، تدخل داليا الصغيرة، دائماً في بدلة خفيفة مفصلة تفصيلاً جيداً - قلت: أمي لاشك فصلتها وخيطنها لها - إما البدلة الروز أو البدلة الزرقاء السماوي صافية الزرقة، بخطواتها النشطة السريعة وتتعلق بعنقي في حضن الحب الطفلي وتقول لي بصوت كله جدية ومسئولية: إزيك يا خويا إزاي صحتك؟ مبسوط؟ عايز حاجة؟ وأريت على كتفها وأنا أسلم على أمي بخجل - نحن الأقباط من طبقتنا لا نقبل أمهاتنا عادة ولا نعرف ملاطفات الطبقات الراقية أو المتحضرة سواء الوسطى منها أو الثرية - ولا تملك أمي نفسها أحياناً فتنهمر الدموع من عينيها وأسى بكلمات متعثرة إلى أن أخفف روعها وتدعولي بأن يرد غربتي سالماً غانماً ببركة يسوع والعذراء مريم، لم تكن متدينة جداً ولكن الاستنجاد بشفاعته المسيح وأمه طقس مصري قبطي أساساً وليس عن مجرد عقيدة مسيحية.

ومن ثم سوف تنقطع الخطابات، إلى حين، بعد ذلك - على الأقل ما بقي لدى منها - فلم تعد بنا حاجة إليها.

إلا أن خطاباً قديماً أعاد إلي بقوة، وعلى نحو غير متوقَّع، ما كنت قد أنسيته تماماً.

جاء عسكري يناديني، في غير موعد الزيارة المعتادة، يستدعيني إلى مكتب القومندان، لم أكن أعرف ما الداعي لهذا الاستدعاء غير المسبوق.

ذهبت معه بالشورت الأبيض والجزمة السلبس الكاكي نصف المطوية على شكل صندل وقميص نصف كم مغضن وطالع من الشورت .
أحسست أن الغرفة الواسعة قد ضاقت فجأة، وجدت سيداً شاباً على المكتب، عرفني بنفسه على الفور: حمدي الخطيب وكيل نيابة المنشية، ومعه على جنب، سكرتير النيابة وقد فتح دفتر التحقيقات واستعد بالقلم الأبنوس، وعلى كرسي جانبي سيد آخر لم أتردد لحظة واحدة أن أتعرف فيه على ضابط مباحث كأن سيماهم على وجوههم قد انطبعت في ذهني منذ أن دخلت هذه الغرفة أول مرة في فجر ١٥ مايو، ومعهم الضابط فؤاد الذي انتحى الجانب البعيد وأخذ يقرأ «الأهرام» أو يتشاغل بقراءتها.

عندما وجدت هذا الجمع من ممثلي القانون والسلطة لم أحس بأدنى حرج من مظهرى المهمل المرسل على سجيته .
فُتح المحضر على الأسلوب التقليدي الذي تعلمناه في الأفلام الأمريكية والعربية على السواء . وفي كرأسه محاضرات المرافعات للدكتور سيف رمزي : اسمك عمرك عنوانك عمالك .

- هل حصلت على ليسانس الحقوق من جامعة فاروق الأول؟

- نعم .

- في أى عام؟

- ١٩٤٦ .

- هل تنتمى إلى جماعة تدين بالمبادئ الشيوعية؟

- لا .

- هل أنت على دراية بالمبادئ الشيوعية الماركسية؟

- في حدود دراستي القانونية .

- هل أنت مقتنع بها؟

- لا .

لم يكن ثم أدنى جدوى في التباهي بالثورية في هذا المجال وكنت قد قررت بيني وبين نفسي على الفور أن يكون دفاعي غير سياسي. كانت التقنية التي علمتها لكثيرين استعداداً لمثل هذه المواقف تتلخص في أنه طالما لم يكن الدفاع سياسياً مقصوداً به إثبات الهوية وتأكيد الموقف الثوري في مجابهة صريحة للسلطة فإن الأسلوب الصحيح هو الإنكار في حدود المعقول دائماً، والاكتفاء بأكثر الإجابات اختصاراً واقتصاراً على رد السؤال بأضيق الحدود.

سألني وكيل النيابة: هل تعرف المدعو أحمد النمى؟
- لا.

وبالطبع كان أحمد النمى هو الاسم الحركي أو السري ومن ثم كان صحيحاً أن المفروض أن لا أعرفه.

قال: هل تعرف بخط من كتبت هذه الرسالة؟
وسألني، بحذر، خطاباً بخطي كنت قد أغفلته تماماً. مررت عليه بعيني بسرعة:

عزيزي الزميل أحمد النمى:

ليس من حَقِّك ولا من أصول الزمالة، دَعَكَ من قواعد الصداقة، أن تعتدي على اختصاص زملائك، إن الالتزام الثوري بقواعد الأمان وتوزيع العمل يقتضي منك أن ترعى أصول الديمقراطية المركزية التي هي عماد العمل الثوري وإلا انفرط عقد الأمور وتخبط المسائل بعضها بعضاً وانتهى الأمر إلى العقم والإحباط إن لم يكن إلى أسوأ، أي إلى الإخفاق والفشل الذريع في هذه اللحظة التاريخية من حياة الوطن وكفاح الشعب. إن إغفال هذه القواعد الأولية لا يدخل في باب الفوضى وتشتيت الجهد فقط بل يكاد يرتقي إلى درجة الخيانة حتى إن لم تكن متعمدة أو مقصودة، لكن النتيجة متماثلة إن لم تكن متطابقة.

لذلك أرجو بل أرح في مطالبتك أن تكف عن اللقاء بمن يقع الاتصال بهم من اختصاصي حسب ما قررتهم اجتماعاتنا المتابعة وعندئذ فقط يمكن أن ننظر في أمر اغتفار الخطأ الجسمي الذي اقترفته لا في حقى فليس هذا بذي خطر في النهاية بل في حق الوطن والشعب والبروليتاريا عند التحليل الأخير للأمور مهما بدا أن المسألة صغيرة وقد تكون تافهة وليست بذات أهمية .

لك تحية الإخاء الثوري وأرجو أن تحرق هذا الخطاب فور قراءته .

المخلص يوسف

عادت الواقعة كلها بقوة إلى ذهني ، كان أحمد النمى قد التقى بسلامة ، في دكان عبد الفتاح خلف الله ، منذ سنتين ، ثم صادفه مرة في شارع محرم بيده ، ذكره بنفسه وطلب منه أن يحدد ميعاداً للقاء والدرشة . جاء سلامة ، حسب الأصول ، يبلغني بالأمر ، فكتبت هذه الرسالة في نوبة غضب ، وطلبت من سلامة بحزم ألا يلتقى بأحمد .

رددت ورقة الخطاب إلى وكيل النيابة ، بعد لحظة ، وقلت :

- لا .

- هل اسمك الحركى يوسف ؟

- لا . ليس لى اسم حركى .

- هل تعرف المدعو مينا إسحاق ؟

- لا أذكر .

- أليس مينا إسحاق هو أخ زوجة خالك سوريال ساويرس ؟

- آه .. نعم .. التكرت .

- هل التقيت به فى سبيل أن تضمه إلى جماعة تدين بالمبادئ

الهدامة وتدعو إلى إضراب العمال وثورتهم للإستيلاء على السلطة .

- لا .

ما علاقتك بالمدعو مينا إسحاق؟

- هو قريبي من بعيد، ربما كنت قد رأيتَه مع أقاربي مرة أو مرتين.

قال وكيل النيابة للسكرتير، اكتب:

«وأمرنا المتهم بكتابة العبارات الأولى من الخطاب المضبوط لمضاهاة

الخطوط»

كنت أعرف أن محاولة اصطناع خط مغاير لخطي يمكن بسهولة اكتشافه على يد خبراء الخطوط لكنني لم أتردد، وكتبت عزيزي أحمد النمس وما بعدها بخط كبير متعثر ومائل إلى تحت بما يغاير طريقتي في الكتابة.

ابتسم وكيل النيابة ابتسامة صغيرة وهو يملئ كاتبه:

«وأمرنا بعرض الورقة على خبير الخطوط وموافقاتنا بتقريره»

كان من الواضح عندي أنه كان يرى القضية تافهة لا قيمة لها، بل ربما كان على شيء من التعاطف مع زميلٍ حقوقيٍ أنهى دراسته في الكلية بعده ربما بسنتين أو ثلاثاً، ويعول أسرة كبيرة، في تلك الأيام كانت لتلك الاعتبارات قيمة.

بينما قال ضابط المباحث: تسمح يا حمدي بيه؟

وأوشك أن ينتزع الورقة انتزاعاً، ألقى عليها نظرة فيها مزيج من الفيظ والتشفي، ولكنه لم يقل شيئاً.

«ووقع في ساعته وتاريخ...»

قال لي: اتفضل انت، متشكرين.

دهشت من دمائه غير متوقعة.

ولم يحدث بعد ذلك شيء على الإطلاق، لم أستدع مرة ثانية للتحقيق ولم تُرفع القضية للمحكمة، ولا شيء.

لكن قلقاً ظل يساورني - بطبيعة الحال - طوال سنين، حتى انقضت فترة الاعتقال، وما بعدها.

عندما عدت وجدت زملائي فريد وحمدي وعبد القادر وشوارتز مجتمعين على باب العنبر، سألتوني في لهفة: ماذا حدث؟ حكيت باختصار دون أن أشير إلى أسماء أو تحديدات، وكنت في حالة من الإحساس المختلط بين النشوة وتحليق القلب إلى أعلى، وبين التوجس ومجابهة الهواجس السرية. لكنني - فيما تصورت - كنت أبدو متجلداً بل قوى العارضة متين الشكيمة. بهذه المفردات الفخمة شخصت إحساسي عندئذ.

بعد قليل جاءني الضابط فؤاد، وهو يمر على العنبر مروراً عابراً بعد إحصائنا سأنك سأنك، وقال كأنما لا يقصد أن يقول شيئاً مهماً: -زينب تسلم عليك، تقول قلبنا معك.

بعد قليل سوف تُنقل زينب ولي شيفال وزميلاتهما كلهن إلى معتقل آخر أو يفرج عنهن، وسوف أشعر بقلبي يهبط إلى غورٍ سحيق. أو شك سبتمبر أن ينقضي وبدأ الجو في العنبر الواسع تأخذه لذعات من برد الشتاء البكر وتهب فيه رياح تلجئنا إلى أن نتدثر بالبطانيات - أكثر من واحدة - بالليل وأن نلبس البنطلونات والبلوزات صباحاً وبعد الغروب.

سأنك سأنك

انتظمت صفوف الخمسات، وقد أوشكت أن تصبح روتيناً لا معنى له ونحن نشرثر ونضحك أو نسرح بالفكر، بينما الصول عطية - لا بد أن يكون اسمه عطية... ١ - يحصينا.

صَفَق الضابط فؤاد بيديه، دائماً يدهشنا أن هذا الجسم النحيف يمكن أن يصدر عنه هذا الصوت القوي الرنان المليء.

سكوت من فضلكم... سيلينس...! Silence

بعد لحظات ساد صمت متوتر وقد شاعت في الجو شحنة ترقب وتوجس ما كان أسرع صعودها في أية لحظة.

جاءت تعليماته - يعني أوامره - واضحة وقصيرة وحاسمة .
سنتقل من العنبر الشاسع الذى ضمّ كل الناس معاً، إلى الشكنات
التي كان يقطنها الطيارون وجنود الرتب الإنجليز، كل ثكنة فيها مكان
لعشرين سريراً، وعلى كل منا أن يحمل سريره وحاجاته إلى الثكنة،
وسيسمح بالخروج كل عشرة مرة واحدة، والمرجو ألا تتدافعوا وألا
تتزاحموا، عندكم ساعة واحدة بالضبط وستبدأ عملية النقل، وكل
عشرة منكم يتفقون مع بعضهم بعضاً .

إلى آخره .. إلى آخره

هبت عاصفة اللفظ والضجيج والحركة وزحف الأقدام وانحناء
المعتقلين على أسرّتهم يلمون ملاءاتهم وبطانياتهم الخاصة ويستنقذون
الأحذية والصنادل من تحتها ويرصّون الكتب والمجلات وأدوات الحلاقة
والأكواب الزجاج والألومنيوم وعلب الكرتون الكبيرة التي تقوم مقام
الكومودينو أو أدراج الدواليب وقد رُتبت فيها الغيارات والقمصان
وبقية الملابس .

وما هي إلا لحظة فيما خيل إلينا حتى ارتفع النداء مرة أخرى :

سانك سانك cinq cinq

وكنا قد رتبنا أنفسنا، كل عشرة مع بعضهم بعضاً فى صفين
متعاقبين .

وبعد صفين أو ثلاثة جاء دورنا .

كل منا يحمل سريره النقالي وحاجاته كيفما اتفق له أن ينهض
بحملها، لم تكن ثقيلة جداً وإن كانت، على نحو ما، مربكة قليلاً .
كانت الشكنات على بعد نحو خمسمائة متر من العنبر، أحسست
أن المسافة طويلة جداً وكان يخفف عني مشقتها أن كان معي، فى صف
مضطرب فريد وحمدى وعبد القادر وشوارتز .

وكان طابور من العساكر المجندين يقف على مبعدة، بحداء سور

الأسلاك الشائكة، وإن كانت الساحة المسفلتة، ثم الحوش الرملى بين مياتى الثكنات والعبر قد تُركت خالية.

كان مع كل عشرة منا صول يمشى أمامنا.

أشار الصول عطية إلى باب ثكنة تاتى رابعة على التعاقب وعلى بابها من النحاس نقش عليها بالإنجليزية رقم ٧ وتحت كلمة seven قلت: لعل مكتب القومندان رقم ١ ثم ثكنات ومكاتب الضباط والصولات رقم ٢ و ٣ على الجانب الآخر على مبعده من عنابرنا. وكانت الثكنات الثلاثة الأولى من هذا الجانب شُغلت فالمعتقلون يدخلون ويخرجون ويطلون منها واللفظ باللغات العربى والفرنسى والأرمنى واليونانى وغيرها يأتى وينقطع فى هبات متوالية. الأرضية والبلاط كانت نظيفة مكنوسة، قلت: لم تكن الثكنة واسعة لكنها لم تكن ضيقة خانقة، اشتغل العساكر فيها. كانت النوافذ عالية، ولها قواعد من الداخل، ومصاريعها الخشبية مدهونة حديثاً بطلاء أزرق، خطر لى أن الأزرق القوي هو لون سلاح الطيران الملكى البريطانى.

هل حلّ القمع (الوطنى) بجدارة محل القهر الاستعمارى؟

سرعان ما انتظمت الأمور فى ثكنتنا أو فى عنبرنا الصغير. بجانب الباب مباشرة اختار الروسىّان أناتولى وفلاديمير موقعهما وتلاهما هوروفيتش وميلوفيتش وكلاهما يوغوسلافى هارب من حكم تيتو. ثم نحن الخمسة فريد وبعده اخترت موقعى وعلى يسارى حمدى وبعده شوارتز وقبل آخر الصف عبد القادر ثم زيدان خليفه، زميل له من كلية الطب لم أكن أعرفه وظلّ متباعداً ومنظوياً حتى أفرج عنه.

بعد قليل جاءت العشرة الأخرى:

عثمان عبد المنعم وسعد مرسى طالبان من كلية العلوم يعرفهما عبد القادر ثم شوقى نمر ولطفى مدكور ووجدى حبيب وبعدهم صابر ومحمود وحسين وزميل لهم من شركة سباهى.

وعلى الفور تكوّنت «كومبيونة» منّا نحن الخمسة، فهل ثم أدنى أهمية لأنها تضمّ اثنين مسلمين واثنين قبطيين ويهودى مصرى إيطالى من أصل المانى؟

كان كل ما يصلنا من الخارج نتقاسمه بالتساوى: العيش الفينو، والفراخ المشوية، والمحشى باللحمة المفرومة، والمعلبات أو ما كنا نسميه الأغذية المحفوظة فلم تكن كلمة «المعلبات» شائعة بعد، من سردين إلى لبن ومن مربى إلى حلالة، وبالطبع الكتب والمجلات. ثم اتسعت «الكومبيونة» وضمت صابر ومحمود وحسين.

كان شوارتز يحتفظ لى خصيصاً بالعمود الفقرى الطرى للسردين المحفوظ إذ كان يعرف أننى أوثره باعتباره من أطيب الطعام، احتدّت عليه مرة إذ تصورت أنه يستخفّ بى أو يسخر منى عندما يقدم لى هذه العظمة السمكية الهشة مسلوثة من لحمها تشرّ بالزيت الدسم والصلصة المحمّرة، فأخذ يعتذر لى يومين متتالين وأوشك أن يبكى. وكان فى ذلك كله أقرب إلى طفل كبير الجسم، دائماً مرح ومُقبل على الحياة وعلى الأمل بقلب مفتوح، فأنلته الواسعة على صدره المترهل وساقاه الضخمتان فى شورت كاكى طويل حتى الركبة، يضحك لأقل مناسبة ويعلق على كل شىء بعفوية وفورية لا حجاب عليها، قال لى مرة: طبعاً لن تذكرنى عندما تصبح رئيس جمهورية مصر الاشتراكية، فانفجرت ضاحكاً فلم تخطر لى هذه الحكاية على بال، مع استحالة تصوورها، قلت له يا شوارتز غير ممكن حتى لو تخيلنا المستحيل فأنا قبطى، قال منفعلاً: لا يهم، ألم نتعلم أنه فى الاشتراكية لا أهمية للأصول الدينية أو العرقية؟ ألا نؤمن بذلك؟ قلت، على سبيل المفارقة وباستخدام عبارة شعبية شائعة لا تعنى شيئاً: ربنا يسمع منك... ليس من أجلى، لا أظن، بل من أجل المبدأ. قال بحماسة بالعربية: ضرورى، لازم.

كنا نُؤثر أن نتحدث معه بالإنجليزية إذ كانت عاميته المصرية لا تكاد

تفى بالتعبير عما يريد أن يقول .

هأنذا بعد ثلاث وخمسين سنة أذكره ، على رغم كل شيء .

كان هو وحمدي أبرعنا وأقدرنا على إعداد الأكل ، تسخين أو عمل شوربة أو طبق بيض مقلّى بالبصطرمة ، ولما كنت أقلّ الناس دراية بشئون المطبخ فقد كانت مهمتي أساساً أن أشطف المواعين قبل الأكل وأغسلها بعد الأكل بالتناوب مع فريد وعبد القادر يوماً بعد يوم .

لم تكن بالعنبر حنفيّة ماء أو حوض ، الحنفيّات تنزل من ماسورة طويلة منخفضة ممدودة على الممرّ الطويل بين الجدران الخلفية لصفّ العنابر المقابلة وبين الجدران الأمامية لعنابرنا ، أما الحمام فمشواره بعيد ونحن نكسل عادة عن الذهاب إليه - ستّ مرات يعنى فى اليوم ، قبل الأكل وبعده ، يكفى طابور الانتظار لغسيل الوجه والحلاقة والتواليت . كنت أقعى على ركبتى ، تحت الحنفيّة الواطية التى انحفرت تحتها فجوة أفقية مستطيلة مبلولة فى الرمل تسقط عليها المياه من الحنفيّات ، وأغسل المواعين بالصابون والماء وأجفّفها بفوطة نظيفة وأضعها على فوطة أخرى ، وكان فريد اسكاروس أندراوس وهو المدخن الوحيد بيننا يكسل عن القيام بورديته فيترجّأتى أن أغسل المواعين فى يومه بدلاً منه ، وعندما أجد مضضّه وقلقه وتدخينه الملهوف ونظرته المتضرّعة يصعب على فأقايبضه مقايضة خاسرة بأن يكس العنبر بدلاً منى فى يوم ورديتى مرة كل أسبوعين ، فقد استقرّ الأمر بقرار جماعى غير رسمى أن نعفى الخواجهات الروس واليوغسلاف من مهمّة كس العنبر وتنظيفه ، وبالطبع تشور الحناقات والخلافات على أيام النوبات منّ عليه الدور اليوم ومن كان عليه الدور أمس ؟

كان هوروفيتش اليوغسلافى قد فرّ من حكم تيتو الشيوعى لكى يجد نفسه معتقلاً على نحو عبثى مع الشيوعيين . كان مثقفاً وميسور الحال جداً فيما يبدو ، فقد كانت مائدته عامرة دائماً بما يأتية من الخارج

من أطايب ونبيلة رفيع المستوى مع زميله ميلوفيتش ، وكانا يفرشان سريريهما بمفرش غالٍ مطرز تطريزات فولكورية سلافية ، ويدعواننا للأكل معهما فنشكرهما دون أن نقربهما ، كانا من طبقة فكرية واقتصادية أعلى بكثير من المعتاد ، وكان هوروفيتش هادئ الروع دائماً وسيماً مدور الوجه ومحمر الأنف بشرايين رقيقة غير منفرة الوقع مع ذلك ،

ما أسرع ما لاحظت أنه يقرأ بالألمانية والإنجليزية وما أسرع ما استقرت بيننا صداقة وأخذنا نتبادل الكتب والمجلات ، قرأت من عنده لأول مرة أعداد پنجوين التي خصصتها لدراسة الموسيقى ، وما أسرع ما استفرقتني المفردات التكنيكية البحتة التي لم أكد أفقه لها مضمونا إذ أهدق في النوتة المرقومة برموز كتابة الموسيقى ، وما كانت ثم صلة بين ما أقرأ وما كنت أستعيده من أسطوانات دار نشر الثقافة الحديثة ، لكن القراءة تبتعث أصداء تتضافر وتتافر في بُنى مركبة غنية الجسم كثيفة وشفافة معاً تعدو بي خيول جامحة محكومة في سهوب لا نهاية لشاعتها وتهب بي عواصف ضارية العرامة من خبط الطبول الفخام وقرقة الصنوج تنقص لها سيقان الدوح تحت أقدام الثورة بجماهيرها الغفيرة التي تدوس أحلام الطفلة الصغيرة وتسرق طحالب الفطر المسموم بما طفع من دم المنسيين . غابات متواشجة الشجون حتى تؤوب إلى حنان الصوت المنساب على رسله مع شقشقات عزف التشيللو والفلاوت المستنيم تسلمني إلى أحضان أنثوية مستسلمة ناعمة الاستسلام .

تترامى الموسيقى البحتة من غير مجاز أو تشبيه تقوم البنى الصوتية في تسلسلها وتزاوجها وتتاليها في تعاقبها وتهاويها في تشابكها وتوحدتها في لدونتها وصلابتها في تقطرها وتدبقها في اقتحاماتها وتراخيها الأعيب نغمية ما أجمل صرامتها ودقة تركيبها تغلغل في

دمائى وتستغرقنى .

- هيه اللى واخذ عقلك .

ما كان أشدّ طموحى ، ما كان أعظم إقبالى على الأمل ، كنت -
ولعلنى مازلت - أومن أن صناعة المستقبل هى شأنى - مع كل الزملاء
معروفين أو مجهولين من أعمار الناس أو أعلامهم سواء - ولهذا حصلت
على كتب تدريس اللغة الألمانية ، جاهدت فى قراءة وكتابة حرفها
الكلاسيكى القديم ، وتصريف أفعالها المعقد ، وهجاء كلماتها التى لا
نهاية لطولها ، وسوّدت كراريس التمرينات ، بتوجيه ورعاية كريمة من
هوروفيتش ، ساعة كل يومين معه ، وساعة ، قد تمتدّ إلى أكثر بكثير ، كل
يومين مع أليكسى يعلمنى الروسية .

كان أليكسى قد بدأ يشتغل معى فى دروس الأبجدية الروسية ،
وكنت قد بدأت أكتب الخط الكيريلى (أو الكيريلوسى) وأحفظ
كلمات سهلة ورائجة - وأستخدمها - مثل : دا ، خراشو ، سباسبيا ، بل
وأكتب جملاً وعبارات سرعان ما نسينها بعد ذلك ولكنها نفعتنى
كثيراً فى زيارتى الكثيرة المتعاقبة لروسيا والاتحاد السوفيتى عندما
كنت أحس مع ثقل وطأة العسف والدولة البوليسية أصداء رومانسية
آتية من قصص تشيخوف وجوجول وروايات تورجنيف
وديستوفسكى ، هل كنت فى معتقل أبوقير أحلم بأن أقرأها بلفتها
الأصلية التى حدثت عذوبة موسيقيتها وفداحة غناها ؟

العنبر فجأة ضيق مطبق على الأنفاس غاصّ بالجسوم والأرواح
الأسيرة المتمردة والكسيرة معاً المتحملة والصابرة معاً ، أنهض من
سريرى متوفّر الجوارح وأندفع إلى باب العنبر وإلى الساحة الرملية التى
تفجؤنى الأسلاك الشائكة تحصرها وقليل من المعتقلين يتمشون كأنما
كانوا عندى كالأرواح الشاردة ، يخرج خلفى شوارتز وحمدي كأنما
ساورهما القلق لما لمساه من توترى وضيقى بالحبس الرازح على الروح .

لم يكن المعتقل معسكراً صيفياً للرياضة والاستجمام. كنا نفاجأ بعد أن ناوى إلى نومنا المثقل بالحبس والزهق، بغارات ليلية من جنود الجيش، تُضاء أنوار العنبر وتأتينا الأوامر الخشنة الجافة:

- اصح أنت وهو.. اصح واطلع بره.. زى ما انت..

العساكر يسدّدون إلينا مدافعهم الرشاشة القصيرة، وهم بخوذاتهم وعتادهم، كأننا فى ساحة حرب، الأوامر خشنة والأيدى القوية تدفعنا، إذا تباطأنا، بخشونة الأوامر وتهديداتها، منذرة مهما اعتدنا عليها أو استخففنا بها، قاسية وجافية باللهجة الصعيدى أو الفلاحى أو الإسكندرانى سواء.

نخرج إلى الساحة الرملية فى مختلف ملابس نومنا، بالبيجاما أو الفانلة والشورت أو الجلابية، كأنما نحن جمهرة هربوا من زلزال أو خرجوا من أسرّتهم بعد أن دوت صفارات الإنذار التى لم يكن عهدنا بها ببعيد، فى طريقنا إلى المخابئ وطائرات الألمان أو الطليان سوف تسقط على الإسكندرية القنابل الحارقة أو الطوربيدات التى دمرت أحياء بكاملها وقتلت المئات.

لكننا هذه المرة نُدفع إلى خارج العنابر لأن هنا حملة تفتيش. حملة تفتيش، يقلب العساكر والخبرون السريون العنبر رأساً على عقب كما يقال، تحت توجيهات ضباط المباحث بحثاً عن المنوعات. ولم تكن المنوعات إلا الكتب والأوراق الثورية والمناهضة، كل رواياتى لمؤلفين روس من نوع ديستوفسكى أو جوجول كانت تصادر ثم تأتى إلى بعد أسبوعين ثلاثة وقد تمزقت أغلفتها أو تقطعت أوراقها، لكنها كانت تعود عن طريق ضباط المعتقل وبخاصة الضابط فؤاد.

تتكرر الدراما المزعجة والعقيمة على مواعيد غير منتظمة ولكننا دائماً، والبركة فى الصولات وعساكر المعتقل الغلابة الذين توطدت بيننا وبينهم علاقة من الصداقة والمصلحة نُشاركهم فى أطايب ما يأتينا

من الخارج والأكل الجيد والسجاير، نظرفهم بما فيه القسمة دون ضن ولا تقدير فيأخذونه وهم يقبلون أيديهم ظهراً لبطن.

دائماً كنا نعرف أنها قادمة الليلة أو بعد ليلتين أو ثلاثة، ودائماً كانت الأوراق الثورية في مخابئ سرية مصنوعة ببراعة ومكر، إما محفورة تحت أرضية العبر ثم يسوى البلاط، أو في مواقع محددة من الساحة الرملية.

لكننا لا نسكت على الترويع الليلي ونكتب العرايض والشكاوى القانونية التي نشير فيها إلى موائيق جنيف عن معاملة المدنيين المعتقلين أوقات الحرب وحقوقهم، يقدمها مندوبون عنا إلى القومندان فيتسلمها ويقيدها الضابط أو الصول في سجل يوميات المعتقل وتلقى وعوداً، ولا تتوقف الدراما السخيفة العبثية المزعجة أحياناً والمروعة دائماً والمهينة باستمرار مهما كنا نرفض الهوان.

الفصل الثامن عشر

كان معنا في العنبر البعيد الذي أطلقنا عليه العنبر اليوناني نفرٌ من قدماء المحاربين الذين اشتركوا، أو كانت لهم صلة ما به ولو بعيدة، في تمرد البحرية اليونانية على الإنجليز ومعهم الرسام العظيم أنجيلوبولو. كان وجهه الأسمر قليلاً - على غير المتوقع من اليونانيين - يبدو لي أسراً في رسوخ دماثته، في استقرار سكينه روحية نادرة، عيناه النافذتان كما تطلآن علينا من آفاق المطلق التي لا وصول إليها، بنظرة بعيدة تدرك ما لا يمكن لإنسان أن يحيط به بل أن يلمّ به مجرد إلمام. لم نكد نتبادل إلتحيةً عابرة ومع ذلك فقد ترك في أثره لا تمحوه السنوات الطوال.

بعد الإفراج عنه رُحِّلَ عنوةً إلى اليونان، مع أنه كان مصرياً إسكندرانياً في صميم روحه، وعرفت بعد ذلك بكثير أن لوحاته الجميلة ضاعت خلال فترة اعتقاله، وتذكرت أنني رأيت بعضها في المعارض التي كانت تقيمها جماعة الصداقة الفرنسية، بمقرها في شارع فؤاد، وأنها هزت قلبي بما تفيض به من روحٍ مصرية يونانية معاً، وبصنعتها الفائقة، ذكرتني قليلاً بصنعة علي أبو الليل البديعة. لماذا تشغل على السنوات الطوال وتنوء عليّ بأحمالها، لا تقع من علي كاهلي؟

في صباح يوم من الأيام المملة المتعاقبة كنا نثرثر دون هدف محدد ودون أن نتكلم في موضوع معين، قال عبد القادر:

- غريب أمر هؤلاء الروس البيض. أولاً لماذا يُعتقل معنا روسٌ

مناهضون لكل ما اعتقلنا نحن بسببه؟ وهم ليسوا شباباً أو حتى كهولاً، على العكس شيوخ هربوا من الثورة البلشفية، كانوا قد تجاوزوا الستين على الأقل إن لم يكونوا قد أوشكوا على بلوغ السبعين؟ لماذا يُعتقلون معنا؟

كان سؤالاً راودنا جميعاً ولم ندرك له إجابة إلا أنهما مسجلان في دفاتر البوليس القديمة، مثلاً، ولكن ذلك غير مقنع على الإطلاق.
قال لي فريد، بلشغته الخفيفة:

- عندما تأخذ مع أليكسي دروس اللغة الروسية، هل يسألك أسئلة؟
قلت: ماذا تعني؟ أسئلة؟

قال عبد القادر، كأنهما كانا قد بحثنا المسألة من قبل:

- يعني أسئلة عنا، لماذا اعتقلنا؟ نشاطنا في الخارج؟

قال فريد: مَنْ يتصل بنا من الخارج مثلاً؟

أشرق في ذهني على الفور ماذا كانا يقصدان، عندما جاء شوارتز

إلينا، وتحلقوا حول سريري، وسأل شوارتز بالإنجليزية:

- تتكلمون عن الروس البيض؟ أليس كذلك؟

قال عبد القادر: ألم تلاحظ أن أنا تولى يقضى وقتاً طويلاً على سريره

يكتب أشياء كثيرة على ورق مسطر، ثم يلفه بعناية، ويخفيه.

قلت: يخفيه؟ لا لم ألاحظ؟ يخفيه أين؟

قال فريد: انظر إلى قاعدة النافذة الأولى، فوق سريره، البرطمان

المدور الكبير؟ ماذا فيه؟

حددت النظر، لأول مرة، إلى الوعاء الزجاجي المحشور بين الأكواب

والفناجين والأطباق على قاعدة النافذة. كانت فيه أوراق ملفوفة على

شكل أسطوانات محكمة التدوير.

نضجت في أذهاننا الفكرة - المؤامرة، دون اتفاق معلن.

لابد أن نرى ما هذه الأوراق، هل هي تقارير مكتوبة للبوليس؟ أم

مجرد مذكرات وملاحظات؟ وبأية لغة بالروسية أو بالإنجليزية التي يتقنها أو بالفرنسية؟
رسمنا الخطة .

شوارتز كان قد بدأ يوثق علاقته بهما ، بهدف أن يعرف عنهما أكثر ، كانت الشبهات تحوم حولهما دون أن أعرف ، وكان الكوميونة كلها على قلق منهما وكانت الخطة كما يلي : سيأخذهما شوارتز معه للخارج ، غداً صباحاً ، بأية حجة مناسبة يرتجلها عفو اللحظة ، للتمشية والرياضة مثلاً .

وكان على أحدنا أن يتطوع لكي يقوم بمهمة الوصول إلى قاعدة النافذة العالية وفتح البرطمان ورؤية الأوراق ومصادرتها إن لزم الأمر .
نظروا إليّ وفهمت على الفور أنهم كانوا قد بحثوا المسألة بحثاً جيداً .

كنت أصغرهم جسماً وأكثرهم خفة وحركة وتوثباً . وطافت بذهني على الفور صورة الصبي الذي كنت منذ عشرة أو اثني عشرة سنة ، يقف على كرسي متأرجح لكي يصل بيده إلى برطمان مليء بحبات الكراملة المصفرة والحمراء الملفوفة بأغلفة ورق زبدة ، موضوع فوق دولاب الملابس ، في الغرفة التي كنت أذاكر فيها دروسي ولها شرفة خشبية مقفلة مسقوفة تطل على اصطبل في غيط العنب .

كان قلبي يخفق خفقة التلهف والتشوق والمغامرة وأنا أصل إلى البرطمان ، وقف عبد القادر على باب العنبر الذي كنا قد أخطيناه بحجة أننا سنقوم بعملية كنس وتنظيف شاملة ، وعلى أساس ذلك خرج شوارتز مع الروسيين .

أقف متأرجحاً أمدّ يدي إلى أعلى في توازنٍ حرج ، وأنا على حافة المخدّات التي كوّناها على حافة سرير أناتولي ، كان حمدي وحده معي ، ينظر إليّ بلهفة .

أدرتُ غطاء البرطمان بصعوبة .

شددت الورق الملفوف بحرص وفردته بحيث أعرف كيف أعيده كما كان .

كان مكتوباً بالفرنسية، على شكل سطور متفرقة غير كاملة، في أعلى أول صفحة منه عنوان «قصيدة حب» Poème d' Amour . الرجل بعد أن تجاوز السبعين يكتب قصيدة حب ..

لم أقتنع تماماً، بسطت بقية النُفَّة، كلها شعر حبّ بالفرنسية، هبط قلبي بحس من الإثم .

أعدت لفّ الورق، بحرص، كما كان بقدر الإمكان وأرجعته مكانه وأغلقت عليه .

عندما تركت قاعدة الناظفة التي كنت أتشبت بها باليد اليسرى تآرجحت، سقطت الخدّات من تحت قدمي .

خرجنا من العنبر، كاسفين، منخزلين، ونادمين على حماقتنا .

انهمرت حبات كراملة «توفل» من البرطمان البتوري العريض على رأسي الذي يرتطم بالأرض . صدمة تدور بي لحظة، ثم يعتدل ميزان الأشياء، وقد اختلست الحلوى المحرمة، وأعدت كل شيء بعناية .

وبالطبع لم يعد شيء إلى نصابه فقد انكسر شيء ما، لا إصلاح له .

ألم أكن أستشعر في دخيلتي أن هذه الفعله في البحث عن حلوى أو البحث عن «وثائق سرية» ليست أخلاقية، أياً كانت مبرراتها؟

أم لعننى كنت مقبلاً عليها بهذا الحماس - بهذا التهور - لأنها بالضبط غير أخلاقية؟

ألم أكن من أشدّ المؤمنين بأن الغاية لا تبرر الوسيلة؟

وأن الوسيلة إذا كانت معطوبة فلا بدّ أنها ستُعطب الغاية مهما كانت الغاية نبيلة؟

أم طاف بذهني أن التضحية بالمواضع الأخلاقية «البورجوازية»

الجارية إنما هي عملٌ مشروعٌ فى سبيل حقيقة أعلى وأخلاقية أعلى؟
وهل هذه الحقيقة - أو الأخلاقية - إذا وصلنا إليها بوسيلةٍ غير
حقيقية، و«غير أخلاقية»، ستظل حقيقية أو أخلاقية مع ذلك؟
أم أن الوسيلة إليها لابد أن تكون حقيقية، أخلاقية، وإلا وقع كل
شئ فى هوة الزيف؟
التجسس والتلصص أياً كانت مبرراته أو تسوياته عملٌ بوليسى.
ومع ذلك أقدمت على فعلتى.

ومع ذلك فإن الحس بالإثم - بل وجود الإثم - قائم.
فى النهاية، هكذا تصورت، فإن المسألة لا تستحق أن أغوص فى كل
هذه الأسئلة الصعبة التى تكاد تكون ميتافيزيقية، المسألة أو الحكاية
أهون من ذلك بكثير.
قلت: لا.

بعد سنوات كان مدحت شعبان، قد جاء من إسكندرية، هاتفى فى
البيت، وتغدينا معاً ونزلنا إلى بيت القاضى فى الجمالية ليشتري الميزان
الحساس الذى كان يحتاجه فى معمله بوزارة الصحة، فى أبيس، لحساب
الوزارة طبعاً.

كنا قد خرجنا من معتقل أبو قير منذ سنوات قليلة، سبقنى إلى
الخروج ونقلت إلى معتقل الطور، ثم أعدت إلى أبو قير، وبقيت فيه
وحدى تقريباً مع قلة قليلة لم تكن تربطنى بهم إلا صلة الحبس، أما
أصدقائى فكانوا جميعاً فى الخارج.
تلك الأيام الأخيرة الموحشة كانت قاسية.

كل الزمن، سنتين إلا أقل قليلاً، قبل ذلك، كان الأمر يبدو - بشكل
ما - بهيجاً مشرقاً بالأمل والإرادة القوية والعزم المعقود على الكفاح من
أجل الحرية والعدل وسلطة الشعب التى سوف تفضى إلى ذبول
وانقضاء قمع الدولة، ذلك كله على الرغم من السجن والحصار وغارات

عساكر الأمن الليلية «المفاجئة».

ومع أن مدحت كان من «حدثو» بينما كنت - وما زلت - مناهضاً
للتالينية فقد توثقت بيننا زمالة وصدافة عميقة وحميمة .
كنت أطوف معه في العصارى - أى قبل طابور سائك سائك، عندما
يوشك ضياء النهار أن يغيب، وتسقط علينا أنوار الكشافات الساطعة
الدوارة من الأبراج العالية على أركان الأسوار المعمولة فقط من السلك
الشائك - فليس هناك أسوار حجرية أو ما يشابهها - يقف في الأبراج
عساكر الجيش بالمدافع الرشاشة، يهتفون بين الحين والحين بصوت عالٍ،
كأنما ليطردوا عنهم، هم، وحثّة ما: «مين هناك...!» في تلك اللحظة
المثقلة بالحنين غير المفهوم وغير المحدّد، وبالأشواق غير المفصح عنها،
كنت أطوف مع مدحت شعبان حول حوش المعتقل، يسألنى عن برنارد
شو مثلاً أو عن معنى الرومانسية، أو عن الشعر الجاهلى، فأفيض في
الحديث عنها، من أين كانت هذه الأحاديث تتدفق؟

مخزون من القراءات والذكريات والأفكار تصوّرت أننى نسيتهما،
يهضب فجأة، عن الفابيين والبرناسيين، عن ألدس هكسلى، أو
الديسمبريين، عن زينوفيف ويوخارين وكامينيف وكروبتكين، مثلاً،
وكان التقارب العقلى والجسدى بيننا يخفف - لحظات - من وطأة
الوحشة وأوجاع الروح الدفينة.

كنا في صيف ذلك العام وحتى أواخر أكتوبر نقضى النهار بالشورت
القديم القصير وقميص نصف كمّ والصندل أو حتى الشبشب
المشحتف، كأننا حفاة، وكنا نسير ذراعاً في ذراع، وتيار كهربى من
التفاهم الذهنى والجسمانى معاً يسرى بيننا، كانت ساقه العارية الممتلئة
تصطدم أحياناً بساقى، عفواً أو عن قصد غير واع، وأحسّ من ذلك نوعاً
من الدفء والأمن والقربى. ويأنس الجسمان فى تماس حميم عابر دون
كلمات، على رغم الاختلاف فى الانتماء الأيديولوجى، كان فى صداقته

لى نوع من الشجاعة من جانبه، كان فيها تحدٍ لتعليمات من زعمائه - صريحة أو مضمرة لا أدري - لكن زعماءه كانوا يعملون على أن «يكسبوني» أيضاً، فربما كان ذلك كله جزءاً من خطة مدروسة، وربما لم يكن.

فى بيت القاضى بالجمالية المزدهمة الغاصّة بالناس واللوريات وعربات الكارو تجرّها أحصنة عفية، هاجمنا التاريخ. كان عبق التاريخ القديم والحديث معاً، يمتزج فى أذهاننا، بروائح الحاضر التى لم تكن نقية تماماً، الناس يعيشون الآن وليس فى تصورات التاريخ كما تتراءى لنا، ما لهم هم وهذا التاريخ؟ يعبرون تحت العقود الحجرية الضخمة، أمام الجوامع وبجانب الحيطان الشامخة، تحت المآذن السامقة والقباب القديمة، عربات الكارو مركونة على أبواب خشبية مقرواة بحديد صدئ ومسامير غليظة «إوع يا فندي.. إوعى يا ست الكل.. اللهم صلّ على النبي» من السائقين وهم يشقون طريقهم - حرفياً يشقون السكة - بين المارة وباعة البلح والجوافة والقهوجية والشغيلة فى دكاكين البقالة والورق الدشت والمواعين والعصير والعرقسوس والمنجة فى البرطمانات مدورة البطن والسندويتشات والبمبار والسبح والعمطور والبخور والموازين والسنج والصاغة فى الدكاكين الضيقة المظلمة والغائرة فى الحيطان، يطرقون ويعصرون وينادون ويفاصلون ويعتلون ويحطون ويشربون القهوة على موائد معدنية مدورة صغيرة لها قوائم رفيعة غير مستقرة على أرض الرصيف، لا يعرفون إلا يومهم وشغلهم وهموم العيش ورزق العيال، ولا يتشوّفون إلا إلى حجّرين من المعسل وشفطات الشيشة وإذا فتحها ربنا نفسين الحشيش مع الصّحبة الجذعان ثم العودة إلى أجساد نسوانهم ليلاً والفوص فى عجينها الدسم أو لحمها الضاوى سواء، والانكفاء حتى طلوع الفجر، الوضوء والصلاة والتوكّل ليستعينوا على الشقا بالله، من جديد.

ما لهم وتاريخهم وتاريخنا، يعيشون يومهم إذا استطاعوا أن يعيشوه.

قلت: ربما، لكن تاريخهم وتاريخنا كامنٌ فيهم سواءً أدركوه أو لم يدركوه، هناك رصيد، كنز حضارى عريق فى عمق ما من وجودهم هذا الذى يقضونه يوماً بعد يوم كيفما استطاعوا.

قلت لنفسي: ألا تتخلى أبداً عن هذه المثالية الرومانسية؟ خلك إلى جانب الواقعية والملاحظة التجريبية، الموضوعية.

قلت بانفعال مكتوم:

- ليس هذا شطحاً مثالياً بل هو واقع، موضوعى إذا شئت، يفوق كل الوقائع التى تُوزن بالموازين الحساسة أو توضع فى أنابيب الاختبار فى معامل الأبحاث الكيميائية، هناك واقع بالفعل يأتى وراء الفيزيقا العلمية، ربما ليس ميتافيزيقياً، ولا غبار على هذه الكلمة، هذا المفهوم، ولكنه أقرب حضوراً من كل فيزيقا محسوبة.

قلت: لا.. أنا فى النهاية رومانسى وسنتمتالى ابن كلب..!

أما فى تاريخى القريب، فقد رجعت، بقوة، إلى الروسيين اللذين عرفتهما فى معتقل أبو قير، وارتكبت فى حقهما جريمة تجسس. حلت بهما تقلبات الحياة فى أرضٍ تصورَها أبعد ما تكون عن البلشفية والبلاشفة، ولكنهما بعد ثلاثين عاماً أو تزيد وقعا فى الحبس مع شيوعيين من كل صنف ولون، مصريين وخواجات.

أنا تولى صامت مكتنز الجسم منظرٍ فى حاله هو صاحب قصائد الحب بالفرنسية، والآخر صديقى أليكسى، عجوز ناحل صلب العود، أشيب مازال شعره كثيفاً، كتانة بيضاء، ورفيع الصوت من العجز، كنت قد بدأت أتعلم منه الأبجدية الروسى والكلمات الأولية والقواعد الأساسية، وسوّدتُ كراسات بها، كنت أحلم بأن أقرأ پوشكين وباكونين وديستوفسكى وتروتسكى بلغتهم الأصلية.. لم تكمل بطبيعة الحال،

وفقدت الحلم كما فقدت أحلاماً كثيرة، مثل كل الناس، عندما نُقلت إلى معتقل الطور وأُفرج عن أليكسى لست أدري متى وإلى أين. في لواندا التقيتُ بأليكسى مرة أخرى.

كان من الوفد السوفييتي إلى مؤتمر التضامن الأفريقي الآسيوي مع أنجولا، بعد استقلالها عن البرتغال بعام واحد. الخالق الناطق أليكسى.

أبيض الشعر متهضم الوجه عظمى القامة لا يتكلم إلا الروسية، ترجم له أنفير فالبيكوف - أو دأنور والى بك، إذا أعيد اسمه إلى أصله بالعربية - عندما قلتُ إننى عرفتُ منذ سنين شبيهاً له، كأنه أخ توأم، فى المعتقل فى إسكندرية، فقال لى إنه من مخضرمى ثورة أكتوبر، كان صبياً عندما حارب فى صفوف الجيش الأحمر تحت قيادة ليون تروتسكى، قالها بصوتٍ خشنٍ غير هَيَاب فيه نوع من استماتة الشيوخ الذين لم يعودوا يخافون شيئاً. أما أنور فقد ترجمها لى - بالعربية - هامساً، كان اسم تروتسكى - مجرد الاسم - مازال محظوراً على عامة الكوادر فى الحزب، وعامة الناس من باب أولى، ولكن فالبيكوف كان من النخبة، وكنت أجادله أحياناً - باللغة العربية - وحدنا، دون شهود، عن الديمقراطية والمركزية، وعن الانشقاق التروتسكى الذى كنت اعتبره هو الأصل وأن المنشق هو متالين، وعن محاكمات موسكو ١٩٣٦، وعن طرد كامينيف وزينوفيف وانتحار لونا تشارسكى ومايا كوفسكى وإعدام بوخارين إلى غيرها من القضايا التى عفا عليها الزمن وكنسها التاريخ، وأقول لنفسى: هذا ما يبدو الآن فقط، أما فى جوهر المسألة، فمن يدري؟ لعل هذه القضايا مما لا يتألفها الزمن..

بعد انفضاض المؤتمر، فى ٤ فبراير ١٩٧٦، وإقرار البيان العام، خرجتُ أمشى على الكورنيش المطل على الأطلنطى، فى مغارب آخر صيف لواندا، وعادتُ إلى قمشيتى مع مدحت شعبان ذراعاً فى ذراع على

مغارب الإسكندرية في ١٩٤٨ .

كان كل شيء في كورنيش لواندا هادئاً، موحشاً، خاوياً، والمحيط
ساجٍ غاف يتفرق موجه في دقات خافتة أحسها أبدية لا شأن لها
بالتاريخ ولا بالزمن .

أنفاس الأطلنطي ذلك المساء على كورنيش لواندا كانت تعيد إلى
نسمات رحية تهب على وجهي المتقد بالحنين والحصار والإحباط تأتيني
مشقة أيضاً ببلل اليود وجفاف صحراء «أبو قير» معاً، والأحاديث
الطويلة بالقرب من الأسوار الشائكة ولكن من غير أن نقرب منها
جداً، مع صديق راحت به الأيام .

ومع ذلك فقد ظل مدحت على وفاء نادر، يحدثني على الأقل
بالتليفون في مناسبات يراها جديرة بأن يحدثني فيها، كأن ثم خطأ
من الحب مهما دق وخف لا ينقطع، وإن انقطعت كل صلة مباشرة .

هل كنت أزور مدحت شعبان في بيتهم القديم في فيكتوريا، قبل
المعتقل أم بعده؟ كان شارع أبو قير أيامها خاوياً ويبدو لي فسيحاً، حتى
أصل إلى البيت المبنى من دور واحد، عمله أبوه من أيام الملك فؤاد،
حجر أبيض عريض وجنيئة فيها أشجار برتقال وتوت وارف وكافور
عملاق، أثنائه تفوح من خشب رائحة القدم، القطيفة على الفوتيات
والكنب ناصلة قليلاً ولكن ألوانها قوية .

عندما تزوج بعد ذلك خلف بنتاً وحيدة هي بدورها خلفت بنتاً
وحيدة، ماتت زوجته بسرطان قاسٍ ومهما اتهمك في مختبراته
ومحاليه الكيماوية وموازينه الحساسة، ومهما شغل نفسه بها فقد
حدث أنه ظل وحيداً، ومفقوداً .

ثم انقطع عن الرد على كلما عيّدت عليه أو سألت عنه، زارني مرة
يمكن أو مرتين، وانقطع، واكتفى بالحديث النزر النادر بالتليفون .
كأنما ظل يخامرُه حسٌ بالإثم .

هل بعنا إيماننا؟ بكم؟ باللقمة والهدمة؟ هل خذلنا أنفسنا؟ أم
انشعبت بنا الطُرق، وكان لكل منا طريق؟
كانت السيارات القلائل تفرق على الكورنيش، دون صخب، دون
تزاحم، النخيل السلطاني يمس سعفه، لواندا، الأنفوشي، الجزائر،
كازابلانكا، هافانا، البيوت الفسيحة الصامتة والغرف العالية
والشبابيك العريضة المطلّة على قوارب الصيد المكونة في سيف الماء،
شباك الصيادين مفرودة عليها، والصور المنخفض قد خفف من صوت
العالم، وشيش الأمواج الصغيرة ترقى تحت الحجر بوداعة لا اطمئنان
إليها مع ذلك، أنوار لجيران في بيوتهم المكنونة تنكشف أمام أعين
المحبين، وتظل محفوفة بالسّر.

الفصل التاسع عشر

في العبر رقم ٧ جودت لغتي الفرنسية، طلبت من أمي أن تأتي لي بكتب الأجرومية والتمارين الفرنسية وأعداد «الريدريز دايجست» أو «السيليكيون» بالفرنسية، والقاموس الصغير الذي اعتمدت عليه فأقام عمادي، هو قاموس «بيلو» الصغير المطبوع عام ١٩٣٦، مازلت محتفظاً به، بإعزاز، وما زال أثر البلل واضحاً فيه إذ غرق معي في ترعة الحمودية عندما كنت في العاشرة أو الحادية عشرة ورجعت من أول يوم لي في المدرسة العباسية الثانوية ومعى الكتب الجديدة والكراريس ومنها هذا القاموس وعندما وثبت بين المعديّة وشطّ الترعة، سقطت بينهما في الماء، وشهقتُ ورسبتُ إلى القاع الضحل العكر وامتلاً صدرى بالماء، ولكني ظللت متشبثاً بكتبي وكراريسي بيديّ الاثنتين لم أفلتها، وبالفعل في تلك اللحظة الهاربة عرفت ما يقال عن اللحظة الحاسمة إذ يمر شريط ذكريات العمر كله، حافلاً وكثيفاً وليس فيه فجوة، بسرعة خارقة ليس فيها زمن في الواقع، وعندما شدوني - ببساطة - من الماء الضحل كانت ملابسي وطربوشي وكتبي تشرّ بالماء.

كنت كل يوم أحفظ الكلمات والقواعد بعد أن أستيقظ من النوم مبكراً صباحاً، وأراجع ما حفظته بالأمس، وأكتب كماداتي المفردات والعبارات الجديدة على شرائط طويلة من الورق لعلها إذا جمعت إلى بعضها بعضاً بلغت كيلو مترات عدة.

وإذ أراجع المفردات اللغوية لا أملك - كأنما رغماً عني - إلا أن أسترجع مفردات حياتي حتى تلك الأيام.

من مغالبة اليأس الذي تصورته نهائياً وحتمياً بعد قصة حب المراهقة المعتاد، من طرف واحد - قلت: كان بالفعل نهائياً وحتمياً، ولم يكن معتاداً - إلى موقف التحدى المستمر العنيد لما استقرت عليه مواضع عائلية قبطية من طبقة وسطى دنياً أقرب إلى طبقة الكادحين، يُخيم عليها ظل النذور والنذر الأرثوذكسية، من معاناة وحدة لا شفاء منها إلى الاستغراق في ومضات جماهيرية طويلة في غمار المظاهرات الوطنية الحارة أو في خضم عمل ثورى لا هوادة فيه، مع العمل الجاد لكسب لقمة العيش والعمل الجدى في دراسة الحقوق، كلها في وقت واحد، كيف كنت أجد هذا الوقت؟

قلت كنت أجد المعنى والقيمة - كلاهما، وهما أمران مختلفان وإن كانا متصلين - في الوقوف أمام طغيان القهر وأنا أعمل في قلب إحدى مواقع، وأمام قمع السلطات وإرهاب الدولة، مع أننى أدرس قانونها وإجراءاتها وشرائعها.

اشتعال شرارات الثورة الشعبية كانت هي اشتعال شرارات القلب، ومجابهة هجمات العساكر منذ كنت في العاشرة أهتف بسقوط وعد بلفور حتى بالأمس القريب في غاراتهم على العنبر رقم ٧، وحتى الآن. مفردات حياة ليست سهلة - كأقل ما يقال - من اليأس إلى ضوء الأمل ومن الوحشة إلى حرارة الرفاقة، ومن التحوط والتوجس إلى بهجة التحدى والمخاطرة، من الاستسلام القلق لسطوة النص المقدس ورهبة النذير وثقل الحس بالإثم والخطيئة إلى الشك في غيبات أساطير القبائل البدائية ثم دحضها ونفض أصفادها عن كاهلى، من الانطوائية إلى ازدهار الصحبة الإنسانية والمشاركة في مغامرة صناعة المستقبل، من الصمت أو تمتمة الشعر الرومانسى المكبوت إلى ضرب قواعد التفعيلة وفصاحة الدعوة إلى الثورة، من تثبث مستميت بمثالية مستحيلة إلى فهم قصور الواقع ومحدوديته ولا أقول قبولها أو التسليم بها، ومن

كتمة الانغلاق على الذات وتعاساتها وكوابيسها إلى انفساح أفق العمل والحلم الفتي العفى القادر - أو الذى تصورته عندئذ قادراً بل فاجر القدرة - من وهم نقاء القلب إلى لوثات الجسد، من الأبيض الناصع أو الأسود الخالك إلى إدراك أن الثنائية خادعة تُخفى تعددية النقاء والالتباس والخطوط الرمادية المضطربة دائمة الحركة والتقلب بين الصفاء والعكارة، من مرارة الحس بالهزيمة والحبوط إلى قبول النكسات المؤقتة فى سياق تيار صاعد - هكذا تصورت - مضطرب الارتفاع درجة أخرى فأخرى حتى لو اعتراه الارتداد والنكوص، فالنكسات ليست منتظمة التوقيت ولا متوافقة الحدة بل هى مفاجئة، ونقيضية فى ذاتها، ومعقدة، بخصائص الشيء العضوى الحى وهى بذلك تفلت من إيسار توصيف النكسة وتنتقل إلى ساحة حرية الممارسة ومجالدة العوائق ودحر العقبات .

مفردات متعاقبة وأنا أحدى فى سقف العنبر رقم ٧ بعوارضه الخشبية بنية اللون متينة العضل أعرف أن فوقها مثلث القرميد الأحمر الكابى .
لم أكتف باسترجاع هذه المفردات .

بشكل ما عقدت العزم على نوع من تسجيل - إن لم أقل تخليد - مفردات وتطورات حركتنا أو حلقتنا الثورية .

الورق الخفيف الذى كتبت عليه مفردات اللغة الفرنسية ومعانيها اقتطعت منه شرائط أخرى، رقيقة، كتبت عليها بقلم رقيق السن، وبخط منمنم يكاد يكون ميكروسكوبياً تاريخ الحركة الثورية بالإسكندرية، أم هل كان ورق «بافراء» الذى يلف به صابر دخانه من علية «الغزالة» ويصنع به سجائره؟

فى نوع من الحلم الصاحى بأن الوثيقة ستظل شاهداً تاريخياً ومرجعاً ثميناً أودعت أسطوانة الأوراق الخفيفة أسطوانة معدنية كانت تحتوى دواءً يتناوله فريد بانتظام لعلاج آلام المعدة التى تعتريه فجأة فيوشك أن

يصرخ من الغص وهو يتلوى على فراشة حتى نذيب له المسحوق
الأبيض المصفر قليلاً في نصف كوب من الماء.

في هذه الأسطوانة من الصفيح، عهدت إلى المستقبل المجهول -
ولكنه في تصوري قادم لا ريب فيه - بأسمائنا وملخصات اجتماعاتنا
وقراراتنا وتفصيل غير مسهب جداً عن خلافاتنا وتحليل سريع
لشخصياتنا وتصور لدوافعنا النفسية والاجتماعية والطبقية وأخيراً
برنامج عملنا ومطالبنا الثورية وتخطيط للنسق الاجتماعي الجديد
القائم على سلطة الشعب، سلطة في طريقها الحتمى إلى الاضمحلال
والزوال فلا يبقى للقهر أثر أياً كان وضد أي كان، وتشرق لحظة الحرية
التي لا نهاية لها مهما كانت المشكلات التي عليها أن تواجهها.

انتهزت لحظة الغروب وبعد طابور السانك السانك مباشرة حين
تخلو الساحة الرملية أو تكاد، ويطمئن المعتقل إلى أن كل شيء في
نصابه وتتراخي يقظة عساكر الحرس في أبراجهم، مشيت ببطء إلى
جوار حائط الشكنة، اخترت بقعة في الركن الأيسر على الباب تحت
حجر منقور قليلاً، علامة لا تخطئها العين في المستقبل حينما تنتصر
الثورة، ويستعاد تاريخ الكفاح، وجلست على الأرض مستنداً إليه
كأننى أستروح نسمة هواء قبل العشاء.

حفرت بيدي في الرمل إلى جانبي وأنا أهدق إلى السماء - كأننى
أعبث بالرمل فقط في لحظة سرحان - حتى وصلت إلى عمق رضيت
عنه، أخرجت الأسطوانة المعدنية محكمة الإغلاق من جيب الثورت،
دفعتها إلى قاع الحفرة، وأخذت أهيل الرمل عليها، وأسويه ببطء،
كأننى ما زلت أعب، دون عمد إلى شيء محدد بالذات.

هل كنت صبيانياً جداً؟

أم اهتديت إلى وقائع مماثلة، حقيقية أو متخيلة، مما جرى في مسار
تاريخ الحركات الثورية؟ لعل ما فعلت كان صورة كاريكاتورية لما يحدث

عند وضع حجر الأساس فى المنشآت الكبرى، إذ توضع صحيفة اليوم مثلاً وقطع من العملة إلى آخره حتى تظل شاهداً على التاريخ .
كاريكاتورية ربما، نعم . لكن ما أكثر ما تبدو الأفعال التى غيرت وجه العالم كاريكاتورية، وحمقاء لو أنها فقط أخفقت ونسيها التاريخ، عندئذ تبدو صبيانية وحمقاء . أما لو كتب لها النجاح فإنها تصبح مجيدة وبطولية .

أو هكذا عزيت نفسى بتعلات ومعاذير .

من يدري ماذا حل الآن بهذه الأسطوانة المعدنية المدفونة فى إحدى بقاع رمل أبو قير؟ هل صدئت وتحللت وتهرأ التاريخ؟ أم عشر عليها طفل أفرغها من التاريخ ولعب بها قليلاً ثم ملأها ورمأها؟ أو فى النهاية، مازالت قابعة، مدفونة، متفجرة بحياة كامنة ومكبوتة فى انتظار القيامة - التى لن تجيء - والصعود المؤجل أبدأ على سحب المجد والضياء؟

كان إسكندر عرض قد وعدنى باللقاء فى بار الكراسته فى الرابعة والنصف بعد الظهر . كنت قد رأيتة يسير إلى جانبى، ويهتف بحرارة (الموت للإنجليز) .. (يسقط الاستعمار) فى مظاهرة شارع سعيد الكبيرة التى رأيت فيها صبياً يموت برصاص (التومى جن) ويحمله الناس وهو ميت على الأكتاف وقد اقتطعوا أعلاماً بيضاء من جلابيهم وقمصانهم خضبوها بدمائه، يلوحون بها، فى حمياً الغضب ودفقة الدماء فى طلب الشار، حتى أحرقوا الشكنة الصغيرة فى قلب محطة الرمل، وأحرقوا الجنديين البريطانيين فيها، أحياء .

جاء إلى فى القهوة الصغيرة التى جلست فيها أشهق وأشرب كوب ماء، بعد أن انحسرت موجة الأحداث، وعرفنى بنفسه وقال إنه وطنى ويعب الوطنيين وكان يخيل إلى أننى أعرفه بشكل ما ولكنى لم أتذكر أبدأ . قال إنه يكتب شعراً ثورياً عندما قرأته وجدته ساذجاً ولفته العامة

لا حياة فيها، فيه أصداء من بيرم التونسي وحسين شفيق المصرى وأبو
بشينة معاً، عن غُلب ومجدعة أولاد البلد، قال إنه يشتغل عند أرمنى
يملك فابريكة بصطربة صغيرة فى كوم الناضورة.

عندما كنت أذهب للقاءه فى المحل المظلم الذى تدور فيه مكنة عتيقة
ذات سكين حادة ضخمة دوارة أرى كتل البصطربة النيئة المدورة معلقة
على الحبال كالفسيل تجف وتستوى فى الهواء والشمس على التل
الترابى قليل الارتفاع، فوق سقف المحل الداخلى فى الربوة، والأعلام
الملونة وكرة كبيرة سوداء معلقة فى أعلى كوم الناضورة. وكنت أكلمه
عن الوطن ودور الطبقة العاملة وعن الحرية وقيمة العمل وفائض القيمة
وعن ثورة أكتوبر وثورة سنة ١٩١٩ وعلاقة الأدب بالثورة، وأن معنى
السوقيات هو اللجان الشعبية المستقلة القادرة على تسيير العمل فى
المصانع والمزارع وكل مكان، حتى فى الجيش والبوليس الشعبى. وكان
فى مثل سنّى وقال إنه لم يكمل دراسته فى مدرسة النيل الثانوية بغيط
العنب لأن أباه كان عنده فابريكة صغيرة فى غيط العنب وأفلس ومات.
ومع ذلك لم أتذكر أنى رأيت وهو طفل مع أبيه فى السيرجة فى آخر
غيط العنب عندما كنت صغيراً تذهب بى أمى وهى فى الملاية اللف
والبرقع الشبيكة إلى مخزن الزيت السيرج.

أخذت ترام الوردىان، وكانت عربة الترام تتأرجح قليلاً فى
اندفاعها. وكان شارع السبع بنات خالياً تقريباً فى حرّ الظهر، ورطوبة
البحر تاتى إلى من نافذة الترام المفتوحة، ونزلت بعد كركون اللبان
بمحطتين. وكان الشارع مرصوفاً بأحجار البازلت السوداء المخدبة قليلاً
وعلى جانبيه مخازن الخشب والقطن عالية الحيطان، والورش الصغيرة،
ومخازن الخيش والبصل، وعربات الكارو الطويلة واقفة تحت الجدران
المصمتة الخشنة قوية الحجر، وكانت رائحة الفحم ونفايات البحر خفيفة
وجافة قليلاً، تاتى من ناحية الميناء تحملها بلولة الهواء.

نحت البار في منعطفٍ داخل شارع جانبي، اللافتة الخشبية على بابه
مازالت حروفها الإنجليزية «سمك و بطاطس» Fish & Chips مقروءة
وإن كانت مطموسة تحت بقع مضطربة بالطلاء الأسود الذي لطّخها به
الطلبة الوطنيون بلا شك، وقد أقلع جنود الحرب الذين كانوا يملأون
هذه النواحي بعريضة اليأس والقهر والموت.

دفعتُ الباب الخشبي القصير المكون من ضلفتين متحركتين تستطيع
أن تطل من فوقه على داخل البار هادئ النور، والمرايا على الحوائط
مرسومة بإعلانات فيها زجاجة «كونياك أوتار» كأنها مجسمة داخل
المرآة، وخلفها كتابة بالذهبي الباهت على أرضية سوداء مشققة، والمرايا
المقابلة تتراسل بزجاجة «الأوزو» و«براندي جناكليس» و«ويسكي
الحصان الأبيض» وكان البلاط الأسود الذي يكسو أرض البار باهتاً قليلاً
والموائد الخشبية المربعة مصفوفة تحت الحائطين القريبين أحدهما من
الآخر، ومنصة البار مغلقة بشبكة نازلة من الحديد، في نهاية المحل،
وبجانبها باب خلفي صغير.

كان إسكندر عوض قد قال لي إن البوليس لا يمكن أن يشتبه في
اجتماع ينعقد في بار صغير في باب الكراسته، وقال لي إنه سيحضر
معه ملاحظ عمال من رصيف الفحم وإنه ولد مجدع ومشقف أيضاً، وإن
الحركة يجب أن تكون موجودة في عمال الميناء، وإنني لو أحضرت معي
شيئاً، بيانات مثلاً ليتها تكون جديدة وبخطي، أو مجلات أو كتباً،
ليقرأها الزميل الجديد ويقول عما فيها للعمال الآخرين في الميناء يكون
هذا شيئاً عظيماً ويدفع الحركة إلى الأمام، وشدد عليّ في هذا، وكنت
مع ذلك أتوخى معه الحذر الكامل وقواعد الأمان ولا أتحدث معه إلا
بكلام عام وأحرص ألا أشير إلى اسم محدد أو مكان معروف أو أي
ميعاد لأي نشاط، ولم أقل له حتى عن اسمي وكان يعرفني باسمي
المستعار: يوسف.

وعندما دخلت رأيت في عتمة آخر البار ومعه امرأة .
كان وجهه الطويل المتهضم لامع السمرة تقريباً في نور بعد الظهر
الكأبي وكان الجو في البار الخاوي منعشاً ببرودة خفيفة من البلاط
والظل الرطيب بعد شمس الشارع .

قام إسكندر عوض يسلم عليّ، وقال لها : الباشمهندس يوسف اللي
كلمتك عنه . وهو يومئ إليها برأسه ، ثم همس إليّ : زيزي ، ما تخافش ،
هي عارفة ، هي معانا بكل قلبها ومع الثورة وحياة المسيح .

مدت إليّ يدها وهي جالسة ، من فوق المائدة ، بين زجاجتي البيرة
الاستيلا وأكواب البيرة الطويلة المكتوب عليها بالإنجليزية «زوتوس»
وأحسست يدها رخوة وباردة وليس فيها عصب ، كأنها سمكة بأصابع
طويلة تنتهي بالمانيكير الأحمر القاني ، تلبس فستاناً ناعماً بلا أكمام
وفتحته الواسعة تحت الذراعين تكشف جانباً من صدرها ، ولحمت الزغب
الأصفر الخفيف الهشّ جداً على ذراعها الممدودة إليّ في النور الخفيف .

قالت ، مباشرة ، في هجوم جنسي واضح ومستقر وطيب القلب ، من
أول وهلة :

- يا أهلاً بالباشمهندس الحليوة الصغير بتاعنا ، اتفضل اتفضل يا

حبيبي ..

أحسست الدم يملأ وجهي ويطن في أذني ولكني قررت أن هذه
التحية ليس فيها ما يُضير بكرامتي وأن البنت على العكس تتحيب
إليّ ، فغمغمت بكلمات مدغمة ، وانفجرت هي فجأة بضحكة صافية
وبريئة وليس فيها أدنى شبهة من مهنتها .

كان هناك جزء صغير جداً بارز إلى الأمام من شفتها العليا الرقيقة ،
يُظلل أسنانها الصغيرة البيضاء ، وشفتها السفلى مليئة ، على العكس ،
ونازلة تعطى وجهها إيحاءً شهوياً صريحاً ، لكن شفتيها كانتا بريئتين
تماماً مع ذلك ، وبلونهما الطبيعي ليس عليهما طلاء ، وشممت عطرها

الجاف الرقيق عندما مدت ذراعها إليّ، وكان وجهها يقول إنها صحت من النوم متأخرة جداً، عيناها منتفختان قليلاً وفيهما نظرة ثقيلة، وتوحي بأنوثة كثيفة وحنور كثيف.

قال إسكندر عوض: تشرب إيه يا باشمهندس؟

صفق وبرز من عتمة آخر البار جرسون يوناني عجوز تحرك برشاقة وخفة، يضع فوطة بيضاء على كتفه فوق الجاكت الاسموكن السوداء، وينظفونه ضيق وطويل مخطط، وجهه مُخَدَّد نظيف التجاعيد وعيناه مدفونتان.

كنت بيوريتانيا جداً في تلك الأيام، لا أدخن ولا أشرب إلا نادراً، ولا أعرف النسوان، ولكني على سبيل التحدّي طلبت براندي، وفي ثانية كان الجرسون اليوناني يضع أمامي الكأس المفلطحة وثلاثها يتفرق بالسائل الأصهب ثمين الشكل.

قلت له ماذا حدث؟ ولماذا لم يأت صاحبنا؟ فقال إنه لا بد سيأتي حالاً، وهل حضرت معي الورق والأشياء؟ فلم أرد عليه، واقتربت زيزي متى بوجهها الأبيض المثلج وحاجبيها المقرسين الرفيعين جداً وسألتنى، متودّدة، أين أشتغل؟ ومن أين أنا في إسكندرية، ورددت عليها بكلام عام، وكان صدرها المهبوك المستدير مستنداً إلى المائدة متكوراً في داخل الفستان الخفيف الذي يكشف عن قميص داخلي أسود له شرايط من الدانتيل يلم الصدر الوافر الذي يبدو دسماً ومتحفظاً وبكراً وفيه تأكيد خفيف للمرأة لا للأنثى. وكنت قلقاً وغير مستريح هي تتحدث عن الأحوال والشغل الذي أصبح خفيفاً ولا يساوي التعب والبهدلة، وأحسست ساقها من تحت المائدة تمس ساقى، وكان البراندي قد نزل حاراً إلى قلبي وأحسست بالصلابة والتوتر الحميم بين ساقى، ثم قامت فجأة، ودارت حول المائدة ورفع إسكندر وجهه إليها مندهشاً متسائلاً، ومدت إليّ يدها وقالت بهدوء: تعال معي.

دارت بي خواطر مفاجئة، وتجسمت في ذهني ثم اختفت على الفور
صوّر مخطوفة من سافو دوديه، ونانا زولا، وغادة الكاميليا، وغرفة
زيزي التي تخيلتها علويةً على سلالم من وراء الباب الخلفي الصغير،
وستائرهما خفيفة شفافة تطلّ على البحر وعلى باب القلب المفتوح
وهوس الجنس وعريدهته، ومناعم الجسم كما رأيتها، أول مرة، في
الراقصة البلدي، عارية، وأنا في الثانية عشرة، في فرح بجوار بيتنا في
محرم بيه، وارتعبتُ من احتمال الإصابة بمرض سرّي، وفكرت أنني لا
أحتمل أجرّة العلاج، ونفيتُ ذلك كله عن نفسي ولم أكد أخطو معها
أول خطوة، وكأنما حَدّستُ ما بنفسى فابتسمت لي عن أسنانها الصغيرة
بغموض وغواية، فهل كانت غرارتى وعنّف براءتى هي ما أغواها؟

ولكنني كنت صاحباً جداً مع ذلك، وأنا أقوم معها، والتفتت هي إلى
إسكندر عوض بحسم، وقالت: إيه يا سي إسكندر؟ وانت مالك؟
خليك انت هنا يا نور عيني.

كانت يدي في يدها وهي تخرج من الباب الخلفي الصغير خلف
البار، ونزلنا درجتين حجريتين زلقتين من البلل وعشيت عيناى قليلاً من
بهرة نور بعد الظهر، ووجدت أنني معها في طُرقة مبلّطة بين حائطين
عاليين، وصفائح الزباله وصناديق البيرة المليئة بالزجاجات الفارغة إلى
جانب الحائط، وكانت الشمس تنزل ساخنة بين الحائطين المسدودين،
وباب حديديّ أسود صغير مكتوب عليه بالأبيض GENTS
بالإنجليزية، ممسوحة وفوقها صورة بيضاء لرأس عليه خوذة عسكرية
مدوّرة.

نظرتُ إلى وأنا واقف متحيراً في الطرقة وقالت، غاضبة وحرارة
بهمس خشن:

- إمش من هنا، يالله رَوِّح من غير ما تسأل، إمش يالله يا حبيبي
إمش.

ولكننى أحسست فمها على خدى، فجأة، فى قبلة خاطفة مُلحة،
ودفعتنى بيدها، برفق، وأقفلت الباب عليها، وسطع فى ذهنى على
الفرور أننى نجوت من الكمين وأن زيزى أنقذتنى من الوقوع فى يد
البوليس متلبساً ومعى أدلة الإدانة، ووجدت نفسى أنهج قليلاً بعد
المشى الجاه السريع، فى الترام العائد إلى المنشية، وعرفت معنى الأمن
بين الناس الصامتين، ولم أر إسكندر عوض بعد ذلك، أبداً، وبعدها
بكثير تذكرت مرة واحدة، وعرفت أن الخيانة، والنقاوة، لهما طرق
خفية.

طاف بذهنى كثيراً أنه كان يشتغل مع البوليس فكيف عرفوا
طريقى؟ وهو طريق صعب الاقتفاء وعصى على قص الأثر.

لم يكن إسكندر عوض الله يعرفنى، لكنه كان يعرف مينا إسحاق
ابن عم امرأة خالى سوريال، وقد كان عاملاً فى مصنع كرموز، كلمته
مرة فاشتعل خياله بحلم الحرية والمساواة وكرامة الشعب، ولعله قد
عرف أننى عهدت بكتبى ومجلاتى الثورية إلى امرأة خالى على سبيل
الأمانة لكنها أحرقتها جميعاً فى الفرن الذى يخبزون فيه على سطح
بيتهم. ولعل مينا قد ثرثر أو تحدث بحماس مع زملائه فى المصنع ولعله
أشار إلى وتكلم عن محرقة كتبى وأوراقى، الاحتمالات متعددة وخاصة
أن وكيل النيابة سألنى عنه ولكنه لم يسأل عن إسكندر عوض.

كان من المفهوم أن اسمى المستعار «يوسف» لم يكن سريراً جداً وأنه
بالعكس أصبح متداولاً بين فتوح القفاص، وسلامة، وأحمد النمى،
وإسكندر عوض.

أخطأت عندما وقعت خطابى إلى أحمد النمى «يوسف»، فلم يكن
هذا الاسم مأموناً بعد.

لم ألتق بأحمد النمى بعد خروجى من المعتقل إلا بعد سنوات
طويلة، وكاننا كنا قد أنسينا تلك الحقبة كلها. لم أسأله قط كيف وقع

خطابى فى يد المباحث والنيابة، مع أنى كنت قد طلبت منه أن يمزقه أو يحرقه، هل كان قد قبض عليه وفُتشت أوراقه؟
أليس فى مجرد هذه الواقعة تبرئة له من كل الشبهات؟ فإن كانت مثل هذه الوسوس قد هجست بى، فذلك محض رجم بالظنون يقوم أكثر من دليل على دحضها.

قال: تخيلات وشطحات الفانتازيا، أحداث لم تقع قط، لعلها كان حقا أن تقع، ذكريات لا مرجع لها فى الواقع، لكنها ربما أحق وأصدق من أية ذكريات عن وقائع.

الفصل العشرون

اعترائنى أرق ذات ليلة فى العنبر رقم ٧ .

كانت الليلة باردة، سمعت عصف رياح الإسكندرية خارج العنبر، يأتينى مكتوماً ومكبوحاً وأنا على حافة الأرق، يضطرب زجاج النوافذ محكمة الإغلاق، وفى العنبر زهومة النوم القلق، دفء غير صاف وملبد، غطيظ شوارتز المختنق، نوم حمدى المستغرق المستريح، وتنهدات حلمية من صدور ثقلت عليها الوطأة، لا أعرف مصدرها .

كنت أسأل نفسى، بصمت ومضض: ولماذا لم يعتقل فتحي أبو شادى، ولا أحمد النمى؟ وفى أرق الليل المضطرب تهاجمنى شكوك وضروب من الرجم بالظن لا أملك أن أردّها، مهما تعللت بضرورة العقلانية، وبدائل الاحتمالات التى لا تُحصى .

هل ذهب أحدهما أو كلاهما إلى السجن فى قضية مدبرة ومحكمة؟ أم أنهما ..

لا أسمح لنفسى أن أعبر بكلمات محددة عن هواجس وريب ما أشد قسوتها، عما يختلج فى الذهن المرهق المشعث .

فريد اسكاروس هو الذى عرفنى بفتحي أبو شادى .

كان لفتحي أخ فتح صيدلية فى البيت الذى تملكه عائلة فريد، على مرأى من الكورنيش، عند سيدى بشر أمام «نادى السيارات الملكى»، ومن خلال لقاءات فى الصيدلية بين أقراص الأدوية المعلبة الجاهزة وزجاجات الدواء المركب، أيامها كان بالصيدليات زجاجات داكنة

اللون فيها سوائل وعقاقير وسموم وعليها بطاقات تطل منها بشكل مهذّب وجّههم صورة جمجمة وتحتها عظمتان وكلمة «سليمانى» بالثلث ، كانت فيها مقصورة داخلية كأنها كهف يمارس فيه الصيدلى تركيب سحره الخاص ، بمقادير محسوبة مضبوطة ، وعلى المقصورة باب زجاجى محبّب مغبّش مكتوب عليه «خاص ، ممنوع الدخول» ، فى هذا الجوّ بدأ فريد يتحدث عن مشاكل الأدوية واستشراء الأمراض وسوء سياسات الحكومة ، وهكذا بالإطلاق فى مسائل العلاج والفقير والحفاء ، فإذا ردّ مصطفى أبو شادى بأن حكومة الوفد تختلف عن حكومات الأقليات الموالية للإنجليز وللقصر ، اتخذ النقاش حرارةً وتعمقاً فى الرجوع إلى الأصول الاجتماعية وليس فقط الظواهر السياسية ، وعندئذ أحس فريد أن فتحى يتجاوب مع هذا المنحى من التفكير .

كان فتحى أبو شادى عندئذ ليس عنده إلا شهادة «الثقافة العامة» وكان يشغل محضر معمل العلوم فى المدرسة العباسية الثانوية ، وتأثير من فريد حصل فتحى على التوجيهية ، من منازلهم ، والتحق بكلية الآداب ، قسم الفلسفة والاجتماع ، وأخذت حياته العقلية والثقافية تنمو وتتطور ، وما لبث أن انخرط معنا فى نشاط ثورى محدود ، وكنت ألتقى به فى بדרوم البيت الذى حوّلته فريد إلى شقة مستقلة تتناثر فيها الكتب الجامعية والشيوعية ويتجاور الفونوغراف العصرى مع القواقع البحرية البيضاء الضخمة دهريّة الشكل التى استنقذها فريد من رمال شاطئ سيدى بشر بعد أن تنحسر عنها أمواج الشتاء العاتية .

فى أثناء ذلك انتقل فتحى من معمل المدرسة العباسية الثانوية إلى معمل كلية العلوم التى احتلت المرقع نفسه على ربوة العباسية فى محرم بيه ، وأخفى فى المعمل كارتونة القنابل الثلاثة والغدّاره التى استنقذتها من عند أحمد النمى ثم نقلتها إلى غرفة شارع الزهرة ، ولعلّ هذه القنابل لعبت دوراً حاسماً فى إيقاف اقتحام مصفحات ودبابات الجيش

التي كانت تصعد ربوة العباسية إبان ذروة حركتنا في ١٩٤٦ .
في شتاء ١٩٤٨ كان أوتوبيس ٢١ الذي أستقله من المنشية في أول الليل، يذرع الكورنيش النائم الصامت، عاصفاً، خاطف السرعة شبه خالٍ، يحمل الراجعين إلى بيوتهم وهم بين اليقظة والنوم، حتى إذا وصل أمام محطة البنزين التي يقع وراءها تماماً بيت فريد، أحكم رفع ياقة معطفي الكحلي العتيد حول رقبتى ويصدمنى هواء البحر البارد في هبات متقطعة وأجرى أعب الكورنيش وأنزل الدّوج الصغير الهابط إلى البدروم، ملاذ فريد، عندما أدق على خشب الباب المتين - ليس هناك جرس كهربائي - بلهفة يفتح لي فتحي الذي كان قريباً ويعصف ربح البحر المتقلب بأوراق متناثرة على المكتب ويردّ فتحي الباب بصعوبة في وجه تيار قوي، وتعود للغرفة الأنيسة المضيئة أنفاس دفاً مطلوب وعزيز المنال، يصبّ فريد الشاي من إبريق كبير موضوع على موقدة كهربائية مستديرة متوهجة الأسلاك بحمرة قانية، في فناجين متنوعة الأشكال ويرحب صدري بالسائل المحيي، سرعان ما ترتفع حدة المناقشات، كنت قد تحيئتُ فرصة أو فرجة في الأحاديث العادية عن الجوّ وأحوال السياسة لكي أدخل إلى تفصيلات تاريخ ثورة ١٩٠٥ ثم ثورة ١٩١٧ وإلى دقائق الخلافات والانشقاقات والتنظيرات وأكاد أنسى نفسي في غمار أمجادٍ وخيياتٍ حقبة لم تكن بعد «تاريخية» عفى عليها الزمن، إنجازاتها واقتحاماتها وإحباطاتها، والأسماء التي لم تكن بعد قد غابت تماماً عن ذاكرة العارفين: كامينيث، زينوفيفث، بوخارين، راديك، لوناتشارسكي، ماياكوفسكي، كروپوتكين، باكونين، بيلنسكي، بليخانوف، بوجدانوف، روزا لوكسمبرج وليبنخشت وفكتور سيرج وجوريس .

كان مجرد استدعاء هذه الأسماء يبعث الدفء في روحي، في العنبر رقم ٧ معتقل أبو قير، في الليل البارد الموحش المشغل باختناقات

مكتومة وأحلام موءودة، وأنا أحكم لفّ البطانيتين الصوفيتين فوق
الملاءة البيضاء التي أرسلتها أمي إلى المعتقل، حول جسمي المتوقف بالأرق
والنوستالجيا.

قلت: ليس مجرد الأسماء، بل حيوية الصراعات الفكرية وحدثها،
شجاعة اعتناق الرأي والدفاع عنه باستماتة، الإصرار العقلي المثالي
العنيد أو المرونة التكتيكية السياسية، التصادمات والتحالفات
والمغامرات والتحوّطات، في حقبة آخر الأربعينيات كانت تلك كلها
تبدو قريبة العهد بنا - حتى لو كانت من آخر القرن التاسع عشر وفجر
القرن العشرين العاصف.

أقول: لكم تبدو الآن غائرة في القدم، بعيدة وتاريخية كأنها تقارب
على نحو ما الصراعات الثيولوجية في القرون الأولى للمسيحية،
الانقسامات والانشقاقات والعنف الروحي - أو العقلي - نفسه.

سأل فتحي أبو شادي: ألم يكن عندنا ثم ما يشابه هذه الحقبة؟
حاولت أن أجيب: من بعيد، نعم، ربما في تلك السنوات الزاهرة
البائدة نفسها، أوائل القرن وربما حتى الأربعينيات.
سوف أقول: وربما حتى أجهضت «الديمقراطية» وارتفعت هتافات
غوغائية بسقوط الحرية في تلك الأيام العصيبة الحاسمة من مارس في
العام المدمر ١٩٥٤.

قلت: نعم، ربما ولكن في اتجاهات مختلفة وربما عكسية، اجتهادات
رفاعة رفعة الطهطاوي، الشيخ الأفغاني على الرغم من كل الالتباسات
المحيطة بمسيرة حياته، الشيخ الجليل محمد عبده، أنطوان فرح المناضل بلا
هوادة، شبلي شميل، إسماعيل أحمد أدهم صاحب «لماذا أنا ملحد» والردّ
المهذب العقلاني - إلى حد كبير - من محمد فريد وجدى، سلامة موسى،
وعلى نحو ما جبران خليل جبران وأمين الريحاني وميخائيل نعيمة.

قلت: طه حسين شيخاً ومريداً ديكارتيّاً، لم يمعن في نهجه المتمرد

حتى نهاية الشوط وآثر العمل على الفكر، ثم الجنود المجهولون الذين عفى التاريخ على أسمائهم بقسوته المعهودة، مئات وآلاف ومئات الآلاف منهم عبر تعثر الناس في طريق لا تعرف له نهاية.

سوف أسأل: هل هو حقاً طريق دائري، ينتهي من حيث يبدأ، ويعود في دورات لا نهائية؟ أم أنها حسب التبسيط الهيجلي المأثور، دورات تصعد إلى أعلى - أو تقطع شوطاً إلى الأمام - في كل مرة، أياً كان معنى هذه المصطلحات الميكانيكية على أية حال؟

قلت: لم تعوزنا - تماماً - مثل تلك الحيوية الفكرية والنضالية، لكن الخلفية الضرورية كانت تنقصنا، خلفية عصر النهضة الغربي، الإصلاح الديني، سقوط أو تحدى سطوة النص اللاتيني المقدس، روح التساؤل الذي يضع كل شيء موضع الاختبار والتمحيص العقلي حتى النهاية، دعك طبعاً من وطأة الاحتلال العسكري الإنجليزي - وكأنه احتلال عقلي من عقابيل تدمير دنلوب للتعليم، جنباً إلى جنب مع تدمير الاقتصاد القديم وصيانة بل وتعزيز القيم القديمة في الوقت نفسه.

الآن سوف أقول: ربما أيامها لم أكن أفكر إلى اندفاع - وربما شطط - عقلي تحدوه حرارة الحماسة ووقدة الأشواق.

اصطدام رياح النوة بنوافذ العنبر وهزيم الهواء كأنما حمل إلى اصطفاق الموج الغاضب ونحن في قهوة الصيادين في القبارى، فتحي أبو شادي، والرئيس نونو الذي ارتبطت معه بصداقة وثيقة من أيام شغلي في مخازن البحرية البريطانية في كفر عسرى، ونحن نجهد أن نشقف الرئيس نونو بفقهِ الثورة.

كان الرئيس نونو يعتمر طاقية مشغولة بيضاء - غير قويمة البياض تماماً - يلف حولها ما يشبه عمامة صغيرة من قماش ملون بنقوش يشبه قماش

الأكفان، وكان دائماً يلبس اللباس الإسكندراني الأبيض واسعاً متهدلاً متعدد الطوايا ينتهي بمسكة حازمة لآخر الساقين قبل أن يصل إلى القدمين إذ ينتعل خفاً جلدياً غالباً مغربي الشكل، بنياً فاتحاً، دون شراب.

يومها كان يلف حول عنقه تلفيحة صوف سميكة وجاكتة السيرج البحاري داكنة الزرقة، من تراث المخزن رقم ٦ للبحرية البريطانية في كفر عسري، كانت الرياح تضرب حيطان القهوة في القباري، وزخات المطر المتلاحقة لها صوت اصطفاق منتظم على الرصيف، وعلى بازلت الشارع الذي لحناه مبلولاً لامع السواد تحت السماء الغمّلة بأثقال من السحب القائمة.

في طريقنا من محطة الترام إلى القهوة أغرقنا المطر ولم أكن قد أخذت معطفي العتيد الواقى من المطر فابتلت جاكتي الصوف وحتى عندما رفعت اليافتين الجانبيتين وضممتهما على الجرس لم ينجُ أعلى القميص من البلل، أحسست قطرات الماء تنهمر على وجهي، وكان فتحي يهرول إلى جانبي، طويل القامة نوعاً ما، نحيلاً جداً، مثلث الوجه تقريباً، بذقن مدببة حادة، أراه مهتزازاً من خلال غيامة من ماء المطر ونحن نبتسم كأننا نلعب، والماء يتدفق على جبينه الواسع المدور ومقدمة رأسه التي بدأ الصلع يزحف إليها تلمع من المطر، وعيناه غائرتان قليلاً في محجريهما، فيهما شأنهما دائماً، لمعة ضيقة حادة، بينما كنت ما أزال محتفظاً بكل كدشة شعري الخشن القوي الصاعد مباشرة غير بعيد من عظمتي العينين.

كانت القهوة دافئة بعد أن تركنا مقاعد القش على رصيفها وقد أغرقها المطر وتخلل القش المصفور السميك وكسا الخشب بصقال سيال، دهمتنا غبشة البخار الدافئ في الداخل، بعد أن رددنا الأبواب الخشبية ذات الضلف الزجاجية السميكة، أزيز بوابير الكيروسين على النصبه يفتح علينا نرحب بحرارته ويكاد يحمش جسومنا وهدومنا

الغارقة في الماء إذ اخترنا جلستنا بالقرب منها بل تحتها مباشرة مع الرئيس نونو الذي هتف بنا بلهجة أهل بحرى الإسكندرية العريقة: أيووه يا فندية دانتو غرجتوا تُجولش جاين عوم طِب ياللاً بينا نُجعدوا جنب النار. في حموة المناقشة وحكايات السياسة والتاريخ والفقهِ الثورى الذى حاولت أنا وفتحى أن نبسطه ونقرّبه وننأى به عن المصطلحات العويصة، وبين شفطات الشاي القاتم الحلو بسكره الثقيل وخبطات الملاعق الصفيح بالزجاج المخضر من مصانع ياسين، لم نحس بمرور الوقت ولا بأننا نشفنا بالفعل، جفت هدمنا وتطاير بخار الماء منها، لم أكد أصدّق، هل هو دفء القهوة، مع لفظ الصيادين وأحاديثهم العالية وضحكاتهم الخشنة ونداءات الواد القهوجى وفحيح بوابير البريموس وقرقرة الشيثة باضطراب مياهما مع الأنفاس القوية ونفح الدخان الأبيض الرقيق، ورائحة البحر الكامنة تنفثها أكوام شباك الصيد المفتولة بخيوطها القوية والأقراص السوداء من الفلين المعلقة بها، مرمية على الكراسى القش تجلب إلينا عنف البحر وعمق أغواره وزهوة اقتحامه معاً، أم هو دفء حسٍ مكين بالرفقة الطيبة وأنس الناس وحرارة القلب العامر بالحماسة والجائش بالأمال الكبار؟

هل فى تلك الأيام أم بعد الاعتقال كان فتحى أبو شادى يحاول أو يعلمنى خطوات رقصات الثالس والتانجو والكومبارسيتا على أنغام الجرامفون النقالى الذى ابتاعه لى، بالتقسيت المريح، أدفع له كل شهر مبلغ نصف جنيه بالتمام والكمال؟

كنت قد استبدت بى نزوة أن أجيد خطوات «الرقص الأفرنجى» حتى أراقص أوديت وآرليت ذات ليالٍ متخيّلة قادمة لم تأت قط، ولم «أتعلم» قط هذه الخطوات، كأننى - حتى بعد انهيار صروح الأمال الكبار أو ربما بسبب من ذلك نفسه - لم أكن قد تخلّيت عن إيثارى للموسيقى الكلاسيكية السامقة المركّبة العميقة بل ولهى غير العاقل وغير الدارس

بها، ولا عن استخفافي - غير العاقل أيضاً - بهذه الموسيقىات، الخفيفة في حد ذاتها على أية حال .

ترجمت عن الفرنسية مع فتحى أبو شادى - يعنى أمليته ترجمة فورية، لكتاب في فلسفة الرياضيات أظنه من تأليف پوانكاريه، ولا أعرف ما مصير مخطوطة هذه الترجمة وهل نشرت قط أثناء ترحال فتحى إلى المغرب يعلم الفلسفة في مدارس الثانوية، ورحلاته إلى فرنسا التي لم أكن قد عرفت طريقى إليها، وأهدانى كتاباً ضخماً بعنوان بانوراما الأدب الفرنسى الجديد، تأليف جايتان بيكون، طبعة عام ١٩٤٩ عن دار جاليمار. تقطعت بنا السبل، واصل فتحى أبو شادى طريقه في التدريس حتى وصل إلى غايته موجهاً أو ناظراً، تزوج وخلف ولدين، اشتغل أحدهما في البحرية التجارية وهاجر الآخر إلى إستراليا، ولحق بهما أخوه الأكبر ثم أبوه بعد أن ماتت أمه، وفي أرض المهجر مات ودُفن. أحسست غصة في حلقى، وأنا ألفت نفسى بإحكام أكثر، في الأغصية. في الأربعينيات المبكرة كانت مهاجمتى، على نحو متواتر، التهابات الحلق وتضخم اللوز ووعكات الإنفلونزا.

كنت أيامها أخرج إلى البحر، كأننى أهجر المدينة وأهرب إلى المطلق، الغامض، وفي الشتاء وهذه رياح الإسكندرية الهوجاء تضرب وجهى، وأنا لا أضع كرافتيه بل دائماً قميصى مفتوح العنق، حتى تحت الشيرز والجاكتة، أواجه البحر وأنزل تحت الكورنيش لأسير مع الشط الذى كان صخرياً في مواقع ورملياً في مواقع أخرى، برياً يكاد يكون وحشياً في أماكن، ومدجناً مروّضاً منسقاً في مواقع أخرى، قدماى تخطوان على صخور زلقة حيناً بالطحالب الخضراء، وصلبة متحدية حيناً، مزبدة برغوة الأمواج التي تأتي باستمرار تغازل وتراود وتقتحم الرمال والصخر وكأنما تريد أن تغزو الشاطئ وتتغلغل إلى قلب الجفاف المعادى. النتيجة طبعاً، أن أسقط فريسة لنوبات متعاقبة من البرد والرشح

والإنفلونزا واحتقان الحلق.

في غرفتي في شارع ابن زهر، وأنا ملقّف بالملاءة تحت اللحاف
والبطانية، أرتعد من رعشة الإنفلونزا على سريري العريض الذي يقع إلى
جانب الباب الزجاجي الفاصل بين غرفتي وغرفة نوم أبي، أجالد التهاب
اللوز الذي كان يعالج عندئذ بأن توضع صبغة اليود المحرقة على قُطنة تُولج
إلى غُور الفم وتكسو اللوزتين الملتهبتين فتثير الماء لاذعاً لا يكاد يطاق
ورائحة صبغة اليود تفعم الأنف وتصعد إلى الدماغ برحيق حريف نفاذ.
وهو ما كان يشعرني بأن جسمي يُنتهك.

فوجئت وأنا أغالب الوجع وهدّة الجسم بالفتاتين الجميلتين المونقتين
تزورانتي - لأول مرة - في بيتنا الرث في راغب باشا.

لم تكن أوديت وآرليت وأنطوان وهنري خير الله من طبقة
أرستقراطية أو راقية ولا حاجة، كانوا طبقة وسطى، لكن ثقافتهم تنتمي
بشكلٍ ما إلى شوام مصر المتفرنسين الذين أخذوا بجانب من حضارة أوروبا
وساروا على منوالها، على عكس أهلي وناسي الذين أنا منهم قلباً وقالباً.
كانت أمي بجلابية البيت الكستور والمدورة تلف رأسها، فتحت
لهما الباب بنظرة متسائلة، لم تكن تعرفهما، قالاً لها إنهما أخوات
أنطوان خير الله فقالت: يا أهلاً وسهلاً بالحبايب إخوات الحبايب.

كان مرآهما في غرفتي غريباً وخارق الأناقة بالقرب من مكتبي
العمولة المتهافت الذي صنعه لي خالي سوريال من خشب الصناديق
ودهنه بصبغة الاستورجي الماكر، وتحت الإطار الثلاثي الذي يضم صور
ديستيوفسكي وألبير قصيري وتروتسكي، وعندما جلست أوديت
وآرليت على الكنبه الأسطمبولي العتيده، وأنا في شبه بحران حمي
الإنفلونزا، كانتا تلوحان لي كأنهما حوريتان آتيتان من عالم آخر،
رشاقة القد وحبكة التاييرات ورهافة الكوافيرات للشعر المقصوص
ببراعة ألا جارسون عند أوديت واسترسال الغدائر الناعمة الطويلة

المسدلة على الظهر المنسرح عند آرايت، كانت كلها خارج السياق،
خارج عالم راغب باشا.

هل كانت الفصّة التي تكاد تسدّ النَّفس علىّ، من التفجّع أم من حنين
نوستالجيا لا جدوى فيها ولا معنى لها الآن، ولا عندئذ؟
قلت: ألا تكفّ عن سؤال المعنى؟

كان على المكتب - جنب كُتب الأدب وتدرّيس القانون ومجموعات
الشعر الإنجليزي والعربي، طبق واسع غير غويط به ماء بارد تسبح فيه
قطع من الثلج الأبيض، كانت أمّي قد كسرتها بالشاكوش من نصف
لوح ثلج شفاف زجاجي الشكل يخرّ نقطاً متسلسلة من الماء، وكانت
تضع في الطبق كمّادات من قماش أبيض نظيف ممزقة من ملاءات
السرير القديمة، تضع الكمّادة على جبهتي المشتعلة ومقدمة رأسي وما
هي إلا دقائق حتى تسخن الكمّادة فتغيرها بانتظام متواتر.

أغمضت عيني إذ أحسست لسعة الكمّادة الباردة على جبهتي
وتقاطر بضع نقاط من الماء الثلوج على وجهي ولكنني نشقتُ نَفْثَةً
پارفان باریسی مرهف عذب وعندما فتحت عيني شعرت بيدين ناعمتين
تضع الكمّادة على رأسي، ووجدت أوديت منحنية علىّ، صدرها الیانع
المحکم قریب جداً ومغور جداً، وهي تبتمس لي.

ثم استدارت وعادت وفي يدها ملعقتي الخاصة الفضية الطويلة - عليها
اسم «غالی غالی وشركاه» بارزاً جداً بالخط النسخ الدقيق - وفي طرفها
قطنة كبيرة مغموسة بالسائل البنيّ ذي الرائحة الخارقة. همست لي:
- افتح بقلك .. من فضلك .. أيوه كده ..

وفي عينيها نظرة حنان لم أعرف قط إن كان عفويّاً نابعاً من فطرةٍ
رفيقة، أم كان متدبراً، مدروساً، أم فيه شيء من الحنوّ والقصدية معاً.
أدخلت الملعقة حتى آخر زوري ومسحت بها الزبد الأبيض الذي كان
قد تكون على الكرّتين المتضخمتين اللتين كنت أحسهما تسدان علىّ

النفس، الآن وجدت مع لذعة حرق صبغة اليود روحاً وراحة كأننى اقتربت من الشفاء، واستطعت - فى الألم وعرقان الجميل - أن أبتسم لها. كانت آرليت تجلس على آخر الكنبه الاسطمبولى بالقرب من البلكونه التى كانت ضلفتها الزجاجية مردودة، فقالت لأمى.

- تانت .. ممكن افتح القرانده شويه.

ردت أمى بطيبة قلب الأمهات:

- افتحى يا حبيبتى، شويه كده يا ضنايا برضو الهوا التضيف حلو

بس ما تعوقيش.

وهكذا كان.

لكننى لم أتعلم قط خطوات الرقص المضبوطة - فى نهاية الأمر - ولم أراقص أوديت وآرليت، حتى لو غامرت برقصات مرتجلة وحادرة وحررة الإيقاع مع فتاة الجيشا اليابانية فى فندق فخم تحت جبل فوجى ياما أو مع يونانيات ساحرات فى تسالونيكى أو مع نعمتى فى حمياً الحب.

لم أرقص مع رامة قط، مع كل اشتهاى أن ترقص هى لى، ولم تفعل. فهل سوف تاتى بهجة الرقص وتعلم الحب؟ وهل سترقص لى؟

سمعت من صديقنا حمدي يوسف، بعد ذلك بسنين، أن فتحى أبو شادى قبل أن يسافر إلى سيدنى، كان يؤذن الفجر فى سيدى بشر. عندئذ، كان فريد اسكاروس قد رحل عن هذا العالم الردىء الذى نعرفه الآن، وكانت كل أحداث حلقتنا الثورية مجرد أضغاث ذكريات.

لكننى فى تلك الليلة الباردة العاصفة المؤرقة فى العنبر رقم ٧ لم يكن ليخطر لى ببال صروف تقلب الحياة بنا، بل كان ثم سؤال ساذج هل هو سيئ النية أم طيب القلب، يعنى أميل إلى نوع من البلاهة أو العبط «لماذا لم يعتقل فتحى أبو شادى؟».

كم يلوح ذلك كله الآن بلا معنى، لكن السؤال الملح الذى ليس فيه أدنى قدر من السداجة يظل: أكان ذلك كله - أيضاً - بلا قيمة؟ جسد

الوطن منتهك مستباح، مازال .

رائحة ياسمين تعبق في ليلة صيف إسكندرانىة، من شجيرات كثيفة
وارفة تظلل سور أرض خراب تصعد منها نخلات رشيقة سامقة تصبو
إلى سماء رائقة، ما أنقى صفاءها، وما أسطع إبر نجومها الدقيقة المغروزة
تتألق في قطيفة نسيجها .

نعم . كل ذلك له قيمة ثمينة جداً .

ومن ثم، كيف يمكن أن ننكر أن لها معنى ؟

ما كنت لأستبدلها بحياة أخرى، أشواق هذا الوطن والآمال الكبار
التي لا تريد أن تلوى مازالت تسفع الروح بحرارتها غير المنطفئة، غير
قابلة للانطفاء .

حتى في وجه كل الردى وكل الفساد وكل الظلام .

يا ناس .. يا هوره .. يا أهل بلدى .. هذه مصر .

من غير بلاغة ولا مجاز ولا دعوى .

حتى في وجه كل الشكوك والريب والهواجس والأسئلة .

بعد هدوء زقزقة العصافير الجنونية بنغمات ثابتة متعددة الطبقات
حينما يحل الظلام، وتخرج الخفافيش من كِن مخابئها ووكناتها،
مازالت السماء نقية الزرقة تظلل بحر مصر وصحاريها الشاسعة وعمق
واديها الخصيب .

«نوت» مازالت ترعى أرضها، وتظل ترعاها، إلى أبد الأبدين .

لم يستطع فتحى أبو شادى أن يكسب الرئيس نونو، أو لم يُرد،
واضطرتنا، إلى إسقاط «عنصر» ثمين كنا نريد أن نعول عليه في
وجودنا عند عمال الميناء وعتالي مخازن كفر عشرين .

ولكنى لم أسقط يدى عنه .

اصطحبته معى إلى موعد مع زميل سودانى في كلية الحقوق، وأيضاً
لم يكسبه فتحى أبو شادى .

كان إدريس ذهب صديقي، نحيلاً عميق السواد لامع البشرة المشدودة على وجه عظمى وجنتاه غائرتان، وكان في هذا الربيع مبكر الحرارة يرتدى بدلة حريرية بيضاء يسقط نسيجها على منكبيه المستقيمين العريضين، كأنهما خشبيتان، ساقاه طويلتان جداً تبدوان رفيعتان من ينظون البدلة الهفهاف.

توطدت صداقة من نوع ما بيني وبينه عندما عرف - لا أدري كيف - أنني أكتب قصائد وقصصاً وطلب مني بقدر من الاعتزاز بالنفس أعجبنى واستفزنى، أن يقرأ ما أكتب إذا سمحت له، وبالفعل جاءني بعد انتهاء محاضرات الخميس واقترح أن نلتقى حتى يفضي إلي بما رآه، يعني بما أحسّه وما انطبع في ذهنه - كما قال - على أثر قراءة قصائد مثل «أيتها الغربية عني»، و«قصص مثل «الأحذب» و«الأوثان»، وضربت له موعداً في اليوم التالي، يوم الجمعة، على الساعة السادسة، في قهوة الأكتع أمام محطة مصر.

الساعة السادسة بالضبط جاء شامخاً مشدود القامة. كنت واقفاً تحت سلم القهوة المرتفعة إذ لم أجد مقعداً خالياً في القهوة التي كانت تشغل رصيفاً عالياً مبلطاً ببلاطات سوداء وبيضاء متناوبة تصعد إليه عبر أربع خمس درجات، وكانت أمام القهوة ساحة أرض خلاء مفروشة بالرمل وضعت عليها الترابيزات والكراسي، في الهواء الطلق، إذ لاحت تباشير الربيع الدافئ، تحت الأنوار الكهربائية الخافتة البعيدة من القهوة ومن مصابيح الشارع.

اخترنا ترابيزة منتحية جانباً كانت رُخامتها المدوّرة رمادية اللون منقورة بحبيبات دقيقة، مكسورة الحافة ولكن راكزة على الأرض الرملية الصلبة.

طلبنا الشاي بالنعناع الذي اشتهرت به قهوة الأكتع (أصررت على أن أدفع الحساب، في الآخر) وتطرق بنا الحديث ذو الشجون. قال إدريس إنه أحب ما كتبت لكنه يري فيه عاطفية ورومانسية ربما لا تتفق

مع العصر (كان ذلك في العام ١٩٤٦) وقال إن الإغراق في الوصف والتأمل قد لا يكون من أصول القصة القصيرة التي من المفروض أن تكون قاطعة وسريعة الإيقاع، فقلت له بالضبط هذا ما وجدت أنني مسوق إلى كتابته - كأنما رغماً عني - بالخروج عن المواضع التقليدية السائدة لأني - كما قلت - أرفض المواضع السائدة سواء في الفن أو في النظام الاجتماعي والسياسي، نظر إلى إدريس بعينين عميقتي السواد المتألفتين كأنهما إبرتان حادثان.

عرفت أننا قد أصبحنا صديقين عندما قلت إن الحرية عندي أغلى ألف مرة من اتباع القواعد، وإني أريد التحرر من أسر القوانين المفروضة من عل ومن خارج ما يوحى به العقل وإلهامات الروح، فما كان منه إلا أن أخذ يدي، بصمت، وشد عليها بإيماءة اتفاق أقوى من كل كلام، ثم أسقط يدي على الفور كأنما رأى في ذلك اقتحاماً.

عندئذ تكلم إدريس ذهب وأفضى بما في ذات نفسه مما كان لا يعرفه أحد من زملائنا في الكلية.

قال إنه ملك دارفور.

وعندما نظرت إليه في دهشة المفاجأة حكى لي أن عشائر دارفور غرب السودان، قد بايعته على الملكية بعد وفاة والده فجأة بعد أن تجاوز الثمانين من عمره، وكان مع ذلك في كامل صحته وقوته، لم يرتد الملابس الأفرنجية قط في حياته كلها بل احتفظ طول عمره بالزي التقليدي الأبيض الفضفاض والعمامة الكبيرة، وكان يقود الرقصات الثقيلة، عارياً تقريباً في كل مهابته، على دقات الطبول، وإن ظل مسلماً حسن الإسلام. وقد كان هو الملك المعترف به من كل قبائل دارفور، قال إن ممثلي العشائر أجمعوا على إيفاده، هو، إلى مصر حتى يتقن فن سياسة البلاد ورعاية مصالح شعبه بعد وفاة والده.

توقف إدريس ذهب عن الكلام لحظة، كان يتأمل الشارع كأنه ينظر

إلى بعيد، لا يرى الصعايدة الذين يمرون بجلاليتهم الطويلة، حفاةً شداداً، جساماً وقليلى الجسم، ولكن مشدودين بكبرياءٍ وشموخٍ، ينادون على آخر طرح الموسم من البرتقال.

ثم قال إن الملكية فى دارفور نظام قبلى قديم قائم على الانتخاب الديمقراطى من ممثلى العشائر والبطون، وإنه شخصياً مع أنه الملك المنتخب إلا أنه يؤمن بالديمقراطية وإنه يتوى عندما يعود إلى بلاده إن يوسع قاعدة الديمقراطية، ثم صرح بما قد يُعتبر سراً من أسرار خطته فى المستقبل من أنه سوف يعمل على أن تتحرر بلاده من ديكتاتورية الخرطوم - كما قال - وإنه ينوى أن يضع ميثاقاً فيدرالياً تحتفظ فيه دارفور بالحكم الذاتى وتسيير شئونها الداخلية بالاستقلال عن المركز، وإن كانت ستظل مرتبطة بالحكم المركزى فى شئون الدفاع والتمثيل الدبلوماسى، عندما يستقل السودان عن السيطرة الاستعمارية الإنجليزية المصرية.

هبت علينا فى جلستنا أمام قهوة الأكتع رائحة مقلاة اللب الأسمر والسودانى من الشارع، ونحت الستات البلدى بالملايات اللف يتخترن أماننا بأجسام لدنة أو جافة، الشكرينه تطرقع على الأسفلت بإيقاع أنثوى.

كنا فى حلقتنا الثورية الصغيرة قد درسنا مسألة السودان، وقد كانت موضوعاً ساخناً ومثاراً للجدل الحامى والحماسة المتوقدة. كانت دعاوى وحدة مصر والسودان مطروحة بقوة، وكان فاروق الأول يسمى نفسه فى الوثائق والخطب الرسمية كلها «ملك مصر والسودان». انقسمت لجنتنا إلى ثلاثة أقسام متساوية تقريباً، أحمد النمى يرى أن وادى النيل وحدة لا تنفصل، كامل الصاوى يؤيد حق السودان فى تقرير مصيره والاستقلال - وهو ما يكاد يكون عندئذ نوعاً من الكفر والمروق - أما القسم الثالث ومنه أنا وقاسم اسحاق فيقترح فيدرالية مرنة يتمتع فيها السودان بحكم ذاتى يقارب الاستقلال، بما فى ذلك

شئون الجيش والدفاع، بل يتيح إمكانية الاستقلال الفيدرالى - هكذا كانت الصيغة التى وصلنا إليها - لأقاليم الجنوب بما لها من خصوصية فى المعتقد الوثنى أو المسيحى واللغة والتقاليد القبلية والخصائص التى تكون «قومية» مستقلة.

استمع إلى إدريس ذهب بشغف وتوتر وهو ينفذ رأسه بشعره المفلفل الحليق، ولم يتكلم.

وتواعدنا على لقاء يوم الجمعة القادم وسألته إن كان لديه مانع أن يحضر معنا صديقاً يشاركنا الرأى اسمه فتحى أبو شادى فلم يمانع صراحة ولم يوافق كذلك.

يوم الجمعة التالى - حسب الخطة الموضوعية، كما يقال - جاء فتحى وحده واعتذر بأننى شغلت بأعباء عائلية مفاجئة عن الحىء، ولكن اللقاء لم ينجح، قال لى فتحى: «البربرى» الذى التقيت به لم يكن متعاوناً بل كان متكبراً عاملنى باستعلاء وغطرسة وقلت له إنه لا يصح أن نطلق على الرجل صفة البربرى لأنه ربما أكثر تحضراً وثقافة من الكثيرين جداً، فلم يعلق فتحى وانتهى الأمر كله عند هذا الحد.

ساءلت نفسى، وأنا أتمس الدفاء الصعب تحت أغطية العنبر رقم ٧: - هل فشل فتحى أبو شادى فى الحالتين، الرئيس نونو، ومليك دارفور، عن إخفاق أم عن قصد؟ هل تعمّد أن يفشل؟ هل كان قصده أن ينفّرهما ويبعدهما عن الاشتراك فى عملنا؟

وحتى بعد أن أفرج عنى، واستأنفت صداقةً، مشربةً، مع فتحى، فى غمار خضم اليأس المحيق الذى أغرقنى بفقدان إيمانى، فإننى لم أجد إجابة. هل وجدت إجابة قط عن أى سؤال؟

الفصل الحادى والعشرون

كان «عبر البنات» بعيداً عن عنابرنا، فى الجناح الغربى من المعتقل، بينما كان عبر الإخوان فى الجناح الجنوبى، وبين كل جناح وآخر ممرٌ واسع وحواجز كثيفة من الأسلاك الشائكة ملتفة على بعضها بعضاً فى دوائر وحلقات مندرة.

وفى أيام الخريف المتأخر، عندما بدأ الجوَّ يميل إلى البرودة، وأخذت النوات الإسكندرانية تهبّ بأقطارها ورياحها العاصفة، وبدأت السماء تثقل بحملها من السحب الداكنة، كنا نفتقد بشدة شمس الصيف الذى ولى، كما كنا نفتقد ذلك الأنس الغامض المشوب الذى كان يتسلل إلى قلوبنا عندما كان العنبر الواسع العريض قريباً من «عبر البنات»، وكنا نلمحهن رائحات غاديات، ولا نشبع من تملى «لى شيفال» عارية الساقين المليئين حتى أعلى الفخذين عارية الذراعين، وأحياناً فى بلوزة مكشوفة بحمالات، تتهدل على صدرها الوثير الناهد، مستلقية براحتها على الشيزلوج القماش المخطط بالوان بهيجة.

وصلتنا شائعات وأخبار غير واضحة، من خلال الصُّولات والأرمباشية الذين بدأنا نعقد معهم صداقات، ونُجرى صفقات، ولا نبخل عليهم ببعض أطايب المأكولات والسجائر الفاخرة، كرافن إيه وپول مول وبحارى إنجليزى زرقاء، مما يأتى به الأهل فى زياراتهم.

ترددت فى العنابر، من عنابر اليساريين فى أول الشكنات الشمالية إلى عنابر اليهود والصهاينة فى آخرها، عن صدامات «البنات» فى

عنبرهن، إذ لم يكن لهن إلا عنبر واحد - جمع بين كل الاتجاهات السياسية والأيدولوجية.

كنا قد قطعنا - من ناحيتنا - اتصالاتنا بعنابر اليهود والصهاينة، كنا نسمعهم يتسقطون الأنباء عن طريق أجهزة راديو مرتجلة صنعوها بأنفسهم، من مواد خام مهترية، وينصتون إلى إذاعة برازافيل الفرنسية التي تخصصت في ذلك، على ما يبدو، يتبادلون أخبار حرب فلسطين، الهدنة وحصار الفالوجا وتهجير ومجازر الفلسطينيين بترويع منظم تصلنا تفاصيله مضطربة غير محدّدة، واتفقنا على أن ننظم اتصالاتنا بهم ونقصرها فقط على جونى فريدمان، طالب بكالوريوس الطب، يعنى زميل عبد القادر خلف الله وإن كان يسبقه بأربعة سنوات، كان عبد القادر هو المنوط به القيام بهذه الاتصالات وحده، وإبلاغنا بما يتيح له فريدمان من أخبار.

طبعاً كانت نسخ نادرة وعزيزة من «الأهرام» أو «الأخبار» أو حتى «الوفد المصرى» - أو «صوت الأمة» - تتسلل إلينا، كاملة أو مجتزأة، متأخرة يوماً أو يومين، ولكنها دائماً موضع تلهّف وترحيب، نتبادلها في الخفاء مفضّنة مطبّقة وأحياناً ممزّقة الأطراف أو ناقصة الصفحات، أما الراديو فقد كان مستحيلاً إذ لم يكن عندنا من المهارات أو من الرغبة الملحة في تسقط الأنباء ما عند عنابر اليهود.

في مساء بارد، وبعد تمام السانك سانك الذى استمر، حتى آخر لحظة، فى الفسحة الرملية أمام عنابرنا، دعونا «الضابط فؤاد» كما كنا نسميه إلى العنبر رقم ٧ على فنجان شاي فاخر، مع كأس من كونياك كورفوآزييه الذى وصل إلى شوارتز، خفية، فى زجاجة كوكاكولا محكمة الإغلاق، بسدادتها، على السائل الأصهب الرقراق، (كانت زجاجة الكوكاكولا أيامها بائنى عشر مليماً بالتمام والكمال).

ومع علمه بأن دخول الكحوليات إلى المعتقل ممنوع بأمر القومندان،

إلا أن الضابط فؤاد كان يتسامح، ولعله كان يتعاطف في سريره، معنا.
قبل الدعوة، وأعدنا مزّة نادرة من علبة فواجرا فرنسية، وزيتون
يوناني، وترمس بلدي، وجبنة موزاريللا إيطالي. كانت الحرب قد
وضعت أوزارها - كما يقال - من سنتين، وتدفقت الواردات على أهل
اليسار، ومنهم بطبيعة الحال، أهل شوارتز، ولم نكن من الطهرانية
بحيث نرفض قبول هذا النعيم، بل كنا نشارك أصدقاءنا، وخاصة أعضاء
الكوميونة صابر ومحمود وحسين، وجماعة لطفى ووجدى وفكرى.
ومع الكأس الثانية، في دفء العنبر الحسيم، على جنب، حكى لنا
الضابط فؤاد ما حدث في عبر البنات:

- من أول يوم كان الجو في عبر البنات متوتراً بين المصريات بنات
البلد واليهوديات المصريات فيما عدا مارسيل ديلسبونيه اليهودية
الشيوعية الوحيدة التي تحالفت من أول لحظة مع زينب المشراوى
وزميلاتها ضد لى شيفال وزميلاتها، انقسم العنبر قسمين منفصلين،
 ووضع بينهما حاجز من البطاطين يفصل الجناحين فصلاً تاماً، وبدأت
النزاعات عندما أصرت زينب المشراوى على أن يُترك ممرٌ محايد موصول
بالبطاطين أو الملاءات، أرض حرام، للعبور من جناحين الخلفى إلى
الباب، بينما قالت لى شيفال إن ذلك اعتداء على الجناح الخاص بهن،
واقطاع من مساحته لا مبرر له وإن عليهن المرور عبر الجناح الأمامى
ومن أمام سراير اليهوديات وتحت أنظارهن، إذا أردن أن يخرجن من
الباب للوصول إلى الحمام الخاص بهن ولاستلام اليَمك أو للتمام صباحاً
ومساءً.

قال: أنتم تعرفون بلا شك أنهن كلهن لا يتعدى عددن عشريين أو
أقل، هن بالضبط تسع عشرة، ومع ذلك فقد كنا نحن المسئولين عن
المعتقل نحس أنهن أكثر منكم، وأعنف مشاكل، وأعلى صوتاً.
قال فريد: دائماً البنات هكذا، أسألنى أنا.

ضحكنا، ونحن نعزم على الضابط بشريحة ممسدة بالفواجرا فواح
الرائحة والكأس الثالثة .

كان الروسيان قد أويا إلى فراشهما، مقذوفاً بهما في غربة
مضاعفة، لم يكونا يفهمان ما يدور به الحديث الخافت بالعربية، ولكن
بقية أصدقائنا في العنبر كانت قد تحلقت حولنا ولم نضنّ عليهم
باللذائذ المتاحة أمامنا على صندوق خشبي عليه مفرش بيتي مطرز
الحواف، أما الباقي فقد ألقوا بالأسماع إلى الحكاية، وهم جالسون على
الفراش، غير بعيد من حلقتنا .

قال الضابط فؤاد :

- من ثلاث أربع أيام كانت زينب المشراوى فى طريقها للباب، على
أول الصبح، عندما هبت لى شيغال من رقدتها على السرير، وقالت
بصوت مسموع ومستفز: إفّ .. إفّ موش حانخلص بقى م المصاب
دى .. وم الست الكوماندة زينب وبنات العرب الوسخين ..

طبعاً استدارت إليها زينب، ولم تقل شيئاً، بل صفعتها على وجهها
بحركة مفاجئة وحاسمة، وطبعاً وقعت الواقعة، اشتبكن جميعاً على
وشّ الصبح بالأيدى وشدّ الشعور والتلطيش والتوقيع على الأرض
وشكّ القلب على أصله والصراخ والشتائم بالفرنسية والعبرية والعربى
الإسكندراني الفصيح، واضح أن زينب المشراوى كانت تربية حوارى،
مقاتلة، ولم تكن لى شيغال نداءً لها بأية حال .

ثم سكت لحظة، واستطرد :

- الغريب .. أبداً مش غريب ولا حاجة، أن مارسيل كانت أعنفهن
فى الاشتباك مع اليهوديات .

قال فريد : يا خبر .. وعملتوا إيه ؟

قال الضابط فؤاد : ولا حاجة .. نادينا الست الأومباشية النوبتجية،
ولكنها عندما وصلت العنبر كانت العركة قد استنفدت قوى البنات،

كانت لى شيشال تبكى، وزينب قد خرجت إلى الحمام، واستتب الهدوء، ولم تجد الأومباشية شيئاً تأخذهن به أو تحاسبهن عليه .
قال عبد القادر: أنت تعرف طبعاً أن السبب ليس نزاعاً بين بنات، بل هو فى الأساس صراع بين اتجاهات سياسية وفكرية .
لم يجب الضابط فؤاد، أو ما برأسه بحركة غير محددة وغير واضحة، وأنهى كأسه الثالثة، وقام فجأة:

- متشكرين يا جماعة .. تصبحوا على خير .

ومضى إلى الخارج بخطوات عسكرية منتظمة .

لكن ذلك لم يمنع أنه فى تلك الليلة نفسها استيقظنا على روتين هجمة التفتيش الليلية، على الساعة الواحدة صباحاً، جاء العساكر بقيادة الضابط فؤاد وفتحوا الباب بعنف وهتفوا:

- إصح أنت وهوه، تفتيش، كل واحد يطلع برة ويسيب كل حاجة زى ما هي .. ياللا اطلع برة ..

وكالمعتاد اختطف كل منا ما يدفنه، معطف، جاكته، بطانية، ولفنا حول الرءوس فوطة أو تلفيحة، أو حتى قميص، ولم يمانع الضابط فؤاد، وخرجنا إلى الساحة الرملية، ووقفنا طوابير من خمسة، ونادى الصول: سأنك سأنك، بينما كانت ضجة الحملة قد هدأت قليلاً بعد ارتفاع اللفظ وأصوات الاحتجاج، تتخللها الضحكات، وارتفعت فجأة أنغام نشيدنا البانديرا روساً، من ناحية ومن ناحية أخرى نشيد الصهاينة بالعبرى، واختلطت الأصوات .

بينما كان الضابط فؤاد ومع الأومباشى يمر على العنبر فى تفتيش صورى سريع لم ينته، طبعاً، إلى ضبط شىء من المنوعات .

فى الساحة الرملية الحرام تحت الأنوار القوية من كشك الحراسة العلوى الذى يقبع فيه العسكرى يحتضن مدفعه الرشاش الصغير، رأيت تلك القطة ملكة الليل، تمشى بثقة وبطء، تتمطى بجسد يطول ويطول

بين الصحراء والصحراء .

وبعد نصف ساعة أو أكثر قليلاً كنا قد عدنا إلى العنابر، وأوينا إلى نوم قلق مضطرب أو عميق مستغرق، وساد الهدوء معتقل أبو قير .
بعدها بأيام وصل المعتقل مصوراً من وزارة الداخلية، أو من المحافظة أو القلم السياسى، ومعه الكاميرا الضخمة التقليدية العتيقة المنصوبة على حامل حديدى، وأخذ لكل منا بالدور، صورتين، مواجهةً ومن الجنب، على خلفية حائط العنبر رقم ١ .

كنت أيامها، فى إحدى نزواتى، أطلقت ذقنى على شكل سكسوكة مدببة . كنت أحلق صفحتى الوجه وأترك الذقن والشارب، ومع النظارة ذات الإطار الرفيع المذهب التى انكسرت إحدى ذراعيها، لم يكن شكلى - فيما أظن - بعيداً عن الإنتليجسنا فى أواخر القرن التاسع عشر أو أوائل القرن العشرين .

هل هذه الصورة مازالت محفوظة فى أرشيفهم ؟

بعد أسابيع قليلة زهقت، مللت حنّفة جانبي الوجه وتشذيب السكسوكة وتخفيف الشارب، وعدت إلى الأسلوب القديم فى حلاقة الذقن نظيفة لا تشوبها شائبة .

قال لطفى، بلهجته المعتادة التى توحى - شاء ذلك أم لم يشأ - بأنها ساخرة :

- رجعت لعقلك يا بطل ،، وبقيت زينا تانى

فلم أجب، ولكنى لم أحس غضباً، ولا حتى استياءً .

كنت - على نحو ما - قد بدأت أكنّ للطفى إعزازاً وتقديراً .

لطفى مدكور الذى كان أميل إلى القصر، ملئء الجسم وملئء العينين بذكاء حذر وتأمل متوجس دائم، كتوماً لا يحب الكلام الكثير، دعك من الشرثرة، أدين له بالكثير، فقد كان سبباً غير مباشر ربما فى أن حياتى كلها اتخذت مسارها .

بعد أن خرجنا من المعتقل مررت بفترة وعرة حقاً فلم يكن في البيت ملّيم، وتلطّمت، كما كان معتاداً، بين دروس خصوصية في العربي والإنجليزي والحساب لأطفال أصدقائي، وبين ترجمات لبسرات الاختراع كلها مصطلحات ميكانيكية وكيميائية في مكتب ماجري أوفرنند المألطى اليهودى الإسكندراني الذي كان فتوح القفاص يشتغل فيه، حتى التقيت بلطفى مدكور صدفة.

قال إنه اشتغل عدة أشهر في شركة التأمين الأهلية ولكنه الآن يتركها لعملٍ أنسب وأجزى في بلدية الإسكندرية، لم يكن لطفى خريج جامعة، بل كان قد حصل على دبلوم الخدمة الاجتماعية، بعد التوجيهية، وكان قد علّم نفسه شيئاً من الإنجليزية والفرنسية.

قال إن الشركة بحاجة إلى موظف، غير جامعي، بمرتب بسيط ولكنه معقول، يجيد الكتابة على الآلة العربية والفرنسية، ويعرف من اللغة الفرنسية ما يتيح له أن يترجم أو يلخص بالفرنسية محاضر حوادث السيارات المؤمن عليها، نقلاً عن الأصل العربي، قال لماذا لا تقدّم في هذه الوظيفة؟ وزاد بأن زودنى بنوتة فيها كل المصطلحات اللازمة في هذا السياق بالعربي والفرنسي، قال إنه سترك الشركة بعد شهرين، أليس هذا كافياً لأن تتعلم الضرب على الآلة العربية والفرنسية؟ قلت كافٍ ويزيد، والتحقت بمدارس برليتز في شارع سعد زغلول أربع ساعات كل أسبوع دفعت فيها الشيء الفلاني لكنى بعد المدة المضروبة كنت أستطيع أن أرقم عليهما المطلوب على نحو معقول، وعندما ذهبت إلى مقر الشركة في العمارة الجميلة ذات الأعمدة الرخامية السوداء والأناقة الكوزموبوليتية الإسكندرانية، في تقاطع شارعى النبی دانيال وفؤاد، لأقابل المسيو فارس، نائب رئيس قسم حوادث السيارات، نجحت في المقابلة، أخفيت عنه أنني ليسانس في الحقوق، وقلت إنني كنت أشتغل بالترجمة الحرة منذ حصولي على

التوجيهية من ثماني سنوات، ولم يُعن المسيو فارس ولا الخواجا رزق الله
رئيس القسم بالتدقيق لأن الشركة كانت بحاجة إلى من يسدّ فراغ هذه
الوظيفة بأى شكل، ويبدو أنني لم أخفق في أن أكسب الثقة.

ولكن أهمّ ما في ذلك كله أنني في طريقى إلى المقصورة الزجاجية
التي كان يقبع فيها الخواجا رزق الله والمسيو فارس، في الدور العلوى من
عمارة الشركة، وقع بصرى على تلك الفتاة صغيرة القدّ، مرحة العينين،
نضرة الجسد، يانعة الوجه، متوهجة ومتألقة بحيوية وشباب متفجر
ومحكوم.

كنت في الرابعة والعشرين، مرير القلب، ويائساً ومحبطاً وفاقد
الإيمان.

نزلت على صاعقة الحب من أول نظرة.

لعلنى كنت بحاجة مدمرة إلى هذا الحب، أو إلى هذا اليأس.

لم تغادرنى نعمتى بعد ذلك قط، في الخيالات وآلام الحب المضطرب
وفي نعماء ومكابدات الواقع الصلب على السواء.

ودارت الحياة فصلاً في مسارها المتقلب، ولكن تلك قصة أخرى.
ألم يكن لطفى على نحو ما مستولاً، بين أمور أخرى كثيرة بطبيعة الحالة
عن هذا المسار؟

وكما تجرى صروف الحياة - مما هو مبتذلٌ قوله رائجٌ معروف -
انقطعت بنا السبل مرة أخرى، لم أكد ألتقى به مرة أو مرتين في
الشارع، تتبادل تحيةً عابرة سريعة، كم يندم المرء على أنها لم تعد
لقاءات حميمة ومليئة، أننا نترك فرصاً ثمينة تفلت من أيدينا إلى غير
رجعة، هذا أيضاً كلام لا طائل من ورائه.

عندما بلغنى خبر موته، بعد أن بارح هذا العالم الردىء بعدة شهور،
كانت الطعنة عميقة ومكتومة، ذلك معتاد أيضاً، وغير مهمّ.

بعد أكثر من خمسين عاماً، تذكّرنا لطفى مذكور، أنا وفكرى النمر،

بشكلٍ ما كما لعل الأجداد يتذكرون ابناً عزيزاً طواه الموت مبكراً.
حمدي يوسف دبر لقاءً، هو الأول بعد عام ١٩٥٠، مع فكري في
مقهى إيليت .

ها نحن نوشك أن نظوى الصفحات الأخيرة، وقد أصبح الثورى
اليسارى العتيد رئيس مجلس إدارة مؤسسة حكومية كبرى، لا أذكر ما
هى، وكدت لا أتعرف على الفتى صعيدى الوجه، صلب العينين، قوى
الفك، ناشف العود، الذى كان يعمر العنبر رقم ٧ بقوة إرادته وبنوع من
الأبوة وصمود الموقف، الآن بعد أن خرج على المعاش لم يبق من هذا
الميراث إلا القليل، مازال السخط والغضب كامناً ومفصلاً عنه باحتراز
أولاً ثم بصراحة الذكريات المشتركة، لكن الإحباط وما يقارب اليأس من
كل شيء هو النغمة القائمة التى تسود اللقاء وتكاد تغلب الروح على
أمرها .

سألته عن وجدى حبيب . كان ضلع الثالوث الذى مازلت أراه فتى
نحيلاً رقيق الجسم متوقد الذكاء يتهنه قليلاً وفى روحه براءة تكاد
تكون قدسية، وحتى فى محنة المعتقل كان وجدى يشع بهذه البراءة،
الطفولية لكن الناضجة، على نحو فيه ما يبعث على الراحة وعلى
الأمل .

فى هذا اللقاء الذى جمع بيننا، وقد تجاوزنا السبعين من العمر، عبد
القادر وعبد الفتاح، حمدي، وفكري، وفى قلب لغط الذكريات
ومناوشاتها التى لم نلق إليها بالاً، دبت حرارة قديمة فى قلوبنا، أو
هكذا تصورت .

قلت : دموع الرومانسية لا داعى لها .

عرفت أن وجدى حبيب الذى كان قد وصل إلى مناصب مرموقة فى
ساحات العمل القانونى، قد هاجر إلى الدانمرك مع عائلته وزوجته
سويدية الأصل، بعد أن اختتم عمله فى منظمة الأغذية والزراعة، فاو،

في منظومة الأمم المتحدة، طلبت من فكرى أن يعطينى عنوانه في كوبنهاجن أو رقم تليفونه، فأمهلتني قليلاً، ثم كتب إلي بعد عدة أسابيع بالعنوان، تساءلت: هل مازالت قواعده الأمان مغروزة في آليات سلوكنا؟ كتبت إلي وجددي في كوبنهاجن، ولم يرد علي، ومازلت أحتفظ له بصورة الفتى ناحل الجسم ذكي الفؤاد لامع العينين الذي فيه طفولة منعشة وحصيفة، فمن يعرف إلام قد آل شكله الآن - مثلنا جميعاً، نحن فتية الأربعينيات الثورية البائدة؟ - وهل صار أكرش متهدل الجسم والروح، صامت العينين مثلاً، أم ظل فيه هذا النقاء القديم؟

أما زال النقاء القديم فينا، أم اندثر؟

وعلى ذكر النقاء والتمرد، لماذا طافت بخيالاتي أطيفاء بولا العلابلي التي لم ألتقي بها قط، وكأنما عرفتُها معرفة حميمة مع ذلك؟ مجنونة، صاحبة الصوت، صاحبة المكياج، تضع نصف كيلو كحل على عينيها فتبدو ان صاعقتين في عمقهما ونقاذهما، تدخل المكان المزدحم باللفظ والحركة فيصمت الجميع وينصتون، كادت تُحدث فتنة عند زواجها بـجورج حنين، تظهر نصف عارية على موضة الأربعينيات، دون أن تعباً بالنظرات المتلصصة أو المتطفلة أو النهممة، التمرد وعنف الحب وضربات الثورة على التقاليد، ألم تكن تلك رسالة لنا، بشكل ما؟

البقرة السماوية مسكن حور الثملة من تبيد الأمانى المستحيلة، زينب المنحوتة داكنة البشرة رقصتك بين النجوم الثاقبة تبعث الرفات في جبانة طيبة ومدافن الشاطبي فإذا الموتى يطوحون بالأذرع المتشابكة على ترجيعات مزمار «مين» الخصب والشبق وميقان السكر متواشجة في موسيقى «جلوك» الأطياف التي أسبغت عليها نعمة لا تبيد على جيتار أورفيوس وهارب هاتور في طيبة وسيناء البنات سمرارات النهود

مسترسلات غدائر الشعر الكثيف ليس عليهن إلا حزام رقيق بين
الساقين يحيط بالخصر وتنسدل منه تفاويف الكتان الشفاف، عايدة
حورية من نيمفيات النيل تتأرجح على أمواجه دفتها قد أفلتت تترنح
على قصف مدافع كرونشتادت في فجر أكتوبر الذي انحسر وذابت
سحاباته كما تذوب الشموع الجنائزية. ما أروع كمال محياك أنت
الوحيدة بلا مثال أجمل من كل الجميلات عيناك مزججتان بالكحل
العميق الثقيل ترميان بالحمم مثل بركان حنون. كيميت ذراعاك ذهب
منثور جمع في حصاد إلهي مدملج مفتول، رامة ما أسعد من يعانقك من
تلثمين على جبل بيبلوس اللوتس المزدهر فيه قلبي وجسدي ودمائي
الدفاقة ترفض أن تنسأك هل أنت بولا عادت إلينا تشيه بعنق تلعاء
يتراقص على جانبها قرط لازوردي الصفاء؟ أم أنت النعمى التي جاءت
إلى فرأيت فيها الكمال؟ فتحت بابها بعد طول صدود. هأنذا أوشك أن
أضيع على الموسيقى التي تأتي في آخر الزمان. ما أقواك لم تضللك
هتافات «كلنا واحد»، فنحن كثيرون ولم تظلمك وصاية الذي اتخذ
لنفسه قناع رَع أبيك الجليل فسقط القناع. يا مليكة دندرة يفوح من
ردنك عبق بلاد بونت وفي بطنك لدونة الطمي الخصيب. هلاوس
عشقى لك يا وطنى التي على فخذيها العريضتين بين الصحراء
والصحراء أجد ملاذى من هواجس الاغتراب، وأنس المنفى السحيق إلى
أغوارى.

أما ثم برء من هذا الهيام؟

الفصل الثامن والعشرون

بعد منتصف الليل وبعد أن آوينا إلى النوم العميق أو المورق وقد خيمت على العنبر روحٌ ثقيلةٌ أضيئت الأنوار فجأة على وقع دبيب أحذية عسكرية غليظة وهتافات مبحوحة.

- اصح أنت وهوّه .. اصح قوم يا مسجون ياللاً .. اصح العساكر قد ملأوا الممر الفاصل بين صفى الأسرة، على رؤوسهم الخوذات المعدنية وهم فى كامل عتادهم، وبأيديهم البنادق مشرعة مصوبة نحونا، كأنهم يشنون حملة حربية والضابط الفريب على باب العنبر يكرر أوامره بعنف: اصح يا مسجون أنت وهوّه.

صيحات احتجاج وغضب إحنا مش مسجونين، إحنا معتقلين، لنا حقوق يحب أن تُحترم .. انت مالكش حق فى اللى انت بتعمله . لكنها هذه المرة لم تكن مجرد حملة تفتيش . قال الضابط بخشونة وحسم :

- كل واحد يلبس على طول ويأخذ لوازمه فى إيده، ويطلع برّه بسرعة، ياللاً .

صيحات وتساؤلات ملهوفة .

- إيه .. فيه إيه، نلبس هدومنا ليه؟

- اسمع يا مسجون إنت وهوّه .. حاقول مرة واحدة بس، عندكو نص ساعة بالضبط .. انتو منقولين لمعتقل تانى أدبنى بقولها مرة تانية: كل واحد يلبس هدومه ويأخذ لوازمه وشنطته ويطلع برّه، طابور برّه بعد نص ساعة بالضبط ياللاً هم إنت وهوّه ..

كلّ الهواجس تهاجمنا مع هجوم العساكر : إلى أين نذهب ؟
يسأل أحدنا العسكري الذي بجانبه ،
- والنبي يا دُفعة .. احنا رايعين فين ؟
فيرة على الفور كأنما يردد ما لقن من قبل أن يقول :
- ما اعرفش . ما اعرفش .. ياللا يا فندى ..

في لهوجة الترويع وتحت ضغط إرهاب نُقاومه بكل ما أوتينا من
شجاعة أو تظاهر بالشجاعة ، نأخذ في أن نلّم أشياءنا ونرمى بها في
الحقائب التي كانت تحت السرير أو في الصندوق الذي يقوم مقام
الكومودينو ، كلّ منا يرمى في حقيبته المفتوحة بملايسه وعدة الحلاقة
والأدوية وربما كوب الألومنيوم أو الشبشب ، كلّ منا لا يكاد يرى
صاحبه في عنف نصف الساعة المتاح الذي يخطف كالبرق وإذا
بالضابط يدخل مرة أخرى ومعه جنديان على كل جانب يصوبان إلينا
مباشرة مدافعهم ، وهو يصفق بيده وينادى :

- خلاص ، اطلع برّه يا مسجون انت وهو .. برّه .. برّه .

العساكر تدفعنا بخشونة بيد ، والمدافع الرشاشة باليد الأخرى ، الذي
نام بالشورت والذي نام بالفانلة والذي بالبيجاما ، والذي بالجلابية ، منّا
الذي لحق أن يرتدى ملابس «الخروج» ومنّا الذي مازال يحاول أن يلبسها
بسرعة ولهوجة ، على برّه ، ياللا ، اطلع .

لذعة هواء الليل بعد دفء العنبر والأنوار في المعتقل كلها مضاءة
وساطعة والكشافات تدور من أبراج الحراسة على أركان المعتقل الأربعة
وعساكر الحرس قد وقفوا انتباه وسددوا مدافعهم الرشاشة إلى الساحة
التي امتلأت فجأة بجمهرة من المستيقظين عنوة في ملابسهم المهوّشة ،
التوتر في المعتقل كله قد بلغ مداه ، عندما أنظر إلى وجوه أصدقائي
وزملائي أعرف صورة وجهي : نظرة متحيرة ولكن مصممة على أن تبدو
غير متخاذلة ولا ينتابها ضعف أو خور ، وجوه في الأنوار الكاشفة تلوح

بيضاء شاحبة مشدودة، كلُّ منا يحمل في يده حقيبة كبيرة أو متوسطة
وأشياء أخرى غير واضحة المعالم لم تدخل في الحقيبة.

نداء الضباط فينا وفي عساكرهم معا:

- انتباه.. انتباه، المعتقلين يقفوا طابور، كل اثنين في طابور،
بسرعة.. بسرعة..

يأتى القومندان الصارم القوى كأنما فيه نبرة أبوة:

- يا إخوانى النظام.. النظام.. دا إجراء بسيط. نَقْل لمعتقل تانى.

هتف الضابط فؤاد فى الصمت الذى سقط فجأة على ساحة المعتقل:
اللى حنادى اسمهم ياخذوا عشر خطوات يمين ويعملوا طابور
لوحدهم.. ياللا.

أخذ ينادى الأسماء.

فى سكونٍ مطبقٍ لا تشوبه إلا خشخشة الأحذية على الرمل وهى
تنتقل فجأة من عالم إلى عالم.

انتهت مهمة الضابط فؤاد. وانتهى، استلمنا ضباط غرباء لا
نعرفهم.

لم نستطع أن نسلم على الأصدقاء الذين لم يرتفع النداء بأسمائهم،
وظلوا واقفين فى طابور متخلخل كله فجوات، ينظرون إلينا من بعيد.
وفجأة ترتفع الأغنية الشعبية الشائعة بالفرنسية، من صفّ الباقيين
فى أبو قير:

Ce n'est qu'un au-revoir amis

Ce n'est qu'un au-revoir

إنما هذا إلى اللقاء، يا أصدقاء

إلى اللقاء.. ليس إلا إلى اللقاء،

وفى الشجن العاطفى السهل والحقيقى أيضا تترقرق الدموع ولا
تنسكب.

انحسرت الأضواء الكشافة عن صفوفهم، سادهم ظلام الإعفاء من مصير لا أحد يعرفه .

بينما الأضواء مسلطة على طابور المبعدين الذاهبين إلى هذا المصير، ومن الشكنات الخلفية التي كان يسكنها الإخوان تصاعد لفظ وطنين وصوت صرخات ألم وهبات ضرب الهراوات المكتوم على الأجسام ودوت فجأة زخة رصاص في الهواء من مدفع رشاش صغير وسمعنا صوت لوريات الجيش تتدافع في زئير مفاجئ من السرعة والانطلاق .
ظللنا واقفين مدة طويلة خيل إلينا أنها لن تنتهي وقد أخذت هبات هواء الفجر الباردة تضربنا بهدوء .

استرخى التوتر قليلاً، نهمس إلى بعضنا لبعض بأى كلام على سبيل شد الأزر، بالسؤال عن أن كله تمام؟ كله كويس؟ تعبأن ولا حاجة؟ مش مهم يا أخى .. دلوقتي نشوف .. حيكون إيه يعني .. وهكذا، ولكن الهواجس الخفية تدور في دخیلتنا، كلاً على حدة، لا نكاد ننظر إلى أحدنا الآخر نظرة متأنية حتى لا نرى على وجوه زملائنا ما نعرف أنه مرسوم على وجوهنا : ترقب مصير مجهول مشحون بكل الاحتمالات .
- اطلع العربية يافندى .. واحد واحد من فضلكم، ياللاً .

تغيرت النبرة تماماً، كان الضابط الذي يشرف على صعودنا سيارة نقل مكشوفة واقفاً من داخل باب المعتقل، ونحن نصعد على درجتي السلم الخلفي الحديدي فنجد أنفسنا واقفين غير متزاحمين جداً يحيطنا سياج سيارة النقل ومعنا أربعة من عساكر الجيش كل واحد في ركن من سطح السيارة بملابسه الكاكي وخوذته ومدفعه الرشاش الصغير، لم نكن مصقدين ولا مربوطين بسلاسل أو حبال، كان ثم بقية من الكرامة تُراعى في عملية نقل بدأت عند أول تبشير الصباح وسوف تستغرق سحابة النهار، لم نكن نعرف إلى أين سوف تمضي بنا سيارة النقل المكشوفة التي وقفت طويلاً عند الباب ريثما ينتهي الضباط والصولات

من تسجيل أسماء وإحصاء أعداد وتتميم إجراءات .

أخيراً وثب الضابط الشاب بخفة ونشاط، بما يكاد يقترب من المرح، إلى المقعد الأمامي بجانب العسكري السائق، فلعله كان يمتنى نفسه بالعودة إلى بيته الدافئ، إلى زوجته أو أمه أو حبيبته بعد أن يسلمنا .

يسلمنا إلى من؟ إلى ماذا؟

تحركت السيارة العسكرية الكبيرة ونحن فيها واقفين واجفئ القلوب . الغريب أننا تنفسنا - لحظات قصاراً ربما - أنفاس ما يشبه الهواء الطلق، وسط غيطان خضراء يانعة في أوائل فبراير الذي لم يكن بارداً، عبر الطريق الترابي ثم المسفلت من أبو قير إلى المعمورة، لم تتوقف السيارة فائزاح قلق مساور دفين بأنه ربما يأخذوننا إلى أوردى المعمورة الرهيب سيئ السمعة، لاستصلاح الأرض الرملية الحجرية في أبعديّة فاروق وأخواته .

- لا، عدت السيارة أرض المعمورة وشارفنا القصر الغامض المنيف

بأحجارة الحمراء الكابية

لم أستطع مقاومة الحجاز - «كأنما معجونة بدماء الناس»، وأبراجه قبيحة المعمار .

ثم انحرفت السيارة إلى شارع أبو قير الخاوي في هذا الصبح الباكر، البيوت العالية مغلقة الشبابيك والدكاكين موصدة الأبواب، وسيارات قليلة تعبر بنا دون أن يعيرنا ركبها أدنى اهتمام .

لم يكن في شكلنا ما يشبه عمال التراحيل، مازلنا أفندية رغم شعث الهندام ومع كل منا شنطة كبيرة أو متوسطة ولقمة فيها أدوات وأشياء .

في فراغ الصبح الساكن انطلق هتاف مفاجئ:

«تحيا مصر»

وعلى الفور رددنا الهتاف وكأنما كان هو الشيء الذي ننتظره دون أن

نعرف:

«تحيا مصر»

نظر إلينا جنود الحرس الأربعة، دون فهم فيما يبدو، ولكن دون أن يحركوا ساكناً، اقتربت السيارة من محطة سيدى جابر وفوجئنا بأن ساحة المحطة تبدو كأنها ساحة حرب.

جنود الجيش ضربوا حصاراً محكماً حول ساحة المحطة التي خلت من كل شيء ومن كل أحد، وأقاموا كورددونات على منافذ الشوارع المفضية إليها وقد تجمع عدد قليل من المسافرين والباعة والمارة على مبعدة، يرقبون ما يجرى بفضول.

«يسقط الاستعمار»

«يسقط الاستغلال»

«تحيا مصر حرة اشتراكية»

«تحيا الاشتراكية»

فى خواء الساحة وفراغ الصبح، تحت شساعة سماءٍ مازالت تحجبها سحب الفجر البيضاء الخفيفة تبدو أصواتنا صغيرة كأنها عقيمة لا معنى لها.

الناس من بعيد ينظرون إلى هذه الجماعة الغريبة من الأفندية والعمال يلوحون بأيديهم ويصيحون بأعلى عقيرة أصواتهم هتافات بلا سياق وبلا مناسبة.

دارت سيارة النقل العسكرية ودخلت رصيف المحطة الذى بدأ أيضاً تحت الحكم العسكرى، خالياً إلا من طابور جنود مصطفى أمام قطار واقف مغلق النوافذ تماماً يبدو خالياً من الواضح أنه ينتظرنا.

أعواد الهيش والبوص من ناحية سموحة تحفّ بالمحطة التي ترددت فيها أصداء سقوط السياج الخلفى الحديدى من السيارة العسكرية، ودبديبة نزول العساكر بأحذيتهم الثقيلة على الرصيف ثم نزولنا بين صفين صغيرين من الجنود أمام الباب الوحيد المفتوح من القطار.

صعدنا إلى عربة الدرجة الثالثة بمقاعد الخشبية وصدمتنا رائحة
الكتمة وهبوة غبار طفيف وعتمة خفيفة من وراء النوافذ محكمة
الإغلاق.

إلى أين يسير بنا القطار؟

مزق من صور ترحيلات ضحايا النازي تخطف بأرواحنا، هل يقف
القطار في أرض صحراوية خلاء، يأمرونا بالهبوط، ويطلقون علينا
الرصاص، ويقولون محاولة هرب المعتقلين من أصحاب الأفكار الهدامة،
وإعادة الأمن والنظام إلى نصابه؟

أم يسوقوننا إلى معتقل ناء على شط الملاحات ويسخروننا في
تجفيف ماء المستنقعات واستخراج الملح الكاوي؟

أم نحن في طريقنا إلى سجن من سجون الريف أو الصعيد، طنطا أو
قنا، حيث نودع فيه إلى أجل غير مسمى، حتى ينسانا الجميع وتمربنا
سنوات بعد سنوات من القهر والإهمال أو التعذيب والموت المفاجئ أو
البطيء؟

كل الاحتمالات مفتوحة، وقد اتخذنا مقاعدنا على المقاعد الخشبية،
ومعنا في العربة عساكر الجيش المسلحون في كامل عتادهم الحربي،
يمنعوننا بالأمر من فتح النوافذ.

النوافذ لم تفتح قط طول الساعات العشرة التي استفرقتها رحلتنا
على خطوط فرعية ووقفنا بالساعات على محطات جانبية حتى تمر بنا
القطارات المنتظمة خطفاً بهديرها وقرقتها ونحن في داخل القفص
المغلق المتحرك، نعبث بالمحطات الرئيسية بسرعة ونتوقف على خطوط
جانبية بعد أكشاك التحويلات.

عندما وصلنا على المغارب إلى محطة هاكستيب كان الجوع والرهق
والملل قد نال منا، وعلى المحطة الصحراوية الموحشة وجدنا سيارة النقل
العسكرية - مغطاة هذه المرة - تنتظرنا لتوصلنا إلى معتقل هاكستيب.

كيف تناقلنا الخبر، وكيف تسرب إلينا أصلاً؟
سنقضى الليلة في هاكستيب، ومن الغد سننقل مع دفعة جديدة من
معتقل هاكستيب إلى الطور.

الطور عندئذ منفي ناءً مقطوع مرهوب الجانب.
كل ما نعرفه عنه أنه الحجر الصحي الذي يُحجز فيه الحجاج عند
عودتهم من الحجاز توقيماً لتسلل الكوليرا إلى البلاد.
كانت سيناء كلها مقطوعة عن جسم البلد بل هي خارج الحدود
بالفعل، كان دخولها يحتاج إلى تصريح من السلطات البريطانية، وما
من وسيلة للوصول إليها أو الخروج منها إلا عن طريق البحر أو الصحراء
الشاسعة.

يعنى كما يقول المثل الداخلى مفقود والخارج مولود.
أكلنا وجبة عشاء مرتجلة، عيش وجبنة وحلاوة مع زملاء هاكستيب،
وتناولنا شيئاً ساخناً مع أصدقائنا مما أتى به الأهل فى الزيارات.

هل نمنا على الإطلاق ليلتها؟

لم يكن ثم فرش معدّ لنا، تكومنا وتمدّدنا كيفما اتفق على بطانيات
مستعارة من الأصدقاء، ولعل الذى أنقذنا أن الجو لم يكن قارس البرد بل
على الأصح أميل إلى الدفء والاعتدال فى المعتقل المزدحم المعقد بل
الغاص.

كانت أسلاك الكهرباء ممدودة من السقف على نحو متشابك
ومضطرب تنتهى بمصابيح صغيرة أو كبيرة فوق مقاصير مرتجلة تفصل
بينها ملاءات وبطانيات ومفارش معلقة على حبال، كان المعتقل أشبه
بالعنبر العريض الفسيح فى أبو قير ولكنه يختلف عنه فى ازدحامه
وتراكم الأشياء والناس فيه وما يبدو أنه فوضى ضاربة ولكنه فى الواقع
تقسيمات صارمة للتنظيمات والتشكيلات السياسية، تفصل بين
المقاصير المعمولة من البطاطين والملاءات ممرات ضيقة ومتعرجة، كيف

يتسنى لهم أن يسلكوا طريقهم فيها؟ مواقد الجاز وأوانى الطبخ وموائد خشبية منشورة ومصنوعة من عوارض السراير أو طوايل النوم، مكدسة بما عليها من كتب وأوراق وعدد وأوان وأباريق شاي وكنكات قهوة وفناجين وأجهزة راديو صغيرة متشابكة الأسلاك مبقورة البطون ولها عيون صغيرة مشعة لفقها المهندسون والصنایعية من المعتقلين أنفسهم وأطباق وأكواب ومرایا ومحابر وما كان يبدو فى الظلمة المخيلة بين سقوط أنوار المصابيح الكهربائية أنه عتاد سحرى غامض.

كان المعتقل يسير على أساس شفرات من المعانى تفوق إدراكنا نحن القرويين الآتين من الاسكندرية، شفرات تحالف وصدافة وزمالة ومعاداة ومقاطعة وخصومات ونزاعات قديمة جاءت معهم من حياتهم فى التنظيمات السرية فى الخارج، ونمت وتفشت وتغيرت وتشكلت من جديد على صيغ أخرى فى اختناق الحبس وتغلّت الأعصاب واعتناقات أو ارتطامات الأفكار والأجسام أو مفاداتها بعضها بعضاً.

وفى ساعات الليل القليلة عرفت لأول مرة - خطفاً من بعيد - أعلام العالم السرى الثورى ومنهم شوارتز القاهرى (لم يكن شوارتز السكندرى من المنقولين إلى الطور، لم أراه قط بعد تلك النظرة البعيدة التى رمقنا أحدها الآخر بها من طابورين متنافرى المآل فى ساحة أبو قير الرملية)، وهنرى كورييل الذى رأيت يتحرك طول الليل كالشبح المورق المقلق متوقفاً بحيوية غير مألوفة يهمس إلى هذا ويتأبط ذلك ليمشياً قليلاً وهما يتحدثان بحرارة بالفرنسية غالباً وبالعربية أحياناً، نحيلاً ضاوى الجسم فى شورت كاكى وقميص متهدل مفتوح الرقبة وصندل خفيف يحك بأسفلت الممرات الضيقة، يخفت صوته إذ يمر على البطاطين أو الأكلمة المتربة المتهرثة تقريبا المبسوطة على الأرض، وقادة العمال والنقابيين الذين سوف أعرف أسماءهم من الصور، وعم عمران الشيخ المخضرم الذى عاصر أولى الأحزاب الشيوعية المصرية فى

العشرينيات وعبر بكل السجون قديماً وحديثاً، مكتنز الجسم أشيب
الشارب واللحية مشتعل العينين عالي الصوت، لعله كان قد تجاوز
الثمانين.

اتخذت مرقدي في مقصورة أصدقائنا عطا الله وإسماعيل عامر
وأوجد كامل، وقد كانوا جميعاً من الباقين في الهايكستب، فقد عرف
المعتقلون هنا مسبقاً أسماء المرشحين إلى الطور بوسائلهم الخاصة
ومصادرهم العليمة ببواطن الأمور.

كان عطا الله نحيلاً عصبياً الجسم صافى العينين شعلة دائمة التوقد
وكان من خصائص حديثه بذاءة الشتائم التي تنثال منه دون اهتمام
وكأنما دون قصد وعندما لقيته أول مرة صيدمتنى ألفاظ الشتيمة
البذيئة - بالأم والأب - وحدثت عندي طلاءً بيوريتانياً لم يكن قد
سقط عن بنيتي - لعله لم يسقط قط حتى الآن - وفهمت أن ذلك
ليس إلا إثباتاً لنوع من المروق والتمرد على نفاق المواضعات
(الأخلاقية، البورجوازية).

عندما نزلت القاهرة، في الأول، أعطاني عنوان بيته، شارع الشيخ
يوسف في جاردن سيتي.

قضيت الليلة عنده، في شقة رأيتها فاخرة، فسيحة، أنيقة، حسنة
الرياش، ما أبعدتها عن بيوت المناضلين الثوريين في تصوراتي الساذجة
لابن أحياء الإسكندرية الفقيرة في غيط العنب وراغب باشا ومحرم بيه.
نمت على ستوديو عريض في غرفة مكتبه الحافلة بالكتب الغالية
إنجليزية وفرنسية في الغالب وعربية في القليل النادر، مرصوفة بعناية
في مكتبة عالية متعددة الأرفف من شجر الأرو الفاتح، وبها أباچورة
رأسية تُشْتت الإضاءة إلى أعلى، وأباچورة على المكتب ينعكس نورها
على البلور الثمين المختفى تحت أكوام المجلات الأجنبية المصقولة الملونة
ناعمة الورق. لم أقارم رغبتى في تقليبها وأن أجوس في محتوياتها، وأن

أنظر إلى عناوين الكتب وأتمنى لو كانت عندي أقرأها أو أقتنيها،
وخفت أن أمسّ أزرار الأباچورة العالية فنمت وضوؤها الخافت الجميل
يتشع عن السقف ناصع البياض الذى فيه إفريز دقيق النحت بلون
رمادى أو رصاصى فاتح جداً.

كان الأستوديو الذى رقدت عليه بعد أن لبست البيجاما الكستور،
مريحاً رقيق المضطجع غاصّ بى قليلاً فلا بد أن حشوه كان من القطن
الرهيف قلت: ربما ريش نعام.

وفى الصبح عندما استيقظت مبكراً جداً وأنا فى طريقى للحمام
مرّت بى سيدة شقراء مكتنزة قليلاً بيضاء الوجه فى قميص نوم هفهاف
تحت روب شكله مخملىّ دمث ومنساب وإن كان ناصل الوبرة، وقالت
لى بعد نظرة دهشة قصيرة، بلهجة مهدّبة «بونچور» فقلت بصوت
خافت «بونچور» وحدثت أنها أخت عطا الله أو لعلها كانت چانيت
زوجته وعلى أية حال فقد كانت تشبهه جداً، كان عطا الله من أصل
شامى قديم، وُلد أجداده فى مصر - ربما من أيام الاضطهاد العثمانى فى
القرن التاسع عشر - لم أسأل ولم يكن يهمنى أن أعرف، وعلى مائدة
الإفطار الحافلة بما لم أكن أدرى من صنوف الجبنة الفرنساوى والزيتون
الرومى والكورن فليكس وسلطة الفواكه وأنواع المربّات مع طبق الفول
المدمس - طبعاً - بزيت الزيتون، كانوا يتكلمون فرنسية أهل الشام
بلكنتها الممدودة فى آخر الكلمات التى كنت أميّزها عن فرنسية أهل
فرنسا على قلة معرفتى باللغة ولكن المسييه فيشتر السويسرى الذى
لقننى أصول الفرنسية فى التوجيهية علمنى بمجرد إلقائه الموسيقى
الرخيم أن أفرّق بين اللهجة الأصيلة واللهجات الهجينة.

تولدت وتوطدت صداقتى بعطا الله - أكثر من مجرد الزمالة بكثير
- وعندما التقيته فى هايكستب استضافنى فى مقصورته الضيقة التى
تحجبها ملاءات وبطاطين معلقة على حبال ممدودة التى كانت تضم أيضاً

أمجد كامل وإسماعيل عامر، ولم تكن عنده أسرة بل مجرد مراتب على الأرض، مكسوة بملاءات وبطاطين ثمينة واضح أنها ليست «ميرى» بل من البيوت.

كنت الوحيد الذي رحل إلى الطور من حلقتنا الثورية ومن كل زملائنا الإسكندرانيين والقاهريين أيا كانت درجة أو وثاقة زمالتهم. وكان الثلاثة الذين قضيت الليل في ضيافتهم هم آخر (الزملاء) الذين أراهم قبل ترحيلي في الصباح الباكر، الروتين أصبح غير غريب: الانتقال بسيارات النقل العسكرية إلى محطة السكة الحديد الصغيرة في هايكستب والقطار المترب موصل النوافذ والأبواب، ولكن هواجس الترقب ومخاوف المصير أصبحت أعنف وأكثر ضراوة وأعصى على التظاهر باللامبالاة التي كنا قد اتخذناها قناعاً ودرعاً.

الطور صحراء نائية شاسعة لا طريق إليها ولا عودة منها.

هل سوف يأمرونا بالوقوف صفاً ويعصبون أعيننا ويطلقون علينا الرصاص؟

أم يسمحون لنا بالجرى في الصحراء ويضربون علينا بالمدافع الرشاشة الصغيرة بحجة أننا حاولنا الهرب؟

أو يتركوننا نموت جوعاً وقهراً في الصحراء اليباب؟

هل سنحفر خنادق عبثية في الرمل لكي نردمها ثم نحفرها من جديد بلا انتهاء؟

هل سنحفر قبورنا بأيدينا ونقف على حافتيها وعندما يرتطم الرصاص بصدورنا نسقط فيها لنوفر عليهم عناء الحفر والدفن؟

أفلام هوليوود عن فظائع النازي واليابانيين لا تقل رعباً عن وقائع ليست سينمائية ولا دعائية بل - للأسف الممض - أرضية، توشك أن تصبح عادية مأخوذة مأخذ الأمر المسلم به؟

أكان في نظرة عطا الله وزملائنا إلينا ما يحمل كل هذه النذر، وما

يشى بكل هذه الإمكانيات؟

كان النقراشى قد اغتاله الإخوان المسلمون وجاء عبد الهادى،
وتواترت أنباء فلسطين بما فيها من فجائع وهزائم، الأسلحة التى تنفجر
فى وجوه جنود الجيش الملكى، وحصار القوات الإسرائيلية لفصائل
مصرية مقاتلة وباسلة، واغتيال حسن البنا انتقاماً لمقتل النقراشى، كان
العنف المستتر المقتن المنظم قد أسفر عن وجه قبيح، فلم لا؟

بعدها انزاحت كوابيس الطور وأبو قير، بسنوات، وتقلبت بي
الصروف والمحن وأنواء الحب، ثم نزحت إلى القاهرة فى العام السادس
والخمسين كان عطا الله قد أنشأ داراً ومكتبة للنشر والتوزيع، فى شارع
ثروت باشا.

فى هذه المكتبة التقيت بجانيت، زوجته. تذكرت أننى رأيتها فى
الزمن القديم، لم تكن تتكلم لغة المثقفين بالعربية، كانت شخصاً مرفه
القوام، تشع بساطة وصدقاً وما أراه نادراً كل الندرة حقاً: إخلاص
الحب، أو خلوصه من كل شوب. كان وجهها الأبيض رقيقاً دقيق
العظام، متهضماً فى غير نحول، مشدود البشرة فى غير توتر، وكانت
أناقته من النوع الذى لا يعلن عن نفسه، ليس فيها أدنى بهرج أو
سفسطة، منسرحة مناسبة وجذابة.

وكان عطا الله سيداً مضيافاً ومبسوط اليدين فى المكتبة، لم يكن
يتردد فى أن يعير أحداً ما يطلبه من كتب، عارفاً أن سيخسرها وأنه لن
يستردها، وعندما تاتى الساعة الثامنة مساءً كان يغلق أبواب المكتبة،
ويدعو المثقفين التى تزدهم بهم إلى الخروج، وعلى الرغم مما يبدو من
فوضى حياته كان يحافظ بدقة على هذا الميعاد.

كان يقول لى: الآن أذهب آخذ ذقنى وإلا فإن جانيت لن تقبلنى ولن

تنام معى.

ويضحك ضحكة خافتة مستمتعة بالإقبال على الحياة وباستشراف
نشوات الحب .

وفي مكتبته التقيت بأعلام الأدب والصحافة في ذلك الحين ،
وسمعتهم يقولون بلا تورع ولا حياء عكس ما يكتبون بالضبط ، وكان
هذا الخداع وهذه الازدواجية الفاضحة وهذا النفاق السافر تدفعني -
بالرغم عنى - إلى أن أعود محبطاً خائب الأمل خائر القلب إلى الشقة
التي أقطنها مع صديقى القونس رزق الكاتب المسرحى المرموق الذى
ذاع صيته بعد ذلك بسنين بعد أن سُجن فى الواحات وعُذّب بالفعل -
كما كنا نتوقع أن نعذّب فى الطور - ثم أصبح من أعمدة الحياة الثقافية
فى البلد ومن كتاب المقالات المنتظمة فى أهم صحف المؤسسة أو السلطة
أو سمّها ما شئت ، الإسكندراني الأصل . أعود إلى شقته التى كنت أقيم
فيها معه فى الدور السابع أو الدور الحادى عشر فى المبتديان ، كان
يوسف إدريس يقيم فى الشقة الأرضية ثم انتقل بعد زواجه إلى شقة
علوية .

أجد نفسى أتقياً . أطرد فيزيقياً وطأة القرف والاشمئزاز التى تقبض
على معدتى وتختفها فعلياً من أثر نفاق وازدواجية أعلام المثقفين
والصحفيين .

فهل كنت حقاً ساذجاً ، فيزيقياً وعضوياً ، إلى هذه الدرجة ؟
ولكنى بالطبع لم أعدم أن ألتقى فى مكتبة عطا الله بمثقفين ثورين
حملوا عبء مسئوليتهم وحريرتهم كاملاً ، سجنوا وعذبوا وشردوا ولم
تغوهم - أو تجرفهم كثيراً عن إيمانهم - مواقع السلطة إذا عرفوها أو
مواقع النسيان والإهمال والإخفاق والإحباط فى حالة الأغلب من
شرفائهم . يعنى .. المهم ..

ولكن عطا الله مع ذلك لم يستطع أن يخاطر بنشر مجموعة قصصى
البكر ، وجد فيها من المروق على المؤلف ما قد يجرّ عليه خسارة

مؤكدة، فأوصى أصحاب دار يسارية أخرى، وعندما قرأوا المخطوط وافقوا بحماسة على نشرها.

لم يتعين لها النشر لا عندها ولا عند أية دار أخرى، فقد جاءت ليلة ٣١ ديسمبر ١٩٥٨ واعتقل الجميع.

لم أفهم لماذا لم أعتقل معهم، إلا أنني كنت في موقع من مواقع العمل الوطني التحرري الذي كانت السلطة الناصرية تبسط عليه رعايتها وتوجهاتها التقدمية من غير أن تسيّره تسييراً فعلياً مباشراً.

سمعت أنه عندما جاء بن بيللا إلى السلطة طلب عطا الله بالاسم مستشاراً له ولسلطته الجديدة فأفرج عنه وسافر إلى الجزائر.

في مطار بومدين بالجزائر كنت في صف القادمين إلى العاصمة، نسير ببطء نحو باب الدخول، وفي مقابلتنا من الناحية الأخرى صف المغادرين يتجهون إلى الخروج، والصفان يتحركان في عكس اتجاه أحدهما الآخر، وإذا بي أجد عطا الله في الصف المقابل. خرجنا من الصفين، تعانقنا بكل حرارة اللقاء المفاجئ وبكل الحيوية والحمياً المكبوتة طوال سنوات ثم افترقنا كل منا في طريقه. والطريق طويل وصعب تقلبه.

قبل أن يموت بسنة أو سنتين رأيت في شقته الباريسية التي قطعت إليها ساعات من البحث والنزول في أنفاق المترو الباريسى والطلوع منها، بشق الأنفس.

استقبلني وهو يجر ساقه اليمنى يزحف بها زحفاً بطيئاً، كان قد اعترته جلطة شفى منها، تركت فيه هذا الأثر لكنها لم تخفف من حيوية مازالت دافقة ومن حماسة مازالت متقدة، كان قد كتب كتاباً فريداً عن فلسطين، وقد اعتنق قضيتها في مواجهة خصم المعترك الأوربي الصهيوني عارم السطوة، وكان قد سمع ببعض ما كتبت من روايات وقصص وهنأني بذوق وكياسة ولكن دون كبير حماسة.

جاءت چانيت زوجته التي عاشت معه كل محن النفي والتشريد،
سيدةً أصبح أثر السنين والمشاركة في المتاعب واضحاً على محيّاها
الجميل، خطوط الفضون الرقيقة في البشرة البيضاء، والترهل الخفيف
تحت عظمة الفك الرقيقة، وما يشبه الغيام في العينين العسليتين.
لم أرهما بعد ذلك .

كانت خطواتي ثقيلة وكنت حزينا وأنا أخرج من العمارة الشاهقة
الهادئة وأعبر حديقتها الصغيرة الياقة.
منيت نفسي بلقاءات كثيرة نتكلم فيها أكثر على سجيّتنا في كل
شيء، من الثورة إلى الحب ومن السياسة إلى الفن .
لم يحدث .

الفصل الثالث والعشرون

القطار الموصل المترب أصبح كالفرن، الصهد يثقل على المقاعد الخشبية في عربة الدرجة الثالثة التي يشق القطار بها الصحراء الشرقية. من خلال خصائص نوافذ القطار نسترق النظر حيناً بعد حين إلى رمال قاحلة منبسطة، تبدو بلا نهاية.

يقف القطار - كالمعتاد - في قلب الخلاء، على خطوط جانبية بعد أكشاك المحولجية، ويبدو أن وقفته لن تنتهي، حتى يمر قطار يخطف ويمر في هدير القوقعة والانطلاق العفوي، وفي الوقفة التالية ننتظر مرور القشاش الذي ترتطم عجلاته الحديدية بالقضبان بإيقاع رتيب، ويأتي بعده قطار البضاعة الذي نسمع خبطاته المتعاقبة المتلاحقة في هدير متصل متراوح يستغرق أمداً طويلاً، طويلاً جداً.

فما من غرابة أننا كنا نستشرف الوصول إلى السويس بأى ثمن وأنا سعدنا - بمعنى ما - عندما حطّ القطار في وقفته الأخيرة، نزلنا متلهفين بسرعة لنجد أنفسنا في قلب رصيف الميناء، وقد وقف القطار على قضبانه قريباً جداً من آخر الرصيف، والمياه العكرة التي تطفو عليها بقع لامعة متقلبة الألوان من الزيت فيها عكارات كثيرة ترتطم بحجر الرصيف في كسل، وعلى الرصيف الباخرة عايدة، ليست كبيرة، تبدو في شمس آخر الصباح كأنها لعبة قوية.

وما من غرابة أن نجد صفى عساكر الجيش على الجانبين، يحددان ممراً ضيقاً علينا أن نعبه حتى نصل إلى السلم الخشبي المتأرجح الممدود بين الرصيف وسطح الباخرة.

انتشر الخبر بسرعة البرق، كأنما تناقلنا، على الفور، أن الإخوان المسلمين قد سبقونا، وأنهم كانوا في العربة الأخيرة من القطار وأنزلوا بالضرب إلى بطن الباخرة حيث رُدَّت عليهم الأبواب الحديدية العلوية والجانبية معاً.

نزلنا رافعي الرؤوس، مشدودي الصدور، ومن غير اتفاقٍ معلَن كنا على أهبة تلقى أى شيء بكل الكرامة والعزة كما يليق بالمناضلين الثوريين أو المعتقلين السياسيين.

ولكن الضابط الذى رافقنا من الهايكستب كان جاداً ومترفعاً وصموتاً، أشار إلينا فقط، وقطعنا الممر على رصيف الميناء بين صفى العساكر دون هرولة ودون تباطؤ.

نسائم البحر الدافئة الملحية كانت عذبة رحبت بها صدورنا المختنقة بعد رحلة القفص السخن المغبر من محطة الهايكستب وعلى حفافى الغيطان وعبر الصحراء.

وقف ضابط ومعه عساكر قلائل على سياج الباخرة من الجانبين، وتركونا فى حالنا، كأنهم معنا فى رحلة بحرية أو كأننا لم نعد نمثل خطراً، فماذا يمكن أن نفعل الآن بين البحر والجبل؟ ومن الذى يهمنه أمرنا؟

الغريب حقاً بعد ذلك أننا كنا نستشعر بالفعل أننا فى نزهة جميلة. كان البحر هادئاً والبواخر الضخمة تحفّ المشهد تطلق صفاراتها المدوية التى يتردد صداها قوياً حاشداً فى السماء بين الحين والحين، وعليها وحولها قامات تبدو صغيرة وبطيئة الحركة من البحارة والبمبوتية فى قواربهم الصغيرة المتأرجحة، ومباني الميناء تبدو على ضخامتها بعيدة وإن كانت كل تفاصيلها المعمارية واضحة فى الشمس كأننا نراها من خلال تيلسكوب مقرب.

ارتفعت فجأة صفارة الباخرة عايدة واهتز جسدها بذبذبات المحرك

التي بدأت ضعيفة واهنة كأنها مترددة ثم استجمعت طاقتها شيئاً فشيئاً وبدأت عابدة تترنح بأهون حركة لا تكاد تُحس يمينا ويساراً، وكان السلم الخشبي قد رفع من وقت، بعد أن حط آخر زملائنا على سطح الباخرة.

اخترت موقعاً في مقدمة السطح، من ورائي، على مبعدة، نتوء معدني لبعض أجزاء الباخرة، وضعت حقيبتي الجلد الصناعي أى المعمولة من ورق كرتون مقوى مصبوغ بلون الجلد، تحت رأسي، كانت طرية بما فيها من ملابس قليلة وكتب وأدوات كأنها مخدّة من نوع ما، وكانت أشعة الشمس تدفئ القلب وقد بدأت الباخرة تتحرك تشق طريقها، ثم تخرج إلى عرض البحر تمخر أمواجه بثقة دون اهتزاز ملحوظ، بل بإيقاع مهدد للروح.

كأنما انفساح الأفق قد أنساني سور الأسلاك الشائكة الذي طالما ارتطمت به عيناى حتى أوشك أن يصبح الإطار الطبيعي لكل ما يقع عليه بصرى.

هنا انزاح السور، والشوك، والقيد.

ولو لبرهة قصيرة.

ماذا يهمّ ما الذى تخبئه لنا الأيام القادمة، الحسّ بنشوة البحار فى الشمس والهواء الطلق - وباللغرابة - هو الذى استأثر بالروح، وسكب فيها رحيقاً عذبا طالما افتقدته.

وكأنما عاد إلى - من غير نوستالجيا ولا افتقاد - إحساسى وأنا على الكونتر فى طريقى إلى الرأس السودا فى الميناء، ورحلات المرح وموسيقى الرقص على سطح المركب الخشبي الشراعى العريض الذى تصطدم أمواج إسكندرية الزرقاء عميقة الزرقة بأخشابه فى صوت رقرقة طفيفة ولكن مسموعة.

رقرقة أحلام ملحية ترتطم بجسدى الذى استرخى عارياً يتشرب

الشمس وهواء السماء المفتوحة التي لا نهاية لعمق صفائها .
أقول ونحن .. كنا .. وأعنى ما كنت أعرفه فى نفسى وأحدس أنه
قائم ومتحقق عندهم ، أى عندنا جميعاً .
كان حسين شكوكو قد بدأ يتغنى بموال إسكندرانى ، بصوت خفيض
ومستمتع :

يا ريس البحر خدنى معاك أحسن لى
أتعلم الكار يوسع البال أحسن لى
ما تخدنى نوتى أشد البان أحسن لى
أنا من ميلة البخت ومقت مركبى جنبس مع مونه
وظلمت أروض البحر ما بين غروب وعصارى
باشيل بعينى لقيت العويل أطول من الصارى
طبقت المدارى وقلت البر أحسن لى

يا حسين ، أين البحر ؟ أين المراسى ؟ شطت بنا شقة الرحلة إلى
أشواقنا الحرى ، شقت المسيرة علينا .

قلت ، يا معت ، إلهة العدالة صاحبة الريشة العالية والميزان الذى لا
يخطئ شعرة .. هأنذا أذكرك بعد غربة طويلة ، فهل ذلك لأننا قطعنا
مرحلة من الغربة وما نحن نوشك على مرحلة أغمض وأعتى وأضرى ؟
هذه الرحلة إلى المجهول ، تحنو علينا فيها شمس الشتاء الطيبة
ونسائم البحر وطيب رفقة صحاب جاءوا معنا من معتقل صحراوى آخر
قد نكون لا نعرفهم بالاسم ولكن ما أوثق معرفتنا بهم وعرفاننا لهم ،
لحظة ما أغرب أن أسميها لحظة سعادة ، ولكن ..

سعادة ؟

نعم ، سعادة ، حتى لو كانت ملتبسة تحف بها ، من بعيد جداً وساوس
المجهول ، لكنها بالفعل سعادة الحواس المستمتعة بأشياء بسيطة جداً
كالشمس والهواء وانفساح الأفق واسترخاء الجسم ونوع من الاستعداد

الداخلي الكامن لكل ما سوف تتمخض عنه الساعات أو الأسابيع أو حتى السنوات القادمة .. «سعادة» فيزيقية بحثة لكنها أيضا نابعة من شجاعة القلب .

بدت لنا مخايل الشاطئ من بعيد ، وقفنا وأسرعنا إلى سياج الباخرة ، ننظر إلى المرسى بلهفة .
كان كل شيء هادئاً صامتاً ، خاوياً .
ليس هناك أحد ولا شيء .

الرصيف الذي وقفت عليه الباخرة لم يكن إلا رصيفاً خشبياً يطفو ويتأرجح على أعمدته الحديدية الصدئة المضروبة في القاع .
هتف محمود وانضم إليه كثيرون : هناك على اليمين انظروا ..
كانت على مرمى البصر سمكة كبيرة تشق سطح البحر الساجي عميق الزرقة ، سمعت : قرش .. قرش .

ردت عليه صيحة أخرى : لا ، لا يا شيخ هذا دلفين .
كان ذلك سرباً منها ، تقطع المروج الساكن في سرعة وتصميم ، بعيداً عنا .

نزلت مع قافلة المعتقلين على سقالة خشبية ومنها إلى رصيف حجري ثم الرمل .

شاهدنا على الرصيف الحجري بناءً تقليدياً على الطراز الإنجليزي الاستعماري ، السقف المثلث عليه القرميد الأحمر ، ومن الباب لنا ثلاثة أربعة موظفين بالزى الرسمي وراء واجهات زجاجية ، وعلى الباب يافطة بالإنجليزية فقط Post - Telegraph .

كانت أبنية محجر الطور الصحي قريبة ، قطعنا المسافة إليها ، على مدق رملي في خمس دقائق أو نحوها .

اكتشفت أن حذائي قد انفتحت فوهته ، وبانت منه أصابعي في الشراب الذي سرعان ما غطاه رمل خفيف ، وفي الوقت نفسه وأنا في

لهوجة النزول شددت حقيقتي فانكسر قفلها الصغير، وأوشكت أن
يندلق منها كل شيء لولا أنني أمسكت بها بشدة أضم جانبيها
المفتوقين، وأكافح في المشى بالحذاء منفرج الفم الذي يشرب الرمل.
دخلنا من باب واسع مفتوح إلى ساحة الحجر الصحي الذي تحول إلى
معتقل.

كانت أبنيته متجاورة بسيطة بل ساذجة التصميم: صفان طويلان
من الأبنية بينهما ممرات أو فسح، والمكان كله يبدو واسعاً وخاوياً
وليس فيه إيحاءة إلى أنه سجن بل هو أقرب إلى مباني المعسكرات
المهجورة التي تتدرب فيها فرق كرة القدم مثلاً.

كان سوره المنخفض من السلك البسيط المشبك، أقرب إلى سياج
رمزي منه إلى سور حقيقي.

إلى يمين الباب مكتب قومندان المعتقل والضابط النوبتجي، الذي
طلب منا بأسلوب جاد ومهذب في الوقت نفسه أن نقف على شكل
صف من اثنين حتى يتمم على الأسماء.
لم يكن يعرف سانك سانك.

لم أسمعها مرة أخرى، ولكنها تتردد في مسامعي بقوة ووضوح
طيلة أكثر من خمسين عاماً، حتى الآن.
سانك سانك.

معتقل الطور في ١٣ فبراير ١٩٤٩

والدتي المحبوبة: أهديك أرق تحيتي وأخلص شوقى

نقلت من معتقل أبي قبر إلى معتقل الطور وصحتى جيدة والحال هنا
لابأس بها، فالمكان على شاطئ البحر وصحى، وكل ما أرجوه إلا
تستسلمى للحزن أو للهموم، فأنا حالتى طيبة ولا جدوى هناك من
الحزن أو الهم.

أرجو إرسال الأشياء الآتية في طرد بطريق البريد حسب معلوماتكم
من المحافظة :

أولاً: الملابس: ١- ملابس كلها وعلى الأخص الشورتات

٢- جزمة أو سلبس أو صندل نمرة ٤٠

ثانياً: التموين: ١- مأكولات محفوظة مرية وجبنة وسوردين . إلخ

٢- أقتين ثلاثة أرز ٣- ليمون ٤- علبة أمواس للحلاقة وممجون

للأسنان ٥- بعض من الصابون ٦- علبة أقراص أسبرو ٧- معدات

الشاي (وقد تركتها في أبو قير)

ثالثاً: الكتب: مهمة جداً وأرجو الاهتمام بها خصوصاً:

١- زجاجة حبر (واترمان) للقلم الحبر ٢- نصف دستة أقلام

رصاص ٣- نصف دستة كراسات (١٠٠ صفحة للكراسة) ٤-

مجموعة كتب من المكتبة ويمكن الاستعانة بأحد أصدقائي لاختيارها،

وعلى الأخص الكتب التالية أو غيرها حسب الظروف:

1-Letters from the Underground.. Destoevsky

2-Creative Evolution.. Bergson

3-House of the Dead.. Destoevsky

4-Through Russia.. M. Gorky

5-Virgin Soil.. Turgenev

وإذا حضر أحد أصدقائي في البيت فأرجو الاستعانة به في اختيار هذه

الكتب وغيرها وإذا أمكن أن ترسلوا لي كتباً أساسية (text

books) في العلوم الآتية:

1-Economics 2- Sociology 3-Psychology

والدتي العزيزة

أرجو وأكرر الرجاء ألا تضري نفسك وصحتك بأي حزن أو قلق،

كذلك أرجو أن تكتبوا لي على حالتكم بالتفصيل وهل قبضتم

الإعانة؟ وكذلك إذا كانت طلباتي ترهقكم من الناحية المالية فلا

تعبوا أنفسكم ويمكنكم إرسالها على دفعات أو عدم إرسالها إذا كان

فى ذلك إرهابى لكم ولكن أرجو إرسال الكتب وأدوات الكتابة فى أقرب فرصة .

وأخيراً أهدي لك يا والدتى أرق سلامى، وتحياتى الأخوية الحارة إلى هناع وقبلاى لإيزيس ولويزة وفوفو وأرجو أن أعرف كل أخباركم بالتفصيل على عنوانى الآتى: معتقل الطور ومازلى يا والدتى ابنك الوفى،،

(امضاء)

ملحوظة: سطر مشطوب عليه وغير مقروء
ياريت كتاب Hugo، وغيره من الكتب الأولية لتعليم اللغة الألمانية (تركت هذا الكتاب وغيره فى معتقل أبو قير فأرجو إرسالها).

نظر، صانع ، ٢/١٤

أول مارس ١٩٤٩

ولدى العزيز، دمت

أهديك سلاماً عدد النجوم فى سمائها والطيور على أفنانها، وبعد أعرفك بأننا طيبين وبخير ولا يكون عندك أى شاغل من جهتنا، وطلباتك من عينا كل ما تطلبه سيرسل لك فى أقرب وقت واللى أنت عايزه عرفنا به .

سمعت أنك أرسلت خطاباً لخالك يونان وهو أنت عارف بأنه دخل علينا البيت من يوم اعتقالك حتى أنك تكاتبه؟ وأنت يجب إنك تشد حيلك وتتحمل التجارب التى يرسلها الله لأن الرب يسوع لا يجرب إلا عبده الصالحين . ونعرفك بأن الإعانة صرفت عن شهر يناير وللآن لم تصرف إعانة فبراير .

ونعرفك بأننا أرسلنا لك بتاريخ ٢٤ فبراير ما يأتى:

٢ دستة أمواس حلقة، ٤ أقلام رصاص، ٤ كسرايس، ٥ باكوات أسبرو، غيارين، بيچامة، وسلبس، وجوز شراب، وشورت، معجون

أسنان، أقة مكرونة، أقة أرز، أقة جزر، أقة تين، نصف أقة بلح، أقتين
بقسماط، ٣ علب سردين، علبه مربى، ٨ ليمونات.

وكن مطمئنا من جهتنا للآخر ولا يكون عندك أى فكر بل فكر فى
نفسك، واحنا بصحة جيدة وضرورى من مكاتبتنا دائماً لأن المكاتبة
نصف المشاهدة، لأننا ماكناش غيرك الله يراعيينا فوق وأنت تراعيينا
تحت وربنا ما يحرمنا منك ويطول فى عمرك ويعافظ عليك ويردكم
جميعاً لأمهاتكم سالمين.

مرسل طية مائة قرش و٥ ورقاق بوسته ربما لا يمكنكم شراؤها وأخيراً
سلامى وقبلاتى الحارة لك يا ولدى الوحيد ودمت لأملك.

والدتك

أخى العزيز أدامه الله لنا

قبلاتى لشخصك المحبوب وأرجو لك صحة طيبة وصبراً على هذا
الفراق الذى حكم به الله رذك الله إلينا سالماً ومتعنا برجوعك إلينا
سالماً غانماً.

أختك فوفو تقبلك وتطلب من الله رجوعك إليها سالماً، كذا أختك
لويزه وإيزيس يهديانك شوقهما وقبلاتهما لا حرمهما الله منك.

أختك هنا

تحريراً فى أول مارس ١٩٤٦

ملحوظة: عرفنا أنت أخذت الشنطة معك أو تركتها (شنطة صبحى)
وعرفنا ماذا أخذته بالضبط وماذا تركته لأجل أن نسأل عنه ونتسلمه
، هل أخذت الباطو أو تركته. ضرورى تعرفنا بخطاب حالاً حالاً

نظرة، صاغ، (إمضاء) ٣/٦

وجدت نفسى هنا الوحيد من جماعتنا فى الإسكندرية، أما من
القاهرة فقد كان الوحيد الذى أعرفه هو حسن رشدى، ووجدت أنه قد

نأى بنفسه بعيداً وأولانى لا مبالاة ظاهرة، وكانت له من أول لحظة مواقف غريبة فى الانعزال مع طائفة من «شذاذ» الشيوعيين أو أشباههم أطلق عليهم المعتقل كله وصف «الشراذم».

كنت فى واقع الأمر «شرذمة» تتكون من واحد فقط.

لكننى دون تردد اتخذت قراراً شأن معظم قراراتى الحقيقية ليس بإملاء من العقل والتفكير والموازنة بين الصالح والطالح، ذلك يفضى عندى إلى بلبلة وخطل فى الرأى والسلوك معاً - ولكنه قرار منبثق مباشرة من الجسد كله، حساً وعقلانياً وكياناً، دون لحظة حسابات.

أن انخرط فى العمل متضامناً مع أغلب المعتقلين حتى النهاية، وجميعاً ينتمون إلى تنظيمات لا علاقة لى بها بل لا أكاد أتبين الفروق بينها من قبيل: ش م، ن ح س، ح د ت و غيرها وغيرها.

وجدت أننى دون تفكير ودون تخطيط أختار أن أضع نفسى مع جماعة الإسكندرية القلائل الذين عشت معهم فى أبو قير فى العنبر ٧: صابر ومحمود وحسين، شرقى ولطفى ووجدى.

أخذنا واقعنا فى غرفة ٣٦ من الحزب رقم ١.

لم يكن فى الأمر شىء من الصعوبة، ألواح خشبية مثل طوايل الفرانين وعليها مرتبة من القش ومخدة مثلها وبطانية ميري، هذا كل شىء.

كان موقعى بين محمود السفروت المتهور الانفعالى الذى أحبته كثيراً ولطفى مذكور العقلانى الصموت الذى يبطن فى الكلام حتى يزن كل كلمة قبل أن تفلت منه ولا تحمّد عقابيلها، ولكنه مع ذلك أبيض القلب.

وعندما ننتقل بعد حملات تفتيش ضارية إلى الحزب رقم ٧ ثم رقم ٤

ثم رقم ١ مرة أخرى سنختار غرفة لنا نحن معاً، جماعة إسكندرية.

وكما يقال - وكما حدث بالفعل - انخرطت تماماً فى الأنشطة

اليومية، عهدت إلى لجنة الشؤون العامة بالاشتراك فى تنقية ما يورده

المتعهد للمعتقل من فول ورز و عدس ، وتقشير بطاطس وبصل ، اشتغلت مع لطفى ومحمود فى إصدار صحيفة حائط للمعتقل ثم للحزاء ، وفى إنشاء وترتيب إجراءات مكتبة يستعير منها المعتقلون الكتب والمجلات ويردونها وفق سجل محكم ومواعيد دقيقة .

الشيء الوحيد الذى أدركت أن ثم تعليمات قيادية قد جاءت به هو الصمت عن مناقشاتي فى تاريخ الثورة ، وانشقاق الحزب اللينينى ومرامى الثورة الدائمة وتحليل الأوضاع الطبقيّة المصرية وارتباطاتها الأهميّة ، ذلك كله وجدت نفسى مضطراً أن أكفّ عنه تماماً ، كانت الصورة بالتقريب أنهم يسمعوننى ، بأدب ، بنصف أذن ، ثم لا يردون بشيء على الإطلاق ، لا يجيبون ، أو يتظاهرون أنهم قد نسوا شيئاً لا بدّ أن يفعلوه الآن وينصرفون عنى بكياسة وذوق .

وجدت نفسى وحيداً تماماً فى غمرة انشغال متصل بأعمال المطبخ والنظافة والثقافة والصحافة (فى حدودها) إلا أن تؤنسى أفراس الشعر الجوامح مكترفة كامنة لا تريد أن تكفّ عن سهيل غير مسموع وإيقاعات موسيقى داخلية تمور وتتشعب وتخبّ خبياً فى سحابات سبع تدقّ عليها فى سماوات جبل أخميم أرجلُ الإله «مين» إله أجدادى الوثنيين ، إيمانهم العنيد بالحياة مازال يضرب فى روحى - هأنذا قد عدت إلى أخميم من صحراء جبل الطور - أطياف فاطمة المغدورة المذبوحة وعينيها المهدقتين إلى بصمت وسؤال لا إجابة عنه من رأسها المنمم المفصول عن جسد باذخ السموق ، ونوريس شعرها الذهبى تهز رأسها بحركة نزق أنشوى تبرق عليه أشعة شمس الظهر الشتوية فى مدرج كلية الحقوق منذ سبع سنوات لسن عجافاً بل حبلى مثقلات ، أوديت الأنيقة صغيرة الجسم مستدقة الذقن حاملة أعباء محبة لا ارتواء لها يأتينى صوتها تقول بأشعار راسين ولا ملرتين فى لغتها الأصلية فلا أكاد أصيخ سمعاً لما تقول .

وهتافات جموع حاشدة تطلب العدل والحرية بكل اللغات من
«الانترناسيالى» العريق، طال عهد النوم فيكم والأعدى ساهرين أنعيم
وبنوكم فى المنافى تائهن، الهارب الفرعونى يسيل بمقامات اللوعة
والحنان مع ترقيصات شهر زاد العربية ورفرفة بانديرا روسا على
جماهير متلاحمة الصفوف تقتحم قصر الشتاء وسراى عابدين ورأس
التين فى انتصار لن يجىء أبداً، بل سيجىء سيجىء... وهاهى ذى
صفوف الناس الذين بلا اسم ولا تصنيف تتدفق أطيافهم أمامى تحت
الراية الحمراء المرفرفة المرفوعة أبداً.
المساحة الرملية الخاوية.

طعنة ثاقبة مفاجئة من ضربة الصنوج جنبى ينزّ بعدها الدمّ والخلّ
بنداء الباصّ الأجنّ الصاعد إلى القمر يستنجد به من أوجاع القلب
المقروح التى لا اعتراف بها بل لا إدراك لها.
رأس الفكر القائد الشامخ الذى أنقذ ثورة أكتوبر قد فصلته ضربة
البلطة المكتومة، دقة الطبل الضخم المدوّى فى مغاور غير مسبورة
الأعماق. لن أبرأ أبداً من تروتسكى ولامن المسيح.
ينسكب القمر القضى المدور ويدوب فى خفقات الروح العميقة
التى لا يستجيب لها أحد.

الفصل الرابع والعشرون

هل اندثرت كل هذه الأشواق؟

أعزى أو أعلل النفس بأن تاريخ مسيرة، الإنسان، كل إنسان، على طول الحقب وآماد الدهور هو تاريخ أشواقه الغامضة.

فى يوم ١٦ مارس ١٩٤٩ حدثت عدة أمور:

كنت بالأمس قد تلقيت من مكتب الضابط برقية من أمى، عليها ختم دائرى «الطور» والتاريخ بالحروف اللاتينية، إلى الأستاذ «.....» المعتقل بجبل الطور.

«أعلمنى تلفرافياً بصحتك بالتفصيل هل الجنيه وصلك».

وكتبت فى صباح ذلك اليوم، خطاباً:

معتقل الطور فى ١٦ مارس ١٩٤٩، معتقل الطور السياسى، حزاء ٤
والدتى العزيزة

أرق تحياتى وقبلاتى البنوية الخالصة مع شوقى الحار، وأرجو أن تكونوا فى خير صحة وأحسن حال.

كتبت لكم خطاباً بتاريخ ٧ مارس الماضى ويظهر أنه لم يسافر من هنا حتى الآن، وعلى كل حال فقد ذكرت لكم فيه أنى استلمت الطرود والجنيه.

تلقيت تلفرافكم أمس بعد الظهر وأرسلت لكم اليوم (١٦) مارس تلفرافاً. وكل ما أرجوه منكم ألا تنشغلوا بغير داع - كما هو المألوف - وألا تظنوا تفكروا بدون ضرورة، فأنا هنا بصحة جيدة جداً.

والأحوال على العموم طيبة (مرة أخرى الأكاذيب البيضاء... ١٠٠) ولا لزوم مطلقاً أن تبعثوا أية تلغرافات من هذا النوع في المستقبل. أرجو إرسال الشورت الأبيض الثاني في الطرد الآتي ولا أذكر إن كنت نسيت في أبو قير أو أنه في البيت. كذلك أرجو إرسال كوستيم بحر في الطرد الآتي كما أرجو إرسال بعض الكتب. مرة أخرى أؤكد لك يا والدتي المحبوبة أنني في خير صحة وأرجو أن لا تستسلمى للتفكير أو الهموم.

أرجو إفادتي هل استلمتم إعانة شهر فبراير؟ بلغنى أن الإعانة خفضت إلى ثلاثة جنيهات فهل هذا صحيح؟ إذا كان هذا صحيحاً فاكتبوا تظلماً إلى الحاكم العسكري العام وإلى الحاكم العسكري لمدينة الإسكندرية تذكرون فيه كل الظروف السيئة إلى آخره.

أعطر سلامي لأختي المحبوبة هناء وتحياتي إلى لوييزة وإيزيس وما هي أخبارهما في المدرسة وألف قبلة للصغيرة الحبيبة فوفو وهل هي تذهب إلى المدرسة الآن أم لا؟ وإلى أية مدرسة؟ أرجو إفادتي بالتفصيل عن كل أخباركم وعن أخبار فوفو بالذات، وهل هي مطاوعة مهاودة أم لا تزال شقية ثرثارة؟

وأخيراً يا والدتي العزيزة أهديك أخلص تحياتي

ابنك المخلص

نظر، صانع، (امضاء) ٧/٦

(امضاء)

ولكن متى وكيف احتفلت «جماعة إسكندرية» بيوم ميلادي؟ كيف عرفوه؟ وكيف رتبوا كل شيء؟ كنا قد قضينا أكثر من أربعة أسابيع في جبل الطور، توثقت علاقة غريبة بيننا - وخاصة اللجنة القيادية. «لجنة الشؤون العامة» وبين ضباط وحرس المعتقل.

علاقة احترام وتبادل - على نحوٍ ما - وتفهم وأكاد أقول تعاطف
لولا أن سطوة الجهاز البوليسى القمعى بالضرورة هنا أقوى من غلبة
المشاعر الفردية .

ومع ذلك فلعل سلوكنا بما يتسم به من احترام للنفس واعتزاز
بالكرامة وبأننا مناضلون سياسيون ومثقفون إلى آخره إلى آخره...،
كان دافعاً - ربما من بين دوافع تملئها سياسة الحكومة أو الاعتبارات
الدولية الخارجية أو تردى أحوال حرب فلسطين - لأن يترك لنا ضباط
المعتقل هامشاً واسعاً من حرية الحركة . كنا نخرج وندخل بحرية من
باب الحجر - المعتقل المفتوح، وعليه عسكري حرس متكاسل وسامان
بيندقيته العتيقة .

كان جبل الطور موحشاً ومرهوباً .

الصحراء ممتدة شاسعة قاحلة ليس فيها أثر للحياة من أى نوع،
والبحر هناك مائل لا عبور له، كانت «عايدة» تأتي مرة كل أسبوع
وتقف على مبعدة من الرصيف ويخرج إليها عمال البريد والعسكري فى
قارب صغير يتلقون منها البريد والطرود والتموين العسكرى .

قال لنا الضابط النوبتجى، على سبيل نوع من التحذير الضمنى
وإسداء المعلومات معاً :

- بالعقل، مَنْ يفكر فى الهرب؟ يتفضل إذا أراد، ليس أمامه إلا
الرمال القاحلة بلا نهاية، لا قطرة ماء فى هذه الصحراء ولا ينمو فيها
نبات برى حتى، لا شئ . مَنْ يخرج من المعتقل سوف يهلك حتماً
جوعاً وعطشاً قبل أن يصل إلى أى مكان، حتى مضارب العرب بعيدة
عنا فى الشمال لا وصول إليها إلا بعد أسابيع من المشى إذا استطاع أحد
أن يمشيها والعرب هنا معنا على كل حال . والبحر طبعاً مستحيل،
عندما نترككم تخرجون فنحن نعرف ماذا نفعل وليس هذا فقط من
طيبة قلوبنا .

فى الصبح الباكر بعد ليلة النوم القلق وكوابيسه الخفية أستيقظ ،
 فظهرى يؤلنى من صلابة اللوحة الخشبية تحت المرتبة القش ، أصبح على
 من أجده مستيقظاً ، صباح الخير يا محمود .. صابر لطفى .. شوقى ..
 حسين .. وأذهب إلى الحمام - أعبّر الساحة الرملية التى تفصل بين
 «الجزئات» وأملاً إبريق الشاي وأغسل الأكواب فى حنفية الحمام ،
 وأعود لأوقد السبرتاية ، وأضع عليها الإبريق ، بينما يكون محمود قد
 سبقنى إلى الحمام وقد أوقد وابور البريموس وعليه إبريقهم الكبير .
 أستلف منهم تلقيمة شاي ، يستلفون منى ملعقة لبن مركز كثيف يتقطر
 لزجاً متماسكاً من علبة نستلة المدوّرة التى صنعت فى غطائها ثقباً
 صغيراً ، أستلف منهم عود كبريت ، يستلفون منى كوب ألومنيوم ،
 روتين صباحى بين اليقظة والنوم ، ثم نذهب إلى كائتين المعتقل أو المطبخ
 الذى يشرف عليه يوماً بعد يوم أحد أعضاء «لجنة الشؤون العامة» بدران
 أو عبد المنعم أو الرفاعى ، ونأخذ إفطارنا فول مدمس (ظل ينضج ببطء
 فى قدرته النحاسية على موقد المتعهد طول الليل) على ٥ جراماً جبنة
 بيضاء (بالميزان) وقطعة حلاوة طحينية بنفس المقدار ، ونعود لنزود
 على الإفطار الميرى بعض أطايب الأكل التى جاءت فى الطرود ،
 نتقاسمها دون ادعاءات ودون تخرج أو آداب النفاق ، ودون أن نسمى
 هذا كومبونة أو غير ذلك ، نصنع الشاي الثقيل السادة بعد ذلك نشربه
 ونحن نتشارك فى تقشير الفاصوليا أو البسلة أو الرزّ ، فإذا خرجنا
 لنسلم «الإيراد» لم نترك الفرصة لنتمشى إما فى ساحة المعتقل الطويلة
 ذهاباً ومجيئاً ، وإما حتى شاطئ البحر الصخرى المزبد بأمواجه والمنفسح
 أمامنا حتى مدى البصر بغواية الحرية المفقودة ثم نعود ، أفرد صحيفة
 الورق المقوى وأخطّ عليها خطوطاً أفقية ورأسية وبخطّ كبير بالقلم
 الحبر املاً فراغ الكلمات الثلث المفرغة «صحيفة الحائط» - وبخط
 أصفر قليلاً وبالحبر الأحمر - معتقل الطور السياسى - ويكتب لطفى

مدكور بخطه الجميل الواضح أخبار المعتقل ، ممن تكونت « لجنة الشؤون العامة ، هذا الأسبوع ، وصول طرد إلى فلان ، شفاء فلان بعد وعكة ألت به ، وفلان قرأ هذا الأسبوع كتاب « الحرب والسلام » بالإنجليزية ، ثم هناك المقال الذي شاركنا جميعاً في كتابته - هيئة محرري صحيفة الحائط في الحزاء ٤ ، وتلخيص لأحد الكتب بقلمى أو بقلم صابر محفوظ ، وهكذا .

كانت هناك عدة صحف حائط ، كل حزاء تقريباً فيه صحيفة .

ثم يجيء موعد الاستعارة من المكتبة ، من الساعة ١٢ حتى الساعة ٢ بعد الظهر ، فهذه مهمتى وأنا أمسك السجل ، وقد تكونت لدى مكتبة لا بأس بها من الروايات والمجلات الإنجليزية والعربية ، ليس فيها - بطبيعة الحال - كتب ممنوعة ، هذه لها مكانها الخبوء وإجراءاتها الخاصة الأخرى ، وهى ليست مشاعاً بالكامل ، بل لكل جماعة - وكل تنظيم - مكتبته الخاصة ، يحرص عليها ويودعها مواقع أمينة تتغير باستمرار طلباً للأمان .

وتمضى ساعات اليوم بين الغداء والقبلولة وشاى بعد الظهر ومهرات الأحاديث كإلقاء الأغاني والمواويل التى يجيدها على الأخص حسين شكوكو إذ يقيم لنا - نحن فقط أحياناً ولطائفة كبيرة من أصحابنا كذلك أحياناً أخرى - حفلات سمر يقلد فيها محمود شكوكو تقليداً بارعاً لا يكاد يختلف عن الأصل .

الساعة كام .. الساعة كام

اللى بحبه وعد ولا جاشى

أو مواويل وأغاني البحر الإسكندرانية بصوت شجى وعذب وفيه

شجن بقدر ما فيه من معايشة ودعابة :

قالوا أنا عيني رأت مركب واسق نهر ربانى

فارد قلوعه ومتكل بربانى

قبطان يقول للبحرية برمتهم بربانى
وربّ نصل ننام ينطلق حالنا
دا بحر غدار لا فيه شفاقة ولا حنية
وأنا شهر الليالى والغلب ربانى

وراء كل الأنشطة والمهمات حس خشن قاس أنا فى الحبس وراء كل
صلصة الأجراس البهيجة وقرقرة النحاس الطنانة صوت أجش عميق
غائر أنا فى قبضة القهر .

عندما نذرع الساحة الرملية الطويلة بين صفى الحزاءات إنما تقطع
أرض السجن، وحتى إذا كانت الأسوار هى سشاعة الصحراء وغدر
أمواج البحر فهى من غير شفقة ولا حنية، أسوار أعصى وأقسى من كل
الأسلاك الشائكة .

فرغت من كتابة خطابى، كنا نكتب باستمرار على «طاولة السرير،
أسند الورق على أطلس جغرافى كبير مما جاء لأحد المعتقلين (دونت
اسمه فى سجل المكتبة) لاحظت أن كل «جماعة إسكندرية» فى الغرفة
قد تركونى، قلت فى سرى: سبقونى للحفلة، كنت أعرف أنهم
سيحتفلون بعيد ميلادى، لكن لم أكن أعرف أنه أجمل احتفال بعيد
ميلادى فى حياتى كلها، وأوقع أثراً وأكثر هزاً للقلب، وعندما دخلت
مكتب الضابط أسلمه الخطاب قال لى بابتسامه:

- كل سنة وأنت طيب ..!

كيف عرف؟

قال: تفضل أنت ..

وأشار إلى باب الخروج .

لم أشرف فى خطابى لأمى يومها أنه عيد ميلادى، أولاً حتى لا أزيد
ألمها تفاقماً لغيابى فى هذا اليوم، ولكن الأهم لأننا فى أوساطنا
القبطية من الأصول الصعيدية والريفية وعلى المستوى الذى يشارف

أدنى درجات الطبقة الوسطى الصغيرة بل الطبقة الكادحة، لم تكن
نعرف أو نحتفل أو حتى نهتم بأعياد الميلاد .
ما الذى جعلنى أتذكره فى جبل الطور؟
نوع من النوستالجيا إلى الفرح الضنين، ربما .
مشيت على شاطئ البحر الصخرى الذى ترتطم به أمواج عميقة
الزرقة وتترك عليه زبداً أبيض سرعان ما يتحلل .
كنت وحدى مع البحر، ولكنى كنت فى الحبس ..
وصلت إلى بقعة كنا قد اخترناها من قبل .

اقتربت من مدخل فتحة فى الصخور تشبه كهفاً صغيراً أو مغارة
داخلة فى الشاطئ ولكنها مفتوحة على البحر، وفيها تكوينات صخرية
تصعد لكى تتصل بسقف المغارة على شكل أعمدة رقيقة ومتعرجة
نحتتها أمواج ورياح أحقاب متطاولة، سمعت موسيقى شهر زاد
رمسكى كورساكوف من داخل المغارة الصغيرة، وصعدت إلى راحة لها
نكهة خاصة جداً .

كانوا فى داخل الماوى، وابور البريموس عليه حلة كبيرة مكشوفة
تظهر منها ستاكوزا كبيرة تممر رويداً رويداً وهى التى يفوح عبقها
الشذى الخاص .

صفقوا لى جميعاً بمجرد أن ظهرت : هيه - هيه .. !
كان فكرى تمر بجسمه المدكوك القوى وسمرة وجهه وعينيه
القويتين الصلبتين واقفاً يرتب على مفرش أبيض ما لدينا من سكاكين
وشوك وملاعق، وكانوا قد أتوا بملاءة بيضاء نظيفة طويت وأصبحت
مفرشاً على صخر المغارة رُصت عليها الأطباق : سلطة خضراء من الجزر
والخيار والبصل بزيت الزيتون، ما أندرها وما أطعمها فى جبل الطور .. !
طبق من البسلّة : الحبوب الصغيرة الخضراء مدورة وطرية الشكل دون أن
تنهراً غارقة فى صلصة الطماطم المسبكة ثخينة القوام وفيها وريقات من

نبات الغار، الوجبة الميري وقد تناولتها يد صناع بالتسبيك وإضافة المذاق الخاص، شغل محمود بيده الساحرة في الطبخ، وبجانبها طبق زيتون أخضر: الثمرات الكبيرة اللحمية لامعة ومجمعة الجلد قليلاً بندي زيتها الطفيف. ومع حلة البسلة هناك كسرولة شملت منها رائحة الرز ورأيت حباته البيضاء وقد نضجت، فيها نفحة لبن، فقد وضع فيها محمود لبن نستلة بدلاً من الزبد أو السمن ففاح منها شذى لذيذ، كل حبة من الرز وحدها، متماسكة ليست معجّنة ولا هي محموشة بل مضبوطة قد استوت على سبرتاية بطيئة النار فرشت فتيلتها بمكر على شكل وردة متفتحة فأعطت ناراً واسعة وهادئة.

أما وجدى حبيب فقد كان راکعاً أمام إبراهيمون يرقب دوران الإبرة على الأسطوانة ويحرص ألا تصله ذرة رمل أو رشاش ماء من الموج الذي يضرب بتكراره الرتيب صخرة الشاطئ المنقورة المكسورة متعددة الفتحات فيزأج إيقاعه كأنه طبله صغيرة دقيقة مع تسایل موسيقى كورساكوف.

أذهلني أننى وجدت صينية ورق عليها هريسة إسكندراني محموشة القشرة ولدنة الجسد معاً وبقلاوة على شكل مثلثات بأوراقها الهشة الرقيقة مغروز فيها بندقها ولوزها المقشر وصنوبرها الأبيض.

يا لله كيف ومتى وإلى من؟ وصلت هذه النعم؟

سألت لطفى: كيف حدث؟ كيف رتبتم كل هذا وحصلتم على كل هذا؟ فابتسم ابتسامته البطيئة واتسع فمه الكبير وانفرجت شفتاه اللحيمتان لكنه لم يتكلم.

لم يرض واحد منهم أن يبوح بما كانوا يدبرونه منذ أسابيع ربما، كيف اتفقوا مع الصيادين وكيف حصلوا على الاستاكوزا التي استوت الآن، وعندما كسرنا صدفتها الهشة المحمرة بان لحمها الأبيض اللين المتماusk معاً، طعامته تفوق كل التوقعات، ولكن عروس الحفل كانت

زجاجة نبيذ أصهب من چناكليس صبيننا منها في كل أنواع الأكواب الصغيرة: مضع الزجاج، الكبير الصافي، زجاج ياسين، وكوب أو اثنين ألومنيوم، لم أنعم في حياتي ولن أستمتع بمثل هذه اللذائذ.

هل نسينا - أو تعمدنا أن ننسى - أننا كنا مقهورين، محبوسين، لا ندري ما مصيرنا، لا نعرف متى نخرج من هنا، إذا كنا سنخرج على الإطلاق؟

صابر كان هو الذي هتف فجأة: «انظروا». كان هناك قريبا جداً منا قرش ضخيم، يطفو وينزل، متجه نحونا.. «حاسبوا يا جماعة». السمكة الهائلة جداً اقتربت من الشاطئ، كان البحر بعد أمتار قليلة غائراً عميقاً نرى زرقته الصافية حالكة تقريباً وكان الكائن الخرافي منذراً، يحمل في طياته إيماءات غامضة لم نجرؤ على تقصيها. ثم ابتعد، كما ظهر، دفعة واحدة، رأينا ظهره المقوس يحيط به زبد أبيض قليل وهو يفوص على البعد، يكاد يشارف حافة الأفق.

سرعان ما نحينا عن اهتمامنا، وعدنا نأكل على موسيقى كورساكوف من الجرامفون الذي أتى به للمعتقل رمزي حبش، وكنا نسمع أسطواناته مع ضباط المعتقل في الليالي أمام مكتب القومندان.

مازلت بعد أكثر من خمسين عاماً أسمع موسيقى «السوق الفارسية» فتعود إلى أشجان الطور وبهجاته الملتبسة، حتى الآن تمتزج في روعي بصورة ماريّا مونتيز وهي ترقص رقصتها الشرقية في فيلم هوليوود «على بابا»، كما تمتزج بصورة الرمال القاحلة الشاسعة والرعب المكتوم.

شهر زاد الموسيقى والجسد النسوي تتأرد وتميل على مع صلصلة الصنوج وترامى الكمان وانسياب الفلاوت مسرات تتشابك عذوبتها الخادعة لكي تنسينا برهة قصيرة أسر الحبس وتوتر الصدر بصيوات محبطة كظيمة أمام سعة السهول الصحراوية الماحلة الجذباء بلا شفقة.

لم يكن الأكل، على بذخه غير المؤلف هنا، هو الذي أعطى هذا اليوم الفريد طعمه وروعته، بل الأناج بالصحة والحدب والعمل الدؤوب على الإتيان بالبهجة فى قلب وحثه الحبس، حس بالحب غلاب على رغم اختلاف الإنتماءات السياسية والأيدولوجية والطبقية، محبة تتجاوز كل المواضعات هى التى أسعدتنى - أسعدتنا كلنا.

بعد انتهاء موسيقى كورساكوف هتف حسين:

- انتظر يا دكتور وجدى ..

توقف وجدى عن أن يقلب وجه الأسطوانة متسائلاً.

قام حسين على بقعة رملية منبسطة بعد الصخور التى تترقق بينها مياه البحر بأواجها المتحركة ولها وشيش خفيف.

تغنى حسين بأغنيات شكوكو الشهيرة وهو يرقص، على خفيف،

ويتمايل:

حموده فايت يا بنت الجيران ..

إدبنى بوسة وحمية أبوك ..

مع المفاجئة ضحكنا، صفقنا معه على إيقاعه.

قال فكرى عمر:

- هو فيه أحسن من البلدى ..!

فرد عليه حسين على الفور وهو يصفق بيديه:

- البلدى يوكل .. أموت فى البلدى.

كيف أمكن لى أن تمر السنوات دون أن أرى أحداً من ثلاثى شركة الغزل، قرأت فى «الأهالى» نبذة عن وفاة صابر، وانقطعت أخبار محمود وحسين.

ألم يكونوا من أعز الناس إلى القلب؟

عندما عدنا إلى الحزارة رقم ٤ بعد الغداء والشراب والموسيقى، الآن كل منا يحمل شيئاً فى يده، فقد انقضت العرس وانفضت الأفراح،

ارتقينا كل منا على المرتبة القش ، ورحنا في نومٍ كاخدر العميق ، فعل
الاستاكوزا التي أنامتنا ثم هيّجت فينا بعد اليقظة شبقاً لا سبيل إلى
ارتوائه ، شبقاً لا إلى المرأة وحدها ، بل إلى الحياة ، إلى الحرية

الإسكندرية ١٠ أبريل ١٩٤٩

ولدى العزيز

أقبلك قبلات أم حائرة ولهي لا تدري ماذا تفعل في هذا الغياب الذي
طال أمده كقرون طويلة خصوصاً ارتحالك البعيد عنا وزادنا عدم
إرسالك أي خطاب يطمئنا مع أن زملاءك في المعتقل أرسلوا لأهاليهم
خطابات فاطمأنوا من جهتهم أما أنا فلا زلت يا ولدى الوحيد ويا أعز
أعزائي في شدة الانشغال والارتباك لعدم اطمئنانى من جهتك ،
أحادث نفسي يا ترى أمرىض هو؟ أم تشاغل عنى بأحداثه؟ أم لا هذا
ولا ذاك على رأى المثل العامى (قلبي على ولدى انفطر وقلب ولدى
على حجر) والأ إيه؟

وأما من جهتنا فنحن عال العال ولا ينقصنا إلا مشاهدتك وطلباتك
من أعيننا بس عرفنا كل ما تريد؟

أرسلنا لك يوم ٢٤ فبراير طردين ملابس وماكولات وعرفناك ترسل
لنا خطاباً بوصولهما فلم تعرفنا؟ الرجاء إفادتنا بخطاب تعرفنا
بأحوالك بوصول الطرود وكذا الجنيه أرسلنا لك اليوم تلغرافاً خالص
الرد ونعرفك بأن المحافظة صرفت لنا هذا الشهر ٣٠٠ قرش ثلاثمائة
قرشاً لا غير .

الرجاء ألا تقطع عنا المراسلة بآخر ما يمكنك حتى إذا أمكنك إرسال
خطاب كل أربعة أيام فلا مانع ، مرسل لك ٤ طوابع بريد . شقيقاتك
يهدونك قبلاتهم وتمحياتهم أما أنا فبخير وأهديك قبلاتى .

ملحوظة : أعرفك بأن هذا الخطاب كتب من يوم ورود تلغرافك ولما

علمنا بأنك سترسل لنا بالتفصيل بالبريد تركناه حتى نعرف طلباتك ولكن للأسف لم يصلنا للآن أى خطاب فما السبب ونحن فى انتظاره من مدة وأنت وحيدنا وليس لنا غيرك حتى نكون فى ارتياح؟ الرجاء إرسال خطاب حتى كل أسبوع لعدم الانشغال؟ والرجاء ألا ترسل لأى أحد من أخواتك خطابات لأنك بالعربى ليس لك أى أحد غيرنا كما أننا ليس لنا غيرك فالرجاء ألا ترسلهم بالمرة لأننا لم نعرف بوصول خطابك إلا من الناس الغرب وأعرفك باننا فى نار ليلاً ونهاراً لعدم مكاتبتك لنا فالرجاء الرجاء ألا تنسانا أبداً وبقدر ما تستطيع ترسل كل أسبوع خطاباً وشدة حيلك وعرفتنا عما تريده ترسله لك فى أقرب وقت .
مرسل مع هذا شيك بجنيه واحد .

أمك

حتى فى هذا الوضع لاتزول الحكايات الصغيرة بين العائلات ..

سأعود فأقول إن الوجود - حراً أو محبوساً - يظل كالموسيقى .
الوجود يتحدى الحبس .

لن يكون الوجود أبداً - مثله فى ذلك مثل الموسيقى - مجرد اندفاق يتراوح بين الأتني وهتفة الفرع ، لن يكون الوجود - كالموسيقى - هذا الانسكاب الانفعالى ، مهما كان صادقاً وحاراً ، لأنه ، فى مستوى آخر ، لابد أن يكون صياغة محكمة عامدة ، خفيفة أو مجهورة ، مهما بدت عفوية ، مهما بدا فيها من الفوضى والتشعث ، ظافرة على عمايات التيه والعشية ، بريئة من التخليط وفساد الشكل ، بعيدة عن طفو رغوات سهلة من تسايل العذوبة الخادعة أو شجى الأحزان السهلة .

قلت : هل هذا صحيح ؟

قلت : هل الوجود أيضاً - كالموسيقى - يشق طريقاً صعباً عفويًا

وعشوائياً، على الأرض وفي السماوات؟ أهذا طريق النسر؟ يحكمه ما يشبه الصدفة وليس بها؟

كان الهامش الذى تلعب فيه الصدفة فسيح، حتى ليخيل أنه تسيره مقادير معصوبة العينين، أطريق النسر المخلق بكل حرية الجناحين الشاسعين إنما هو طريق محكوم بقوانينه الداخلية والخارجية معاً فى ذات الوقت؟

مسرّات موسيقاى الداخلية وبهجتها العريقة منصهرة مع حسّ الحبس المحدث المحيق مازال يكبّنى مهما غادرت ورائى أسوار المعتقلات منذ سنوات طوال.

ومعه نزعاً لا غالب لها نحو التمرد وكسر الحيطان، نحو صيحة الحرية التى سوف تملأ السماء والأرضين.

دقات الإلهة هاتور على الستروم بين المقبض والناقوس.

هل أنت طاردة الشياطين أم أنت جسدها؟

هو ذا اسمها المحبوب سوف يأتى اسمها الواحد المتعدد.

رأس فاطمة المجزوز، رأس يوحنا المعمدان المتور يدور فى قرص الشمس المتوهج، رأس رامة المحدث إلى، وانفساح السهول الخضراء فى عينيها اللانهايتين الضاربتين بصواتٍ سوف تأتى، أم أنها انقضت؟ لا نهاية لها ولا تفارقنى؟

تتقلب موسيقى الأيام حتى لتكاد تصبح رتيبة فى تعاقبها، واحدة وحيدة وجديدة فى كل لحظة.

الفصل الخامس والعشرون

ضربات طبل ضخمة تأتي من آخر «الحزاء» تُلطم جانبي رأسي، نُذِر مشوبة غير مفهومة، البوق الكبير يدوي كأنما هو ساعة النفخ في الصور وقيامه أشباح كل الأموات وقد تضرّجت السماء بأمواج حمراء لها هدير تدفعها رياح الخماسين السخنة مع قشعريرة انهيار الرمال الدقيقة على مسام الجسم.

عندما تيقظت مفزوعاً كان المشهد التقليدي لحملة التفتيش قد أصبح مروّعاً وكأنما الحزاء تحول إلى ساحة قتال (روتين حملات التفتيش كان قد أصبح مملاً). العساكر - على الصبح - بخوذاتهم الحديدية الصفراء والحزام العريض على الوسط، فيه احتياطي الطلقات في طياتها المتابعة المليئة في صف واحد منضبط يواجهوننا - كنا نائمين - وهم يطلقون صيحة الحرب هه.. هه ويدقون بأرجلهم على أرض «الحزاء» دقائق لها دوى في الحيز الضيق والباب مفتوح على مصراعيه.

كان الضابط جديداً - موفداً من القاهرة حديثاً - ومعه واحد أفندي محنّف أنيق بالملابس المدنية، واضح أيضاً أنه من قلم البوليس السياسي، ولكنه لم يتكلم ولم يفعل شيئاً إلا أن يراقب ما يحدث بعناية.

قلت في نفسي:

- عليه أن يدبج التقرير.. ترى ما الذي يكتب فيه؟

صاح الضابط الذي يرتدي زيّه الرسمي كالمعتاد:

- انتباه يا مسجون إنت وهوه.. قم اصحى فز على حيلك.. تفتيش..! كان المتفق عليه في المعتقل كله ألا نرد على الاستفزازات الطفيفة من

هذا النوع ولكن أن نجيب بقوة على أى اعتداء .
نهضنا متشاقلين - طبعاً - من غير هرولة ومن غير نظام، منا من
يفرك عينيه ومنا من يتمطى بكل انبساط ذراعيه وتصدر عنه آهة
التمطى الطويلة المستمتعة، قلب الضابط كتب المكتبة، دون اهتمام
حقيقى، فى نوع من إبراء الذمة، ولم يتكلم، وشد صحيفة حائط الحزاء
رقم ٤ المثبتة بدبابيس رسم على الحائط فنزلت فى يده وألقى عليها
نظرة لا مبالية. كان واضحاً أنه على معرفة تامة بكل شىء .
اقترب الضابط الشاب الجديد مشدود القامة مفتوناً بنفسه وسلطته
من فراش محمود .

مد يده إلى صور فوتغرافية ملونة ألصقها محمود بالحائط فوق رأسه،
وانتزع صورة ملونة لنجمة من نجوم هوليوود التى كنا نحبها كلنا،
وسأل بلهجة مستفزة:
- فرشة مين دى؟

قال محمود بصوت قوى ثابت وهو رافع الرأس: أنا .
نظر إليه بسرعة، وعرف بخبرة معينة أنه ليس من هؤلاء «المثقفين»
المشاكسين الذين يعرفون «حقوقهم» ويتكلمون عن مواثيق جنيف .
فقال على الفور:

- ودى صورة مين؟ صورة أمك؟

قال محمود بكبرياء وهدوء:

- لأ.. صورة سوزان هايوارد .

كان الضابط قد استدار على عقبه، تعليماته ألا يتجاوز الحدود -
واضح - مرّ الضابطان على الحزاء ثم قال ضابط الجيش .

- طيب اخرجوا برّه.. اتفضلوا .

استخدم بالفعل كلمة «اتفضلوا» .

وعلى الريق كانت الساحة الرملية قد ابتدأت تمتلئ بالمعتقلين،

الصاغ شكرى ضابط المعتقل كان هو الذى طلب منا أن نصطف اثنين اثنين، لزوم التتميم.

وبالطبع انفضت الحملة عن لا شيء، فقد كانت «المنوعات» وهى ليست أكثر من الكتب والمطبوعات والمخطوطات والبيانات والتحليلات والنداءات، كلها قد أودعت مخابئها السرية من الأمس، وهى تستخدم عند التنظيمات لساعات محدودة معينة وتخياً، ولم تكن حملات التفتيش إلا للترويع وربما لإبراء الذمة واستكمال الملفات.

طابور التمام لا ينتهى، يمر الوقت بطيئاً، بطيئاً ونحن على أقدامنا وقد أخذت شمس يونيو تحمى فوق رؤوسنا وبدأ كبار السن نوعاً ما يتصبّبون عرقاً وبدأت النظرات تزيع قليلاً وغاضت الدماء المتبقية من وجوهنا.

صيحات العساكر تتردد بخشونة، بين الحين والآخر:

- الكلام ممنوع .. هس .. اسكت ياللى هناك .. ممنوع الكلام

لم يؤزّع علينا الإفطار يوماً إلا فى نحو العاشرة قبل الظهر، وعلى الغداء وحتى هبوط الليل كانت الكلمة السحرية قد شاعت: إضراب .. إضراب عن الطعام ..

اجتمعت لجان صياغة، وكتبت بيانات احتجاج ومطالبة قوية بالإفراج، وتحليل للمواقف الوطنية وقُرئت مشروعات البيانات فى الحِزاعات وفى الممرات، وأدخلت تعديلات وحُذفت عبارات وأضيفت فقرات ..

«الشراذم» وحدهم، فى عنبرهم البعيد الأخير من الحِزاعات، رفضوا مبدئياً الاشتراك فى صياغة البيانات وفى الإعداد للإضراب، كما كانوا قد رفضوا منذ البداية الإسهام فى أى نشاط للشئون العامة، كانوا يتلقون غداءهم، أياً كان، من عمال المتعهد مباشرة، كانت المقاطعة الكاملة هى ببساطة عنوان التعامل مع «الشراذم»، حتى مجرد توجيه الحديث إليهم كان محظوراً من «التنظيمات».

وبالطبع لم ألتزم بقرار المقاطعة، لم أبلغ به على أية حال، ولم يُعلن
جهره، كان سارياً بفعل توافق «التنظيمات»، أما أنا فلم أكن منتمياً إلى
«تنظيم» ولكنني كنت بلا تردد أشارك في كل مبادرة وكل نشاط عام
للمعتقلين بما في ذلك صياغة البيانات واقتراح التعديلات، هو الموقف
نفسه الذي استمر في أبو قير، وهايكستب.

وكان مما أحرص على أن يكون واضحاً وعلنياً وسافراً أن أذهب إلى
حزب الشراذم - بكل توليفاته وتناقضاته - لأتكلم عن تاريخ الانشقاق
أو الانحراف الستاليني في الحزب اللينيني، بكل التفاصيل التي
استوعبتها ذاكرة يقظة تحفزها حماسة وسذاجة الصبا والأمل، وكنت
أحرص على أن أتمشى على العصارى مع حسن رشدي - ولعله كان من
أعلام الشراذم - عبر الساحة الرملية الطويلة بين صفيّ الحزبان
الشرقية والغربية، جيئة وذهاباً ونحن نتحدث في كل شيء ولا شيء،
في الأدب والسياسة وتصريفات الأجرومية الألمانية والمترادفات
الفرنسية وكلمات الأضداد العربية التي تعنى الشيء ونقيضه من أمثال
جون وبين وأسر - حسن رشدي فارغ الطول نحيل أرسقراطى المظهر
والأصل قضى سنوات باريس دون أن يعنى بالحصول على شهادة بل
اكتفى بالصعلكة العاطفية والفنية والثقافية، يميل إلى الشقرة وعيناه
زرقاوان فاتحتان، لا يغير الصندوق المفتوح في قدميه ولا الشورت الكاكي
منذ أن وصلنا وحتى غادرنا الطور، يتحدى الأنظمة والتنظيمات
وينتهك التعليمات، يذكرني بفتوح القفاص إلى حد ما وفي أكثر من
جانب، على تباين المظهر واختلاف المرجع الثقافي والطبقي.

أخذت الاستعدادات للإضراب، وكُتبت العريضة احتجاجاً في المدى
القصير على حملات الترويع باسم التفتيش وفي المدى البعيد على
استمرار الاعتقال من غير مبرر موضوعي «لجماعة من أعظم أبناء الوطن
إخلاصاً وحرصاً على سيادته واستقلاله وحرية وهم أصدق الناس سعياً

من أجل صيانة حقوق المواطنين ومن أجل الحرية والعدالة والكرامة، إلى آخر الصياغات التي تدير على شفا جرف هار بين الالتزام المبدئي بأصول النظرية من ناحية واستنفار الحمية الوطنية من ناحية ثانية.

قدم أعضاء «لجنة الشؤون العامة» العلنية مع لجنة «القيادة السياسية» السرية العريضة إلى القومندان، على هيئة وفد منتدب من المعتقلين، تلقاهم بدمائة وجدية، وسأل دون سخرية:

- ومعكم الشراذم؟

كان عبد المعبود البديري في العادة صموتاً مغلق الوجه على ما يدور في داخل روحه، مطبق الشفتين لا يكاد يبين منهما إلا خطاً واحداً رفيعاً. بادر بالرد على القومندان حتى يزيل شبهة إمكان أن يوقع الفرقة بين المعتقلين، بين «الشراذم» و«المنظمين».

- سنرى. هذا موضوع داخلي بيننا، وسنبلفكم حال وصولنا إلى قرار. كانت نظرتة، من عينيه الغائرتين إلى حد ما في محجريهما، قوية وصارمة. استطاع - فيما بعد - أن يمسك، بمقدرة عالية، بناصية ما يعرف حتى ذلك الحين من علوم وممارسات الذرة، عهدت إليه السلطة الناصرية بمقاليد مشروعها النووي، أرسى قواعد كان من شأنها أن تتحمل بناءً راسخاً في هذا الميدان، لكن السلطة الساداتية أهملت عن عمد هذا المجال كله. وفي ظني أن عبد المعبود مات من عقابيل إحباط هذا المشروع.

ولكن بدران كان أكثر أعضاء اللجنتين القيادية والشؤون العامة احتكاكاً بسلطات المعتقل، بحكم إشرافه على شتوته اليومية، ومن ثم كان أعرفهم بما يمكن أن تتذرع بها هذه السلطات من حجج ومعاذير فأسرع يقول:

- العريضة تحدد خمسة عشر يوماً للاستجابة لمطالب المعتقلين وتحديد موعد نهائي تلتزم به السلطات للإفراج عنهم. ثم بعدها يبدأ الإضراب عن الطعام حتى الموت، على مرحلتين، أقول سيادتكم هذا

للتأكيد والتوضيح لا غير .

فقال القومندان من بين أسنانه :

- نعم، مفهوم.. مفهوم . وهو ينظر إلى العريضة بسرعة، ثم رفع
بصره إلى بدران، متأملاً ومتديراً .

بدران تتدفق الحيوية والتوتر، باستمرار، من عظام جسمه المشدود،
أسمر داكن السمرة، من أصل صعيدي، وكنت قد عرفتته وعايشتته
وأعجبت به، من معتقل أبو قير .

القومندان يعرف أنه مدرس بالجامعة .

كان بدران يعرف الرياضيات وأحدث نظرياتها معرفة عميقة وهو
في الوقت نفسه ابن بلد، وابن مسوق، قراري، قادر على أن يكشف
الاعيب وحيل التجار والمتعهدين وأن يحبطها .

كنت أدرك أنه يوقن بأنه عميق المعرفة على إطلاقها وأن قد ملك
«الحقيقة» دون أن يسميها «الحقيقة» ولا «البرافدا» بل لها عنده أسماء
أخرى من قبيل «المادية الجدلية» و«المادية التاريخية» و«النظرية» من غير
حاجة لتحديد .

ألم يكن معظمنا يساوره أو يستأثر به يقين تملك المطلق في صورة
تنكره النسبي؟

وهل كنت أسأله، هذا المطلق، كما لعنتي لم أكف عن مساءلته
ومناوشته، ومهاجمته، الاستسلام له حيناً، والتمرد عليه دائماً؟

أما ثالث أعضاء الوفد فقد كان الرفاعي .

كان طه الرفاعي صديقي على نحو ما، فارع الطول، مشوق الجسم،
له نظرة طُلقة رحيبة وصحو متفتحة ومرحة، كان من قوة سلاح الطيران
الملكي المصري، ومن ثم أدركت السلطة الملكية خطر بقائه في السلاح،
أنزلته من التحليق بحرية وانطلاق في عنان أجواء البلد، أبعدته إلى
العمل على الأرض، ثم رمت به إلى هايكستب والطور، لكنه ظل يحلق

فى سماء خاصة به ، تتعلق بتغيير العالم ، وتقدم الوطن ، وكرامة الناس .
ألم نكن جميعاً نحلم بالتحليق فى مثل هذه السماء؟ أو نوقن أننا
نمخر عباب أجوائها المشرقة بالأمل؟

بقية أعضاء اللجنتين العلنية والسرية الذين وقفوا على شكل حلقة
صغيرة خارج المكتب ، هم هؤلاء الأغمار الذين لا اسم ولا وصف لهم ،
الكومبارس الذين بدونهم لا تقوم لعمل قائمة ولا يستقيم له عمود ، ناس
الظل الذين هم جمهرة مغمورة ومن غيرهم لا قيمة ولا وجود للأعلام أو
للقيادة والزعماء ، أفراد الأوركسترا العاكفين جماعياً على أحلام آلاتهم
دون أن يكون لأى منهم صوت متفرد ، لكن من غيرهم لا قيمة ولا وجود
للسوليست ولا للمايسترو ، ومنهم عرفنا بالحديث الذى دار فى المكتب
، ومعهم استغرقنا طيلة الأسبوعين التاليين فى التكهنات والرجم
بالنبوءات وتفصيص المواقف والتحليلات السياسية التى قد تشير إلى
جانب استمرار القمع والإبعاد والترويع الذى نعانيه ، أو إلى جانب
التراخى ومراعاة الظروف الخارجية والدولية وخاصة بعد تراجع الجيوش
العربية وما وصلنا من أخبار من مآسى وفواجع الفلسطينيين .

فى خلال الخمسة عشر يوماً التالية كانت ثم هدنة بيننا وسلطات
المعتقل بل استمرت سهرات موسيقى رمسكى كورساكوف
وتشايكوفسكى على جرامفون رمزى حبيش النقالى المربع الأسود ،
الذى يتصاعد سحره الخاص فى جلستنا مع الضابط التوبتجى أمام
المكتب ، على كراسى المكتب أو القرفصاء على طوايل سحبتها من
عنابرنا ، حريصين على أن نتجاهل - ولو للحظة - أوضاع الحبس
والإبعاد فى هذا المنفى النائى ، والقمر ينسكب فوقنا - على السواء -
ويغمرنا بفيض فضى عميق النقاء ، عبد المعبود وعبد العظيم ، رمزى
وبدران ، طه وصابر ، لطفى وفكرى ، على اختلاف منازعنا ومشاربنا ،
وتباين أهوائنا وهواجسنا ، نحن وهذا الضابط الذى ألقى به مقادير

العسف نفسها فنقلته مفضوباً عليه بلا شك من وزارة عبد الهادي إلى هذا المنفى معنا، ولو لفترة محددة سلفاً لكنها متواترة، ومن ثم أبعده أثراً في ترسيخ حسه بالاغتراب عن ذويه وربما الاقتراب من هؤلاء الناس الذين رضوا عن طيب خاطر بقبول كل المخاطر في سبيل ما يؤمنون به.

كنا حريصين على أن نحافظ على الجرامفون الثمين، وأن نبعد عنه شوب الرمل الدقيق الذي قد يعطبه بنفس القدر الذي كنا حريصين معه على حيطة الصلة بيننا وبين سلطات المعتقل وأن نُبقيها دون اختلاق صدامات لا مبرر لها، من غير تفريط - بداهة - في المطالبة بحقوقنا.

كان الإخوان المسلمون قد نقلوا إلى معتقل مجاور، على مقربة منا، فيه صفوف من الحزاءات كما هو الشأن عندنا، يحوطه سور أقوى بكثير مما هو عندنا من السلك الشائك الذي أقامه الجنود عقب وصول دفعة الإخوان الأولى، وما أثاروه من شغب، وما رفعوه من شعارات ونداءات مستفزة.

عندما وصلتهم أنباء اعتزامنا الإضراب عن الطعام انعقدت لهم جمهرة صاخبة تهتف بأن القرآن دستورنا والرسول زعيمنا ولا إله إلا الله ويسقط الكفرة، حلفاء اليهود، وهم يقذفون حائط المكتب عندهم بالحجارة والزلط الذي انتزعوه وجمعوه من أرض الساحة الرملية.

رأينا يوماً هجمة العساكر عليهم بالهراوات وتفريق جموعهم، ثم جمعهم في صفوف وأمرهم بأن يجلسوا القرفصاء بالطريقة المألوفة في السجون: أن يقعي الواحد على قدميه دون أن تلمس ركبته أو مقعدته الأرض، ويمر العساكر بينهم بالعصى للمحافظة على هذا الوضع الذي يخلف آلاماً مبرحة في أسفل الظهر وعلى طول الجنبين.

كنا من حيث المبدأ ضد هذا الأسلوب في التعذيب، وضد ضربهم على باطن القدمين بالهراوة الضخمة ثم أمرهم أن يجروا على الرمل - بعد الضرب الأليم - ربع ساعة على الأقل حتى يجرى الدم في القدمين

ويزول التورم ولا يترك التعذيب أثراً.

وقعنا على عريضة بمنع تعذيب المعتقلين على أى نحو: لا حملات الترويع باسم التفتيش، لا لامتهان كرامة الإنسان بأى شكل من الأشكال، لا لمعاملة المعتقلين السياسيين معاملة المجرمين مع مراعاة أن المجرمين المحكوم عليهم لهم حقوقهم الإنسانية التي لا يجب أن يعتدى عليها أحد.

حتى جاء اليوم المرتقب الموعود.

مرت خمسة عشر يوماً ولم تأت إجابة بأى شكل من سلطات القاهرة ولا من سلطات المعتقل. تجاهل تام.

ومن ثم كان لا بد من إنفاذ الإضراب.

فى الصبح امتنع نصف المعتقلين عن تناول منابهم من الإفطار وهم الذين كانوا قد أخطروا بأنهم هم الذين سوف يبدأون بالمرحلة الأولى.

أعلنت «لجنة الشؤون العامة» عن أنها قد توقفت عن مباشرة الإشراف اليومى على توزيع الوجبات الثلاثة، وكان مشهد الشراذم مؤسماً وخائباً. جاءوا متفرقين ومتجمعين وهم يتلقون إفطارهم فى غير انتظام من عمال المتعهد، والعساكر قد انتشروا فى المعتقل على شكل صفين متوازيين أمام الحِزَّاءات المتقابلة.

لم أكن من معتقلي المرحلة الأولى. وقد أنشأنا لجنة مؤقته لمباشرة توزيع الأكل علينا فى صفوف هادئة وصامتة. ولم أكن حتى أعرف هل سأنضم إلى الإضراب فى المرحلة الثانية، لم يفاتحنى أحد فى الموضوع، ولم أفتح أحداً.

كنت قد أعلنت رأى مع «جماعة إسكندرية» فى الحِزَّاء ٤ عن أن الإضراب عن الطعام هو مظاهرة سياسية لا تؤتى أثرها إلا بأن يكون هناك اتصال قوى وفعال بين المضربين وجماهير الناس، وأن انقطاع أخبارنا عن الخارج هو نفسه عامل إحباط وتثبيط للإضراب، لم أكن معترضاً على المظاهرة أو المبادرة قلت إن المهم هو أن تصل أخبارها إلى الناس.

وكالمعتاد الآن وطاعة منهم لتعليمات صادرة من القيادة - فيما أرجح -
لم يناقشونى ولم يدخلوا فى حوار، بل سمعوا بذوق وأدب ولم يردوا.
كان صابر ومحمود وحسين ثلاثتهم فى المرحلة الأولى من الإضراب
بينما كان لطفى وحده هو الذى وقعت عليه القرعة - أو الاختيار
بالتعيين - لينضم للإضراب فى مرحلته الأولى، من بين أعضاء الثلاثى
الإسكندرانى المثقفين. ولم يكن فكرى نمر فى هذه المرحلة.
كنا نأخذ طعامنا - من غير نفس، من غير شهية - أنا وبقيّة الثلاثى
الإسكندرانى فكرى نمر ووجدى حبيب، وتناولوه واقفين بحس من
المراة والغصص أمام المطبخ.

مرت أيام ثقيلة محملة بالنذر ولكن مليئة بالشجاعة والقوة، كان
عباس الدرمانلى قد تخرج من كلية القصر العينى منذ سنتين، وأنهى فترة
امتيازهِ فيه، عرفته عن كثب فى تلك الأيام الصعبة، كان يمر على عنبرنا
صباحاً ومساءً، يجس نبض المضربين ويفحصهم فحصاً سريعاً فى الأول
ثم يقدم بيده حسوة من الماء فيه قطرة ليمون وهبة سكر، حسب المتفق
عليه طبياً وسياسياً معاً.

ومنذ اليوم الرابع كنت أشتم رائحة «الأسيتون» النفاذة من أجسام
أصدقائى فى العنبر، وألحظ جفاف بشرتهم وشحوبها، شحت عيني
محمود تفوصان إلى الداخل أكثر، وكانت يد حسين وأنا أسقيه حسوة
الماء المقننة، ندية بعرق بارد، وهو ينهج قليلاً، ويجد صعوبة فى البلع،
أما صابر فقد كان أقواهم احتمالاً، وأضوأهم نظرة، وأثبتهم صوتاً،
لطفى كان قد لزم الفراش ولزم الصمت أيضاً من اليوم الثالث، الإرهاق
قد بدا واضحاً على ملامحه.

فى تلك الأيام كنت أفتقد بشكل أخص رفقة فريد اسكاروس أو
حمدى يوسف وعبد القادر خلف الله الذين لم أكن أعرف ماذا يحدث
لهم؟ أما زالوا فى أبو قير؟ هل أفرج عنهم؟ وأفتقد أكثر من أى يوم

مضى مدحت شعبان، مشيتنا الطويلة المتأنية حول ساحة معتقل أبو
قير، ذراعاً في ذراع، نتحدث في فابية برناردشو وموسوعية سلامة
موسى، عنفه أحياناً وتردده أحياناً، أو أفيض في الحديث عن بايرون
ووردورث، أو أسترجع سرد أو حكاية الإخوة كارامازوف ويتمهد لي
مدحت أن يقرأها بالإنجليزية إذا استطاع أو على الأقل في ترجمتها
العربية بمجرد أن تقع يده عليها.

عندما أخرج من العنبر أتمشى وحدي كاسفاً مطرقاً تطوف بذهني
أفكار من قبيل أن الإضراب عن الطعام ربما كان نوعاً من التضحية
بالذات، أو ذبح الذات رمزياً، كما تقضى به أساطير البدائين، على
هيكل إله نهم إلى الدماء لا تفر عيناه إلا بمحرقة ذبائح بشرية، يتصاعد
دخان شوائها إلى الأفق العلوي الشره حتى يرضى القلب القاسي.

التقى فجأة بحسن رشدي في آخر الساحة الطولية بين صفى
الحزاءات فيقول لي بلهجته الكلبية الساخرة:

- شف يا سيدى - مضربون عن الأكل حتى تستمع إليهم نفس
السلطات التي يدينونها ليل نهار، ومن يعرف؟ هل هم صائمون
بالفعل.. يا سيدى قل يا باسط..

وأحتد عليه: نعم يا حسن.. نعم.. صائمون فعلاً محمود وحسين
وصابر ولطفى على الأقل، ويموتون بالتدريج، لا أعرف إلى متى
ستحتمل أجسامهم التي ليس فيها نفس من الأصل.

يهز كتفيه بلا مبالاة، غير مصدق أو غير راغب في أن يصدق،
فأتركه دون تحية وأعود أدراجي بمشية موحشة وعتمة المغارب تحط على
الطور، وتهب رياح متربة تحمل رملًا دقيقاً ولها صفير، أحس فجأة أنني
أفتقد اللون الأخضر، أفتقد الخضرة اليانعة الطرية. ليس في الحجر
المعتقل شجرة واحدة، ولا نخلة واحدة حتى، أحس عيني توجعاني من
صفرة ورمادية كل شيء حولي.

ومع ذلك فليس أمامي خيار إلا أن أذهب إلى عنبر الشراذم في آخر
الحزاءات أشرب معهم الشاي الساخن، على مضض، كأني أقترف خيانةً
ما، وأكتب خطاباً لأمي فيه كل ازدواجية الموقف الذي أتخذه منها
باستمرار: إدعاء أن كل شيء لا بأس به، في الوقت الذي أختنق فيه
ضيقاً وتشقلاً على وطأة الحبس.

الطور في ٢٠ أبريل ١٩٤٩، معتقل الطور السياسي، جزاء ٤
والدتي المحبوبة

أقبل يديك الكريمتين أحر قبلات ابن مخلص وفي.
تأثرت جداً لأنك قلقة إذ لا تصلك مني خطابات، وأؤكد لك يا
والدتي العزيزة أنه لا يد لي في ذلك فقد أرسلت لك خطاباً بعد
استلامى الطرود بتاريخ ٥ مارس وخطاباً آخر بعد استلامى التلغراف
بتاريخ ١٧ مارس وثقى يا والدتي أنني أفكر فيكم ليل نهار وأقدر
مسئوليتي نحوكم كل التقدير وكل ما أرجوه أن تتاح لي الفرصة حتى
أفي بهذه المسئولية خير الوفاء.

وصلنى المبلغ فى الخطاب الأخير وأشكر لك يا والدتي هذه العناية
وخاصة أنني أعرف أن كل مبلغ ترسلونه إنما تقتطعونه من لحمكم
الحى، أرجو ألا ترسلوا بعد الآن مبالغ أخرى حتى أطلب ذلك منكم
فيما بعد. أما أنا فصحتى على خير حال.

وأنتهز هذه الفرصة لأهنتكم بعيد القيامة وأرجو لكن جميعاً عيداً
سعيداً، وكل أملى أن نقضى العيد القادم معاً فى هدوء وسعادة.
سأوظب على الكتابة إليكم كما تطلبين.

(إلى آخره إلى آخره....)

(امضاء)

الفصل السادس والعشرون

في اليوم الخامس أشار إليّ لطفى إشارة واهنة ولكن بإلحاح غير معتاد أن تعال .

أقربت منه ، صدمتني رائحة الأسيبتون النفاذة التي تفوح منه ورائحة عرق آسن ، قال بصوت ضعيف وخافت وهو يومئ إلى ما تحت المرتبة القش :

- طلع ما تجده هنا ، تحت .

دست يدي بين خشب الطاولة والمرتبة القش فاصطدمت بشيء ما قليل الصلابة .

أغمض لطفى برأسه علامة الإيجاب .

شدت ما اصطدمت به يدي : أوراق كثيرة مطوية أربع طيات ، واضح أنها مكتوبة بالحبر الأزرق الذي كان لطفى يكتب به « صحيفة حائط جزا ٤ »

بصوته المبحوح المصمم :

- لا تفتحها أرجوك .. لا تقرأها خذها وأخفيها في مكان أمين خارج

الجزا .

على الرغم من اختلاف انتماءاتنا الأيديولوجية كانت تلك علامة ثقة أحسست قلبي يهتز لها .

أطرقت برأسي حتى لا يرى انفعالي .

أخفيت الورق تحت قميصي ملفوفاً في قطعة من قماش مزقتها من بيجامتي الكستور القديمة وخرجت في عتمة الغروب أتمشى ببطء في

الساحة الخلفية للحِزَّاءات، من ناحية السور السلك الخفيف الذي تهزه رياح ساخنة. كان ذلك الجانب من المعتقل مهجوراً في العادة وخاوياً.

أقعت كأني أبحث عن شيء - عاد إلى بقوة موقفي المماثل في أبو قير - وحفرت بيديّ بجانب حائط الحِزَّاء وعندما قدّرت أنني وصلت إلى عمق مناسب أودعت الحفرة لفة الورق الثمين، وإذا أسحب يدي ترتطم للمرة الثانية هذا اليوم بشيء صلب وحاد على جنب.

لم أستطع مقاومة الفضول بالطبع، تلفتت حولي. كان الممر الخلفي الضيق، لي وحدي، خالياً ومعتماً، حفرت بسرعة حول هذا الشيء الذي لم أتبين ما هو حتى نزعته عنه الرمل والتراب، وشددته إلى فوق. كان جمجمة بشرية.

جافة تماماً، فاغرة العينين، الأسنان القوية مازالت مطبقة، والقحفة ملساء مدوّرة.

لم أملك إلا أن وجدت نفسي أسقطها من يدي على الفور، على الرغم مني، كأنما لسعتني صدمة كهربائية، ولم أحاول أن أبحث عن أجزاء أخرى من هيكل عظمي بائد. هممت بإعادتها إلى الحفرة، لكي أغمرها بالرمل والتراب من جديد.

ولكن ذهني كان قد بدأ يعمل بقوة وسرعة. قلت إنني في مأزق، فلست وحدي هنا ولا يجوز أن أسكت وأن أكفي الماجور التقليدي على الخبر.

وفي الوقت نفسه لو أنني أشعت عن هذه الحكاية، فالسؤال الذي لا بد أن أجيب عليه: ولماذا كنت تحفر هناك؟

ولا أستطيع أن أخذل ثقة لطفى فأقول عن السبب. ردمت الحفرة على ورق لطفى المذكور كيفما استطعت وسويت الأرض.

رفعت الجمجمة مرة أخرى، وفي يدي حسّ بالنفور الفيزيقي البحث

يكاد يدفعني إلى أن ألقى بها جانباً في كل لحظة . ثم قمت بما كنت أتصور أن لا طاقة لي عليه ، حفرت من جديد على بعد جزأين ودفنت الجمجمة من جديد وسويت الأرض من جديد ، في وقت تصورت أنه طويل جداً ، وكنت أعرف مع ذلك أنه قياسى وخاطف .

رجعت إلى ممر الساحة الوسطانية الفسيحة ، بعض الشراذم يهيمون كأشباح شاردة ، ولا شيء آخر .

وقفت أسترد أنفاساً كانت قد انقطعت .

ثم قررت .

خبطت على حزا رقم ٥ ، عنبر اللجنة القيادية .

فتح الباب موارباً في البداية ، ثم انفتح على مصراعيه .

كانوا هناك : القيادة كلها ، من أعرفه منهم ومن لا أعرفه .

حكيت الحكاية بوضوح وإيجاز قلت سبب الحفر كان أن أخفى أوراقاً

خاصة بي .

استمعوا إليّ بانتباه ، وبعد صمت قصير تبادلوا فيه النظرات قالوا لي :

شكراً على كل حال لأنك أطلعتنا على الموضوع . هذه روح زمالة حقيقية .

دعنا نفكر وسنخاطبك بما يستقر عليه الرأي ، شكراً مع السلامة .

لكن صدمة أخرى خطيرة ، مزلزلة ، كانت قد وقعت لي وتمّ تمامها .

لاحظت بوضوح لا يحتاج إلى تفكير كثير أنهم غير صائمين وهم

قادة الإضراب عن الطعام حتى الموت وأول من أعلنوه وأعلنوا أنهم

ينفذونه منذ خمسة أيام .

لا رائحة أسيتون ولا جفاف في البشرة ولا أدنى علامة من علامات

الإرهاق .

كان العنبر معتماً تقريباً بإضاءة خفيفة موزعة بحذق على الأركان ،

وكانت طوايل الفرش متقاربة ، من الجانبين ، وبينها فسحة فيها مائدة

طويلة مرتجلة من إحدى طوايل الفرش ممدودة ومثبتة بمسامير على قوائم

خشبية ، عليها مجموعة أوراق وطبق من الصيني به بقايا طعام ، كانت رائحة فاكهة نفاذة - هل هي جوافة؟ - تفوح في العنبر .

قررت اللجنة القيادية إنهاء الإضراب ثانی يوم ، بعد ستة أيام من بدئه ، والعدول عن المرحلة الثانية ، وبررت القرار بأن سلطات المعتقل قطعت على نفسها التزاماً بإيقاف حملات التفتيش نهائياً ، وأن سلطات القاهرة تبحث إمكانية الإفراج عن معتقلي الطور والمعتقلات الأخرى بحثاً جاداً .

ناقشت المسألة بعد ذلك ، بعدة أسابيع ، مع لطفى وقد كان أقربهم إلى ، راح يسوق لى الحجة التقليدية المأثورة : أنه لا يصح ولا يجوز فى العمل السياسى والثورى على الأخص أن نخاطر بحياة القادة ، لأنهم هم الذين يتحملون المسئولية كاملة وهم الذين تتوقف عليهم مصائر الأمور ، ومن ثم فإنهم غير ملزمين - منطقياً وثورياً - بأن يعرضوا صحتهم أو حياتهم للتلف إذ إنهم بذلك يرتكبون خطأ جسيماً إذ يعرضون العمل الثورى نفسه للفشل ، ومن ثم فإن الغاية النبيلة تبرر الوسيلة التى قد تلوح لأول وهلة غير أخلاقية ، ولكنها فى نهاية التحليل هى وحدها التى تتسق مع طبائع الأمور ، انتهى التسويغ المأثور . تلك كانت ومازالت بؤرة خلاف يستعصى على الحل .

الغاية عندى لا تبرر الوسيلة .

الوسيلة الفاسدة لا بد سوف تعطب الغاية إن لم تحبطها تماماً ، قلت : أهذه مثالية وطوباوية غير مبررة؟ قلت : بل هى فى النهاية الواقعية الوحيدة الممكنة .

قلت : وماذا عن ازدواجية خطاباتى إلى أمى وعائلتى؟ أليست هذه أيضاً كذبة بيضاء تبررها غاية شريفة؟ أم أن العطب قد بدأ يسرى ، خفياً ، غير محسوس ، ومثل كل فساد سوف يستشرى؟

قلت : ليس عندي إجابة إلا إجابتي الأولى ، ما من غاية تبرر وسيلة فاسدة .

الإثم قائم لا يزول .

بعد انتهاء الإضراب قررت إدارة المعتقل بالاتفاق مع لجنة الشؤون العامة تعديل مواقع المعتقلين .

ظل الشراذم في حزائهم الأخير رقم ٨ ونقلت مجموعتنا إلى حزاء رقم ١ وهو الأقرب للمكتب من الحزاء رقم ٤ ، أوسع وأضوأ وأهوى ، وخصصنا فيه ركنا للمكتبة العامة التي زُودت بعدد أكبر من الروايات والمراجع ، وخصص ركن آخر هذه المرة لصحيفة حائط المعتقل كله ، وأفسح لها مكان ظاهر وتقرر أن تصدر مرة كل أسبوعين بانتظام ، وعُهد إلى أحد القياديين من الحزب رقم ٥ بالاشتراك في تحريرها ، وكما عهد إلى علي عزت - وهو رسام صحفي - أن يضع لها رسوماً تجميلية وأن يصنع لها كاريكاتير جديداً في كل إصدار .

لكن حس يدي بالقشعريرة من مس الجمجمة العظمية الملساء حادة الخواف لم يفارقتني أسابيع طويلة ، وربما حتى نهاية المطاف .
لم يأت ذكرها فيما بعد ، وفيما أقدر كان القرار الذي لم أعلن به هو تناسي الأمر كله ، تجنباً لأي إحراج للإدارة ولأية تحقيقات لا ضرورة لها في النهاية ، فلعلها من بقايا وباء قديم ، أو جريمة عفى عليها الزمن .
ما معنى إثارة ذلك كله الآن ؟

الإسكندرية في ١٩ مايو ١٩٤٨

ولدى المحبوب

أقبلك قبلات أم مشتاقة إليك كاشتياق الظمان للماء العذب وبعد
أعرفك بأننا في غاية السرور لورود خطابين منك في عشرة أيام هذا يُطمئنا
من جهتك وعسى أن ترسلنا هكذا بانتظام حتى نكون في أتم سرور .

أما طلباتك فضروري جداً تعرفنا بها حتى يمكننا أن نرسلها لك في أقرب فرصة ومن غير المعقول أنك للآن لا تريد شيئاً، وعرفنا حالتكم بالتفصيل، هل أنتم في حالة طيبة أم لا والحالة كأبو قير؟ الجو حار أم رطب أم بين بين؟

نعرفك بأن هناء تعمل بالخياطة عند أم روزا باليومية ولذلك فحالتنا المالية لا بأس بها.

ولا تفكر فينا أبداً ولكن فكر في نفسك لأننا نريدك بعد انتهاء هذه الرحلة بصحة جيدة وهذه تجارب من الله والله معنا وهو يساعدنا ويقوينا على ما أعطانا.

والرجاء ألا ترسل خالك أبداً لأنه حصل بيننا وبينهم مشادة بخصوص إرسالك خطابات لهم.. وعرفنا بصراحة أنك أرسلت لخالك كم خطاب ولو كنت تقدر تعرفنا ما كتبته فيه فذلك يكون أفضل، حتى نقدر نعرف، لأنهم قاطعونا وخاصموننا بخصوص هذه الخطابات بعد ما كان بيننا وبينهم بعض الود.

أعرفك بأن لوييزة وإيزيس مع بعض في مدرسة تيتو باشا بياكوس كما أن فوفو بالمنزل.

ولا تقلق من جهتنا فنحن في صحة جيدة وننتظر انتهاء هذه المحنة بفروغ صبر حتى يجمعنا الله.

وضروري تعرفنا ماذا أخذت من أبو قير وماذا تركت لأننا لم نأخذ سوى بطانية واحدة، فهل أخذت شنطتك وكتبك وأدوات الشاي أم تركتها؟ أما أنا فصحتي جيدة ولا ينقصني إلا مشاهدتك.. التي أرجو من الله أن تكون قريبة.

هناء تهديك أزكى سلامها وأحر تحياتها كذا الصغيرات أما فوفو فتقبلك كثيراً.

أمك

نظرة، إضاء ، 5/30

الطور في ١٦ يونيو ١٩٤٩

معتقل الطور حزاء ١

والدتي المحبوبة

أهديك تحياتي وأصدق قبلاتي البنوية الحارة ولك يا والدتي شوقي
العطر الذي لا تزيده الأيام إلا حرارة، وأملئ أن تكونوا جميعاً في أتم
الصحة.

لم يصلني منكم خطابات بعد خطابكم المؤرخ ١٩ مايو - وقد وصلني
في ٣٠ مايو - وأرجو أن تذكروا دائماً في إجاباتكم تواريخ الخطابات
المرسلة مني لكم.

طلبت منكم بعض أشياء في خطابي الماضي المؤرخ أول يونيو وهي
على ما أذكر:

١- البيجاما ٢- الثورت الأبيض ٣- السبرتاية وبكرج الشاي من
أبو قير ٤- زجاجة حبر

وأرجو إرسالها مع الأشياء التالية أيضاً في طرد محكم الغلق جيد
التعبئة حتى لا يتكسر ما بداخله أو ينسكب من الرفع والخفض
والحمل والرمى في القطارات والباخرة...!

١- علبة كاكاو ٢- معجون الأسنان ٣- علبة بودرة حلاقة وزجاجة
كولونيا

كذلك يسرني جداً أن ترسلوا صورة عائلية تجمع بينك وبين أخواتي
جميعاً أو على الأقل هناء وفوفو - فإنه يشوقني جداً أن أحتفظ بصورة
لكم إلى جانبي - تقوم بعض الشيء مقام الأصل...!

والدتي المحبوبة

صحتي جيدة وحالتي طيبة على العموم - وإن كان هذا الكلام
بالطبع بالنسبة للمعتقل والبعد عنكم - وقد أخذت حقنة ضد
التيفود أحدثت أثرها من صداع وغيره بالطبع لمدة يومين ثم مرت
بسلام.

وقد ذكرت لك أنني أمضى الوقت مطالعاً أو متريضاً في الهواء الطلق، وقد تعودت الآن على الهواء الطلق - وأنا إذ تتمثل لي صوركم المحبوبة أنت وأخواتي جميعاً أتمنى أن نعود سريعاً إلى أحضان بعضنا البعض وأتمنى أن تتاح لي الفرصة حتى أعمل كل ما في وسعي لإسعادكم وتوفير ما تتطلبون وأملئ أن تعنوا بنفسكم وأن ترعوا صحتكم حتى ينقضى هذا البعد ونلتقى ثانية.

الطور في ٢٣ يونيو ١٩٤٩

... تلقيت المبلغ المرفق بالخطاب، ووصلني الطرد سليماً كاملاً على أحسن حال، وكانت زجاجة الحبر معبأة بشكل عظيم جداً فوصلت لم يمسهأ سوء، وكم كان سروري عظيماً بوصول خطابك وبوصول هذه الأشياء التي تحمل إلى نفحة من ذكرى البيت والحياة العائلية معاً التي أتمنى أن تعود سريعاً. وقد أغرقتني يا والدتي بهذا الفيض من الكرم ولكن لا داعي لكل هذا الإسراف في إرسال الهدايا.

وكل ما أريد في الطرد القادم هو السبرتاية وأدوات الحلاقة التي طلبتها في خطابي الماضي (علبة بودرة للذقن وزجاجة كولونيا فقط) كذلك أرجو إرسال حذاء لأن أحذيتي كلها بليت ولم تعد تصلح لشيء وأرجو أن تهتمى يا والدتي بإرسال الصور صورتك وصورة أخواتي وخصوصاً لوفو.

إذا أمكنك إرسال بعض الكتب الإنجليزية التي لدى في مكتبتي فهذا حسن جداً، ولكن لا داعي لشراء شيء من الكتب كما تقترحين.

ملحوظة: وصلني الشورت الأبيض، أما الشورت الأبيض الآخر فهو عندي هنا.

لا داعي لإرسال سبرتو أو أية مأكولات كما أنني لا أريد نقوداً حتى أطلب ذلك.

هل فوفو متقدمة في دروسها؟ وهل فكرت في مدرسة مناسبة لها؟
وأفضل أنا أن تكون روضة أطفال جيدة تمهيداً لإرسالها إلى مدرسة
ابتدائية منتظمة وطيبة، وعلى أى حال يهمنى أن تكون مقبلة على
درسها ولا حظى أن لا ترغميها على الدرس إرغاماً بالإكراه، بل حببها
في الدرس - بالجوائز مثلاً (باكو شكولاته مخصوص على حسابي
أنا...) وكذلك لا تحرمي الطفلة من متع الطفولة ولعبها ونزهها فإن
سنوات الطفولة هي أجمل وأثمن ما في الحياة ولها أكبر أثر في الحياة
كلها بعد ذلك - وليس ذنب البنت أنني معتقل فلا داعي لإشعارها
بالحزن والألم قبل الأوان. وما أخبار إيزيس هل أصبحت تعرف
فرنساوى أحسن من لوييزة الآن؟ وهل هناء متضجرة أم سعيدة؟
قبلاى وسلامى الأخوى وقبلاى الحارة.

إسكندرية فى ٢٦ يونيو ١٩٤٩

ولدى الحبيب

وصلنى خطابك العزيز أمس فتلقينه بكثير من الفرح والحنان لشدة
اشتياقى إليك.

وأعرفك بأننى أرسلت لك طى خطابى هذا الجنيه كالمعتاد بواسطة
شيك لأننى وجدت أن الحوالة التلغرافية تتكلف على الأقل ٢٠ قرشاً
فاستكثرت ذلك، الأشياء التى تركتها بأبوقير لم يصلنى منها سوى
البطانية وجميع حاجتك لم تعرف لها أى طريق ولذلك فسنجدد لك
أدوات شاي غيرها حالاً بالطرد القادم.

أما العزيزة فوفو فتقبلك كثيراً وأملى أن تكون بيننا فى ابتداء العام
الدراسى القادم لتدخلها أنت بيدك فى أية روضة للأطفال جيدة
حسب إرادتك بإذن الله وختاماً لك يا أعز أعزائى قبلاى الحارة
وتسليماتى العاطرة ودمت لوالدتك المشتاقة.

ملحوظة: نرجو انتباهك لصحتك بآخر ما يمكن والله الحافظ ومرسل

لك طيه ٥ ورقات بريد حتى يمكنك أن ترسلنا أسبوعياً، وبإذن الله
في الطرد القادم سأرسل لك كمية خطابات وظروف وعشمى ألا
تأخر عن مراسلتنا كل أسبوع على الأقل.
معهُ إذن بوسته بمبلغ جنيه رقم ٢٩٤٤٨١٨

نظر صافي، (إمضاء)،

١٩٤٩/٦/٢٩

هأنذا قد انتقلت، عبر المعاناة، من اختناق الحبس إلى نشوة قبول
التضحية بالذات وبكل شيء من أجل شيء لا يتحقق إلا في طريق النسر
عبر سماوات مفتوحة بلا نهاية، انتقلت من اليأس الكوني إلى ضوء
الأمل، ومن الوحدة الموحشة وعويل الرومانسية الخائبة أو الستمنتالية
المتسايلة إلى صلابة الزمالة وحرارتها، من التوجس والقلق الميتافيزيقي
والشكوك التي تضرب أسس عقيدة قديمة تتوعد بعذابات غير مفهومة
إلى بهجة التحدي - تحدي سطوة القمع المتجدد أبداً وسلطة النص
المكسر العتيق وقبول المخاطر مهما كانت عواقبها.
قلت: قد يبدو ذلك كله ساذجاً وبدائياً حتى.
لكن لا.

فيه صدق لا يريم مهما تقلبت صروف الأحداث.

في خلال مسيرة ليست بالطويلة كانت روحي قد أثريت ثراء لا
مشيل له من رفقتها لهذه القامات التي تظل صاحبة في الروح: عبد
القادر الذي أظن أكن له محبة خفية وإعجاباً خاصاً، وعبد الفتاح الذي
قال إنني أقوم منه مقام النفس وأقول الآن: وهو عندي بمقام الروح،
شاكر المريوطي الذي يحتضر من السل ويصارع الموت الأكيد وسلطات
القهر بعزم لا يناله وهن مازلت أحس أنه زميل باق حياته لا تندثر،

الرحمة العميقة في قلبي له ليس فيها أدنى خور أو عاطفية مبدولة بل هي صلبة صلابة إرادته التي لا تبديد، سلامة البشلاوى الفلاح الطيب في وجه آلات المسخ والتشويه وهو في قبضة حب لامرأة كأنها قبضة تعتصر قلبي وكأنما أتينا وهو الأكبر سناً والأعرض خبرة وحنكة وهو صاحب الإيمان الذي لا يتزعزع في بساطته ورسوخه، صورة منه أجدها موزعة ومنوعة عند صابر ومحمود وحسين.

أحمد النمى الذي سقط في الطريق، شجرة وارفة تظللني بدفء الحميمية حتى بعد أن عريت أوراقها وجف نسفها الذي أحسه لا يغيض، على أبو الليل الذي أجدني زميلاً له في حب الصنعة التي أتصورها ترقى إلى مرتبة الإبداع والخلق الجديد.

قاسم إسحاق الذي عرفته باسم مصطفى وحفرت اسمه على يدي بالدم في طقس صبياني، لعله دون كيشوتى لكنه يظل عندي فارساً مهما شطت به خيول شاردة وحطت به الأنواء واغن الجسم، رفاقته لى محبة صافية مازلت أنهل من ينبوعها الذي يترقرق في جنبات نفسي بلا انتهاء.

أهذه كلها مجرد عاطفية أم خبرة غنى للروح؟

الإسكندرية في ٣١ أغسطس ١٩٤٩

ولدى العزيز

أعرفك بأننا ننتظر منك خطاباً بفارغ الصبر ونحن في أشد الاضطراب لعدم إرسالك لنا أى خطاب فلعل المانع خير؟ وكنت كتبت لك خطاب من مدة ١٧ يوماً وعندما أردنا إرساله كانت هناك عند واحدة وقالت لها إن المعتقلين كلهم في مصر، فلم نرسل الخطاب وانتظرنا منك خطاباً يعرفنا بذلك فلم يصلنا أى خطاب فحصل لنا انزعاج شديد. أما الحالة المالية فله الحمد متوسطة الآن وتحسنت عن ذى قبل.

عرفنا ضرورى عن صحتك نحن فى غاية الارتباك من صمتك، وفى
غاية الشوق إلى رؤيتك .

الإسكندرية فى ٧ سبتمبر ١٩٤٩

ولدى العزيز الحبيب

أقبلك قبيلات أم والهة حيرى لا تدرى ماذا يأتى به الغد عسى يكون
خيراً .

ولدى .. أعرفك بأننى فى شدة الشوق إلى رؤيا وجهك الحبيب ...
متى أراك وتكون بيننا كعادتك إننى أفكر فى هذا ليلى ونهارى .

كل إخوانك يكتبون لأهاليهم وأنا ليل ونهار وأنا أروح عندهم
وأعرف ذلك، وأنت ماذا يمنعك عن مراسلتنا؟ أنت زعلان أو فيه
حاجة مزعلاك من جهتنا؟ حالتنا تحسنت ولله الحمد .. عرفنا طلباتك
بأسرع وقت لنرسلها لك على جناح السرعة ونحن فى انتظار خطاب
منك يطمئنا بفارغ الصبر وضرورى جداً تطمئنا عن صحتك لأننا
فى أشد انشغال من جهتك، ولا فيش نوم لا ليل ولا نهار، وأنت
تعرف إنك واحدنا وليس لنا رجاء إلا فى الله وفيك كيف تصبر على
عدم مكاتبتنا . يوماً؟ أتعرف ماذا يراودنا من الأفكار فى هذه المدة
الطويلة؟ ضرورى جداً من إرسال خطاب تعرفنا فيه عن أحوالك
وصحتك بالضبط وماذا كان السبب فى عدم إرسالك خطابات حتى
نطمئن عليك .

نعرفك بأن القضية التى أخبرناك عنها سابقاً .. صاحب المنزل كان
رافع قضية يريد أن يخرجنا من المنزل، رفضت والحمد لله .. ضرورى
تعرفنا عن طلباتك لنرسلها لك فى أسرع وقت .. إحنا عايزين نرسل
لك تليفراف ولكن خايفين من تأخيرها كالسابق .. فإن أمكنك إرسال
تليفراف لنا يطمئنا عنك فيكون أحسن .

والدتك

ملاحظة:

أرسلنا لك خطاباً بتاريخ ٣١ أغسطس فهل وصلتك؟ فضروري من إرسال خطاب بأسرع وقت.

لم يكن ثم ضرورة لإرسال خطاب.

سرت في المعتقل روح استبشارٍ وتفاؤل غير معهود، ربما لأول مرة منذ وصلنا.

الأيام القليلة القادمة ستحمل مفاجأة نارية..

استعرت وابور البريموس وصفحة فارغة كالمعتاد من جماعة صابر وذهبت إلى الحمام، في صف الحزائم المقابل، بجانب المطبخ. كان سبتمبر مازال دافئاً.

هل كان ثم أمل، أو استشراف، أن الغد هو اليوم المرجى؟

حلقت ذقني في المساء ربما لأول مرة، اعتدت أن أحلقها كل صباح، أعلق المرأة على ماسورة الحنفية، وتحت المصباح الكهربائي الموقد الآن، وأرغى معجون الحلاقة على وجهي بالفرشاة الكبيرة،

أحس مرور الموسيقى في العدة التي على شكل مثلث يفتح جناحاه العلويان ثم تدس الشفرة على النتوءات الدقيقة في جسم العدة تنزلق فيها الشفرة بنعومة ثم ينغلق الجناحان، أستمتع باحتكاك الشفرة ببشرة الوجه التي نبتت فيها شعيرات قصيرة جداً تزيلها الموسيقى بنعومة مع رغوة المعجون الأبيض العبق بشذى الليمون.

غرفة الحمام في الحجر نظيفة لامعة جدرانها حتى السقف من القيشاني الأصفر المحمر. إذ أجفف يدي المبلولة وأشعل وابور البريموس يعود ثم آخر من علبه الكبريت وأملأ الصفيحة بالماء الذي يتدفق من حنفية الحمام بقوة وأرفعها بجهد قليل وأثبتها على الوابور المثق الذي يفتح الآن فحيحاً بهيجاً.

أخلع ملابسى القليلة وأعلق الغيار النظيف على المسمار الذى فى ظهر الباب، وقد أحكمت إغلاقه، وأخذ الدفء وبخار الماء يشيع فى الحمام بحس من تشوف متعة العرى والتصبين بالليفة المعمولة من إسفنج البحر المجفف، والشطف، وإغراق الجسم العارى الساخن بالماء الدافئ المأخوذ من الصفيحة بالكوز المعدنى المخصوص الذى حملته معى طول الوقت من أبو قير.

امتلاً جو الحمام ببخار خفيف ووشيش رتيب من الوابور.
أجساد نسوة عرفتهن أو طافوا بالخيال الشبق، فاطمة وأوديت ودولت وزينب وعائدة قد انصهرت كلها فى جسد واحد حار مشتعل بشهوة شباب تشقّ شعاب الصحراء الشاسعة.
أحيط الجسد الناعم بذراعى العاريتين أريد أن أحيط عنان السماوات العالية فى أحضانى، اللدونة المطاوعة تخدعنى عن بُعد الأهواء السحيق.

نزق النقرزان الإسكندرانى تتلاحق دقائقه فى دمائى، يتردد صداها فى سكون قاعة مسرح محمد على فى شارع فؤاد والأميرة شهر زاد تنزل من سيارتها الهاكار وألح عتمة خفية مغوية ومراوغة فى انفراج الساقين الطويلتين تحت الهجبة المنسدلة عليهما بانسجام.

رقصة قوائم خيول عربية الخنطور المنطلقة على صفحة الكورنيش الملساء فى اتجاه الأنفوشى وقلعة قايتباى الشامخة البعيدة التى لا تنال، بينما أمواج الميناء الشرقية تهدد قوارب الصيادين الصغيرة المتراقصة هى أيضا بالنغمة نفسها على صفحة المياه الساجية الدافئة مع عقب عطر ياسمين مصدره سرى هل هو عقد مستدير بالعنق التلعاء السمراء التى سوف تجتزاها سكين العسف الغشوم؟

انفساح لأشجان الثيولينة من أرض لامعة مندادة ممسدة فوق رمال عريقة تحدى منها عينان فاغرتان فى محجريهما المظلمين وذئبة

الوتريات قشعريرة تهز الجسم المفتوح للغوايات وهجمات أشواق غير
مسمّاة.

إيقاع أنفاسي الآن متواتر متسارع تقطعه قعقعة النحاس المدوية بين
جنيات الجسد المتوتر المشدود في عريضة وثنية.

الطبول الضخمة تضرب. أجساد البنات دائرة من التلويّات الأنثوية
وتقلّصات الجوارح وصرخات الشبق في جماح ترنان الصخب الحسيّ
قرينات الهوى تتصاعد لهن نشوات ضجيج أبواق الصور ثم تأتي
هسهسات الاسترخاء وهمسات الاستنامة إلى رؤى تعلو صروحاً من
أطياف قلوب عائدة إلى مقام خفيض.

أفي ذلك سعيّ إلى نسيان أصفاد الجنس العميق واستشراق لأفق
الحرية الوشيك؟

الفصل السابع والعشرون

كانت النقلة من معتقل إلى معتقل ، فقط ، وليست إلى الحرية .
كان الجو بارداً وعاصفاً وذرات الرمل الدقيق تتطاير وتتسلل إلى
عيوننا وأذاننا وملابسنا تدخل في ثنايا البنطلون الرمادي المتهدل
والشيرز الصوف على القميص ، وأنا مع قافلة المنقولين مرة أخرى ، أحمل
حقيبتى المربوطة بدويرة ما زلت أجرّ حذائي الواسع مفتوح الفوهة ، فلم
يصلنى حذاء جديد من اسكندرية ، قطعنا المسافة الصغيرة بين الحزاء رقم
١ وورصيف المرسى فى عشر دقائق خلتها طويلة ، كاد الهواء العنيف
المترب يدفعنى إلى البحر وأنا آخذ طريقى بين الأصدقاء والزملاء ، من
عرفتهم ومن ظلمت لا أعرفهم إلا بالشكل فقط ، والباخرة عايده تهتز
فى مرساها على الأمواج المتدافعة التى تلطمها وتثير الزبد على جسمها .
اتخذت لنفسى موقعاً على السطح ، جنب سياج الباخرة ، فى حى
نتوء كوبرى «القيادة» ومنيت النفس برحلة بحرية أخرى ، وإن لم أكن
مطمئناً .

ما كادت الباخرة تتحرك ، ولغظ المنقولين يرتفع ، يخطف الهواء
الصوت ويختفى ثم يعود الطنين ، حتى كان اهتزاز عايده متواتراً
ومندراً ، راحت ترتفع إلى أعلى كثيراً على قمة أمواج غاضبة وتغور إلى
أسفل ، وما تكاد تصل إلى القاع فيما يخيل إلى حتى يختطفها الموج
تعلو وتعلو ثم تنخسف .

انقلبت معدتى ، وجاءنى تشنج الغشيان فنهضت جرياً إلى السياج
وانحنيت بوجهى وقذفت بما فى جوفى ونزلت الباخرة وغارت معها

أحشائي ثم صعدت وصعدتُ نفسي معها إلى أعلى، بما فيها، وقذفت ما تبقى فيها مرة أخرى، ولطمني على وجهي مع الهواء رذاذ ما رميتُ به من معدتي، وهاجمتني رائحته الحمضية النفاذة.
وما من رحمة.

لا يكف ولا يتوقف تشنُّج الأحشاء وتقلُّصها وهي تطوح بما بقي فيها من عصارات ثقيلة لزجة.
ترنحتُ نازلاً إلى بطن الباخرة. فتحت مقصورة، أى مقصورة، وارتقيت على السرير المثبت بجدار المقصورة ولكن الهبوط والانخساف إلى الغور يقفوه على الفور صعوداً يشدُّ نياط القلب إلى أعلى فأقذف القىء الذى ليس فيه إلا خيط نزر لنزج.
لا رحمة.

ذُقتُ ما هو أقرب بالفعل إلى سكرات الموت.
نزل إلى لطفى بالفداء فى طبق ألومنيوم ما كدت أراه وأشم من على الباب رائحة الطبخ حتى تهوَّعت نفسي بقوة، وتشنَّجت أعضائي بعنف، وقذفت إلى الخارج بلا شيء إلا هذا التقلُّص المتصل فى دورة لا تكف ولا ترحم.

كيف انتقلت إلى قطار السويس ومتى هبط منه نزلاء هايكستب؟
كنت بحالٍ لا تتيح لى حتى أن أفتح عيني، ارتقيت على الكرسي الخشبي فى نوع من الموت البطيء المتحشرج. كيف دارت المسيرة دورتها العكسية من محطة سيدى جابر فى سيارة نقل عسكرية مفتوحة لتعود مرة أخرى إلى أبو قير؟ هل كان ذلك بالليل؟
لا أذكر من ذلك كله شيئاً.

كانت الرحلة قد استنفدت منى كلِّ عصارات الحياة، وأظننى كنت مغمض العينين منخزل الجوانح طيلة المسيرة لا أدرى بالضبط ماذا يحدث لى.

رقدت على سرير لأول مرة منذ شهور، وأظننى نمت نوماً عميقاً، بلا
أى نوع من طعام أو شراب. كانت حاجة جسمى الأولى والأساسية هى
الغياب عن الوعى بنفسه وبوجعه الممض الأكال فى قلب أحشائه.

قال لى لطفى بعد أن أفقت :

- كدت تضيع منا يا عم.

قلت : ماذا حدث ؟

قال : كنا نسندك ونحرك تقريباً معنا فى كل خطوة، وحتى حقيبتك
نصف المفترحة حملناها وإلا كنت تركتها على الباخرة أو فى القطار.
لم أقل شيئاً، عرفانى بالجميل ليس بحاجة إلى كلمات.

خيل إلى أن العنبر رقم ٧ أكثر عتمة وأضيق مما كان، على أنه كان
فى الواقع نصف خال. لم يعد هناك حمدى ولا عبد القادر ولا فريد ولا
شوارتز، أماكنهم فارغة، سرعان ما احتلها قلائل لا أعرفهم لم يمكثوا
طويلاً، فقد كانت قرارات الإفراج تترى تباعاً، خرج الإخوان المسلمون
والوفديون اليساريون والماركسيون واحداً بعد الآخر، جماعة بعد
جماعة، ولم يأت يوم إطلاق سراحى.

بعد أيام قلائل خرج شوقى ولطفى ووجدى، احتضنتهم والدموع
ملء عيني بلا خجل، وتركونى مع الثلاثى العتيد الذى ظل معى أياماً
أخرى : صابر وحسين ومحمود، ثم خرجوا هم أيضاً.

احتضنتهم وبكيت.

لم أرهم بعد ذلك قط.

كنت وحدى.

كنت فى العنبر الخاوى مع ثلاثة أربعة لا أعرفهم وكان فى العنبر ثم
جو من التوتر - يكاد يشبه العداء والحنق المكتوم. الوحشة كل صباح
تثقل على فلا يمكن أن أحتمل.

أشدُّ البطانية على وجهى، أكاتم بصوت الشيخ حتى لا يسمعنى

أحد، الدموع تنفجر وتتدفق على الرغم مني، لا لشيء إلا لأنني وحيد.
القهر ليس من الحبس، بل من الوحدة.

مازلت على حافة النوم حافة الموت عندما اجتأحني رعب أن الحياة قد
انقضت، من غير جدوى، ومن غير معنى. تنوء بي وطأة الوحشة، ها
قد مضى الجهاد الحسن والاستبسال أياً كانت حماقته - أو نبالته ربما؟ -
والرمي بالنفس في وجه الاستعداد للاستشهاد من أجل أشياء أياً كانت
تفاهتها وسخفها - أو سُمُوها ربما، وسحرها على كل حال - والخيبات،
والجبانات، والخذلان، والصمت، والتقاعس، والقسوات، والكدح
المتصل من أجل الحب، والرزق، وشهوات الروح. كلها انقضت، ولت،
وانحسرت.

أقوم منتفضاً، أوقف الموسيقى الكامنة في روحي، بلا جدوى وأتلهى
بطقوس الصباح، دون تلهية، يا فتاح يا عليم، اصطبحننا واصطبح الملك
لله..!

مازلت في الروح بقية من صلابة.

أجد نفسي في العنبر وحدي.. تركني كل الناس. إلى جانبي بدلتني
معلقة بمسمار على الحائط، تهتز، وعلى صندوق خشبي مقلوب أشياء
اليومية فقط: فرشاة الأسنان والمعجون، عدّة الحلاقة وكتبي التي
استنقذتها عبر الترحال الطويل، العنبر واسع وخاوٍ، ليس فيه إلا
سريري الحديدى الضيق وعليه المرتبة القش الهابطة في منتصفها.
اصطدام قدمي بالبلاط له صدى.

أفهم، بشكل ما، أن زملائي - من بقى منهم في المعتقل - مازالوا
هنا، في مكان ما، ولكنى أحس مع ذلك أنهم ليسوا هناك.

كنت بالليل - في الحلم ربما؟ - قد أحسست أنني وحدي الآن، تماماً.
وأعرف مع ذلك أن هناك حضوراً آخر، هل هي ذئاب، ضباع، كلاب
الصحراء؟ أسمع صوت خطاهم المسترقة، أشم رائحة الحيوانات البرية.

باب المعتقل مفتوح أمامي . لا أحد يعترض طريقى . أصل إلى الطريق
المتد بين غيطان الذرة والبطيخ وعلى حفافيه النخل السامق . والعمال
يشتغلون فى نصف الطريق بالطول ، النصف الثانى شكله مسخن
وطرى ، والأسفلت فيه لامع السواد ، ومعدات الرصف واقفة ، ضخمة
الهيكل ، حديدية الأذرع والبطون .

أراهم مشغولين عنى ، كلهم ، لا أحد يرانى .
أحس أننى هارب كأننى خرجت ، هكذا ، دون تصريح ، دون أمر
إفراج ، مع أن كل الإجراءات قد تمت بسلام ، مازلت سجيناً وليس حولى
إلا امتدادات الغيطان بلا نهاية على الجانبين .

أحلام الوصال خاوية ، فكم بالخرى بيد البعاد .

جاء الأتوبيس ، على نصف الطريق المسفلت القديم ، هل مكتوب عليه
بخط ردىء لا يكاد يقرأ : أبو قير - المنشية ؟ ، لونه الأخضر الباهت
صدئ تساقط طلاؤه فى بقع غير منتظمة بأن فيها الصفيح المغضن
المتقبض . الأتوبيس متهالك ولكنه شغال ، والمحرك له أزيز قوى عنيد .
عبء على كتفى أنا وحدى ، حرىتى ، فرحتها المكبوتة فى قلبى لا
يعرفها أحد .

لا مبالاة الناس ، والأشياء ، والعالم .
هل نزلت من أتوبيس أبو قير فى المنشية وأخذت الترام إلى راغب
باشا ؟

صعدت السلالم التى نزلت منها بالليل منذ ما يقرب من عامين مع
ضابط البوليس الشاب والمخبرين ، خيل إلى أنها معتمدة أكثر بكثير مما
أذكر .

السلم يعلو بين الحائط والسياج ، درجاته المتعاقبة ، لا تكاد قدماى

تلمسانها ولا أرى نهايته، وأنا أصعد ببطء. ولا شيء يوجد بعد في العالم كله إلا درجاته الصامتة مازالت عليها مخلفات اليوم الفائت، نفايات مختلفة من قشور الخضر والفاكهة القديمة وأعواد اللوخية وقصاصات الورق المتقطع وعفرة التراب، ضوء الظهر ينزل عليها كلها من السقف العالي، فيفضح عريها النيئ الذي ناله عفن قليل، أصعد أكاد ألا أكون منتظراً نهاية، درجة بعد درجة، بدون ملل، بدون دهشة، لا أكاد أستند في سرعتي إلى السياج المدور المكتنز بجسده الخشبي الناعم من طول مس الأيدي الطالعة النازلة، كعاهرة قديمة شبعت من حس الأصابع المبلولة.

الحائط يصعد إلى جانبي، بلا نهاية، معلقاً في تجربة متصلة لا يوجد فيها معنى الزمن. مازالت في البيت الذي خيل إلى أنني تركته بالأمس فقط، حتى في هذا الظهر العالي، أنفاس ثقيلة من النوم، خامدة فيها حرارة الفراش والأجساد المتقاربة الملففة في أغطيتها وملاءاتها المتراخية المهدلة، ومازال بالسلم ريح بطيء ينفذ إلى، من تحت الأبواب المسدودة، عن ثقلبات الغرف المغلقة وهوس اللحم والأحشاء والليل اللزج. وهذا الريح يتشتت قليلاً مختلطاً بعري النفايات نيماً، وصفائح الزبالة على أركان السلم تتخثر وتصعد نفسها المعجون، لكنني أصعد لغاية هذه الدرجات التي لا تنتهي أبداً، على هذا السلم المتمطى في نومة الظهر.

شد ما كنت مستمتعاً بهذا الضيق المأنوس الحار، أحس هذا السياج البيتي، السور الأليف، وهذا الحائط الذي طالما حلمت في وحشتي بأن أمسه، هو غير الأسوار الأخرى، أسوار الحبس والقهر الذي زال.

هل زال؟

انفتح بابها فجأة، كما حدث في الزمن القديم تماماً، مازالت كما هي، دولت التي قالت إنه، هو، غرامها الوحيد، خرجت إلى، وهي ترتدى نفس فستان النوم، قصيراً أحمر قانياً، لا يصل إلى سمّانتي

ساقها البيضاءوين، يفتح، فى سعة، عن كثر ثديها الحافلين باللحم
المستدير العريان، إذ يتلامسان فى تكور متجسد من المعجين الأبيض
الذى مازال يحتفظ بدفء الفراش، صبغت شفيتها - فى عز الظهر -
بأحمرها الفاتح، وفى شعرها الكثيف القصير لمعة سوداء متماسكة
متألقة، نظرت إلى - مثل زمان - بعين الأنثى التى لا تشبع، ذراعها
العاريتان تفلتان من ثوبها الأحمر كأنهما فخذان، فى طية اللحم
المنكشف المزنوق تحت الإبط وعدّ بلذة مشبعة دفيئة ريانة.

هى نفسها، دولت التى طالما راودت أخيلتى المتطائرة زمان، كانت
تنتظر نزولى عادةً، حتى تلقانى أول الصبح، كل يوم، وهى تتظاهر أنها
وقد كنت البيت، مبكرة، تُخرج الزبالة إلى السلم، فى هذا الميعاد
بالضبط، حتى لا تثير - جداً - شبهة حماتها، وسلفتها وأولادها
الكثيرين، وكنت أسمع عندئذ - إذ أمرّ بالباب وأتأنى قليلاً - زياط
الأولاد فى داخل الشقة المزدحمة وأصوات الاستعداد للنزول إلى
المدارس، وابور الجاز وغسيل الوجوه، وإعداد الفطار، لكنها كانت،
أيامها لا تكاد تفوتها مرة واحدة، تقريباً، بل تخرج إلى كل صباح، فى
ميعاد نزولى، يفتح عنها باب الشقة الخشبي المسود القدر، وتطلع منه،
محشوة برغبتها الدسمة.

قالت لى، بلهفة حارة صادقة وفرح حقيقى:

- جئت؟ الحمد لله على السلامة يا ميت أهلاً وسهلاً، نفسى أزغرد

والله.

ولم تتورع، وجدت نفسى بين ذراعيها، احتضنها بكل الشوق
المكبوت طويلاً إلى الجسد الأنثوى، وكلّ الحس الآن - الآن فقط - باننى
حرّاً، حرّاً.

رمقتى بنظرتها الثقيلة، من تحت جفنين مسودين قليلاً ينزلان على
عينين عميقتين والباب مفتوح، وفى الجو كله خطر. كأن الأخطار لا

تبارحني، حتى في الحرية .

قالت : أصعد الآن أسلم عليك .

وأقفلت الباب وراءها .

عندما فتحت لي هناء باب الشقة، شهقت وصاحت : - ماما -

ماما .. أخوى جَه ..

واحتضنتني وهي تقول بهمس، كأنما لنفسها :

- يا حبيبي يا خويا .

كانت أمي هي التي سارعت إليّ، هي التي أخذتني في حضنها

الطيب الحنون، أنشق منها رائحة ثوبها الأسود وعرقها الخفيف :

- يا ضنايا حمد الله على السلامة .. تعال يا خويا .. جَعَان؟ أعمل

لك حاجة تاكلها؟

ابتسمت لنفسي ابتسامة سرية صغيرة، الأم المصرية القبطية لا

تعرف تعبيراً عن الحب إلا بالطعام . ولكنني - بالطبع - سعدت بهذا

كله .

فما كانت أمي وأختي تحتضنانني حتى في زيارات المعتقل، ذلك ما

كانت تجرى عليه الأمور في تلك الفئة الوسطى الدنيا من عائلات

الأقباط . ثم حياءً أو تحفظاً أو لعله تحوّل على نفيس لا يُبتذل بالإفصاح

عنه، بل يبقى مكنوناً كاملاً، غير منتهك .

لم أسمع منهما ولا من أحد كلمة «حبيبي» إلا بعد ذلك بسنوات

طوال، لأول مرة، مفاجئة، من نعمتي - بالطبع - وفي الزمن الأخير .

في كل مرة لم تكن عندي كلمة شائعة مبدولة، بل طعنة مبرئة في

القلب العطشان .

عندما دخلت غرفتي وجدتها صغيرة مزدحمة وضيقة .

رأيت لأول مرة ربما أن الحيطان بها مواضع ناصلة تقشر طلاؤها

الأبيض المغبر القديم، ورأيت طبقة من التراب على خشب مكتبي وعلى

أغلقت كتب وروايات كأنني تركتها بالأمس .

وللمرة الأولى أحسست الدموع تترقرق في عيني، ولم أحبسها .
كأنما كنت أرى نفسي من الخارج، وكأنما حسيت الحرية يعني أنه يمكن
أن انفصل عن ذاتي، وأن أرقبها، بينما كنت في الحبس وثيق الصلة بها
بل غارقاً فيها، كأنما خشية أن أفقدها .

الآن لا خوف - ولو للحظة - من فقدان الحب أو فقدان النفس .

أم أن هذا الخوف - في العمق - دائماً هناك ؟

سوف يفتح أمامي طريق آخر، سوف أغرق نفسي في الصعلكة
حتى منتصف الليل وما بعده في الشوارع والسينمات والمقاهي . هل هو
سقوط الإيمان، للمرة الثانية، ترك في الحياة خواءً وفي الفم مرارة ؟
أم هو سقوط رموز، وسحابات من الريب ظلمت قامات أصدقاء
ورفقاء ولم تنقش عنهم ولم تحط عليهم الإذانة، بل تركت كل شيء
في مخيلة الظلال ؟

أم هو آلام وحشة الأيام الأخيرة ؟

كأنما ضربت بكل شيء عرض الحائط، تخليت عن كل يقين،
وغمرتني أمواج حب يائس وميئوس منه، من غير بارقة أمل ؟ إلا الفن يا
مولاي، أو كما قال ..!

سوف أبدأ شرب السجاير من قبيل الدلع، يعزم علي فتوح القفاص
بالكرافن إيه أو البول مول، ثم أشتريها، ثم أذخنها بنهم لا يشبع،
سوف أعب الويسكي البلاك ليبل والنوايت هورس دون ورع، وسوف
أصل ما انقطع مع أوديت وأخذها إلى سكارابيه والفرييسكادور
والرومانس، وإلى سينما فؤاد مرة أخرى كما كان يحدث زمان، وأخذ
يدها إلى في عتمة رومانسية أفلام الفرنسية، تحت سماء باريس،
وميديا، وچان كوكتو .

ولكني لن أعدها قط بشيء، على أنها بالتأكيد كانت بانتظار حدث

جلل من نوع أن أخطبها .
لم يكن قربي منها حياً .
سوف يكون حبي في موقع آخر ولن أشغل هذا الموقع إلا بعد
سنوات .

أما أوديت فقد انقطعت عنها .
وبعد مرور سنوات حافلة وعديدة، سوف ألقاها ، فجأة بالصدفة في
سوق الطويلة ، بين ضجيج بيروت ونداءاتها ، فجأة أجد نفسي أمام هذه
السيدة التي تجعد وجهها ، ضربته الأيام ، انحنت القامة المشوكة ،
الرشاقة أصبحت جفافاً ، لم يعد من أثر في ملابسها لصناعة الأناقة التي
كانت - ولعلها مازالت - تكسب منها عيشها ، حروف كتابة لم
تكتمل قط ، بالإبرة والخيط ومكنة سنجر التي طالما سمعت وشيئها
الرتيب في بيت المنشية الصغيرة ، وأنا أزور أنطوان ، وأتحدث مع عم
شكري .

عينها مسدّتان إلى ، بلا صوت ، بلا كلمة .
أقف ، جامداً غير قادر على حركة أو على صوت ، في زحمة الناس ،
صريع نظرة متهممة خرساء . مطروح بي في بيداء موحشة ، من ألم
الخدلان . وجدت العرق يتفصد بارداً ، وقلبي ينطبق .

هل ارتكبت إثم الخيانة الذي لا يغتفر ؟
بعد سنوات كثيرة أخرى سوف تزورني بنت أنطوان ، وأعرف أن
اسمها ولهلمينا ، وأعرف أن أنطوان قدمات في نوبة اكتئاب عميق لم
يكن فيه يأكل شيئاً أو يكلم أحداً .

وسوف أستخرج من بين أوراقى القديمة الكثيرة صورة لأنطوان
وأوديت وصديقي بدوي ، وصورة بورتريه لأوديت في عز ازدهار
شبابها ، رقيقة أنيقة ساهمة النظرة إلى أفق لم تكن تعرف أنه موحش

إلى ذلك الحدّ.

وسوف أعرف عنوان أوديت من بنت أخيها، وأجرؤ فأكتب لها بطاقة تهنئة على الكريسماس - يا عينك يا جبايرك يا أخي - كأن لم يحدث شيء. ولن أتلقى إجابة بالطبع.

إثم الخيانة قائم.

كان النهار الصيفي قد بدأ ينحسر، هبات رقيقة من هواء إسكندرية تتسلل إلى، تهبط من الحديقة التي امتلأت فجأة بزقزقة العصافير الملهوفة.

كنت في مرسوم صديقي أحمد قنديل، في أتيليه إسكندرية القديم في شارع فؤاد، عندما استرعاني شيء ما فنظرت إلى أعلى، وعبر النافذة التي تطل على الممر، رأيت، من تحت، ساقين أنثويتين رشيقتين في حذاء جلدي صغير ورقيق وواضح أنه غال.

خفق قلبي فقد عرفت أوديت، وإذا بها تنحني - من فوق - وتهبط بوجهها وصدرها المحبوك الملموم في التايير الصيفي الأنيق، وتبتسم لي من وراء القضبان الحديدية المستقيمة وتشور بيديها.

دقائق وإذا بها تطرق باب المرسوم، وعندما فتحت وجدتها قد هبطت السلمتين الأرضيتين المؤديتين إلى المرسوم، قبلتها على الخدّ قبله صداقة، لم أكد أمنع نفسي من أن ينزاح فمي قليلاً حتى يلامس - مجرد ملامسة - طرف شفتيها الرفيعتين اللتين لا يكاد الروج الغامق الخفيف يلون بشرتهما ولا يتجاوز حدودهما القاطعة.

دخلت المرسوم وحذاؤها يدق الأرض بكعبه العالي - لماذا تذكرت فجأة على أبو الليل ولماذا نسيته على الفور؟ - وألقت نظرة سريعة على اللوحات الزيتية التي تركها أحمد قنديل نصف مرسومة، ورصّات كتب الفن والشعر والمسرح باللغتين الإنجليزية والفرنسية، ثم هتفت كأنما هي اعترتها صدمة خفيفة من المفاجأة:

- الله .. دنت رامي على الكرسي البنطلون القطيفة الأسود المضلع
والقميص الأزرق الملون المشجر اللي اشتريتهم من أوريكو؟ ما غيرتش ليه؟
قلت: لسه داخل، مالحقتش ..

قالت: همّه دول اللي جبتهم بالتقسيط؟ كام القسط كل شهر؟
قلت: جنيه ونص .. غاليين، بيتخصموا م المرتب من خزنة الشركة،
قبل ما يوصلوا، أهم بيخسفوا المرتب، صحيح، لكن يستاهلوا، نزوة ما
قدرتش أقاومها ..

نظرت إلى بمعايشة وعيناها السوداوان تلمعان لمعة تنم عن أن فكرة
شقاوة قد ساورتها.

قالت: تسمع لى ..!

دارت، وقفت خلف حامل اللوحات فاختفى جسمها، والتاير
الصيفي، ولم يكن ظاهراً من ورائه إلا وجهها المبتسم وأعلى كتفيها
المدورتين في بضاضة مضبوطة لا هي ممثلة مدملجة ولا نحيفة ناتئة
العظام، وبحركة سريعة مدربة نفضت عنها جاكته التاير، وظهرت لى
حمالات الكومبين والسوتيان فوق الصدر الذي أخفاه حامل اللوحات،
وإذ رأيتها تتململ بخفة عرفت أنها تنضو عنها الجيبة، ومدت ذراعها،
أشرقت بشرة الذراع في ضوء المغرب المائل إلى لون ذهبي خافت،
واختطفت من على الكرسي قميصي المشجر وبنطلوني القطيفة،
وانحنيت ثم اعتدلت، أعطتني ظهرها وهي تولج ذراعها في أكمام
القميص، وخرجت من وراء الحاجز فإذا هي أخرى، وهي هي في الوقت
نفسه.

كان ردفاها على صغرها يملآن البنطلون القطيفة الذي بدا محبوباً
عليها وكان نسيج القميص الحريري الأزرق المشجر بزهوره الحمراء
والصفراء الصغيرة المتناثرة بمكر يبدو هفهافاً، واسعاً على الخصر ولكن
يمسك بصدرها الباهد غير الكبير مسكة وثيقة ومغوية.

قالت بشيء من الدلال والغنج : أنفع ؟ حلوين عليّ ؟
قلت : يا خبر .. المهم الحشوة اللي جوة مش اللي برّه ، طب بقولك
إيه ، خليك لابساهم على طول ، هدية مني لأجمل واحدة حتلبسهم ..
قالت بامتنان : مرسى مرسى .. أنا بس حاقعد بيهم معاك شوية كده ..
وعندما جلست أمامي ، في ضوء المغرب الذي بدأ الآن يحمّر ويتوهج
في آخر فتوته ، لم نشأ - باتفاق مضمّر بيننا - أن نضيء المصباح
الكهربائي القوي ، وكان الصمت الوجيه الذي ساد بيننا عامراً بموسيقى
تترقرق في الروح ، دون صوت خارجي ، ولكن بسطرة غلابة ومريحة .
فيم تكلمنا ؟

هل قرأت لها شيئاً من ترجمتي لأشعار بول إيلوار التي لم أكد أفرغ
منها عن نسخة فاخرة مطبوعة في سنة ١٩٤٤ على ورق سمّي خشن
وجميل ، في جنيف :

وكان السجن معلقاً يدعو للثناء

كان السجن ينام

كمغامرة في زورق لا يكاد يستقيم

السجن غابة صغيرة من الجزر

على حدود الملاءات الرطبة

من العرق من الخوف

وتحت القبة ذاب القلب المعتم

أشواق مكبوحة سوف ترد جماح عنانها ، قبضة تعقل محسوب .
ضربات أيام وليال لن تنقضي ، نبحث عن معناها .

وهانذا أردد ما أقول باستمرار :

« هل ذهبت بلا رجعة ، أشواق العدل والحرية وموسيقى الصبا

الجياشة بالأمل والقوة؟،

لا

هي - فيما أظن - هنا. أبدأ

هل انقطع هنا طريقُ النسر، أم لعله مازال ممتداً بلا نهاية؟
مهما كانت الخيانات والخذلان والنكوص، منى ومن الآخرين، كلها
موجعة الصمت، لكنها كلها مدحوضة بلألاء الصمود.
فإذا كانت الأشباح والأطياف، وكلها مناط حب لا يريم، تحيط بي،
حية، فعالة، فلماذا أردّها؟
وشوشتها وغمغمتها تصعد حولي وتهبط، تجلجل وتستقيم، لكنها
لا تذوب.

نويات حصي صلب مفروزة في لحم طريّ ينزّ بدم قليل.
طعناتها مبرئة.

ومهما ابتعد الأفق، فهأنذا أمدّ إليه يدي، أقبض على حافته الجارحة.

الزمالك

١٠ سبتمبر ٢٠٠٠

٥ نص من آخر أيام العام ١٧١٦

إدوار الخراط

- * إدوار الخراط (إدوار قلعة فلتس يوسف).
- * روائي، وقصاص، وشاعر. اشتغل بالنقد الأدبي والتشكيلي، وعمل بالترجمة، وكتب للإذاعة، وقام بتحرير عدة مطبوعات.
- * ولد في ١٦ مارس ١٩٢٦ في الإسكندرية لأب من أخميم في صعيد مصر وأم من الطرانة غرب دلتا النيل، وحصل على ليسانس الحقوق في ١٩٤٦ من جامعة الإسكندرية.
- * ٤٥ ش أحمد حشمت - الزمالك - القاهرة ١٩٢١١.
- عمل أثناء الدراسة، عقب وفاة والده في ١٩٤٣، في مخازن البحرية البريطانية في القبارى بالإسكندرية، ثم مترجماً ومحرراً بجريدة "البصير" في الإسكندرية، ثم موظفاً في البنك الأهلي بالإسكندرية حتى ١٩٤٨.
- شارك في الحركة الوطنية الثورية في الإسكندرية في ١٩٤٦.
- اعتقل في ١٥ مايو ١٩٤٨، سنتين، في معتقلات "أبو قير" و"الطور".
- ثم عمل في شركة التأمين الأهلية المصرية بالإسكندرية حتى ١٩٥٥، ثم مترجماً في السفارة الرومانية بالقاهرة حتى ١٩٥٩.
- تزوج في ١٩٥٧ وله ولدان وأربعة أحفاد.
- في ١٩٥٩ عمل بمنظمة تضامن الشعوب الأفريقية الآسيوية ثم في اتحاد الكتاب الأفريقيين الآسيويين حتى ١٩٨٣ وأشرف على تحرير عدة مطبوعات سياسية وثقافية لهما أبرزها «الشعر الأفريقي الآسيوي وقصص أفريقية آسيوية» بالعربية والإنجليزية والفرنسية، واستقال منهما بعد وصوله إلى منصب السكرتير العام المساعد في كلتا المنظمتين، وعمل بعض الوقت مستشاراً لرئيس منظمة تضامن الشعوب الأفريقية والآسيوية وللأمانة العامة لاتحاد الكتاب الأفريقيين الآسيويين، وهو الآن متفرغ للكتابة.
- سافر إلى معظم بلاد أفريقيا وآسيا وأوروبا وأمريكا، في رحلات عمل.
- شارك في إصدار وتحرير مجلة "لوتس" للأدب الأفريقي الآسيوي، ومجلة "جاليري ٦٨" الطليعية، وعدة مطبوعات لكل من منظمة التضامن الأفريقي الآسيوي واتحاد الكتاب الأفريقيين الآسيويين.

- قام بتحرير العدد الخاص بالأدب المصري الحديث (العدد ١٤) من مجلة «الكرمل» في ١٩٨٤.

- ترجم إلى العربية عن الإنجليزية والفرنسية سبعة عشر كتاباً منشوراً في القصة القصيرة والرواية والفلسفة والسياسة وعلم الاجتماع، كما ترجم للبرنامج الثاني في الإذاعة المصرية عشر مسرحيات طويلة واثنى عشرة مسرحية قصيرة وكتب له تسعة وعشرين برنامجاً إذاعياً طويلاً، وشارك في برامج وندوات ثقافية متعددة فيه. ونُشر له عدد كبير من الدراسات والمقالات والترجمات والأحاديث في المجلات الأدبية المصرية والعربية والأوروبية.

- دُعي أستاذاً زائراً في كلية سانت أنطوني بأوكسفورد خلال فصل الربيع عام ١٩٧٩ وألقى عدة محاضرات بالإنجليزية عن الأدب المصري الحديث في مدرسة الدراسات الشرقية والأفريقية (SOAS) جامعة لندن، ومركز الشرق الأوسط في أوكسفورد، وكلية القديس أنطوني، جامعة أوكسفورد في عامي ١٩٧٩ و١٩٨٧، وفي نادي الأمم المتحدة في نيويورك، ١٩٨٨، وفي ندوة دولية عن السيرة الذاتية، في كلية القديس يوحنا، جامعة أوكسفورد ١٩٩٨ وفي الملتقى الدولي للكتاب في لندن ١٩٩٩.

- شارك في ملتقى القصة القصيرة، فاس، المغرب عام ١٩٧٩، وفي ملتقى الرواية العربية، مكناس، عام ١٩٨٣، وفي مهرجان أصيلة، ١٩٩٨ في المغرب، وفي ندوة جامعة لندن عن آداب الشرق الأوسط في أبريل ١٩٨٧، وفي لقاء الروائيين الفرنسيين والعرب، باريس ١٩٨٨، وفي عدة مؤتمرات أدبية في رومانيا، والمريّة، ومولينا، وغرناطة، وطليلة (أسبانيا) وبودابست (المجر)، وهايدلبرج وفرانكفورت وفرانكفورت وبرلين (ألمانيا)، وتورنتو (كندا)، وفي كوبنهاغن (الدانمرك)، وقام بجولة أدبية واسعة في سويسرا وألمانيا في ١٩٩١، وقام بجولة أدبية في جامعات ييل، وبنسلفانيا، وبرنستون، وكولومبيا (نيويورك) في الولايات المتحدة الأمريكية، في ١٩٩٢. حضر في ١٩٩٥ في البرتغال وإيطاليا وإنجلترا في ١٩٩٨، ١٩٩٩ وشارك في ندوات عقدت في باريس، وفي إكس إن بروفانس وأجدون، نيليه وسانت إتيين في فرنسا، وأمستردام في هولندا. مثل مصر ضيفاً على المؤتمر التذكاري الخامس والستين لنادي القلم الدولي في هامبورج ١٩٨٦.

- شارك في ملتقى قابس (تونس) للرواية العربية في ١٩٩٢ حيث تقرر أن يكون

- ضيف شرفاً للملتقى، وكان موضع تكريم الملتقى في ديسمبر ١٩٩٣ .
- شارك في ملتقى القصة القصيرة في عمّان (الأردن) عام ١٩٩٣ وفي مهرجان المحبة باللاذقية (سوريا) في ١٩٩٦، وفي ندوة عن «التخيّل والبحر الأبيض المتوسط»، في بيروت عام ١٩٩٨ .
- وفي مارس ١٩٩٤ قام بجولة في خمس مدن إيطالية (تورينو، فلورنسه، ميلانو، روما، باري) وألقى فيها محاضرة عن «اسكندریتی، ملتقى الثقافات» .
- في أكتوبر ونوفمبر ١٩٩٦ ألقى سلسلة من المحاضرات في معهد العالم العربي بباريس عن «الاتجاهات الحديثة في فن القص العربي» . صدرت في كتاب عن دار الآداب، بيروت، ١٩٩٩، بعنوان «أصوات الحداثة» .
- في نوفمبر ١٩٩٦ ألقى في شيكاغو محاضرة عن «طقوس تحدى الموت عند المصريين» ، وفي نيويورك محاضرة بعنوان «تنويعات على موضوعات السيرة الذاتية» .
- في نوفمبر ١٩٩٨ رأس لجنة التحكيم الدولية في مهرجان باستيا لأفلام ثقافة البحر الأبيض المتوسط في كورسيكا .
- قرّرت روايته «رامة والتنين» في جامعة باريس .
- تُرجمت بعض قصصه القصيرة إلى اللغات الأجنبية، وترجمت روايته «ترايبها زعفران» للإنجليزية والفرنسية والإيطالية والألمانية والأسبانية والسويدية واختارتها الكاتبة الإنجليزية دوريس ليسنج «كتاب العام» عن ١٩٩٠ .
- تُرجمت روايته «حجارة بوبيلو» للفرنسية والإيطالية والقطالونية الإسبانية والألمانية والبولندية والإنجليزية في برنامج «ذاكرة البحر الأبيض المتوسط» .
- تُرجمت روايته «يابنات اسكندرية» إلى الإيطالية والإنجليزية والفرنسية .
- صدرت له مجموعة قصصية بعنوان «رقصة الأشواق»، مترجمة للفرنسية عام ١٩٩٧ .
- في عيد ميلاده السبعين أقام له المجلس الأعلى للثقافة في مصر احتفالية حافلة في الفترة من ١٩ إلى ٢٢ مارس ١٩٩٦، شارك فيها نحو أربعين مبدعاً وناقداً وباحثاً. صدر عنها «مغامر حتى النهاية» عن مركز الحضارة العربية، في ١٩٩٩ .
- حصل على جائزة الدولة للقصة عام ١٩٧٣ وعلى جائزة الصداقة الفرنسية العربية من فرنسا عام ١٩٩١، وعلى جائزة سلطان العويس في مجال القصة والرواية عام ١٩٩٤/١٩٩٥، وعلى جائزة كافافيس للدراسات اليونانية عام ١٩٩٨، وعلى جائزة نجيب محفوظ للرواية من الجامعة الأمريكية بالقاهرة عام ١٩٩٩ .
- حصل على جائزة الدولة التقديرية للآداب عام ٢٠٠٠ .

قصص وروايات

- ١- حيطان عالية : مجموعة قصص
القاهرة : الخراط ١٩٥٩
ط٢ (كاملة) بيروت : دار الآداب ١٩٩٠
ط٣ (كاملة مع مقدمة ودراسات) الاسكندرية :
دار المستقبل ١٩٩٥ .
- ٢- ساعات الكبرياء : مجموعة قصص
بيروت : دار الآداب ١٩٧٢
ط ٢ بيروت : دار الآداب ١٩٩٠
ط ٣ - القاهرة : مختارات لفضول ١٩٩٤
القاهرة : الخراط، ١٩٧٩ - طبعة محدودة
بيروت : المؤسسة العربية للدراسات والنشر ١٩٨٠
ط ٢ - بيروت : دار الآداب ١٩٩٢
ط ٣ - الإسكندرية : المستقبل ١٩٩٣ القاهرة :
- ٣- رامة والتنين : رواية
دار المستقبل العربي ١٩٨٣
ط ٢ - بيروت ، دار الآداب ١٩٩٢
القاهرة : دار شهدى ١٩٨٥
ط ٢ - بيروت ، دار الآداب ١٩٩٢
القاهرة : الهيئة العامة للكتاب ، (مختارات لفضول) ١٩٨٥
ط ٢ - بيروت ، دار الآداب ١٩٩٠
القاهرة : دار المستقبل العربي ١٩٨٦
ط ٢ - بيروت ، دار الآداب ١٩٩١
القاهرة : الهيئة العامة للكتاب ١٩٨٧
بيروت ، دار الآداب ١٩٩٠
ط٢ - القاهرة : دار الياس المصرية ١٩٩١
بيروت ، دار الآداب ١٩٩٠
ط٢ - القاهرة : الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٢
ط٣ ، القاهرة : مركز الحضارة العربية ١٩٩٦
القاهرة : دار شرقيات ١٩٩١
ط ٢ - بيروت ، دار الآداب ١٩٩٢
القاهرة : دار شرقيات ١٩٩٣
ط ٢ - بيروت ، دار الآداب ١٩٩٣
بيروت ، دار الآداب ١٩٩٣
بيروت ، دار الآداب ١٩٩٤
بيروت ، دار الآداب ١٩٩٥
- ٤- اختناقات المشق والصباح : قصص
- ٥- الزمن الآخر : رواية
- ٦- محطة السكة الحديد : رواية
- ٧- ترابها زعفران : نصوص اسكندرانية
- ٨- أضلاع الصحراء : رواية
- ٩- يابنات اسكندرية : رواية
- ١٠- مخلوقات الأشواق الطائرة : رواية
- ١١- أمواج الليالي : متتالية قصصية
- ١٢- حجارة بوبيللو : رواية
- ١٣- اختراقات الهوى والتهللكة : نزوات روائية
- ١٤- رققة الأحلام الملحمية : رواية
- ١٥- أبنية متطايرة : رواية

- ١٦- حريق الأخيلىة : رواية الإسكندرية ، دار المستقبل ١٩٩٤
- ١٧- اسكندريتى : كولاچ قصصى الإسكندرية ، دار المستقبل ١٩٩٤
- ١٨- يقين العطش : رواية القاهرة ، دار شرقيات ١٩٩٧
- ١٩- تباريح الوقائع والجنون : تنويحات روائية القاهرة ، مركز الحضارة العربية ١٩٩٨
- ٢٠- عمل نبيل (مختارات) القاهرة ، الهيئة العامة لقصور الثقافة ١٩٩٩
- ٢١- رقصة الأشواق (مختارات) وكالة الصحافة العربية ٢٠٠١
- ٢٢- صخور السماء : رواية القاهرة ، مركز الحضارة العربية ٢٠٠١
- ٢٣- طريق النسر ، رواية القاهرة ، مركز الحضارة العربية ٢٠٠٢
- ٢٤- مضارب الأهواء (قصص قصيرة) تحت الطبع
- ٢٥- الفجرية والمخزنجي تحت الطبع

شعر

- ٢٦- تأويلات : سبع قصائد إلى عدلى رزق الله القاهرة : المجلس الأعلى للثقافة ١٩٩٦
- ٢٧- لماذا؟ : مقاطع من قصيدة حب (١٩٥٥-١٩٩٥) القاهرة : دار شرقيات ١٩٩٦
- ٢٨- ضربتى أجنحة طائرك (قصائد إلى أحمد مرسى) القاهرة : دار حور ١٩٩٦
- ٢٩- طغيان سطوة الطوايا (قصائد الإصانة وقصائد أخرى) القاهرة : الهيئة العامة لقصور الثقافة (أصوات أدبية) ١٩٩٦
- ٣٠- صيحة وحيد القرن (قصائد إلى سامي علي) القاهرة : دار شرقيات ١٩٩٨
- ٣١- سبع صحابات ، دانتيللا السماء القاهرة ، مركز الحضارة العربية ٢٠٠٠

دراسات

- ٣٢- مختارات من القصة القصيرة فى السبعينات : مع دراسة القاهرة : مطبوعات القاهرة ١٩٨٢
- ٣٣- عدلى رزق الله : مائيات ٨٦ : دراسة القاهرة : عدلى رزق الله ١٩٨٦
- ٣٤- مائيات صغيرة : دراسة القاهرة ١٩٨٩
- ٣٥- أحمد مرسى : دراسة ومختارات شعرية القاهرة ١٩٩٠
- ٣٦- من الصمت إلى التمرد : دراسات فى الأدب العالمى القاهرة : كتابات نقدية ١٩٩٤
- ٣٧- "الحساسية الجديدة" : مقالات فى الظاهرة القصصية بيروت : دار الآداب ١٩٩٣
- ٣٨- "الكتابة عبر النوعية" : دراسة القاهرة : دار شرقيات ١٩٩٤
- ٣٩- "عصيان الحلم" : مختارات ودراسات فى الشعر أبو ظبى : المجمع الثقافى ١٩٩٥
- ٤٠- "أنشودة للكثافة" : فى الفن والثقافة القاهرة ، المستقبل العربى ١٩٩٥
- ٤١- مهاجمة المستحيل : سيرة ذاتية للكتابة دمشق ، دار المدى ١٩٩٦
- ٤٢- مراودة المستحيل : حوار مع الذات والآخرين عمان ، دار أزمنة ١٩٩٧
- ٤٣- أحمد مرسى شاعرٌ تشكيلى القاهرة ، الهيئة العامة لقصور الثقافة (نقوش) ١٩٩٧

- ٤٤- ما وراء الواقع : في الظاهرة اللاواقعية
 القاهرة، الهيئة العامة لقصور الثقافة (كتابات نقدية) ١٩٩٨
- ٤٥- أصوات الحدائق: اتجاهات حديثة في القص العربي
 بيروت ، دار الآداب ، ١٩٩٩
- ٤٦- شعر الحدائق في مصر : دراسات وتأويلات
 القاهرة ، الهيئة العامة لقصور الثقافة ٢٠٠٠
- ٤٧- المشهد القصصي في مصر
 القاهرة ، مركز الحضارة العربية ، ٢٠٠١
- ٤٨- القصة والحدائق .
 القاهرة ، مركز الحضارة العربية ، ٢٠٠١
- ٤٩- المسرح والأسطورة ، أساطير مسرحية
 تحت الطبع
- ٥٠- رمسيس يونان
 تحت الطبع

دراسات معدة للنشر،

- ٥١- "الحلم وزهرة المقاومة" : في الشعر
 ٥٢- "من العبث إلى الالتزام" في الأدب الوجودي
 ٥٣- عن قصيدة النثر
 ٥٤- مواجهة المستحيل: مقاطع أخرى من سيرة ذاتية
 ٥٥- إيماءات عن الفن التشكيلي
 ٥٦- أضواء أخرى على الحساسية الجديدة
 ٥٧- في الواقعية وما بعد الواقعية
 ٥٨- فجر المسرح
 ٥٩- في التراجم اليونانية

كتب مترجمة،

- ٦٠- الخطاب المفقود : مسرحية أ.ل. كارجالي
 القاهرة : الدار المصرية للكتاب ١٩٥٨ (نقد)
- ٦١- الحرب والسلام : ليو تولستوي
 القاهرة : الدار المصرية للكتاب ١٩٥٨ (نقد)
- ٦٢- الفجرية والفارس : قصص رومانية
 القاهرة: الشركة العربية للطباعة والنشر ١٩٥٨ (نقد)
- ٦٣- شهر العسل المر : قصص إيطالية
 القاهرة : الهيئة العامة للكتاب، (كتب ثقافية) ١٩٥٩ (نقد)
- ٦٤- فارالكو : رواية غينية، [ميل ميسيه
 ط٢ القاهرة: الهيئة العامة لقصور الثقافة (ترجمة) ١٩٩٩
- ٦٥- انجيون: مسرحية جان أنوي بالاشتراك مع ألفريد فرج
 القاهرة : الهيئة العامة للكتاب (الألف كتاب) ١٩٦٢ (نقد)
- ٦٦- مشروع الحياة . دراسة فرانسيس جانسون
 بيروت : دار الآداب ١٩٦٧ (نقد)
- ٦٧- ميديا : مسرحية جان أنوي
 القاهرة : الهيئة العامة للكتاب (مجلة المسرح) ١٩٦٨ (نقد)
- ٦٨- الوجه الآخر لأمريكا : دراسة ميكائيل هارلمجتون
 بيروت : دار الآداب ١٩٦٨ (نقد)
- ٦٩- تشريح جنّة الاستعمار : دراسة جي دي بوشير
 بيروت : دار الآداب ١٩٦٩ (نقد)
- ٧٠- الشوارع العذرية : رواية فاسكو براونيني
 ط٢- القاهرة: دار الياس المصرية ١٩٩١
- ٧١- نحو التحور : دراسة هربرت ماركوز
 بيروت : دار الآداب ١٩٧٢ (نقد)

- ٧٢- حوريات البحر : قصص أمريكية
القاهرة : دار الهلال ١٩٧٩ (نقد)
ط٢ - القاهرة : شرقيات ١٩٩٥
القاهرة : دار شهدى ١٩٨٥
أبو ظبي : اجمع الثقافى ١٩٩٥
القاهرة : الهيئة العامة لتصور الثقافة (ترجمة) ١٩٩٧
القاهرة : المجلس الأعلى للثقافة ١٩٩٩
- ٧٣- الإسلام والاستعمار : دراسة .
٧٤- الرؤى والأقنعة : قصص مترجمة
٧٥- السير المائدة : شعر پول إيلوار
٧٦- ثلاث زنبقات ووردة : قصص مترجمة

مسرحيات مترجمة للبرنامج الثانى ، الإذاعة المصرية

- ٧٧- النورس أنطون تشيكوف
٧٨- سوء التفاهم ألبير كامى
٧٩- الحصار ألبير كامى
٨٠- المجانين ألبير كامى
٨١- مسافر بلا متاع جان آنوى
٨٢- بيكيت جان آنوى
٨٣- عنقاء كثيرة الظهور كريستوفر فراى
٨٤- سوناتا الشبح أوجست مترندبرج
٨٥- انتهت الحرب ماكس فريش
٨٦- السلام أريستوفانىسى
٨٧- الخرب سول بيلو
٨٨- فى قلب السنين إريك بيركوفيتشى
٨٩- الأسلاف يتميزون غضباً كاتب ياسين (مسرح الجيب)
٩٠- الهولندى ليروا چونز
٩١- الأقرام هارولد بينتر
٩٢- الطريق النفسجى إلى حقل الخشخاش موريس ميلدون
٩٣- الولد الحالم يوجين أونيل
٩٤- بعد يوم واحد جوزيف كونراد
٩٥- كلمات على زجاج النافذة وليام بتلرپيتى
٩٦- البروفيسور تاران أرتير آدموف
٩٧- الملك والمتسولة جوفيند داس
٩٨- العذاب جوفيند داس

كتب عن المؤلف

- ١ - يقين الكتابة (حسنى حسن) القاهرة ، المجلس الأعلى للثقافة ١٩٩٦
- ٢ - جماليات التشظى (السيد فاروق) القاهرة ، دار شرقيات ١٩٩٦
- ٣ - ثنائيات إدوار الخراط النصية (أحمد خريس) عمان ، دار أزمنة ١٩٩٨
- ٤ - صوت صارخ فى الشوارع (عدة مؤلفين) القاهرة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٨
- ٥ - مغامر حتى النهاية (عدة مؤلفين) القاهرة ، مركز الحضارة العربية ٢٠٠٠
- ٦ - شعرية المكان فى الرواية الجديدة: الخطاب الروائى لإدوار الخراط نموذجاً الرياض ، مؤسسة اليمامة الصحفية ، كتاب الرياض ، ٢٠٠١

رسائل جامعية :

1. Thesis for M.A.
- Temporality and the Ontological Experience in the work of Virginia Wolf, "To the Lighthouse" and Edward Al-Kharrat's "Saffron City" : By Maggle H, Awadalla-May 1989 - American University of Cairo.
2. Mémoire pour maitrise
- Rama wa-t-Tennin, du myth à la mystique, avec traduction de "Mikhail et la Cygne" 1er chapitre de Rama wa-t-Tennin, par Catherine Farhi, Juin 1989, Université de Aix-en-Provence, sous la direction du Pr. Charles Vial, France.
- ٣ - السنة الجامعية ١٩٨٩ - ١٩٩٠ ، بحث لنيل شهادة استكمال الدروس الجامعية ، الجوهري أحمد ، الرباط - والمحكى الشعري في رواية رامة والتنين "جامعة محمد الخامس ، كلية الآداب والعلوم الإنسانية - تحت إشراف د. أحمد الياجوري .
- ٤ - السنة الجامعية ١٩٩٠ - ١٩٩١ ، بحث لنيل شهادة الدراسات التكميلية ، عبدالرحمن الناصر - الوصف في رواية يا بنات امكندرية، الرباط ، جامعة الخامس ، كلية العلوم الإنسانية - تحت إشراف د. أحمد الياجوري .
- ٥ - ملسنة الجامعية ١٩٩١ - ١٩٩٢ ، جزء من رسالة دكتوراه نالت مرتبة الشرف الأولى ، محمد مهدي غالي - «صور الشكل السيريالي (توظيف معطيات الحلم والأسطورة وتيار الوعي)» ، كلية الآداب ، جامعة بنها . (مقتطف من «تطور الشكل الفنى فى القصة المصرية القصيرة» .
- 6 - Thesis for B.A.
- Real and Dream-like in Edward Al-Kharrat's Alexandria, By Magda-Lia Bloos, June 1992. Bucharest University, Romania, under Dr. Mioara Roman supervision.
- 7 - Thesis for M.A.
- The stream of consciousness ; techniques in the modern novel: A compar-

ative study of James Joyce's Ulysses and Edwar Al-Kharrat's The Other Time, By NaglaaRoshdy Al-Hawary, 1992. Supervision Prof. Amin Al-Ayouti & Dr. al-Sayed Al-Bahrawi, The English Department.

٨ - السنة الجامعية ١٩٩٢ - ١٩٩٣ ، بحث لنيل شهادة الدراسات المعمقة :

شذآق بو شعيب - «تشخيص الخطاب الروائي من خلال الزمن الآخر وروامة والتنين» .
كلية الآداب والعلوم الإنسانية ، جامعة الإمام محمد الخامس ، الرباط - تحت إشراف
الدكتور محمد برادة .

٩ - السنة الجامعية ١٩٩٢ - ١٩٩٣ ، شهادة الكفاءة في البحث :

الصادق القاسمي ، «فن القص في رامة والتنين» - كلية الآداب والعلوم الإنسانية جامعة
الجنوب - صفاقس تحت إشراف د. محمد الباردي .

10Thesis for M.A.

- The Aesthetic Faith in the Self, An Inquiry into James Joyce "A Portrait" , J. P. Sartre "Les Mots" and Edwar al Kharrat "City of Saffron" , by Nashwa Al-kAssry, 1994 Supervision Dr. Ferial Gayoni, A.U.C.

١١ . السنة الجامعية ١٩٩٦ ، رسالة ماجستير في الأدب العربي :

أحمد خريس - "ثنائيات إدوار الخراط النصية ، دراسة في السردية وتحولات المعنى -
كلية الآداب - جامعة اليرموك (إربد الفيوم)
(إربد - الأردن) تحت إشراف د. خليل الشيخ . (صدرت في كتاب عن دار «أزمة»
عمان الأردن ١٩٩٨) .

12. Thesis for M.A.

- Alexandria and Forms of the Chronotope ; A study of Justine, Miramar and Ciy of Saffron, by Ghada El-Koussy, 1997, Superision Prof. Radwa Ashour, Cairen University. The English Departmet.

١٣ - السنة الجامعية ١٩٩٨ - ١٩٩٩ بحث لنيل شهادة الماجستير :

سمية الحسيني - «لغة القص في رامة والتنين» ، كلية الآداب ، جامعة عين شمس ، تحت
إشراف الدكتور صلاح فضل .

من قائمة الإصدارات الأدبية

رواية - قصة

عفاف السيد	سراذيب	إبراهيم عبد الجيد	ليلة العشق والدم
د. على فهمي خشيم	إيتارو	أحمد عمر شاهين	حمدان طليقا
عمار على حسن	حكايه شمردن	أحمد الشيخ	ملاعيب الأكلير
د. فاروق أوهان	جنية الشفق (نسر شامرية قصيرة جدا)	أحمد الفيتوري	سريب
د. فاروق أوهان	البحر يفرق	إندريس على	وقائع غرق السفينة
فاطمة يوسف العلى	وجهها وطن	إدوار الخراط	صغور السماء
فاطمة يوسف العلى	تاء مريوطة	إدوار الخراط	تباييح الوقائع والجنون
فيصل سليم التلاوي	لبلاذ طلعت أهلها	إدوار الخراط	مخلوقات الأشواق الطائرة
فيصل سليم التلاوي	يوميات عابر سبيل	أمين بكير	همس العاشقين
قاسم مسعد عليوة	وتر عشود	أمين بكير	حكايات من دقات التسوان
قاسم مسعد عليوة	خبرات انثوية	جمال النيطاني	دنا هتدي (من دقات التدوين ٧)
ليلي الشربيني	تراث زهت	جمال النيطاني	مطربة الغروب
محسن الرملى	الفتيات المبعثر	د. جمال التلاوي	تكرينات الدم والتراب / الخروج من النص
محمد جبريل	المنيا الشرقية	جمعة محمد جمعة	المتعبون
محمد جبريل	مد الموج	حسنى لبيب	دموع إيزيس
محمد القريبى عمران	حريم .. (أهزكم الله)	خيري عبد الجواد	يومية هروب
محمد قطب	الخروج إلى النبع	خيري عبد الجواد	العاشق والمعشوق
محمد الناصر	يا صم يا جمال	سعد الدين حسن	سيرة عزيزة الجسر
د. محمد نعيم شريف	الحياة الذروة	سعد القرش	شجرة الخلد
د. محمود دهموش	الحبيب المجنون	سعيد بكر	شهقة
د. محمود دهموش	فندق بدون نجوم	سيد الوكيل	أيام هند
محمود الوروارى	اختزال في المسافة والسفر	شوقى عبد الحميد	المتنوع من السفر
مدوح القديرى	العنين إلى النسيان	صالح سعد	أيام القرية الأخيرة
مدوح القديرى	الضباع وجبل الأوهام	عاشور الطويى	دردافين
مدوح القديرى	الهروب مع الوطن	د. عبد الرحيم صديق	الدميرة
ناجي الشكري	دم الأبنوس	د. عبد الرحيم صديق	الغرابية
ناصر الهلابي	ويصدا ماء النهر	عبد خال	ليس هناك ما يبيع
نبيل عبد الحميد	حافة الضردوس	عبد خال	لا أحد
نهلة السوسو	قمر أخضر	عز الدين الأسواتى	آخر ما قاله الشهر
وحيد الطويلة	خلف النهاية بقليل	د. عزة عزت	صغدي منح

بالإضافة إلى العديد من الكتب الأدبية ؛ رواية .. قصة .. شعر .. دراسات ونقد
وكتب متنوعة : سياسية ، قومية ، دينية ، معارف عامة ، تراث ، وأطفال .
خدمات إعلامية وثقافية

الآراء الواردة في الإصدارات لا تعبر بالضرورة عن آراء يتبناها المركز



أحداث الحركة الوطنية الثورية في إسكندرية
الأربعينيات وما يدور حولها من تأملات عن أقدار
الوطن والتساؤلات عن معنى العدالة والحقيقة وقيمة
الثورة وسقوط الشهداء ودلالات الاستشهاد عبر الأجيال
وحتى الآن. هل هناك معنى ميتافيزيقي، مقدس، يتجاوز
الإنسان في العمل الثوري؟

اندلاع المظاهرات العاشدة وتشكيلات اللجان
والحلق الثورية سواء كانت علنية أو سرية وتحالف
أو تضارب التيارات السياسية والفكرية
وحافلة بالأفكار والآمال والتضخم
مصائر الشخصيات وعلاقات
الفانتازيا في ضمير الكفاح الثوري
معتقدات أبو قبير وهاكستيب وال
الحلم بالحرية : طريق النسر.



9-7891
910